مذكرات

غلوب باشا

١٨٩٧ - ١٩٨٣



ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي



اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 17 / رجب / 1443 هـ
الموافق 12 / 02 / 2022 م

سرمد حاتم شكر السامرانـــي



مذكرات غلوب باشا

طبع بمطبعة حسام   رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٤٦٨ لسنة ١٩٨٨

منشورات الفجر
شارع السعدون ٨٨٨٥٤٨٨ - ٧١٩٨٤٢٢

مذكرات
غلوب باشا
١٨٩٧ - ١٩٨٣

ترجمة وتعليق
سليم طه التكريتي

الطبعة الاولى - بغداد ١٩٨٨

عنوان الكتاب الاصلي

THE CHANGING SCENCES OF LIFE ANAUTOBLOGRAPHY

SIR JOHN GLUBB
1983

كلمة المترجم

السرجون غلوب باشا من الشخصيات الانكليزية الفذة، التي ارتبط تأريخ حياتها بتأريخ الامة العربية، واحداثها الجسام، التي المت بها خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها وعلى الاخص الحوادث الاولى للمأساة الفلسطينية، واحتلال فلسطين من قبل اليهود الصهاينة، وطرد سكانها العرب منها، وتشريدهم في شتى آفاق العالم، واغتصاب اراضيهم وممتلكاتهم لتحقيق الحلم الصهيوني في إيجاد اسرائيل الكبرى، ولتكون قاعدة أساسية للمؤامرات الاستعمارية في قلب الوطن العربي، واداة تخويف واضعاف له على الدوام.

جاء غلوب الى العراق في سنة ١٩٢٠، وركز عمله في المنطقة الجنوبية من العراق، وفي الجزء الذي عرف قبلا باسم المنطقة المحايدة بين العراق والسعودية، وتولى مكافحة الغارات التي كانت القبائل النجدية تقوم بها ضد العراق بقصد اعمال السلب والنهب. حتى اذا ما انتهت مهمته، وتوطد الأمن في تلك المنطقة، استدعته الحكومة الأردنية في سنة ١٩٣٠ للعمل لديها، كيما يتولى ذات المهمة التي تولاها في العراق قبلا. ولقد امضى في الاردن ستاً وعشرين سنة، حيث انصرف بعد عودته الى بريطانيا، الى البحث في تأريخ الامة العربية، ابتداءً من ظهور الدعوة الاسلامية، وعصر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وعهود الخلفاء الراشدين التي اعقبتهُ. وحدوث الفتوحات العربية الكبرى وما اعقبها من قيام الخلافتين الاموية والعباسية. وكانت نواة بحوثه العربية هذه في الاصل، محاضرات القاها في الولايات المتحدة الامريكية وغيرها من الاقطار الغربية عن العرب وتاريخهم المجيد.وبالاضافة الى ذلك فقد سرد غلوب الحوادث التي وقعت في العالم العربي الحديث، والشؤون السياسية فيه والتي شهدها بنفسه مباشرة، وكان مسؤولاً عنها بصفة مباشرة، ولاسيما احداث فلسطين، مما لم يطلع العرب بعد على اقسام مهمة من تلك الاحداث.

ومع ان غلوب في كثير من مؤلفاته التي اخرجها في حياته، ومن بينها هذه المذكرات، كان قريباً من وجهة النظر العربية بالنسبة الى الحوادث المدرجة، إلا انه مع ذلك لم يستطع ان يتحرر من العقلية الاستعمارية التي تنظر الى الامور والحوادث نظرة مغايرة لما ينظره الشعب العربي، وغيره من الشعوب التي اكتوت بنار الاستعمار وفواجعه، ولذلك وجدنا لزاما علينا ان نعلق على هذا النوع من آرائه وتفسيراته، وعلى الاخص بعد ان وعت الامة العربية في مختلف اقطارها، أوضاعها الراهنة، والمت بالعوامل التي ماتزال تعيق تقدمها وتحررها الفكري والسياسي والاقتصادي الكامل، وما تشهده في غمرة هذه الاحداث الجسام، من تجاهل متعمد من لدن بعض الحكام العرب، لحقيقة الاوضاع الداخلية والخارجية معاً، وارتباطهم ببعض الحكومات الاجنبية التي كانت وماتزال سبباً بارزاً من أسباب نكبة العرب وتمزقهم في العصر الحديث، ذلك التمزق الذي دفع ببعض الحكام العرب الى ان يوفروا لاسرائيل واسيادها المستعمرين، مايريدونه من بغي وعدوان متواصل على الوطن العربي، مما كشفت عنه حوادث لبنان طيلة السنوات العشر الاخيرة التي احترق فيها حكام هذا البلد نتيجة الاندفاع وراء تنفيذ المخططات الاسرائيلية والاستعمارية بكل جلاء.

ان مذكرات غلوب تؤلف جزءاً مهماً من تأريخ العراق والامة العربية قاطبة، ولذلك فأن من الجدير بكل عربي ان يطلع عليها، ليعرف المزيد مما يجهله من تأريخه المعاصر، وليتفهم بعض الحوادث التي انطوى عليها هذا التأريخ، وذلك ما دفعنا الى اخراج هذه الترجمة، وهذا هو رائدنا في كل ما نكتب ونقول والله هو المستعان.

بغداد ١ / ١ / ١٩٨٦

سليم طه التكريتي

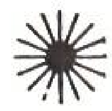
كلمة الناشرين

كتبت مؤسسة «كوارتيت بوكس» التي نشرت هذا الكتاب في سنة ١٩٨٣ على الحاشية اليسرى من الغلاف مايلي :-

ان كتاب «المظاهر المتغيرة للحياة» يؤلف السيرة الذاتية التي طال انتظارها، لواحد من أعظم الشخصيات العسكرية والسياسية البارزة في بريطانيا، هو «الفريق السرجون غلوب». فهو يصف فيه بثراء، تفاصيل خدمته في الحرب العالمية الأولى في فرنسا وبلجيكا، وارتباطه بالفيلق العربي (الاردني) في سنة ١٩٣٠، وقيادته لذلك الفيلق من سنة ١٩٣٨ الى سنة ١٩٥٦، وجولته، التي اعقبت ذلك، في الولايات المتحدة الامريكية لالقاء المحاضرات فيها.

يكتب السرجون غلوب عن الحوادث التي شهدها بنفسه، والتي كان مسؤولاً عنها بصفة مباشرة، بالنظر الى وضع الشؤون السياسية التي كانت تسود الشرق الاوسط في الوقت الحاضر، اضافة الى تجاربه وامانيه. على أن الشيء الذي يبرز اكثر تذكراً في هذا الكتاب هو غلوب باشا الرجل ذاته. «فلكي تستعرض العالم بحسن نية، عليك أن تخوض نهر الخليقة». ذلك ان الانعكاسات الشخصية للمؤلف، قد تشابكت كلها في رواية هذه القصة المثيرة التي تؤلف حياته.

والسرجون غلوب مؤلف للعديد من الكتب، من بينها كتاب «مختصر تأريخ الشعوب العربية»، وكتاب «الفتوحات العربية الكبرى» اللذين نشرتها هذه الدار[1].



---

١ - ترجم المرحوم خيري حماد كتاب «الفتوحات العربية الكبرى» وكذلك كتاب «الامبراطورية العربية». اما كتاب «جندي بين العرب» فقد اخرجت ترجمته «دار العلم للملايين في بيروت، بعنوان مغر ومخادع اذ قالت عنه انه «مذكرات الجنرال غلوب باشا قائد الجيش الاردني».

الفصل الاول

آباؤنا الذين انجبونا



آباؤنا الذين انجبونا

يحتمل أن يكون الاسم «غلوب» قد تحدر من اوائل البريطانيين، قبل غزوات الانكلوسكسون والدانماركيين[٢]. ذلك ان اول «غلوب» تم ذكره بصفة شخصية في التاريخ، هو «هنري غلوب» الذي كان عضواً في البرلمان عن مقاطعة «اوكتشامبتون» في سنة ١٣١٣ في عهد الملك أدورد الثاني.

اما جدّي الاكبر «توماس غلوب» فانه كان قد ولد في شهر نيسان سنة ١٧٢٥، واستقر في «نذر ستوي» في «سومرست». وقد تزوج في اليوم الثلاثين من شهر كانون الاول سنة ١٧٥٦ من «اليزابيت كننغهام». وقد قيل عن اسرة «كننغهام» هذه بانها كانت تتحدر من نسل الايرل الثامن لمقاطعة «غلنكيرن».

وفي سنة ١٧١٥، واذ رأى افراد هذه الاسرة ان عشيرتهم قد مزقت شر ممزق في معركة «شر فموير»، حين نشب القتال بسبب احد المدعين بالزعامة فانهم قد هربوا من اسكوتلندا، واختبأوا في «اوكتشامبتون» في «ديفون». كان «بيتر غودمان غلوب» نجلا لتوماس غلوب من «نذرستوي» وزوجته اليزابيت كننغهام وقد أصبح «بيتر» يعمل محامياً في «ليسكيرو» بمقاطعة (كورنوال) في سنة ١٧٨٣. وكان ولده الاكبر «بيتر غلوب» قد حذا حذوه في مزاولة مهنة المحاماة في «لسكيرد». اما ولده الثاني «جون ماتيو غلوب» فانه تخرج بمرتبة الشرف الثانية في كلية اكستر «بجامعة اكسفورد» في سنة ١٨١٤، واشتغل مدة سبع عشرة سنة

(٢) في بريطانيا.

كاهناً لكنيسة «سان بتروكس» في «دار تموث» بمقاطعة «ديفو نشاير» ومن ثم امضى مدة خمس وثلاثين سنة كاهنا لكنيسة «شرما نبري» في «سوسكس» حيث عين عميداً ريفياً، ومفتشاً اسقفياً للمدارس هناك.

وفي ذات الوقت كان افراد آخرون من اسرة غلوب قد تفرقوا في كل انحاء العالم. كان احدهم قد قتل في الهند، وقتل الآخر في حرب شبه الجزيرة، بينا قتل ثالث منهم في جنوبي افريقيا وغادر ولدا «جون ماتيو غلوب» ارياف كنيسة «شرما نبري» للالتحاق بالخدمة في شركة الهند الشرقية في سنة ١٨٤٧، وقد التحق الاكبر منهما، وهو «جون ماتيو» بفوج المشاة البنغالي الخفيف رقم ٣٨، لكنه مالبث ان نقل فيها بعد الى فوج زارعي الالغام.
ولقد اصيب بجروح شديدة في ستة مواضع من جسمه حين كان يقود فريقا من المهاجين في منطقة «فتشبور سكري».

وكان مثل ذلك الهجوم يعتبر على الدوام امتيازاً لتابع المهندس الاقدم، الذي يحضر ليقود ذلك الفريق المهاجم حتى الشاطىء الذي يحيط بسور المدينة وفي سنة ١٩٦٤ تزوج هذا الولد من «ماري سارة كاترين وتنغتون» واكمل خدمته في الهند، ليعود بعد ذلك الى انكلترا فيسكن في مقاطعة «بدفورد».

اما ابنه فقد اصبح قساً لكنيسة «جراردس كروس» وهي الكنيسة التي يقال عنها بان الشاعر «غراي»[٣] قد نظم فيها مرثيته الشهيرة المعنونة «مرثية في ساحة كنيسة ريفية».

---

(٣) توماس غراي THOMAS GRAY (١٧١٦ - ١٧٧١) من الشعراء الانكليز الذين سبقوا العصر الرومانسي-ولد بلندن في السادس والعشرين من ايلول ١٧١٦ اعتنت امه بتربيته وتعليمه فادخلته على حسابها في كلية «ايتون»، لانه كان الوحيد الذي عاش من بين اثني عشر طفلا تعرف غراي في الكلية الى عدد من الاصدقاء التحق بجامعة كمرج في سنة ١٧٣٤ فكان خاله احد في رفاقه تلك الجامعة تعلم الايطالية في الجامعة وقام في اذار ١٧٣٩ بجولة واسعة في القارة الاوربية وحل في باريس وتذوق الدرامات الفرنسية وحين عاد من جولته استقر في لندن مدة سنة ولقد اكتشف انذاك ان امه التي اعتنت بتربيته لم تكن مخلصة لابيه وقد اتهمت بانها دست السم له فقتلته. اصيب غراي ازاء هذه الاتهامات بخيبة امل فانقطع عن النظم لكن نتاجه دان في سنة ١٧٤٢ زاخرا برز اسم غراي لاول بعد نشر قصيدته «تحالف التربية مع الحكومة» وفي سنة ١٧٥٠ بعث الى صديقه وزميله «والبول» قصيدته التي اذاعت شهرته وهي المرثاة ELEGY التي يقول عنها «بول دوتان» مؤلف كتاب «الادب الانكليزي» (انها تبدأ بمقاطع تكاد تكون من شعر لامارتين... والحق ان غراي يمكن ان يعتبر ممهدا بل رائدا لانه رسم الخطوط الاولى لكبريات المواضيع الرومانسية» تولى امانة المتحف البريطاني في سنة ١٧٥٠. في بدء صيف ١٧٧١ احس بهبوط في صحته العامة حيث لفظ انفاسه في الثلاثين من تموز من تلك السنة.

وكان الولد الثاني من اولاد «جون ماتيو غلوب» «اولاندو مانلي غلوب» فهو جدي، وقد انضم الى فوج المشاة البنغـالي الخفيف رقم ٣٧ في الجيش الذي انشأته شركة الهند الشرقية، وكان يشغل منصب السكرتير للعقيد حاكم اقليم البنغال وشارك في الحرب الثانية ضد السيخ خلال السنـة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩، وترفع الى رتبة نقيب في هيأة اركان جيش البنغال وقد تزوج في اليوم الثاني من شهر تشرين الاول سنة ١٨٥٦ في كلكتا من «فرنسيس لتيتياكلي» ابنة النقيب «جون كلي» من شركة «نيوبارك» في «لونغفورد» وكان ذلك النقيب ضابطا في الفوج السابع والثمانين لحملة البنادق الارلنديين. وكان ابوه قد فقد ساقه في حرب شبه الجزيرة[٤] ثم عاد الى «بريتون» وهنا، واذ كان في احد الايام متكئاً على ساقه الخشبية شاهد عربة تحمل زوجا وزوجة تجري نحوه بمنتهى السرعة ومالبث الحوذي ان سقط من مقعده، وتقطعت الازمة، وكانت المرأة التي ارعبها الحادث تصرخ داخل العربة.ولم يلبث «كلي» الشيخ ان وثب الى الشارع والقى بنفسه على رأسي الحصانين اللذين يقودان العربة، فقلباه من ساقيه، لكنـه استطاع ان يمسك باللجام، وان يسحب الحصانين لما تميز به من ثقل الجسم ويقودهما الى احد المواقف، ومن ثم يسلمهما الى الحوذي الذي كان قد وصل آنذاك،ومن ثم خلع «كلي» قبعته للسيدة وعاد وهو يتعكز على ساقه الخشبية!

ونعود الى زواج فرنسيس لتتياكلي واورلندو مانلي غلوب في كلكتا سنة ١٨٥٦ فنقول ان «فاني»[٥] و «منلي غلوب» كانا قد وقعا في غرام شديد، وان الرسائل العديدة التي احتفظ بها تبرهن على ذلك بكل وضوح. ومـا ان مرت بضعـة اسابيع على خطوبتها حتى بدأ التمرد في الجيش البنغالي.

تقرر حل الفوج البنغالي المحلي رقم ٣٧. وفي اليوم الرابع من شهر حزيران سنة ١٨٥٧ كانت احدى الكتائب قد تم استعراضهـا في ساحـة الثكنة لهـذا الغرض، في الوقت الذي كانت فيه «فاني غلوب» تتفرج على ذلك الاستعراض من نافذة منزلهما.

---

(٤) حرب شبه الجزيرة PENINSULAR WAR المقصود بها «حرب القرم» بين روسيا وتركيا التي بدأت اولا في سنة ١٨٥٤ ولكن بريطانيا وفرنسا مالبثتا ان وقفتا الى جانب تركيا في الحرب فضرب الاسطول البريطاني ميناء سوا استبول، وشاركت القوات البريطانية في عدة معارك برية ضد الروس مما ادى الى اندحارهم وطلبهم الصلح الذي تحقق بالتوقيع على معاهدة باريس في الثلاثين من شهر اذار ١٨٥٦ وبموجب المعاهدة اصبح البحر الاسود محايدا، وفتحت ابوابه لتجارة الدول كلها، كما ابيحت الملاحة في نهر الدنوب لكل الدول واجبار سلطان تركيا على ادخال الاصلاحات في بلاده وعدم التفريق بين سكان تركيا من ناحية الجنس او الدين.

(٥) فاني FANNIEتصغير تحبيب للاسم فرنسيس وكان زوجها يذكرها في رسائله اليها باسم «فان FAN» ايضا.

وما ان امرت السرية من قبل «مانـلي غلوب» حتى وضعت اسلحتها عـلى الارض تنفيذاً لاوامره، ومن ثم بدأت المسيرة.اما السرايا الاخرى من الكتيبة فانها قد فتحت النار على ضباطها قبل ان يتم نزع السلاح منها.

اصبح «مانلي غلوب» بعد التمرد يعمل في صفة مساعد سكرتير عسكري لمقاطعة نورث ويست وسرعان مانشر اسمه بعد ذلك في الصحيفة الرسمية بعنوان «مدير شرطة منطقة ومن الدرجة الاولى في منطقة ميروث» وكان تحت امرته الف ومائتان من رجال الشرطة المشاة وثلثمائة من الخيالة.

وكانت هذه المنطقة من اوسع المناطق في مقاطعة «نورث ويست»، وقد القيت على عاتقه مهمة تنفيذ انظمة الشرطة حيث كانت الفوضى والاضطراب مايزالان يسودان هناك نتيجة التمرد الاخير.

ولقد شكرته الحكومة على خدماته في اعادة الامن الى نصابه. وارسلت نسخ من تلك الانظمة الى جميع مدراء الشرطة في المقاطعة، مصحوبة باوامر تقضي بتنفيذ تلك الانظمة في المناطق المختصة. ولغرض ضبط هذه المناصب المختلفة، دخل مانلي غلوب امتحانات ذات مستوى عال في اللغتين الفارسية والهندية وامتحانا آخر في القانون الانكليزي، بما في ذلك اختياره لتطبيق قانون العقوبات الهندي.

كانت الفترة التي اعقبت التمرد فترة شدة قوية لكل من «فاني» وزوجها مانلي غلوب.على انهما في ذلك الوقت كانا قد رزقا بطفلين، كان الاكبر منهما هو والدي. اودعت «فاني» مع طفليها في مكان امين،في ذات الوقت الذي كان فيه غلوب يعيش بعيداً عنهم، وهو يؤدي واجباته التي لاتنتهي ويبذل جهوده لاستعادة الامن والنظام.

١٢ ايار.

عزيزتي فان

سوف أبعث اليك بأسطر قلائل ليس إلا، كيما اخبرك بانني قد وصلت الى هنا بسلام، وعن الغرض من ذهابي الى «الله اباد» كانت الطريق الى مسافة حوالي ثلاثين ميلا، غير آمنة كثيراً! ولقد شعرت بالفرح حين وجدت نفسي خارج نطاق الخطر.لم يصادفنا أي تعرض،ولكن كان واضحاً من سلوك الناس

على الطريق بانهم كانوا يظنون بان المتمردين قد يظهرون في اية لحظة لقد كنت افكر كثيراً فيك يا مدللتي، وفي صغارنا، وفي البؤس الذي قد تتحملينه لـو حدث أي شيء لي.

اني مسرور جداً لأنك لم تأت معي ذلك لأن الحرارة بالغة الشدة، ولتدومي الى الابد أعزَّ زوجة.

حبيبك المشوق جدا
مانلي

بتارس ١٦ ايلول ١٨٥٩
عزيزتي فان

وصلت الى هنا مساء امس وكنت افكر فيك، وفي صغارنا الاعزاء باستمرار دوما خلال الطريق، حتى لقد أعددت بأن انذر نفسي واتصورك مريضة!! ومهما يكن فقد جسمت هذا الاحساس حين انبئت في المقر، بانه لم تصل اليّ أية رسالة ذلك لأنني استنتجت بأنه، اذا ماحدث أي شيء من هذا لك، فان السيـدة ستيفنسون سوف تبعث،على وجه التأكيد، ببرقية عن ذلك.

دعيني اعرف حالك وحال الاطفال،لاتجهدي نفسك كثيراً يامدللتي. ينبغي ان تحافظي بعناية على قوتك القليلة لانفاقها في «الله اباد» انني افتقدك كثيراً. في امان الله يافان اعتني بنفسك، قبّلي لي الصغار، ولاتسمحي الى «لـوي» بان ينسى كيف ينطق با. بابا!

زوجك المغرم جدا بك
منلي

غير ان مسيرة الحب المقدس لكل من فاني ومانلي لم يعد من المستطاع تحملها طويلا ففي شهر اب ١٨٦١ كا نا يعيشان في «مرث» ولكن «فاني» كانت تمكث غير بعيد، مع اصدقاء لكي تغير الجو للاطفال وفيها يلي ذكر لوفاة مانلي تضمنته رسالة كتبت بعد الحادث مباشرة، من قبل اخيه «جون ماتيو غلوب» الذي كان قد حضر وفاة اخيه.

«في ليلة الخامس والعشرين من شهر آب سنة ١٨٦١ تناول «رنبار» من كتيبته القديمة طعام العشاء مع مانلي.وما ان غادر المسكين مانلي المكان حالاً حتى قال

«ان جوفي ليس على مايرام هذه الليلة، لكنني سوف اتناول شيئاً من الزنجبيل، وان ذلك سوف يحسن من وضعي اقبل «رنبار» عند الصباح لكي يركب معه حين كان يتشكى مرة اخرى من انحراف صحته، ولـذلك ذهب الاثنان معاً الى الدكتور «كتكلف»، لكنهما وجداه خارجا وفي هذا الوقت ذهبا الى «كوربن» وطلبا منه حبة دواء كان «كوربن» قد انبأه بان هذا العارض ليس بذي اهمية وان الدواء الذي اعطاه اياه سوف يشفيه، واذ ذاك تناول «مانلي» الحبة وذهب الى الدائرة (كان هذا قد حدث في حوالي الساعة الثامنة). لم يستطع ان يبتلع الحبة، ولكنه بادر عمله في الدائرة وفي الساعة العاشرة احس بان حالته قد ازدادت سوءاً، فغادر الى بيته، واستلقى على سريره.

جاء «رنبار» اليه ليراه، في الساعة الحادية عشرة فوجده جد مريض،وهو في سريره. كان المرض الشديد قد انتابه عدة مرات، فبعث يطلب الدكتور «كتكلف» الذي قال عنه بانه مصاب بالكوليرا واخبر مانلي بذلك.سأل مانلي الطبيب عما اذا كان في خطر، فجاءه الرد «نعم!» فقال للطبيب «ابعث بطلب مجيء زوجتي ان كنت في خطر، ولكن لا تفزعها من دون داع!».

في حدود الساعة الثالثة عشرة بعد الظهر ظن الطبيب بان مانلي سوف يشفى، لكنه أبرق في تلك الساعة الى «فاني» يطلب قدومها. وبعد اربع ساعات تقريباً كان مريضا جداً الى درجة ان «اوجلفاي» من الفوج الثامن والاربعين قد انبأني بان «مانلي» لم يعرفه!

كان المرض شديداً الى درجة انه لم يقدر على الكلام، وكان يسأل عدة مرات اذا كانت زوجته قد اتت،وكان يتوسل الى الطبيب بانه في حالة وفاته ان يأخذها الى دار الرائد «فرث» والسيدة زوجته. كان يتحدث عن الموت بهدوء وبصفة مكثفة لكنه لم يكن ليخاف الموت قط. كان المسكين يعرف ان نهايته كانت قريبة وقد اطاع ماقدر له من دون ادنى شكوى.

يتفق جميع الذين كانوا قريبين منه بأنهم لم يشهدوا قبلا مثل تلك الروح والبدن يفترقان بهدوء. في حوالي منتصف الليل أصبحت عيناه ساكنتين لاتتحركان وبقي على هذه الحالة حتى الساعة الرابعة صباحاً ومن ثم انتقلت روحه الى بارئها.

نظم «اوجلفاي» الغرفة حين وصلت العزيزة «فاني» وما ان رأت القوم حتى عرفت النبأ السيء فهتفت «خذوني اليه»! فاخذوها وتركوها مع كل مابقي منه ذلك الانسان الذي احبته حبا حقاً. انكم تعرفونها، وفي مستطاعكم ان تتصوروا مدى حزنها فاذا كانت هناك قصة حب حقيقي ومخلص، فان حبها كان هو الوحيد.

هذه الرسالة المؤرخة في شهر آب سنة ١٨٦١، والتي اصفر لونها من القدم، ملقاة اليوم على منضدتي. كانت العزيزة «فاني» هي جدتي، وقد قدر لها ان تعيش أربعا واربعين سنة بعد وفاة «مانلي» الا انها بقيت ترتدي السواد، وتنوح طيلة ماتبقى من حياتها.

لقد ترك لها «مانلي» مايكفي من المال لكي تنفق على عودتها الى انكلترا مع اطفالها، ولذلك استقلت، وهي في الرابعة والعشرين من عمرها، احدى السفن التي أبحرت حول رأس الرجاء الصالح، حيث استغرقت تلك الرحلة عدة شهور وفي انكلترا سكنت مع حميها «جون ماتيو غلوب» قس كنيسة «شرما نبري» في سوسكس. انني مازلت اتذكرها جيدا بمحياها الحلو الرقيق، وبملابسها السود، لانها لم تتوف الا في سنة ١٩٠٤ حين كنت انا في ذلك الوقت في السابعة من عمري.

قد يظن بانه لم يكن من اللازم ان اورد هذا الوصف لوفاة جدي لاننا كلنا سوف نموت لكنني فعلت ذلك لان هذه القصة قد رويت بحيوية من قبل بعض الناس الذين حضروا تلك الوفاة كما انها تصور شيئاً ما من الطبيعة القلقة للحياة في الهند، في اواسط القرن التاسع عشر، وقبل اختراع الادوية واللقاحات الحديثة. ففي تلك الايام كان يمكن للشاب، وهو في ذروة قوته البدنية، ان يموت في اي وقت كان خلال اربع وعشرين ساعة. أستطيع ان اتذكر جيداً وباء الكوليرا الذي حصل في مدينة «الناصرية» من اداني العراق في سنة ١٩٢٢، ومواكب التشييع المتواصلة التي كانت تسير على الاقدام، وهي تحمل الجثث لدفنها، وفي اعقابها النساء المعولات[٦].

---

(٦) في المؤتمر الطبي العربي العاشر الذي انعقد ببغداد في ربيع سنة ١٩٣٨، وردت معلومات قيمة عن وافدات الهيضة في العراق خلال سني العشرينات والثلاثينات من القرن الحالي. وقد اتضح آنذاك ان العراق تعرض اثناء العهد الملكي الى ثلاث وافدات من الهيضة في الاعوام ١٩٢٣ و ١٩٢٧ و ١٩٣١، وان هذه الوافدات قد جامت

ذهب ابي اول الامر الى مدرسة تمهيدية في برايتون، ومن ثم حصل على زمالة دراسية في ولنغتون وفي سنة ١٨٧٥ تخرج الثالث في الكلية العسكرية الملكية في «وولوچ» وكان على الدوام يسعى الى أن يصبح عسكرياً، غير ان قلة من الضباط في تلك الايام، كانت تستطيع أن تعيش على المرتب الذي تتقاضاه.

واذ كانت امه الأرملة لاتستطيع ان تمده بالمعونة المالية، فقد التحق بكتيبة المهندسين، حيث كان في مقدور الضابط ان يعتمد في عيشه على مرتبه. كانت الشهادة الاولى التي منحت له، ملقاة على منضدتي في الوقت الذي ادوّن فيه هذه الكلمات. وقد جاء في تلك الشهادة «فكتوريا بحمد الله . . . . الى محبوبنا الموثوق به، فردريك مانلي غلوب . . . . وقد منحت في بلاطنا في سان جمس في اليوم السابع من شهر ايار سنة ١٨٧٨».

كان فردريك مانلي غلوب ملازماً اول فتياً، وغير معرض للمسرات، واعمال الطيش المعتادة كان راقصاً حاذقاً، ولقد عثرت بين اوراقه الاولى على وصفة طبية لتوتر الاعصاب، خلال التمثيليات الطوعية تقول «تناول قدحاً من شراب «البورت» خلف الستائر في بداية كل فصل تمثيلي!» غير ان هوايته الخمسة كانت

كلها عن طريق البحر، ومن الموانىء الايرانية، ذلك ان وافدة سنة ١٩٢٣ كانت من عبادان. وفي سنة ١٩٤٠ وفدت الهيضة مجددا على العراق، فاصابت عشرة الوية من الوية القطر، وادت الى وفاة الف ومائة شخص، ولم تسلم منها سوى الوية كركوك، والسليمانية، واربيل، والموصل.

جدول بالاصابات والوفيات

	سنة ١٩٢٣		سنة ١٩٢٧		سنة ١٩٣١	
	اصابة	وفاة	اصابة	وفاة	اصابة	وفاة
البصرة:	٦٠٥	٤٣٦	٤٢١	٣٣٠	١٢٤٩	٦٦٩
العمارة:	٢٠٠	١٢٢	٢٦١	٢٠٥	٣٩٩	٢٩٥
المنتفق:	١٧٨	١٢٢	٢٤٤	١٥١	٦٨٧	٤٩٧
الديوانية:	٥	١	١٢٢	٧٢	١٠٨	٧٤
الكوت:	٦٢	١٧	٦٦	٤٤	٢٠	١٤
الحلة:	١٩	١٢	١٠٥	٧١	-	-
كربلاء:	١٦٣	١١٥	٧٩	٦٠	-	-
بغداد:	١٧٥	١١٤	٨٠	٦٠	-	-
ديالى:	١٤٦	١٠٨	١	١	-	-
الدليم:	٢٥	١٥	١٠٠	٦٩	-	-

تتمثل في الخيل، وان يظل ممسكا بهذه الهواية طيلة حياته، والى حد اقل، في حياتي أنا.

كان ضئيل الجسم، خفيفا ورياضياً.وسرعان ماتعاظم الطلب عليه بان يكون هو الذي يمتطي الجواد المتسابق «جاكي» في اجتماعات السباق التي كانت الحامية تقيمها ولقد كانت الكؤوس والمداليات الفضية الوحيدة التي كانت على الدوام تزين خواني، هي التي كسبها ابي ببراعة في ركوب الخيل وكانت هذه الكؤوس والمداليات تدون تلك السباقات «اجتماع برمودا الربيعي لسنة ١٨٨٣ في سباق «البولو» ربحته مهرة المستر «غلوب». «اجتماع مالطا الربيعي لسنة ١٨٨٥ في سباق البولو، ربحه حصان المستر «غلوب» «المعروف باسم «ريل جام». «اجتماع مالطا الشتوي لسنة ١٨٨٥. سباق «هرول» ربحه حصان «غلوب» المسمى «تشري براندي» وعلى هذه الشاكلة تتحدث قائمة السباقات. ولما كان ابي يعيش على الراتب الذي يتقاضاه فانه لم يكن من اليسير عليه ان يقتني الخيول. وكانت رسائله الى امه مليء بمعلومات مطولة تتحدث كيف انه كان يقتني الخيول العرجاء او غير النافعة، او الخيول الطاعنة في السن، او اي حصان مصاب بصفة سيئة تجعله يباع بثمن بخس، بحيث يستطيع أبي ان يخصص وقته ومسرته للعناية به وتدريبه.

في سنة ١٨٨٧ نقل ابي من «الدرشوت» الى «كرا» اكبر حامية في ايرلندة في تلك الايام وهنا كان مستقبله (ومستقبلي انا لذات الشيء ايضاً) قد تقرر، لأنه التقى مع الآنسة «فرنسيس لتيا باغوت» ابنة «برنارد وليم باغوت» من «كرانكور». واذ كان «آل غلوب» من «السلتيين»[٧] البريطانيين، فان آل «باغوت» كانوا من «النور مانيين» الفاتحين[٨].

فقد كانت اسماء آل «باغوت» وبدلاتهم العسكرية تظهر في قائمة موقعة «ابي» حيث يزعم بانها كانت قائمة اسماء الفرسان الذين حملوا السلاح في معركة

---

(٧) السلت CELT شعب هندي جرماني استوطن اوربا الوسطى في عصور ماقبل التاريخ ثم تقدم نحو المناطق الغربية واندمج بالشعوب الرومانية ماتزال اثارة اللغوية باقية في ايرلندة وفي مقاطعة «بريتاني» في فرنسا ويطلق عليهم احيانا اسم السلتيون والكلتيون.

(٨) النورمان هم اهل الشمال الاوربي، وهو اسم اطلق على الغزاة الفايكونغ القادمين من بحار اسكندنافيا في القرن الثامن احتلوا شواطىء اوربا، ومارسوا التجارة البحرية وتوسطوا بين البزنطيين والغرب. استولى بعضهم على الحكم في مدن روسيا اهمها «كييف» اكتشفوا جزيرة «ايسلندا» في القرن التاسع مارسوا القرصنة البحرية وسكنوا مقاطعة نورماندي ومنها احتلوا جزر بريطانيا في سنة ١٠٦٦ اطلق عليهم مؤرخو العرب في الاندلس اسم «الاردمان».

«هاستنغن» غير ان «باغوت» الذي يزعم عنه بانه قد جاء مع الفاتح، قد تم تثبيته في كتاب «دموزداي» الذي يسجل منح الاراضي الى آل باغوت في «برامشال» بمقاطعة «ستافورد شاير» سنة ١٠٨٦ .

ولقد كان «هرفي فوتز باغوت». وربما هو ابن المحارب في هاستنغن، او حفيده، يعيش في سنة ١١٦٠، حين كان يتقاضى اجور ثلاثة فرسان لمقاطعة قديمة من سيده الاقطاعي «روبرت دي ستافورد» والذي كان قد تزوج ابنته ولاتزال الاسرة تعيش في «بلثفيلد» في كونتية ستافورد.

في سنة ١١٧٠ عبر «رتشارد دي كلير» الايرل الثاني لمقاطعة «بمبروك»ولقبه «سترونغ بو»[٩] الى ايرلندة ليساعد «درتموت مكمورو» ملك «لينستر» الذي طرد من ممتلكاته واذ كان «هنري» الثاني ملك بريطانيا هو سيد «سترونغ بو» «المرتبط له بالولاء، فقد منحه اراضي في كل من «ويكسفورد»، و «واترفورد»، و «دبلن».

اشترك احد افراد «باغوت» من ستافورد في جيش «سترونغ بو» واسس فرعا ارلندياً له. ولقد حصلت الاسرة على مركز معين لها في ايرلندا، لاننا نجد في سنة ١٤٩٥ سجل «باتريك باغوت» صاحب قلعة «باغوتستاون» في كونتية «لمريك». وبعد مائتي سنة كان «ادوار باغوت» يتولى منصب الشريف الاعلى لكونتية «كلدير» وكونتية الملك ذاته.

ولقد حطمت الاسرة نفسها تقريبا حين ساندت «شارل الاول» في الحرب الاهلية، وقضية اليعاقبة بعد نفي «جمس الثاني» وكان جدي لامي «برنارد وليم باغوت من بيت «كرانور» يعيش في كونتية «روس كمون».

كانت جدتي ام والدتي تدعى «جوزفين ايزابلا» ابنة المحترم «جوزيف هولمز» من بيت «كولغهر» في كونتية «سليغو». وفي بداية القرن التاسع عشر، اصبح «وليم هولمز» من الرجال البارزين في الحياة السياسية في لندن. فقد كان نائبا في البرلمان عن منطقة «هزلمير»، وتولى منصب مدير خزانة المعدات الحربية في حكومات كل من اللورد لفربول، و «دوق ولنغتون».

---

(٩) STROND BOW تعني «السهم القوي».

ولقد قيل عنه بانه كان يتسم بسمة فريدة، هي انه هو العضو الوحيد من حكومة «دوق ولنغتون» الذي تجرأ على ان يصوت ضد الرغبات لتي اعرب عنها رئيسه صراحة. فالواضح أن وليم هولمز كان رجلا صاحب شخصية كما انه كان في ذلك الوقت صديقا حميما للجنرال «بكتون».

وتذكر الروايات التقليدية، بان الجنرال «بكتون» في الليلة التي سبقت ابحاره الى بلجيكا، لكي يشارك في معركة «واترلو»[10]، كان قد تناول طعام العشاء في لندن مع «وليم هولمز» وبعد ان انتهى العشاء سمح لطفله الصغير بان يقبل، فيقدم احتراماته للضيف، ولكن الطفل حين كان يفعل ذلك، قلب قدحا من الشراب احمر اللون على البنطلون الابيض القصير الذي كان الجنرال بكتون يرتديه·كان ذلك اليوم، هو يوم البنطلون القصير المصنوع من جلد الغزال والذي استمر معه طيلة حياته، ويبدو بان الجنرال لم يكن ليحتفظ بزوج ثان من ذلك البنطلون معه. ومهما يكن الامر فانه قد ابحر في تلك الليلة وهكذا انطلق القائد الى الحرب ببنطلونه الذي سبق ان اصطبغ باللون الاحمر العميق ولربما كان ذلك اللون نذير شؤم. وبعد ايام قلائل قتل الجنرال بكتون في الوقت الذي كان يقود فيه فرقته في «واترلو» وقد اختلط دمه الزكي بلون الشراب الاحمر الذي لوث بنطلونه.

لقد اعتدت ان اقول لامي بتصنع، وانا طفل، ان خوذة «باغوت» كانت أشبه بعنزة تتطلع خلال حلقة منديل المائدة، وان كنت اتصور في الواقع، ذلك الوحش المسلح المقصود، ربما كان يعتزم ان يصبح واحداً من الغزلان وحين كبرت انتبهت بتكاسل في احد الايام، الى اسم «باغوت» في القصة التي كتبها «بروك»[11] بعنوان «طبقة النبلاء»[12] فوجدت بان الخوذ كانت توصف بانها نوع من تاج لرأس عنزة فضي كان يلبسه «دوق». واكثر من هذا ان اذرع المائدة كانت اشبه بدعائم لعنزتين فضيتين، ولذلك كنت مصيبا باطلاق كلمة «عنزة» فوق كل شيء.

---

(١٠) معركة واترلو: بلدة واترلو احدى مدن بلجيكا الى الجنوب من العاصمة بروكسل وفيها تحالف البريطانيون والبروسيون ضد نابليون في معركة وقعت في الثامن عشر من حزيران سنة ١٨١٥ بعد عودته من جبال الالب، وقد اندحر في هذه المعركة ولقد استفاد الفرنسيون من كثرة عددهم ومدفعيتهم فهاجموا البريطانيين الذين كان يقودهم «ولنغتون» وحاولوا ان يشقوا طريقهم الى بروكسل، ولكن المشاة البريطانية ردت الهجوم وتقدمت نحو الخطوط الفرنسية فاتصلت بالقوات البروسية التي كان يقودها المارشال بلوخر، واذ ذاك تفكك الجيش الفرنسي واجبر نابليون على ان يتنازل عن الحكم بعد اندحاره في تلك المعركة باربعة ايام ولايزال متحف الشمع في لندن يصور المعركة باصواتها وبرجالها.

(١١) BRUKE.

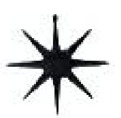
(١٢) PEERAGE.

ولكن لماذا استحوذ عليّ هذا الهاجس بالنسبة الى الماعز؟ صحيح انه كان يوجد الكثير من الماعز في «روس كمون»، ولكن بدلة الحرب هذه كان يشارك فيها بالتساوي كل فرع «ستافورد شاير». لقد قيل لي اصلا ان شخصا يدعى «ريتشارد باغوت» كان احد المحاربين الصليبيين الشجعان وقد جلب معه قطيعا من الماعز على ظهر الباخرة، حين عاد من فلسطين بحراً وكانت تلك هي الوسيلة المعتادة للحصول على اللبن واللحم الطازجين خلال الرحلة البحرية.ولكن ظهر ان تلك المعيز كانت من النوع الذي يتصف بالرقاب السود التي عثر عليها في وادي «الرون»[١٣] وكان يطلق عليها اسم «شوار زهال» والمعتقد ان «ريتشارد الثاني» (١٣٧٧ ـ ١٣٩٩) كان في احدى المرات قد امضى عيد الميلاد في «لتشفيلد» واستمتع بقنص طيب في بستان «باغوت»، وقد متع نفسه بذلك كثيراً الى درجة انه اهدى قطيعاً من هذه المعيز الى السر «باغوت». ومن المؤكد ان آل باغوت قد اطروا تلك الهبة الملكية، وانهم اختاروا رأس العنزة شعارا لهم، كما اختاروا «العنزتين» تدعيما لبدلاتهم الحربية.

ومازال معيز «باغوت» موجودة، وكان البعض يعنى بها من لدن «نقابة تربية الحيوانات النادرة الباقية على قيد الحياة».. وكانت هناك «جمعية عنزة باغوت» التي تعني بها ايضاً. وانا مدين بهذه التفصيلات الى «الليدي باغوت» نانسي التي مازال تعيش في بلثفيلد في مقاطعة ستار فورد شاير.

كانت النقطة المؤثرة دائما بالنسبة الى هذه الاسماء القديمة، من امثال «غلوب» و «كلي» و «باغوت» او ايا كان منهم، هي نظرتهم الساذجة.ذلك انهم كانوا يؤدون واجبهم حسبما يبدو ذلك لهم من دون شكوك او تفلسف. اما اليوم، فاننا على النقيض من ذلك، نطرح الاسئلة حول كل شيء ونجادل ونتناقش، ونتحدث وفي النهاية لاينفعل شيئاً.

فالروحية المكثفة تعد واحدة من الدلائل المؤكدة على الانحطاط والتفسخ، في الوقت الذي يكون فيه التكريس البسيط للواجب والخدمة سمة مميزة للعظمة القومية.



(١٣) وادي الرون RHON حول نهر الرون الذي ينبع من جبال سويسرا ويجري معظمه في اراضي فرنسا ويصب في البحر المتوسط، ويمر بمدينة «ليون» الفرنسية الشهيرة.

الفصل الثاني

الجزيرة البهيجة



الجزيرة البهيجة

تزوج ابي وامي بهدوء في «دبلن» في سنة ١٨٨٩، وغادرا بعد ذلك مباشرة، الى هونغ كونغ، حيث كان ابي قد نقل الى هناك. ولقد مكثا ثلاث سنوات في الشرق الاقصى، كما قاما بزيارة كل من الصين، واليابان ايضاً.

كانت شقيقتي «غواندا» قد ولدت في سنة ١٨٩٤ بعد عودة ابوي الى انكلترا. أما انا فقد ولدت في اليوم السادس عشر من شهر نيسان سنة ١٨٩٧ في مدينة برستون في لانكشاير، وان كان ابي، قد اوفد بعد ولادتي بثلاثة اسابيع، الى منطقة بورتسموث، ومن ثم انتقلنا الى نيتلي على شاطيء «سوتامبتون واتر».

ومع ذلك حدثت امور اكثر خطورة لم تكن معروفة لدي اثناء الحضانة. فقد اندلعت الحرب في جنوبي افريقيا. وقد استولى القلق على ابي، مخافة ان تنتهي الحرب قبل ان يذهب الى هناك. كان ابي آنذاك قد أمضى اثنتين وعشرين سنة في الجيش، ولم يشارك خلالها في الخدمة الفعلية النشطة. وفي شهر كانون الثاني سنة ١٨٩٩ كتب ابي الى امه يقول بانه لم يتسلم اية اوامر بعد، واضاف بمرارة يقول «افترض بانني سأظل على الدوام جنديا في وقت السلم ليس إلا»!

واخيراً جاءت الأوامر، فأبحر ابي في شهر شباط سنة ١٩٠٠، على ظهر الباخرة «غورخا» الى جنوبي افريقيا. ولكنه كان قد فرح حين تقرر ان يسافر،اذ ما تزال هنالك وسيلة مرعبة لالقاء كلمة الوداع، والفزع والجزع اللذين يحيطان بحياة زوجة

العسكري. وقد كتب ابي الى امه من (الدرشوت) حيث ذهب لجمع التعزيزات لجنوبي افريقيا، يقول

سيدتي العزيزة المسنة!

انك تعلمين كما اعتقد، مدى تحرقي دوما الى ممارسة الخدمة الفعلية ومع ان احداً في الواقع، قد لايعلم تماما عداي انا نفسي، فان هناك اسى عظيما يتحرك. فلقد كانت الزوجة الصغيرة جريئة، وقد خرجت هذا اليوم مستبشرة جهد المستطاع لكنني اعرف بانها كانت تحس وستظل تحس بان الامر مخيف، وانني لاشعر بالحزن للقلق الذي سوف تشعران به، هي وانت. ومن ثم اضاف الى ذلك بشكل مميز يقول - لانه كان جنديا متزمتا . . «آمل ان يكون قد ترك لي شيء من القتال هناك!».

ومع ان امي قد بدت له بانها خرجت مستبشرة بعد ان ودعته الا انها كتبت رسالة اقل تأكيداً الى امه تقول فيها «ان يعتاد الانسان في وقت ما، الألم الممض الذي يحدثه الفراق!». لقد كتبت تلك الرسالة من «نيتلي» واضافت تقول فيها «وعلى الاقل فانه قد نال ما كان يرغب فيه كثيراً. كان هذا مثل هذا اليوم الفاتن هنا، وكان البحر هادئا، آمل ان ذلك سوف يستمر طيلة هذا الاسبوع، وانني اريده ان يكون وقتا لطيفا له. اي عالم من الشوق يبدو عليه بانه قد تم نقله في تلك الرغبة! اريده ان يكون لطيفا له!».

كانت رسائل ابي من جنوبي افريقيا غالبا ما تستهوي القراءة. فقد كتب في اليوم السادس من شهر نيسان رسالة من مدينة «الاندسلاغيت»(١) يقول فيها «في صباح يوم امس كان استيقاظنا من النوم فظا!؛ فقد كان علينا ان نتناول طعام الفطور، حين كنت متوجها الى العرض، عندما حدث على حين غرة، نوع من زمجرة القنابل في الجو فوق الرؤوس تماما، وانطلقت سحابة من الغبار وسط معسكرنا فعلا. ذلك ان هؤلاء «البور»(٢) المباركين، قد نصبوا مدافعهم على التلال المحيطة، وتقدموا ليوفروا

---

(١) Elandslaagate

(٢) البور Boer هم الهولانديون الذين استعمروا افريقيا الجنوبية.
استوطنوا مدينة «الكاب» في القرن السابع عشر وانشأوا دولة الاورانج والترنسفال في الفترة ١٨٣٦ - ١٨٥٢، ثاروا مرات عديدة على الاحتلال الانكليزي لافريقيا الجنوبية، ولكنهم اندحروا بعد الحرب التي استمرت من سنة ١٨٩٨ حتى سنة ١٩٠٢ حيث تمت السيادة للانكليز هناك الى ما بعد الحرب العالمية الاولى. والبيض الذين يسكنون جنوبي افريقيا في الوقت الحاضر هم بقايا البور ومن انضم اليهم من انكليز وفرنسيين والمان وغيرهم.

لنا وقتا حيويا لفترة ما. خرجت برجالي الى احد المروج يقع في اسفل التلال، ومن ثم استطعت بمعونة ثلاثة او اربعة، من زارعي الالغام، ان اجعل بغالي تؤلف مايشبه الجسر، وذلك عمل لم يكن يسيراً. واخيراً استطعت انا وقلة من زارعي الالغام ان نوثق تلك البغال نوعاما. قتل احد البغال، وانفجرت اطلاقة ثانية تحت مجموعة البغال، لكنها لم تصب واحداً منها.

عهد الى ابي بقيادة سرية الميدان السابعة عشرة، التي فقدت آمرها في سبيون كوب[٣]. كانت السرية من فرقة «كلري» الثانية شمالي «ليدي سمث» وطبقا لما ذكرته صحيفة المهندسين، كان الانطباع الرئيس الذي كونه ابي عن احد تابعيه، يتعلق بالمهارة التي يستطيع بها ان يمارس عملية آمرية الفرقة الهائلة.

شاركت سرية الميدان السابعة عشرة في التقدم الـذي قام بـه «بلر»[٤] عبر عنق «نيوكاسل» و «لينغ». وفي الهجوم على ممر «بوثا» في اليوم الثامن من شهر حزيران سنة ١٩٠٠. ولقد امضي الاشهر الاربعة التالية، يشق طريقه ببطء حول الريف الذي يقع الى الشرق من«ستاندرتون» مع فيلق كليري المتحرك.

كان هناك الكثير من المناوشات مع «البور» غير ان مقاومتهم الرئيسة كانت قد حطمت في الواقع. كان البور يمارسون غارات من نمط «انحرف واهرب»، ولكن حماسة ابي العملية لاحدود لها. فلقد كتب من موقع عنق «لينغ» (كان يسمح لافراد الوحدات في حرب البور ان يذكروا في رسائلهم اسماء مواقعهم) يقول:-
«لم يتوفر لي القتال الذي يكفيني بعد! طبعا ان المرء يكون تحت وطأة انواع النيران. ولكن يندر جدا ان تتوفر فرصة القتال خلف انسان ما، الا في حالة ان تدع رفيقا آخر بوجه اطلاقة نحوك. ان رجل المشاة يؤدي عمله حقاً، ويتلقى كل الضربات. ان اعلى تهيج اصابني حتى الآن، هو انني كنت اخوض سباقاً جيدا للخيل، غير ان ذلك لم يكن هو السباق الذي اواجه فيه موقعا يتم الدفاع عنه جيداً. انه اختبار للاعصاب، وللاقدام ولكل الصفات التي تخلق رجلا!.

بعد ان امضى ابي سنة في جنوبي افريقيا، كان مهره قد سقطت قدمه، في حفرة، حين كان ينطلق خببا في احد المروج، فاستدار وانقلب رأساً على عقب. قام ابي بكسر

---

(٣) Spion (٤) Buller

(٥) Botha، وهذا هو الاسم الذي تسمى به عدد من حكام افريقيا الجنوبية ومن بينهم الحاكم الحالي.

كاحل المهر، ومن ثم اعاده الى انكلترا. لم تكن خدمة ابي العسكرية من دون جدوى. ذلك لان اسمه كان يذكر في المراسلات، كما انه كوفيء بوسام من طراز .D. S. O (نوط الخدمة المتميزة) كان هذا الوسام مؤرخاً في اليوم الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٠٢ وهو يحمل اسم الملك. لكنه وصل في مظروف، كانت الحكومة الاقتصادية، قد شطبت الضمير (ها) من عبارة «في خدمة جلالتها» واستبدلته بالضمير (ـه) في المخطوطة!

وما كاد ابي يعود من جنوبي افريقيا الى «نيتلي» حتى اوفد الى جزر «موريشيوس» وفي احد الايام وجدت نفسي وقد نقلت في زورق الى احدى السفن التي القت مراسيها في نهر «التيمس» كانت ذكرياتي عن تلك السنين مبهمة. لكنني اتذكر مع ذلك بانني قد اصبت بدوار البحر في خليج «بسكاي» ومن ثم احسست بدفء البحر المتوسط وزرقته.

وحين ابحرنا الى جزر موريشيوس، كانت جدتي من امي، وهي العزيزة (فان) ذاتها التي تركت في الهند بعد العصيان، قد توفيت. وما ازال اضع امامي على منضدتي رسالة الوداع التي بعثت بها الى ولدها الوحيد، ابي، والى زوجته واطفاله اي انا نفسي وشقيقتي

كاوفولد

اليوم الخامس من شهر اذار سنة ١٩٠٣

اعزائي!

لقد فرحت برسائلكم الغالية، منذ ان غادر تمونا، وكذلك سررت لان «اسنانكم وبلاعيمكم» قد بلغت نموها، وانك ياعزيزتي «فاني» قد حملت قبل ان تبدأ الرحلة.. انني جد واهنة القوى، لكنني اشعر بانني اكثر راحة للمرة الثانية، وانا انتظر الى ان يرى آلهي بان الوقت ملائم كي يعيدني الى الوطن! ما اعظم الرحمات التي لايمكن التحدث عنها والتي يسبغها علينا جميعا! آمل انكم سوف تحبون كتاب «المجموعات». انني احب الصلاة في الكنيسة كثيرا، ولذلك اتلوا عبارات الشكر الحلوة قبل ان اذهب الى النوم! وداعا وليبارك الله كل اعزائي.

امكم المحبة ف. ل. غلوب.

ولقد كنا،طيلة عهد طفولتي، الى ان دمر بيتنا في سنة ١٩١٤، نقيم صلاة الاسرة كل صباح، وكان ابي يقرأ عبارات الشكر التي كرست امه نفسها لها. ويحزنني ان اقول بان كنيسة انكلترا قد تخلت تماما عن كتاب الصلاة العامة، الذي بقي شعب انكلترا يكرسه حوالي ثلثمائة سنة تقريباً، والذي جبلنا عليه انا والمعاصرون لي.

ومع ان سفينتنا كانت مزودة بالآلات الا انها كانت مزودة تزويداً جيدا باللوازم الضرورية. وحين تكون الريح ملائمة يتم نشر القلوع بمساعدة المكائن. وصلنا في الوقت المناسب الى جزيرة سيلان [٦]. ولقد تجولنا في اسواق العاصمة «كولومبو». ومازلت اذكر حتى اليوم، تلك الابهة والفخفخة اللتين كان يتحلى بها بوابو الحوانيت في الاسواق، وهم يتعقبون آثارنا حاملين الاشياء التذكاريـة والحلى المصنـوعة من الخشب والعاج المحفورين. فلقد اشترينا قدم فيل مازلت استعمله بمثابة ثقالة حين ادرس!.

وفي جزيرة موريشيوس توفر لنا ما كان يبدو في نظري دارا وحديقة كبيرين، اذا ما قورن ببيتنا على الاقل في «نيتلي» وكنا نزرع الموز والاناناس وغيرهما. وكـان يحيط الريف الذي يمتد عدة اميال خارج سياج الحديقة، بحر شاسع من قصب السكر. كانت طفولتي كثيرة الاهتمام بالخيول ولذلك كان طبيعيا بان تتركز احدى ذكرياتي الحية، حول الجوادين اللذين كان ابي يحتفظ بهما فقد كان احدهما اشبه بالجوزة وهو يدعى «بريق الذهب» اما الثاني فهو مهر اسود صغير لممارسة لعبة البولو كان يسمى «نغر» وفي ايام العطلات كنا نذهب الى البحر، ونمكث في اكواخ صغيرة تقـوم في جزيرة صغيرة تدعى «مشوار روج» [٧] تقع عند الشاطيء تماما. كـان البحر تـاما، وكانت الجزيرة محاطة بصخور مرجانية كانت تتحطم عليها امواج المحيط الاطلسي. وكان في داخل الصخور متسع من الماء الهاديء الذي يشبه المرآة، دافيء ازرق اللون، ونقي الى درجة ان المرء يستطيع ان يميل على جانب الزورق ويحدق بنظره الى اسفل فاسفل خلال الماء البلوري، والمرجان الفاخر الذي كان ينمو بعيدا في الاعماق اشبه بحديقة غامضة. ليس في مستطاع اولئك الذين لم يشاهدوا سوى البحار الاوربية، ان يجدوا تفهما لكل هذه المياه الثابتة الاستوائية الجلية.

---

(٦) من المستعمرات القديمة الانكليزية وتعرف لدى الجغرافيين العرب باسم «سرنديب» وقد سميت بعد ان اعلن استقلالها باسم «شري لانكا» ويتألف سكانها من قوميتين «التاميل» و «السنهل» وقد ابتلاهما الله مثل القوميات الاخرى بالصراع الدموي القاتل.

(٧) Mouchoir Rouge وتعني بالفرنسية «المنديل الاحمر».

لقد ظهر حين وصلنا الى جزر موريشيوس، بانني قد تعودت بأن اسير وفمي مفتوح، وتلك عادة عزاها احد الاطباء الى الزائدة الأنفية. ففي احد الايام وضعت على كرسي في مخبأ ابوي، وقد جلس الطبيب امامي، وعلى حين غرة احدث مايشبه المدية والشوكة، وطلب إلي ان أفتح فمي، وقبل ان اعرف ما كان يجري، استأصل الزائدة من إنفي. ومن المؤكد ان الجراحين كانوا يعملون بمنتهى السرعة قبل الايام التي أصبح المخدر يستعمل فيها. واتذكر انني كنت اشعر بألم حاد جداً في بلعومي، ولكنني تلقيت تعويضاً عن ذلك ممثلاً في لعبة من حصان وعربة، وكان شعر الحصان أغبر، ناعماً، محبباً.

كانت موريسيوش جزيرة شهيرة استولى عليها الهولنديون في سنة ١٥٩٨ حين كانت برمتها غير مأهولة بالبشر، وقد أطلق عليها اسم قائدهم «موريس» من «ناساو»[٨]. غير ان الهولنديين هجروا الجزيرة في سنة ١٧١٠، ولكن شركة الهند الفرنسية الشرقية استولت عليها في سنة ١٧٢١، وانشأت العاصمة في «بور لويس» واستخدمتها قاعدة بحرية لمحاربة البريطانيين في الهند.

ولقد قامت بريطانيا باحتلال موريشيوس في سنة ١٨١٠، واعتبرتها مستعمرة للتاج البريطاني. ويعتمد اقتصاد الجزيرة بصفة كلية على قصب السكر. اما «بورلويس» فانه ميناء عميق الغور، وقاعدة بحرية مثالية لحماية الطريق البحري الحيوي من الخليج العربي، ومن الهند حول رأس الرجاء الصالح. وفي سنة ١٩٦٨، وحين كانت بريطانيا تقوم بعملية تجريد نفسها من ممتلكاتها، اعلنت موريشيوس دولة مستقلة. ومن المحتمل ان الجزيرة كانت اكثر أمناً ورخاء حين كانت مستعمرة بريطانية[٩].

---

(٨) Nassau

(٩) على الرغم من المدة الطويلة التي امضاها «غلوب» في العراق والاردن واطلاعه الواسع على حقائق الامور في البلاد العربية كلها، والمامه باماني الشعب العربي وغيره من الشعوب، فانه لم يستطع ان يتحرر من العقلية الاستعمارية، او النظرة الاستعمارية الى كثير من الامور. فنظرته الى ما كانت عليه مستعمرة موريشيوس من الامن والرخاء في ظل الاستعمار، لا تختلف في شيء ابدا عن نظرة اقرانه من الاستعماريين في العالم عامة وفي الغرب خاصة الذين مازالوا يزعمون بان الاستعمار هو الذي يوفر الامن والرخاء للبلد الذي ابتلي بذلك الاستعمار، متناسين عمداً بأن الاستعمار لايستطيع ان يحقق الامن الذي يريده لترويج مصالحه واستغلاله، الا عن طريق اقسى وسائل الضغط والاكراه فالامن المقصود هنا هو امن المستعمرين والمتعاونين معهم، والرخاء الذين يتحدثون عنه هو رخاء المستعمرين وعملائهم. اما الشعب فانه كان في ظل الاستعمار يعيش عيشة البهائم بل وادنى. وخير مثال صارخ لذلك يتأكد في وضع العراق قبل ان تعمد حكومة البعث الوطنية الى تأميم الثروة النفطية وانتزاعها من ايدي المستعمرين، واستغلال مواردها لخدمة الشعب وتحقيق رفاهه وتقدمه، مما لا يستطيع اي مكابر ان ينكره او يحط من قدره.

لم يكن هنالك اي سبب يتطلب جعل الجزيرة مستقلة سوى سبب واحد هو ان بريطانيا كانت في ذلك الوقت، في وضع تريد فيه ان تتخلى عن كل شيء. فليس في الجزيرة سكان محليون اصليون. ذلك انها لم تكن مأهولة قط حين احتلها الاوربيون لاول مرة. وكان سكانها من العمال الذين جيء بهم من افريقيا في اول الامر، ومن الهند فيما بعد. كما يوجد فيها أيضاً عدد من الصينيين. ولم تكن توجد في الجزيرة لغة محلية، وانما كان السكان يتحدثون بنوع من الرطانة الفرنسية المبسطة.

كنا، انا وشقيقتي، في احد الايام نطوف بزورقنا في جدول ماء على مقربة من دارنا. ولقد اثرنا بالتجذيف بعض الوحل. كانت بعض النسوة الموريشيسيات قد وصلن الى الماء لملء جرارهن، وقد تضايقن حين وجدن الماء عكرا. واذ اشرن الى الماء حتى هتفن بنا صارخات بالفرنسية «ان الماء مريض! ان الماء مريض!».

كانت توجد في موريشيوس ايضا عوائل فرنسية قديمة، كانت تقيم هناك منذ ان اصبحت الجزيرة مستعمرة فرنسية قبل سنة ١٨١٠. ولقد اعتدنا ان نلعب مع اطفال تلك العوائل. وكانت لدينا مربية فرنسية موريشيسية تدعى «انيس غالية». وبهذه الطريقة تعلمت الفرنسية لاول مرة. بعد ان امضينا ثلاث سنوات في موريشيوس عدنا الى انكلترا بطريق رأس الرجاء الصالح، ومازلت اتذكر الآن خليج «تيبل باي»[١٠]، والزيارة التي قمنا بها الى بيت «سيسيل رودس»[١١]، فقد كنت آنذاك في سن الثامنة من عمري. ولقد أبحرنا من ميناء «كيب» في سفينة «ارمادال كاسل»، التي بدت لي جداً كبيرة، والتي كانت تمتلكها شركة خطوط «يونيون كاسل» كانت هذه السفينة من السفن التجارية حقا، ولم تكن تستخدم الأشرعة والقلوع، مثلما فعلنا ذلك حين اجتزنا قناة السويس قبل ثلاث سنوات خلت. كان ربان السفينة رجلا متديناً، وقد اعتاد أن يؤلف مدرسة الاحد للاطفال في «قمرته»، وكان يعلمنا بان ننشد:

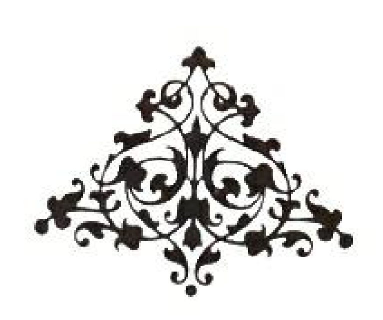
«احسب بركاتك، وسمها واحدة بعد الاخرى!»
«احسب بركاتك، وانظر ماقد فعل الله!»
«احسب بركاتك، وسمها واحدة بعد اخرى!»
«وانها لسوف تدهشك بما فعل الرب!»

---

(١٠) Table Bay
(١١) Cecil Rhods

بقيت اتذكر جوق الانشاد في الكنيسة طيلة حياتي، لكنني لم اطبقه على الدوام، ومن المؤكد انه كان من الأيسر لي بان اواصل الدمدمة بذلك. كنا نتقبل بركاتنا باستعداد، باعتبارها من الامور الجارية، وكان من النادر ان نتوقف لكي نعدها، ولو اننا كنا مستعدين لأن نعرب عن تذمرنا من اي شيء لايسرنا.

وعلى خلاف الملايين من الآخرين في هذا العالم الذي كانت الفاقة تمزقه، كان لدي ما يكفي من الطعام لأن اتناوله، ومن الملابس لأرتديه، كما كنت استطيع ان اتناول حماما ساخناً في كل يوم، وذلك رخاء لم يسمع به معظم البشر الذين يعيشون على سطح البحر، وهكذا كنت استطيع ان اواصل مسيرتي. ان قائمة البركات التي أنعم بها الله لا نهاية لها، اذا ما توقفت ذات مرة لكي اعدها!



الفصل الثالث

خيول وجنود!

خيول وجنود!

حين عدنا الى انكلترا استقر ابي في الدرشوت وقد استأجرنا منزلا، يدعى «لنكروف» في «الكسندر ارود» في منطقة «فارمبرو» وبعد اربعين سنة من ذلك التاريخ كنت قد عدت الى هناك فوجدت البيت القديم مايزال كما كان عليه قبلا، غير ان اسمه قد تغير!.

تم ارسالي بصفة طالب نهاري، الى مدرسة تبعد حوالي مائتي يرد خارج الطريق تديرها سيدة تدعى «مس لنتون» وكانت تقوم قبالة بيتنا بناية كبيرة اعتقد انها كانت تعود الى الدكتور «برنادوس» وتتركز ذكرياتي الاساسية عن «مس لنتون» في انها كانت تقف امام الصف وهي تعلمنا بأن نردد في قلوبنا قصيدة جورج هربرت[1] التي يقول فيها:

«علمني ياالهي ويا مالكي»
«بكل الاشياء التي تريد ان تراها»
«وان كل مافعله بكل شيء»
«هوان افعله في سبيلك!»
«ان خادما بهذه العبارة»
«يصنع العمل الشاق بصفة علوية»
«والذي يكنس غرفة في سبيل نواميسك»
«انما يفعل ذلك ليكون العمل جميلا!.....»

(١) جورج هربرت GEORGE HERBERT (١٥٩٣ - ١٦٣٣) ولد في قلعة مونتغمري في الثالث من نيسان ١٠٩٤ ارسل في سنة ١٦٠٥ الى مدرسة ويستمنستر، ثم دخل كلية «ترنتي» في جامعة اكسفورد. حصل على شهادة ماجستير في العلوم، ثم اصبح مساعدا في الكلية في سنة ١٦١٦، وقد ادى ذلك الى اتصاله بالملك جمس كان مغرما بالموسيقى، ويكتب الشعر باللغة اللاتينية. كان ينفق اسبوعين للوصول الى كاتدرائية سالسبوري، حتى اذا ماعاد من هناك حضر =

وحين تصل المس لنتون الى كلمة «العبارة» تنعش ذكرياتنا بان ترفع يدها الهزيلة واصابعها على حدة، وقد انحنت في صورة مخلب.
كنت آنذاك في الثامنة من عمري وكان ابي يعتقد بان ذلك هو الوقت الذي يجب ان أصبح فيه فارساً ولذلك بدأت امتطي صهوة جواد من نوع« شتلند» ومع ذلك فقد استطعت ان احقق على وجه التاكيد تقدما مرضياً لأنني رفعت فيما بعد الى جواد ابيض اللون يدعى «نوبي»كان لدى ابي مهر كميت يدعى «غى لاميس» اعتادأن يمتطيه. وكان ينطلق بعدتهليجرعربة من النوع الذي تجره الكلاب. وقد ذهب«نوبي»الى عربة المربية وبهذا توفرت لدينا عجلتان.

كان نوبي في الواقع كبيراً جداً بالنسبة لي لااستطيع ان أمسك به وحين كنت اخرج مع ابي راكبا يتصرف «نوبي» برزانة اثناء الطريق لكننا ما ان نستدير نحو البيت حتى يبدأ يعبث. فحينما نجري خبباً معا جنباً الى جنب سرعان ماينطلق راكضاً ويندفع في الطريق ويروح يثب سلسلة من الوثبات (ولقد وصفت امي هذه الحركة ذات مرة بان قالت عنه بانه ينطلق في وثبات عنيفة اشبه بالشيطان الذي يسير عبر (لاوج)فاذا انطلق ابي مسرعا وراء «نوبي» فلا بد ان يحدث سباق وحشي ولذلك يبدأ ابي يجري خببا ثم يهتف لي قائلا اجلس على الظهر أجلس على الظهر ذلك لان نوبي اخذ يرفس،ويثب، ليقذف بي من فوق رأسه!.

وفي بعض الأحيان يأخذني السائس«واتس»للخروج معه فيركب دراجته ثم يمسك بزمام «نوبي»ليكبح جماحه. وفي احد الايام كنا قد اجتزنا محطة «أش» عائدين الى «فارمبرو» حين جفل «نـوبي» فدخلت احـدى قدميـه الاماميتـين بين اسـلاك دراجة «واتس». كان واتس قد سقط عن دراجته طبعاً،اما نوبي فانه قد احس بعد لحظة من الهياج بان قدمه قد اصطيدت لكنه مالبث ان اطلق قدمه برفسة واندفع بمنتهى السرعة عبر الطريق. في هذه المرة لم تكن هناك من وثبات قد تؤدي الى السقوط لان نوبي كان قد احس بالخوف حقا!

وفي احدى المرات كنا نجري بمنتهى السرعة في طريق«فارمبرو»ولم يكن لدي اي امل في أن استطيع ايقاف نوبي ولذلك اظل مشدوداً الى ظهره واروح اهتف بأعلى صوتي «النجدة»!النجدة!، وكان من حسن حظي ان اقبل رجل نحونـا في الاتجاه المضاد فتحقق لديه ماسوف يقع ولذلك انتصب واقفاً في وسط الطريق ونشر ذراعيه افقيا، وحينئذ تم ايقاف «نوبي» الذي كان آنذاك مسرعا جداً في جريه. وقد يظن

= اجتماعا لمحبي الموسيقى، ثم يروح يعزف لهم، وينشدهم الاشعار. لم تنشر اي من قصائد هربرت في حياته، وحين كان على فراش الموت سلم الى صديقه «نكلوس فيرار» مخطوطته المعنونة المعبد قصائد مقدسة، وقد نشرت بعد وفاته مباشرة.

القارىء بانني قد غاليت في وصف هذا الحادث المألوف الذي يقع لصبي على ظهر جواد راكض ولكن ذلك الحادث كان قد ترك انطباعا عميقا في ذهني!.

اصبح ابي يتولى مهمة آمر الهندسة الملكية للاراضي. ذلك ان الدرشوت، كانت محاطة بساحة واسعة من الاراضي التي يمتلكها الجيش، وتستخدم للتدريب وللمناورات من لدى صنوف حملة البنادق كان ابي مسؤ ولا عن العناية بكل الاراضي والحفاظ عليها وصيانتها، ذلك لان معظمها مغطى بالاعشاب ومن الاراضي الاعتيادية التي تنبت فيها اشجار الخلنج والاناناس.

كان ينفق معظم وقته راكبا يجوس خلال الاراضي ويفتشها وكنت غالبا ما اذهب معه ممتطيا صهوة« نوبي»لقد كانت تلك الاراضي تؤلف ريفا نموذجيا لركوب الخيل، لانه لاتوجد فيها سياجات او عقبات ومع ذلك ففي احد الايام كنا نسير راكبين في فارمبروكومون حين استدرنا نحو البيت فشرع نوبي يثب في سلسلة من الوثبات فالقى بي من على ظهره. ومع انني امتطيته ثانية، وبقيت امتطيه حتى البيت، الاانني فعلت ذلك من دون أن اعرف ماذا كنت افعل. لقد اصبت بصدمة ومكثت من دون وعي لمدة ثماني واربعين ساعة!

كان بيتنا في فارمبرو لايبعد باكثر من نصف ميل عن خطوط مالبرو التي كان يحتلها لواء الحرس،لكم كنت اتذكر الحرس بكل جلاء عند عرض الكنيسه. كان هناك جوق من حملة الابواق والطبول يعزفون كما انني اتذكر الجو الذي كان يحيط بالمعسكرات.

على ان الحادث العسكري الكبير الذي اتذكره ولم تكن لدي انذاك سوى نصف فكرة عنه في سنة ١٩٠٨ هو حين استعرض الملك ادورد الثاني (٢) قواته في مقر قيادة الدرشوت في سهل لافايان.. كان ابي احد ضباط الاركان وقد اخذنا معه بصفة متفرجين وكان يرتدي البدلة العسكرية وقبعة مردودة الحافة مزينة بالريش

وما ان اقتربنا من الميدان سيرا على الاقدام حتى سقطت الريشة عن قبعة ابي كان يستحيل عليه ان يرتدي القبعة من دون الريشة، ولذلك اطبقنا حوله متكأكئين سوية فاخرجت امي دبوسا من مكان ما في ملابسها وثبتت به الريشه مرة اخرى، ونجحت في ذلك وبذلك تم انقاذ الموقف.

---

(٢) الملك ادورد الثاني (١٢٤٨ ـ ١٣٢٧) الابن الرابع للملك ادورد الاول. اراد فتح اسكتلندا، بعد توليه العرش، غير ان انصاره ثاروا عليه وانتهى به الامر الى سجنه في قلعة «كنلورث» وتسمية ولده ملكا باسم ادورد الثالث. ولكن ادورد الثاني هرب من السجن، ولكن تم القاء القبض عليه مرة اخرى وتم تعذيبه حتى انتهى به ذلك الى الموت.

لقد كان العرض المنظور اعظم مشهد عسكري كنت قد شهدته حتى ذلك الوقت وواحداً من المشاهد المماثلة التي لم يكن من المحتمل مشاهدتها ثانية في العالم. فقد مرت القوات فوجاً في اثر فوج يرتدي افرادها الملابس الحمراء وهم يمشون في خط واحد وفي اعقابهم حملة الرماح باعلامهم المثلثة المرفرفه وافراد كوكبة الحرس بصدرياتهم الحمر وخوذهم اللامعة وبطاريات المدافع التي تجرها الخيل بكامل ارديتها وسرايا زارعي الالغام واجواق كثيفة تعزف الحان المسيرة لكل وحدة حين كانت تمر امام قاعدة التحية حيث كان الملك على صهوة جواده يتلقى التحية.

حين غادرنا الدرشوت بعد ثلاث سنوات كنت قد اكتسبت صفتين هما ان أصبح عسكرياً بفؤادي طيلة بقية حياتي وان اغدو متحمسا شديدا للخيول. في تلك السنوات كانت لدى وزارة الحربية عادة غير سارة. فحينما يكمل احد الضباط خدمته العسكرية كأن يبلغ رتبة مقدم ولايودان ان يتقاعد، فانه كان يحال الى قائمة نصف الراتب كيما ينتظر فرصته لكي يرفع الى رتبة عقيد. فبالنسبة الى رجل له زوجة وولدان ويتم تخفيض مرتبه على حين غرة الى النصف لم يكن مثل هذا الاجراء بالامر الهين وعلى الاخص اذا كان مثل ابي الذي لم تكن لديه اية وسائل خاصة للعيش.

كانت سويسرا في تلك الايام من ارخص اقطار اوربا الغربية ولذلك انتقلنا الى فندق صغير في مدينة «فيفي»[٣] على بحيرة جنيف. ثم ارسالي بصفة تلميذ داخلي اسبوعيا الى مدرسة في فيفي تدعى «بلريف». كانت سويسرا آنذاك، كما هي عليه الآن محطا لاجتماع جميع الامم ولذلك كان الاولاد في مدرسة بلريف من قوميات عديدة، لان اكثريتهم كان يتم ارسالهم الى هناك لتعلم اللغة الفرنسية.

كان السويسريون قلة ولكن كان هناك البريطانيون والالمان والامريكان، والكنديون، وأحد المصريين، وآخرون غيرهم. ولكي يتأكد مدير المدرسة «المسيو سليغ» بان كل واحد من التلاميذ قد تعلم الفرنسية فانه وضع نظاما للتكريم. ففي كل صباح وبعد التجمع واداء الصلاة كان يفتح سجلا واسعاً على منضدته ويشرع يلقي على كل صبي بالفرنسية ذات السؤال «غلوب! هل تتكلم الفرنسية؟[٤]» ولهذا كنا اكثر وعيا ونستطيع ان نجيب دوما اجابة صحيحة بقولنا (اجل ايها السيد![٥]) على اننا كنا نعترف على الدوام باقل خرق لقواعد الآداب فقد نقول «اجل سيدي! » عدا اني كنت اقول وقت تناول الغداء الى ارمسترونغ «لاتكن حمارا بليداً!».

---

(٣) VEVY

(٤) العبارة بالفرنسية هي. GLUBB AVEZVOS PARLE FRACAIS?

(٥) الجواب بالفرنسية OVI MONSIEV

كانت اعظم رياضة في مدرسة بلريف هي التجذيف في البحيرة والذي كنا نؤديه بصفة حرفية الى درجة. انه كانت لدينا زوارق مجهزة بكراسي منزلقة•وكنا نمضي عطلات الصيف في مدينة «بوينجن» على بحيرة «ديناز»بالقرب من انترلاكن،[٦] ونصعد الى(لوتربرنن[٧] ومورين[٨] حيث نرى من هناك منظر الجبال المغطاة بالثلوج من امثال «ايجر، و«مونك» و «جنغفراو» تلك المشاهد التي بقيت محفورة في ذاكرتي حتى هذا اليوم ففي تلك الايام كان يستحيل الوصول الى قمم الجبال المكللة بالثلوج بالقطار مثلما هو عليه الامر في الوقت الحاضر.

كنا نمضي عطلات عيد الميلاد في «بيرنزا وبرلاند»[٩] بقصد التزحلق على الثلوج. في تلك الايام الممعنة في القدم لم تكن الالعاب الرياضية ولاالتسليات قد غدت ذات صبغة خاصة مثلما هي عليه اليوم. فقد كنا نأخذ غداءنا معنا•ونستعمل احذية التزحلق•ونمضي نجري خلال مناظر اشبه بالمعجزات من غابات الاناناس وفي مملكة مغردة حيث كان كل غصن وكل تويج مكفنا بالثلج وهو يتلألأ في رابعة النهار!.
وبعد ان امضينا سنة ونصف السنة في سويسرا عين ابي آمرا للمهندسين في القيادة الشمالية فانتقلنا الى مدينة يورك حيث هيأنا لنا بيتا في «مونت فيل»[١١] يطل على حلبات السباق وعلى بلدة نافسماير[١٢].

كانت منطقة «يوركشاير» كونتية كبرى للخيول وكان ابي قد اشترى لي جوادا عربيا ادهم اللون يدعى جمبو كان يقفز اشبه بالايل كنت خلال ايام العطلات امتطي جوادي لوحدي كل صباح منذ طعام الفطور الى ان يحل طعام الغداء. ذلك ان ركوب الخيل كان يمثل هوايتي الملىء بالحماسة حيث كان لي عدد قليل من الاصدقاء

اماقي ايام الشتاء فكان ابي ياخذني معه للقنص في «يورك» وفي «اينستي» وبراهام مور•لقد كانت تلك المناطق تؤلف ريفا جميلا جداً للقفز، مزوداً بسياجات معلقة ومن دون اسلاك•ولقد اعتاد جمبو ان يقفز قفزات كبيرة الى درجة انني لااستطيع ان امكث على ظهره وطبقا لذلك ابتدع ابي اداة يمكن بها ربط الاعنة التي امسك بها سوية عن طريق طوق اضعه تحت صدر جوادي،وكانت هذه العملية تحفظ ساقي في الموضع وتساعد في الجلوس فوق اكبر سياج.

---

(٦) INTERLAKE

(٧) LAVTER BRVNNEN

(٨) MVRREN

(٩) OBERLAND

(١٠) BERNESE

(١٠) الملاحظ ان اسماء كل هذه المواقع، المانية الاصل.

(١١) MOVNT

(١٢) KNAVESMIRE

في اليوم الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩١١ اقام بعض سكان «يورك» و «انيستي» مباريات قنص جد سريعة انتهت بمصرع الثعلب الذي كانوا يطاردونه في نقطة «بلاثورب» [١٣] كنت انا وحصاني «جمبو» قد شهدنا مصرع الثعلب . وكان احد الصيادين قد رشق وجهي ، وهو في لحظة من الحماسة ، ببعض من دم الثعلب القتيل، ومن ثم اعطاني قناع الثعلب ورأسه ، الذي مايزال معلقاً حتى الآن في مدخل صالة بيتنا .

في الاوقات الحاضرة يسمع الشيء الكثير عن القسوة في صيد الثعالب ومع ذلك فان الحقيقة الباقية هي ان الثعالب وحوش مفترسة ، تفترس الفراخ والحملان الصغيرة، والتي تنبغي السيطرة على اعدادها . لقد سمعت خصوم قنص الثعالب يردون على ذلك بانه ينبغي ضبط اعداد الثعالب عن طريق قتلها بالغاز السام في الاماكن التي توجد فيها! . فلو ان استفتاءاً كان قد اجري بين الثعالب ذاتها ، فانني لا اشك في ان معظمها سوف يصوت بان تكون ميتته بالقنص الاعتيادي بدلاً من القضاء عليها بالغاز السام . ووفقاً لما ذكره اللورد «ماكولي» كان «الطهريون» [١٤] قد حظروا مطاردة الدببة وقتلها، ليس لان ذلك يسبب الالم للدب بل لان العملية توفر المسرة للناس ! . ولربما كان خصوم صيد الثعالب قد الهموا بذات الفكرة ليس بالشفقة على الثعالب وانما لكراهيتهم للتقليد القديم الذي درج عليه رجال البلد الذين اشتركوا ذات مرة فيه .

لم اكن شخصيا اهتم كثيراً بقنص الثعالب، غير انني كنت في خضم ثورة من العدو السريع عبر الريف. كان شهر كانون الثاني سنة ١٩١٤ ، يمثل آخر وقت خرجت فيه للصيد غير ان ذكرى تلك القنصات القديمة بقيت ترافقني طيلة حياتي. وتعويضاً عن بهجة شبابي بالقنص قد اضيف الى ذلك بانني لم اقتل طيلة حياتي لاحيواناً ولاطائراً .
ولربما ينبغي الحكم على روحية القنص لدى المرء في ضوء الاوضاع التي كانت قائمة حتى الى ماقبل سبعين سنة مضت [١٥] ، وقبل ان يصبح استعمال السيارات عاما فقد كانت الخيل في تلك الايام تؤلف الوسائل الوحيدة المنقل على حدة من سكك الحديد. فلكي يكون الشاب فارسا ماهراً كان أعلى مطمح لديه هو ان ينطلق في العدو بجواده، كما كان ذلك ايضا يعد تكملة ضرورية لكل الجيوش .

كان العدو السريع عبر الريف وقفز السياجات والحفر والجداول يمثل الطريقة التي لاتبارى في تعلم ركوب الخيل، في وقت كان فيه ركوب الخيل يؤلف تكملة ضرورية .

---

(١٣) PALLA THORP

(١٤) الطهريون PVRLTANS طائفة من رجال الكهنوت المتفرقين في اوربا

(١٥) اي قبل صدور هذه المذكرات في ربيع سنة ١٩٨٣

والحقيقة ان القنص الذي يتعقب حيوانا يكون مسراه متغيرا وغير متوقع بصفة حتمية.

هناك ضرب آخر من القنص باستخدام الايل الذي يحمل في عربة•فالايل حيوان منطبع يمكن الاحتفاظ به في حظيرة، ونقله متى ما اطلق سراحه. فحين تهجم كلاب الصيد على الايل يستطيع ان يصدها بقرونه عند احد الخلجان لبضع دقائق،الى ان يقبل الصياد فيدعوها الى الانصراف،واذ ذاك يوضع الايل في العربة ثانية ويعاد الى البيت. ليس مستطاعا لدينا ان نقدر مدى الخوف الذي يصيب الايل ولكن حين تتكرر العملية مرة اخرى يصبح من غير المعقول ان تكون مخيفة له بصفة اكثر.

وهناك بديل اخر هو الساحبة كأن يجري احد الرجال في الريف وهويسحب وراءه كيسا يحوي طعاما تستطيع كلاب الصيد ان تتعقبه ومع ذلك فان هذه العملية لاتحدث مظاهر متنوعة وغير متوقعة في تعقيب احد الحيوانات.

وبكلمة مختصرة كان القنص طريقة لاتبارى في تكوين الفروسية. حين كانت هذه الفروسية تعتبر صفة لازمة للرجل،لقد برزت الالعاب الرياضية حين اصبح لها هدف تطبيقي،وحين لم يعد تنفيذ ذلك الشرط، اصبحت مجرد حرفة للعبث ليس الا.

* * *

ثم ارسلني بصفة تلميذ داخلي الى مدرسة تدعى «ستانكلف هول»(١٦)، على مقربة من «ماتلوك» في «دربيشاير»(١٧) لقد هيأني ابي للملاكمة التي كانت من اهويات الفاخرة ولقد تمرنت جيدا في اول الامر وكانت ضربتي الصائبة الموجهة الى الفك قد نالت التصفيق العالي. ولكن في الاخير دخل الحلبة فتى اكبر واقوى مني، واعتادأن يوجه الي احدى الضربات،وهذا كنت بعد كل درس نرجع الى الحمام وانفي ينزف دما.

كانت الملاكمة تعتبر على مستوى عال من العاب الرجولة، اي الفن النبيل للدفاع عن النفس•والواقع ان لعبة «الجودو» تبدو في نظري هذه الايام بانها هي الطريقة العملية الصحيحة للدفاع عن النفس.

كان لي في مدرسة «ستانكلف» صديق اسمه «ا. ت. ن. لندساي»(١٨) كان مجنونا بالخيل مثلما كنت انا كذلك•ولقد اخترعنا لعبة سباق كنا نثبتها على قطعة من المقوى ونحركها الى احدنا الاخر في الصف الى امام والى الخلف مخافة اكتشافهاواعتقد ان «لندساي» كان قد قتل في الحرب العالمية الاولى مثل كثيرين ممن عاصروني في المدرسة.

STANCLIFFE HALL (١٦)

DERBY SHIRE (١٧)

A. T. T. LINDSAY (١٨)

كان ابي قد هيأني في الاصل لدخول مدرسة «ولنغتون»[19] حيث كان هو نفسه قد فعل ذلك. لكنه اكتشف مؤخراً بان الكثيرين من الفتيان كانوا يلتحقون بالكلية العسكرية عن طريق مدرسة «تشلتنهام» ولذلك ادخل اسمي في هذه المدرسة بدلا من مدرسة ولنغتون. ولما كانت قضية الاجور المدرسية تؤلف مشكلة فقد اشتركت في امتحان للزمالة في كلية تشلتنهام[20].

كان مدير مدرسة «ستانكلف هول» من رجال الاكليروس في الاصل وكان يدعى «المبجل لي. اون». وحين اصبحت في سنتي الاخيرة غدت المدرسة ملكا لشريكين هما «هاركورت كلارك، و كونواي». في احدى الامسيات كنا نحن الطلاب جميعا في اسرتنا في صالة النوم، كانت الانوار قد اطفئت، واظن ان الساعة كانت في حدود التاسعة والنصف، وعلى حين غرة سمعت اصوات خطوات تجري في الممر في الخارج، ثم يفتح الباب ويوقد النور، فاذا بنا نكتشف بان زوجة هاركورت كلارك كانت تجري امامنا راكضة، وهي تلوح ببرقية وفي اعقابها زوجها والسيد كونواي وهي تهتف باثارة «لقد حصل غلوب على الزمالة الدراسية في كلية تشلتنهام ولذلك تجمع الثلاثة حول سريري وهم يقولون «حسنا ماتم فعله!.» لقد كانت تلك هي المرة الاولى، منذ ان تولوا الاشراف على المدرسة، يستطيع فيها احد الفتيان ان يحصل على زمالة دراسية ولهذا ابتهجوا بذلك!

اصبت بصدمة عميقة حين دخلت كلية تشلتنهام واعتقد ان اداء القسم هو الذي اعادني الى ذلك!! فلم اكن قد سمعت باي قسم من قبل، ولكن يظهر بان الفتيان لايعرفون سوى الشيء القليل عن ذلك. ومع هذا فقد امضيت وقتي في الكلية بصفة جيدة ومعقولة تماما ذلك لانه لم يحدث اي نوع من الكدح اوالاستئساد، كما كان الامر معتاداً بهذه الصفة في الايام الاولى.

لم اكن جيداً في الالعاب ولكنني كنت في الواقع استمتع كثيراً بلعبة الرغبي[21] ولايوجد هناك شيء احبه اكثر من ان اسقط على الكرة امام صف من الخصوم واروح اكافح بشكل رائع وسط اللكمات والرفسات غير اني لم اكن اجري سريعا الى مدى ثلاثة ارباع، فانا وان كنت صغيرا او ضعيفاً الا انني كنت ألعب في المقدمة، وكان مطمحي على الدوام ان أغدو نصفا رائعا غير انني لم انجح في الحصول على ذلك الموقع في اية فرقة من فرق الرياضية.

---

(١٩) WELLNGTON

(٢٠) CHLT HAM

(٢١) الرغبي RUGBY ضرب من العاب كرة القدم وتسمى (رغد) RUGGER

اما في لعبة الكركت(٢٢) فقد كنت عديم الامل ومن الفريق الضاحك في الغالب ولقد عدت في آخر فرصة سنحت لي في الصيف الى التجذيف بالزوارق والى التجديف بسهم في الزورق الثاني الموجود في بيتنا،لم يكن الوضع متميزا جيداً ولكن حين كنا ننفخ القارب الذي فوقنا في ثلاث مناسبات متتالية فأنه كان يجهز على القوارب الثانوية

وهكذا كان يقع هذا حين كان بيتي «كرستاو» يضم جملة من الرياضيين الالطاف حيث فزنا بكل الكؤوس التي ضمها البيت في العاب الرغبي والكركت وكل شيء تقريبا وكان قاربنا الاول يقع عند رأس النهر.

كان الشيء المحظوظ الذي حدث لي في كليةتشلتنهام هو انني تلقيت ضربة في انفي اثناء لعبة الرغبي ادت الى تلف الحاجز القائم بين منخري فنقلت الى مستشفى سان توماس في لندن،حيث اجريت لي عملية هناك.ويبدو بان العملية لم تحدث اي تغيير كبير في انفي لكنني منعت من ممارسة لعبة الرغبي لمدة سنة.

ولقد اعد ابي العدة لاستئجار جواد لي من اصطبل عام لاستئجار الخيول في تشلتنهام حيث استأجرت مهراً نشيطا يدعى سبايدر.فكنت بعد كل ظهر وحين كان الفتيان يلعبون الرغبي امتطى صهوة سبايدر فنمضي نجوب كوستولدس(٢٣) صعدا الى الينابيع السبعة والى ليكهمبتون(٢٤) في غارات طويلة وحيدة وسعيدة.

يمكن ان يصبح الفتيان اشرار لقد كنا نستخلص بعض البهجة من المراهنة مع الاساتذة كان استاذي الاول في الصف يدعى بوزربنت. ولست اظن بان الاستاذ بنت قد اصاب نقطة واحدة لكن التجنيس كان مغريا لقد كان الشيء الوحيد الذي يضايقه هو ان يقول احدهم لست اعرف اننا سنبدأ اليوم مثلا، حيث يرد بنت متسائلا «جونز؟ لماذا كنت متاخرا عن المصلى هذا الصباح؟ فيرد الطالب لست ادري ياسيدي!.. كانت هذه الاموار هي التي تحدث النتيجة المستحبة فقد يضرب الاستاذ منضدته بيده ويهتف صارخا «أنه لخبال عظيم ان تتأكد! ماذا تعني بقولك لست ادري! يجب ان تعلم!.. كان الاستاذ في الصف الثاني الذي نجحت اليه يعرف باسم «بن» وكان الشيء الذي يضايقه كثيرا هو حين يروح احدهم في الصف يدندن بنغمة ما ونتيجة لذلك يكون المثقاب مهيئا خلف الغرفة لاي فتى بدأ يدندن، في حين يفترض فينا باننا منكبون على القراءة.

---

(٢٢) لعبة الكركتCRIkET المباراة بضرب الكرة الصغيرة بالمضرب

(٢٣) COSTWOLDS

(٢٤) LECK HAMPTON

وقد يهتاج الأستاذ بن فيروح بجوب الصف حيث يتوقف الفتى الموجود خارج الغرفة عن الدندنة في حين يشرع فتى اخر في المقدمة يدندن، واذ ذاك يستدير الاستاذ بن ويقف محملقا في النافذة اشبه بثور في حلبة المصارعة وقد احاط به الرجال الذين يثيرونه، كنت على الدوام اعجب كيف يخفق الاساتذة في التأكد من ان معايبهم كانت تستغل تمام الاستغلال.

* * *

في سنة ١٩١٢ انتقل أبي من وظيفة آمر الهندسة في القيادة الشمالية الى منصب رئيس مهندسين في القيادة الجنوبية ولذلك انتقلنا من «يورك» الى «سالسبوري». كانت امي من النساء المتمسكات بالمسيحية تمسكا عميقا، وكنت على الدوام اتجاوب معها في ذلك، وكان ابي هو الاخر يفعل ذات الشيء ايضا، وان كان يندران يتحدث عن المسيحية. فقد اعتادأن يؤدي الصلاة كل صباح لانني غالباً ماكنت ادخل عليه غرفته فاجده يصلي فقد كان ينتصب بجانب درجه ذي الأبواب والذي (مازلت احتفظ به) ويروح يجرب مرفقيه على قمته وقد غطى وجهه بيديه.

وحين كنت في مدرسة سنا تكلف هول اعتادت امي ان تبعث الي بنبذ دينية قليلة في رسائلها، كنت احملها معي الى المرافق الصحية لكي اقرأها بهدوء. وانني لاتذكر كتابا ذا اوراق قليلة عنوانه (كلمات الراحة والعزاء) لم اجابه في كلية تشلتنهام سوى مصاعب قليلة بشأن الكتب الدينية حيث كنا نحتفظ ضدنا الخاصة بنا وكانت لي في سنتي الاخيرة غرفة خاصة بي للدراسة.

ولقد كنت مزمنا في الدخول الى المصلى وكان ينبغي علي ان اجد الصلاة متنقلة، لانني منذذلك الوقت اخذت اتذكرترنيمتين تقولان (لقد وعدت يايسوع بان اصلي لك حتى النهاية. . . . ونحن الان نشكر ربنا جميعا.) ولقد حدث في احدى المناسبات حين كنت في كلية تشلتنهام ان اصبت بالانفلونزا وكنت ارقد على سرير في غرفة المرض، حين اقبل علي مطراني الذي يعمل تحت امرة مدير النزل يزورني. ولقد سألني عما كنت اقرأ فأريته الكتاب الذي كنت اطالعه وعنوانه «جارلس اوميللي» من تأليف «جارلس لبفر» فقال المطران: «احم! انه طلي قليلا كما اظن!».

* * *

لقد كنت استمتع بقراءة «جارلس او ميللي» وهي قصة طلية عن ماردار لندي شارك في حرب شبه الجزيرة

«ان ملوك «اوده »[٢٥] كانوا يتباهون بعظمة»
«وكذلك كنا نحن من القياصرة ذات مرة»
«ولكن الارلندي الذي هو من اصل غالي قديم[٢٦]
«قد يجعلهم يحملقون اذا ما جابهم ب«البليزر» [٢٧]
«اني استدير نحو الشيطان «رانجيت سنغ»ذلك المسن»
«انه ليس سوى امير في طريق صغير»
«انه لايعرف شيئا على الاطلاق عن السور الذي يرتفع خمسة اقدام»
«اوه! انه لم يفعل شيئا لـ«غلواي» بالديون الوفيرة»
«ولكن اكثر من ذلك بكثير. . . . . »
«لقد كان ذلك الرجل تابعا ل«غلواي«حقا!»

كان رانجيت سنغ هو الزعيم الاكبر لطائفة السيخ في السنوات الاولى من القرن التاسع عشر، اما مطراني فانه قد قتل هو الآخر في الحرب العالمية الاولى. كان رجلا مديد القامة جداً وكان طوله هذا يمثل خطرا في الخنادق.

ماز لت أتذكر احدى الامسيات من شهر تموز سنة ١٩١٤ حين سمعت وانا اهيء اموري في غرفة دراستي نشيداً عميق الصوت كان يسري في اسفل الطريق في الخارج يترنم«انه طريق طويل الى تبراري»[٢٨] لقد كان ذلك نشيد فوج اقليمي عائد من مسيرة في الطريق•لم اكن قد سمعت قبلا بالنغمة التي اصبحت تؤلف اللحن المعتاد للحرب العظمى!

---

(٢٥) ملوك اودة OUDH هم ملوك مقاطعة مهمة بهذا الاسم كانوا من الشيعة الموالين جدا للحكم الانكليزي وقد بدأت العلاقات بين ملوك اودة وعلماء الشيعة في النجف وكربلاء منذ سنة ١٨٤٩ ذلك لان «غازي الدين حيدر ملك اوده» كان قد اوقف مبلغا مقداره مائة وواحد وعشرين الف روبية في كل سنة لكي تصرف في شكل صدقات الى المستحقين في النجف وكربلاء وكانت الحكومة البريطانية هي التي توزع هذه المبالغ على المدنيين عن طريق قناصلها في العراق وكانت هذه الاموال هي الربح الناتج عن القروض التي افرضها ملك اوده للحكومة الهندية، والتي بلغت ثلاثة بلايين ونصف مليون باون استرليني وكان هذا القرض قد استقرضه اللورد امهرست حاكم الهند في عام ١٩٢٥ وبربح دائم مقداره خمس في المائة ولقد ثارت العداوات والضغائن بين رجال الدين من الشيعة في النجف وكربلاء انفسهم (انظر فصول من تاريخ العراق القريب تأليف المس بل ترجمة جعفر خياط صص ٩١ - ٩٢ طبعة ١٩٧١) وكانت اودة ومازالت تؤلف احدى المقاطعات الهندية في دولة الهند حاليا.

(٢٦) العنصر الغالي GILE هو العنصر الذي اجتاح الاراضي التي تشمل فرنسا وبلجيكا وشمالي ايطاليا قبل ميلاد المسيح بقرون وقد سميت هذه الاجزاء التي اجتاحها هذا العنصر باسم غاليا او بلاد الغال وقد غزاها القائد الروماني يوليوس قيصر واستولى عليها في الفترة بين سنتي ٥٨و٥٠ ق.م

(٢٧) ذكر المؤلف ان كلمة غالواي بليزر يقصد بها نوع شهير من الكلاب التي كانت تقتنص الثعالب

(٢٨) تبراري TIPPERARY

انه لامر مدهش حقا كيف انه بعد ست وستين سنة ، نجد بان صور الحوادث الماضية ماتزال محفورة في ذاكراتنا بكل عمق وحيوية . فلم اكن اهتم بالشؤون العالمية في ذلك الوقت ولم تكن لدي اية فكرة بان الحرب كانت توشك ان تقع !

لقد كنت منذ طفولتي المبكرة افترض دوما بان اغدو ضابطاً في كتيبة المهندسين مثل ابي تماما،ولم تكن لدي هناك اية حرفة بديلة كنت احلم بها قد بحثتها بحثا مستفيضاً، ونتيجة لذلك ادرج اسمي في امتحان القبول في الكلية العسكرية في وولوج والتي فتحت أبوابها في شهر اب سنة ١٩١٤

ذهبت في نهاية شهر تموز سنة ١٩١٦ الى المعسكر مع مركز تدريب الضباط،ولقد كنت هناك حين اعلنت الحرب . تم تقويض المعسكر على الفور قبل ان نغادره وكان مُعلمنا،وهو من ضباط لواء حملة البنادق،قد القى خطابا قصيراً قال فيـه«ان البعض منكم ايها الفتيان سوف يحصل ربما قبل ان تنتهي هذه الحرب على شرف أعلى بقيادة القوات البريطانية في المعركة» .

* * *

لم اصل الى المنزل في سالسبوري إلاّبمشقة . كانت سكك الحديد في فوضى وقد حاصرتها قطارات ملىء بالجنود الاحتياط الذين بدأوا يلتحقون بوحداتهم . وصلت الى البيت في الساعة السابعة من صباح احد الايام بعد ان حصلت على مساعدة في العربة التي تنقل اللبن . كان ابي مايزال يخضع للاوامر في فرنسا وكان الفيلقان الاول والثاني قد عسكراهناك ، وكان على ابي أن يصبح رئيس المهندسين في الفيلق الثالث الذي كان يتوقع له أن يعسكر بعد اربعة ايام في(سو ثمبتّون) .

كنت اعتقد بصفة عامة بان الحرب سوف تنتهي بحلول عيد الميلاد واذ الهمنا من قبل معلمنا في معسكر تدريب الضباط ، فلم اكن راغبا في تأدية امتحان الدخول الى الكلية العسكرية وعزفت عن الرغبة في ان يدرج اسمي في لواء حملة البنادق ، ولقد جابه ابي شيئاً من المشقة في ردعي عن ذلك .

ركبت السيارة معه الى سوثمبنون لكي اشاهده وهويغادر. كانت الارصفة محتشدة بالقوات التي عسكرت هناك ، ولذلك ودعت ابي في فندق «سوث ويسترن» المطل على الميناء،ومن ثم عدت الى البيت مكتئبا. تخلت امي عن منزلنا في سالسبوري وحزمت اثاثنا ثم انتقلت الى فندق صغير في سوث كنسنغتون. وبعد ايام قلائل اشتركت في امتحان الدخول الى الكلية العسكرية ونجحت فكنت الثاني بين المقبولين،وقبل اربعين سنة من ذلك التاريخ،كان ابي هو الثالث بين الناجحين،وما ان سمع ابي بانني قد

نجحت في الدخول الى «الحانوت» كما كانت الكلية العسكرية تدعى هكذا بصفة اعتيادية، حتى بعث الي برسالة من الجبهة في فرنسا هذا نصها

في الميدان في ٢٧/١٠/١٩١٤

ولدي العزيز الكبير انك سوف تعلم كم كنت فخورا حين تلقيت انباء نجاحك في الحانوت بدرجة ثانية انك غدوت الان تقريبا ضابطا ملتزما جدا ورجلا. ولدي الكبير العزيز امل ان اراك نبيلا ايضا نبيلا بريطانيا بسيطا وامينا انك لن تستطيع ان تكون شيئا افضل من ذلك مهما كنت، لاتحاول ان تخفض من مستوياتك!

ولدي الكبير عليك ان تتذكر بانك غدوت الان رجلا وان العمل لم يعد الان كدحا وحشيا وانما ان تتهيأ لواجباتك باعتبارك ضابطا».

❊ ❊ ❊

كانت الاكاديمية العسكرية في وولوج في تلك الايام لاتقبل من الطلاب إلا الراغبين بان يصبحوا من المدفعيين وزارعي الالغام حسب، اما الراغبون في الاسلحة الاخرى فانهم يدخلون في كلية ساند هرست التي كانت تعرف باسم الكلية العسكرية وكانت الفترة الاعتيادية في وولوج تستمر مدة سنتين ولكن نظراً الى الحاجة الماسة جدا للضباط فاننا لم نمكث في الاكاديمية سوى ستة اشهرحيث عينت برتبة ملازم ثان في كتيبة المهندسين في شهر نيسان سنة ١٩١٥ وارسلت الى تشاثام [٢٩] لأتعلم هندسة الميدان.

لقد ظهر بان هناك مبدأ كان مقبولا في تلك الايام هو ان على الاولاد ان يلقنوا بعض الشيء عن الجنس، وان باستطاعة كلا الجنسين ان يدخلوا ذات المدارس. غير ان ايامن هذه الاراء لم تكن مطبقة حين كنت صغيرا، فلم يكن لافي مدرستي ولا في كليتي سوى الاولاد، ولذلك كنت اقضي عطلاتي في ركوب الخيل. كانت تصورات شبابي توضح لي بان النساء جميلات وفضليات وابداعيات اكثر مني بكثير، ولذلك كان من النادر علي ان اتحدث الى اية واحدة من النساء ماخلا امي وشقيقتي!

وفي «تشاثام» كانت الثكنات ملىء بالمزيد من المجندين والضباط الجدد بحيث لم تكن هناك غرف مهيأة لسكناهم. سكنت في قرية«برومبتون» [٣٠] خارج الثكنات مباشرة فاعطيت لي غرفة مع عائلة كانت تسكن فوق حانوت بائع للتبوغ. وفي احدى

---

(٢٩) CHATHAM

(٣٠) BROMPTON

الامسيات واذ كنت عائدا الى البيت وجدت امرأه شابة هي ابنة صاحب البيت تجلس في الغرفة التي انا فيها. وما ان دخلت الغرفة حتى بدرت منها اشارة وكأنها تريد ان تغادر. اصابني الارتباك الشديد وكنت اخشى ان يندفع ابوها على حين غرة داخل الغرفة ويتهمني بارتكاب سلوك غير مصيب ويطلب الي ان اطهر شرف ابنته بالزواج منها.كان علي أن اجرب هذه الحيرة كل ليلة من دون ان اقترب من الفتاة الى ان خلت احدى الغرف في الثكنة اخيرا فانتقلت اليها.

بالنظر الى القصص التي لاتنتهي هذه الايام عن صديقات الشبان واصدقاء الشابات كان ذلك يبدو ومن الامور التي لايمكن تصديقها. ذلك لانه في سنتي ١٩١٤، ١٩١٥ لم يكن احد من الضباط والشباب قد تحدثوا بعد الى امرأة،وان أياً منا كان؛ يعتقد بانه يهتم بالفتيات كان بالأحرى يدعى بكل ازدراء بانه كلب[٣١]مزيف.

كنا مقتنعين بان تلك الحرب سوف تكون هي الاخيرة في التاريخ البشري وكنا نعتقد بانه اذا ماتم دحر الامبراطورية الالمانية فلن تحاول امة مرة اخرى تدمير السلم العالمي. اما الان وبعد مرور ست وستين سنة على ذلك التأريخ، فقد تأكد لدينا جيدا ان الحروب لايمكن ان تنهي الحرب، وانما تكون مثار عدد واسع من الحروب الجديدة. ذلك لان الاسلحة اصبحت، سنة بعد اخرى، فتاكة وقاتلة، وان الحروب والعنف قد ازدادت، وان حلول مائة سنة من السلام بين الدول العظمى، ربما قد يكون هو الامل الوحيد لبقاء الجنس البشري.

انني اتذكر جيدا ماكانت تقوله لي امي في ذلك الوقت، كيف انها تزوجت ابي، وهو ضابط في الجيش، في مدةست وعشرين سنة لم تكن تقع خلالها سوى معارك عرضية (لانه كان قد ذهب للاشتراك في حرب البور). ولكن في كل هذه السنوات الست والعشرين• لم يحدث لها، ولا لاي انسان اخر، كما كانت تعرف ذلك، ان حربا قد تقع مرة اخرى بين الدول المتمدنة في اوربا.

ففي (تشاثام) كنا جميعا نشعر بالقلق، بان هذه الحرب، وهي اخر حرب في التأريخ البشري، كما نظن، سوف تنتهي قبل ان نشارك فيها. كان النظام المطبق في القوة، في الوقت ذاته يمنع ارسال الضباط الى الجبهة قبل ان يبلغوا سن الثامنة عشرة وبزيادة نصف سنة اخرى. ولذلك اجبرت على المكوث متبرما في «تشاثام» اول الامر، وفي «الدرشوت» حتى خريف سنة ١٩١٥[٣٢].

---

(٣١) يدعى هذا الكلب المزيف لدى الانكليز باسم POODLE ويكون كثيف الشعر عادة

(٣٢) ذكر رسل برودون صاحب كتاب حصار الكوت الذي ترجمناه ونشرناه في اوائل سنة ١٩٨٥ ان كثيرين من الذين جندوا في القوات الانكليزية في العراق اثناء الحرب العالمية الاولى كانت اعمارهم تقل عن الثامنة عشرة بل ان فيهم من كانت سنة سبع عشرة بل وحتى ست عشرة سنة.

قد يكون من المفيد ان ندلي هنا بكلمة توضيح عن القلق الذي يعبر عنه الجنود احيانا ايام الحرب، في ذهابهم الى الجبهة. ان تجربتي تبين بان الرغبة في المشاركة في الحرب ليست شهوة مساوية لشهوة القتل، وانما هي نتيجة غريزة انسانية فطرية في الموهبة الذاتية.

ولكي نجري مقارنة، دعونا نأخذ بنظر الاعتبار بعض الكوارث التي تحدث، من امثال وقوع زلازل، او مجاعة في قارة اخرى، فاننا نتحرك الى الشفقة والحنان، بالانباء التي تذيعها الصحافة، ونود ان نساهم باكثر مما نستطيع ان نقدمه فعلا. فاذا كنا من الممرضين او الاطباء، او اصحاب حرف، يتطلب منها القيام باعمال الاغاثة، فاننا قد نتطوع بان نذهب بانفسنا لاداء ذلك العمل. لسنا نود ان تحدث المجاعة. اننا متأكدون من ان اعمال الاغاثة قد تنطوي، على الاخطار، او قد نضحي بعوائدنا في بريطانيا، ولكننا مع ذلك نود ان نذهب وان نعاون. وبذات الطريقة، فانه اذا ماوقعت الحرب، فان الجنود يشعرون بوجود رغبة انسانية مشربة بان يبذلوا انفسهم، وباروحهم، واجسامهم، وحتى التضحية بارواحهم، وان تلك هي خدمتهم المعتبرة. ان الجنود ليسوا هم الذين يوقدون الحرب، بل الساسة هم الذين يفعلون ذلك. كذلك فان الجنود لايرغبون في الحروب.

ولكن حين تحدث الحروب، يستفز الجنود، بتلك الغريزة الانسانية المشبعين بها تشبعا عميقاً لأن يضحوا بانفسهم، ومهما تظاهرنا بان نكون ساخرين او ماديين، فاننا نتحقق، على نطاق واسع، بانه حين تظهر الحاجة، يكون من المبارك به، بان تعطي اكثر مما تتسلم!!..



الفصل الرابع

الواجب والمجد



الواجب والمجد

في اليوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٥، وصلت الى «سوتمبتون»، حيث ابحرت الى فرنسا، من ذات الرصيف الذي غادر منه ابي في شهر آب سنة ١٩١٤ . وفي الوقت ذاته كانت الفيالق البريطانية الاصلية الثلاثة التي ذهبت الى الجبهة في سنة ١٩١٥، قد تعاظمت واتسعت الى جملة من الفيالق. نال ابي لقب «فارس» لمساهمته في معركة «ايسن»[1]

لقد اصبح الآن برتبة لواء ورئيس الهندسة للجيش الثاني الذي كان يمسك بالقطاع الشمالي من الخط البريطاني، على بعد حوالي اثني عشر ميلا، من البحر في «نيوبورت»[2] الى منتيير[3] كانت جبهتهم تشتمل على نتوء «الايبر»[4] الذي وقعت فيه اولى الهجمات الالمانية بالغاز السام خلال شهري نيسان وايار من سنة ١٩١٥

انبأت قاعدة المستودع في «روان»[5] في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني، بانني قد تسلمت الاوامر بتعييني لسرية هندسة الميدان السابعة مع الفرقة الاقليمية الخمسين، والتي كانت تتألف غالبا، من سرية المشاة الخفيفة من «درهام»

(1) AISNE
(2) NIEUPORT
(3) ARMENTIERES
(4) YPRES
(5) ROUEN

وكل هذه المدن في الجبهة الفرنسية

وحملة البنادق من نورثمبر لاند. كانت هناك فرقة مشاة مؤلفة من ثلاثة الوية من المشاة، وثلاث سرايا هندسة ميدان، وعلى حدة، طبعاً، من مدفعية الميدان، ومقر الفرقة، ووحدات خدمة الجيش، ورجال الاشارات وماشاكل ذلك. كانت سرايا الميدان الثلاث تعمل مع الوية الميدان الثلاثة. وكنا، كالعادة، نعمل مع لواء «درهام» الخفيف للمشاة، لكننا لم نكن مرتبطين به ارتباطا وثيقاً، ذلك لان اية سرية تستطيع ان تعمل مع اي لواء.

كانت سرية الميدان السابعة من الوحدات النظامية قبل الحرب، وان كانت الفرقة بكاملها من الاقليميين، بما في ذلك سريتا الميدان الأخريين. اما الوحدات النظامية والاقليمية، فانها كانت تمتزج فيما بينها في بعض الاحيان. وجدت نفسي في سرية الميدان السابعة، مع «هـ. أ. بيكر»، الذي كان معي في «وولوج». لم يكن الناس، في تلك الايام، يعرفون باسمائهم المسيحية!! فقد كان الرجال يعرف احدهم الآخر بالحروف الاولى من اسمائهم، مثال ذلك «هـ. أ. بيكر»، و«سي. بي. او. سايمونز» (آمر سريتنا) او «جي. بي. غلوب». وكانت الالقاب شائعة ولكن الاسماء المسيحية كانت خاصة. لقد كان من المعيب ان تعرف او تستخدم اسما مسيحياً، يعتبر شيئا شخصيا لصاحبه. كان «بيكر» مثلا يسمى «البرت» ولكن حدث هذا بعد ان ظهر اسم «البرت بيكر» وهو اسم شركة كان يكثر الاعلان عنها، واعتقد بان صاحبها بائع تبوغ.

كان «سي. بي. سايمونز» آمر سريتي، قد اصيب معي بذات الشظية، ولست أعرف حتى الآن، ماذا كانت الاحرف الاولى من اسمه «دي سي. بي.» تعني!. وحين انضممت الى السرية، كانت الفرقة تقوم بعملية اسناد، اي اقول انها كانت على بعد ميلين، او ثلاثة اميال خلف الجبهة، ولايوجد فرد واحد في الخنادق. كانت احدى سرايا هندسة الميدان قد قسمت الى اربعة حضائر، تتألف كل حضيرة منها، من ضابط وحوالي خمسة وعشرين من زارعي الالغام، وقد عينت آمراً للقسم الاول من هذه الاقسام.

وحين التحقت بسرية الميدان السابعة، بدأت حياتي بالعيش مع الناس. ففي المدرسة والكلية. يكون المرء عضوا في حشد ينبغي له ان يطيع الاوامر ليس الا، من دون استقلال، او علاقات حقيقية مع الخارجيين. اما الآن، فقد غدوت شخصا منفصلا، التقي بالناس الآخرين، كان البعض منهم أعلى، والبعض الآخر أدنى.

في اليوم الرابع من شهر كانون الاول قمت بقيادة حضيرتي الى مزرعة تدعى «لافلانك»[6] على مقربة من «ارمنتيير» لقد طلب منا ان نكون في حالة دفاع، بمثابة جزء من خط احتياطي. كانت العملية تتألف من حفر الخنادق، وتهيئة مواقع الرشاشات، ووضع الاسلاك الشائكة. في حدود منتصف النهار اطلقت علينا اطلاقات خفيفة، وتكرر ذلك فيما بعد الظهر. انها النار التى جرى «تعميد» لها!. وجدت خلال هذه العملية «تشلفرز» احد الطلائع، يجلس القرفصاء في احد الخنادق، في الوقت الذي كنا نحن فيه منهمكين في العمل. اقبل «سايمونز» ليشاهدنا ونحن نعمل. جلبت «تشلفرز» اليه، فقال اريد أن اتهمه بالجبن بحضور العدو. كان سايمونز مسروراً دون ريب، بحماسة شبابي، لكنه تلفظ بعدة كلمات يوبخ بها تشلفرز.

بعد انقضاء عشرة أيام في «ارمنتيير» (التي كان الجنود يسمونها ارمنتير) تحركنا شمالا الى دار في مزرعة، تقع خلف «الايبر»•كان المطر يتساقط طيلة النهار وفي كل يوم. وكان كل شيء مطيراً مبللا بالماء. وسرعان مارحت الم باوضاع رجال الحضيرة التي كنت اقودها، وعددهم خمسة وعشرون.وفي اليوم الثالث عشر من شهر كانون الاول، تحركت حضيرتي الى احد الخطوط في جبهة «الايبر»، فاتخذنا لنا قطاعا من خندق خطا لجبهة في «الغابة المقدسة»[7] حيث كانت خنادقنا، لاتبعد سوى خمسة وعشرين ياردأ من الخط الالماني!

اعتاد العدو ان يقصف «الغابة المقدسة» معظم النهار لان ذخيرة الالمان، كانت اكثر بكثير جدا، مما هو متوفر لمدفعيتنا. وما ان يظلم الجو حتى اروح اقود فريقاً من زارعي الالغام، لاصلاح الدمار الذي وقع اثناء النهار. ولقد تم ذلك على نطاق واسع، بملء اكياس الرمل بالتراب، وبنائها بعناية اشبه بالحجر المرصوف بعضه فوق بعض. واذكنا نفعل ذلك انفجرت احدى القنابل في الخندق فحولته الى فوهة مفتوحة. وعن طريق بناء اكياس الرمل قبالته، حولناه مرة اخرى على الفور، الى خندق ضيق.

كان العريف رجلا عزيزاً لدي، لكنه كان في نظري كبير السن جداً. (فلقد كنت في الثامنة عشرة من عمري، في حين كان هو في الثلاثين من عمره). وسرعان ما عرفت بانه كان من اولئك الفتيان الذين لايخافون الاطلاقات. لقد حصلت

---

(6) LAFLANQUE

(7) SACTUARY WOOD

الآن على ماكنت اسميه لنفسي بالفريق الشجاع . ففي الليالي الممطرة، وفي الوقت الذي تنشط فيه مدفعية العدو، كنت اخرج من الخط مع رفيقي الشجاع، فنقوم بين عواصف اطلاقات العدو المفاجئة، بتغطية خنادقنا باكياس الرمل بعد ان كانت قد هدمت اثناء النهار.

كنا نسكن في خرائب قرية «زلبيك»[٨] التي تقع على بعد ميلين فيما وراء الجبهة. وفي صباح اليوم التاسع عشر من شهر كانون الاول سنة ١٩١٥، وعند الساعة الخامسة والنصف صباحا، كنا قد عدنا توا من العمل الليلي في «الغابة المقدسة»، حين دوي انفجار هائل وكأنه قد رج الارض، اعقبته سلسلة متواصلة وخرساء من النثار من حولنا.

كانت جميع المنازل في «زلبيك» قد تحولت الى اكوام من انقاض وآجر مهشم. وكنا تحت هذه الروابي من الانقاض نسكن في حفر صغيرة اشبه بالفناجين!! نقرت في الارض، وتم اسنادها بدعائم خشبية من البيوت المهدمة. سكنت انا و«بيكر» في واحدة من هذه الحفر التي كانت بسعة سرير لشخصين. استمر القصف الشديد الذي يصم الآذان لمدة ساعة تقريبا. وفي كل عشر دقائق، او خمس عشرة دقيقة، كنت اخرج واجري بامتداد خط من تلك الحفر الفنجانية، التي كان الرجال يقبعون فيها، لكي ارى ما اذا كانو جميعاً سالمين. وبعد ساعة اطال الالمان حنقهم فاصبحنا نرى القذائف تسقط على بعد نصف ميل من ورائنا.

لم تكن لدينا اية فكرة عما اذا كان قد وقع هجوم للمشاة على خط الجبهة. غير اننا اكتشفنا مؤخراً بانه لم يقع اي هجوم على جبهتنا، وان كانت الخنادق قد تم قصفها قصفاً كثيفاً. لقد كان الامر برمته صرفا للانظار، في الوقت الذي كان فيه الالمان يهاجمون التل (٦٠)، الواقع على بعد ثلاثة اميال الى الجنوب.

في صباح اليوم التالي اقبل «سايمونز» من موقع في المؤخرة، وقد صحبته في تفتيش العطب الذي حل بخط الجبهة. وعلى حين غرة حدث شيء ما. لايستطيع المرء ان يسمع صوت القذيفة التي تصيب شخصا ما. كان آمر الفوج المشاة وضابطي «سايمونز» مستلقين على ارضية الخندق مع ثلاثة رجال كانوا قد ماتو للتو. جريت الى داخل الخندق، ورحت ابحث عن بعض حملة النقالات الذين حملوا «سايمونز» الى محطة اسعاف في حفرة قريبة في «مابل كوبس»[٩].

---

(8) ZILLEBEKE (9) MAPLE COPS

وحين تم نقل «سايمونز» لاحظت بان الدم كان يتصبب من حذائي، قطع الطبيب الحذاء فوجد ان الاصبع الاكبر في قدمي اليسرى قد تحطم بفعل شظية قذيفة. عدت اعرج الى حفرتنا الصغيرة في «زلبيك» حيث مكثت خمسة ايام وانا انط بالم فوق خط الخنادق كل يوم. سمع ابي بالجرح الذي اصبت به، لكن تحقق لديه بانني لن اترك رجالي في خط الجبهة. ولكن تمت نجدتنا في اليوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الاول، اذ وصلت احدى العربات الى «زلبيك» ليلا، فاعادتني الى مقر السرية. بعث الي ابي بسيارة، على امل ان ازوره في مقر الجيش الثاني خلال النهار. ولكن ظهر بان تلك كانت حيلة قدانطلت علي، لانني ارسلت الى محطة اخلاء المصابين في «هيزبورك» حيث مكثت هناك مدة ثلاثة اسابيع.

ان محطة اخلاء المصابين، كمايدل اسمها عليها، عبارة عن مكان يجمع فيه الجرحى، ومن ثم يتم ارسالهم الى القاعدة. لكنني هربت من محطة الاخلاء، وعدت الى سريتي في اليوم السادس والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٦.

على مثل هذه الشاكلة كانت تجربتي الاولى في الحرب. كان الانطباع الرئيس الذي تلقيته، يتمثل في درس من الصداقة. فقد كنا في القسم الذي كنت اقوده، نؤلف حوالي خمسة وعشرين شاباً، ارتبطنا معا باحساس عميق من الاخوة، وكان هذا الاحساس العميق من الصداقة، هو الذي كان يحمل الجنود على التعرض للمصاعب والاخطار، ويمنحهم حتى في اشد لحظات الشدة، نوعا من الاحساس بالبهجة.

على مثل هذا النمط، كان الرباط الذي كان يوحد فيها بيننا جميعا. غير انني بالاضافة الى ذلك، كنت احتفظ باساس للجندية منذ الطفولة، فقد كان شعار المهندسين يقول «حيثما ذهبنا فان الواجب والمجد، يقودانا الى هناك»(10) وذلك شعار كنت التزم به جديا في فؤادي. ففي تلك الايام كان يتم تعليم الاطفال اصول الدين بطريقة السؤال والجواب عن ظهر قلب في ايام الاحاد.

فالخط الذي كنت اتذكره من طفولتي، هو ان اؤدي واجبي في مثل تلك الحالة من الحياة، وبالصفة التي ترضي الله لكي يدعوني اليه. فالواجب والخدمة كانتا هما الكلمتين اللتين تنطلقان من افواهنا دوما طيلة الايام التي كنت فيها طفلاً، وفي المدرسة.

---

(10) UBIQU QUO FAS ET GLORIADUCUNT والعبارة باللغة اللاتينية

لقد وقعت هذه الحوادث قبل خمس وستين، او سبعين سنة خلت، وهي تبدو غالبا غير متصورة حين ننظر الى العالم الذي يحيط بنا الآن. ووفقا لتلك الانظمة لم يكن يقال للاطفال بان الهدف من الحياة هو الواجب والخدمة حسب، وانما ينبغي لهم، على العكس من ذلك، ان يطوروا شخصياتهم الخاصة بهم، وان هذا الامر مضارع للتبشير بالانانية والاثرة، ذلك لان الاطفال الذين يلقنون مثل هذه الافكار، لايمكن ان يلاموا اذا ما ارادوا ان يفعلوا الاشياء الخاصة بهم. فالشيء المثالي هو ان يكونوا متحررين من كل الواجبات والالتزامات سواء بالنسبة الى وطنهم، او مجتمعهم، او الافراد الذين تربطهم بهم رابطة وثقى.

هنالك مفارقة تامة لايام شبابي، تتمثل في الموقف العام ازاء المال. لم تكن لدى ابي في الاصل، اية وسائل خاصة للعيش، ولذلك كنا نعتاش على مرتبه. ومع كل ذلك فانى لا اتذكر بان موضوع المال قد اشير اليه ذات مرة في البيت، او خلال الاحاديث الاجتماعية. ونتيجة لذلك كنت واحدا من اولئك الاشخاص، والذين ربما كان ينظر اليهم بازدراء في العالم الحديث، الذين لايستطيعون ان يثيروا اي اهتمام بالنقود، باعتبارها هدفا من الاهداف. وكنا في بعض الاحيان، نجد انفسنا مرغمين على التفكير في قضايا المال، لكنني وجدت ان ذلك مجرد جهد، ينبغي لي ان أؤديه.

واذا ما قورن المال بما كان عليه قبل ستين او سبعين سنة مضت، فانه يبدو في نظري بانه كان يحتل مكانة الواجب والخدمة، والاهداف التي كانت تقع دوما امام انظارنا. ذلك لان العمل لم يعد تحويله الى خدمة ممتعة. ولكن الضرورة الملحة، يكون هدفها هو الحصول على المال.

انني اتذكر واحدا من رجالي الخاصين في هذا الوقت يقول لي «اعطني الرجل الذي يعشق هذا العمل» فبالنظر الى اولئك الذين يستطيعون الحصول عليه، يكون هذا واحدا من المفاتيح الاساسية للسعادة.

كان واحدا من اجمل التكريمات التي حظيت بها، قد حدث بمناسبة طردي من الخدمة من قبل الحكومة الاردنية في سنة ١٩٥٦. فقد نشر الحادث في الصحافة، وقد تلقى رئيس تحرير صحيفة «الديلي اكسبريس» رسالة قدمها الي، وهي تقول مايلي:-

سيدي العزيز

قبل اسابيع قلائل اطلعنا على عمود في صحيفتك يتعلق بالجنرال غلوب قائد الفيلق العربي، وهذه هي الملاحظة التي سمعتها من زوجي الذي عمل تحت امرة غلوب في الحرب العالمية الاولى، وكان معه حين جرح. «لقد كان غلوب الطف ضابط يمكن ان تلتقي به. فلم يكن ليبعث باحد من رجاله الى اي مكان لايريد هو نفسه ان يذهب اليه. ارجو، ان تهيأت لك اية فرصة لايصال اية رسالة اليه، ان تقول له بان نائب العريف «موس» مايزال على قيد الحياة ويتمنى له احسن حظ.

صديقتك المخلصة

سي. موس

لقد تلقيت هذه الرسالة بعد اربعين سنة من الوقت الذي كنت قد خدمت فيه مع نائب العريف «موس» ولكنها تعطي رنيناً للمبدأ الذي كنت آمن به دوماً، وهو «الالتزام النبيل». ذلك ان على الرجل رفيع المستوى ان يفعل اكثر مما يطلب من اي من التابعين له ان يفعله. ان هذا المبدأ واحد من اولى مبادىء القيادة لكل العاملين في السلطة، سواء كانوا داخل الجيش ام خارجه.

فاذا ما كانت القذائف تتساقط يقول «تعالوا ايها الفتيان دعونا ان نذهب» ثم يخرج امامهم. واذا كان العمل في المصنع يبدأ في الساعة السابعة والنصف صباحا. فانه ينبغي لرئيس المصنع ان يكون هو الذي يقرع الجرس للفتيان. فمهما كان تابعوك يستطيعون ان يفعلوه، افعله انت بنفسك!

ولربما كان المبدأ الثاني للناس هو تطلعهم الى مصالحهم. فلقد اكتشفت ان احدى المنظمات النسائية الوطنية في انكلترا، والتي كرست نفسها لخياطة الثياب للجنود. (كانت منظمة «الاخت سوزي» لخياطة الثياب للجنود، تمثل اغنية شهيرة في ذلك الوقت). ولقد اتصلت باولئك السيدات، فبعثن الي بربطات من الثياب التي اصدرنها. لقد كان الجنود يتطلعون الى شيء متصور نوعا من الاستعراضات العامة المعتادة، غير ان مثل هذا التطلع قد يختفي تحت الثياب المحاكة، اذا لم يكن رئيس العرفاء حاضراً معهم!

غير ان الطف درس يمكن الالمام به، هو كيف يمكن ان تصبح شخصا محبوباً من دون ان تكون شخصا اعتيادياً. فعلى الآمر ان يواجه المزيد من الخطر والمشقة، اكثر

من رجاله. فقد يتحد معهم في صداقة ومودة عجيبتين، ومع ذلك ينبغي له ان لايكون واحداً منهم تماماً. ذلك لان جزءاً من هذه المسالة الودية للزعامة، قد يعتمد على التصرف الاجتماعي. فعلى الضابط ان لايقسم، ولا ان يطلق نكات مستهجنة، او ان يتصرف بطريقة مبتذلة.

ان عبارة «ضابط، ونبيل» غالبا ما تكون موضع السخرية في هذه الايام، ولكن كانت لاجدادنا، في هذا المجال، نظرة حسنة، كنا نمتلكها في الطبيعة البشرية. ولسوء الحظ كانت لكلمة نبيل[11] على الدوام، كما يظهر، اهمية مزدوجة في اللغة الانكليزية. ذلك لان رؤية «نفيل كوهل»[12] في الانكليزية الحديثة، والتي وردت في «حكايات كنتربري»[13] التي كتبها «تشوسر»[14] قد تضمنت المقطع التالي.

«كل من يود ان يعمل في سبيل غايات فضلى، عامة كانت ام خاصة».
«وكل من يعتزم ان يفعل ما تستطيع اخلاق النبيل ان تفعله، لابد».
«وان تؤدي به الى ان يصبح اعظم نبيل!...»
«يريد المسيح ان نستمد نبلنا منه»
«وليس من ثروة سلسلة اجداد طويلة وكليلة»

كانت «حكايات كنتربري» قد كتبت في اواخر القرن الرابع عشر، وهي شاهد على ان المعنى المزدوج لكلمة «نبيل» كان من الامور المؤكدة قبلا. ان اعظم نبيل هو الرجل الذي يعمل دوما في سبيل غايات فضلى، ويستخدم النبل وسيلة لنيل تلك الغايات. ولكن فيما مضى، كان بعض الناس يستعملون كلمة «نبيل» للتعبير عن فكرة صفة متحدرة من اسرة شهيرة. وحين ربط الذين كانوا يحملون هذه الصفة

---

(11) GENTLEMAN
(12) NEVILLE COGHILL
(13) CANTER BURY TALES

(١٤) تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠) احدى قمم الادب الانكليزي القديم. كان «جفري تشوسر» ابن بائع للخمر في لندن، درس الحقوق، وحارب في فرنسا، وتم اسره ثم عين حاجبا للملك، واوفد في مهمات دبلوماسية الى جنواو فلورنسا وغيرها. بدأ بنشر قصائد غزلية اذاعت شهرته لكنه لم يلبث ان اتجه الى كتابة القصص الشعرية التي الفها في سنة ١٣٨٥ بعنوان «حكايات كنتربري» والتي اقتبسها من الحكايات التي كان الناس يتداولونها في العصور الوسطى، وقد انجز منها ثلاثا وعشرين حكاية قبل ان تخترمه يد المنون، وتمتاز هذه الحكايات بانها كانت تصور اخلاق العصر وتقاليده اصدق تصوير بما كانت تضمه من قارص النقد للخرافات والاساطير السائدة انذاك. ويبدأ الحديث عن الحكاية الاولى احد الفرسان بالاستماع الى حديث راهب عن العظماء الغابرين (ملخصة عن «الادب الانكليزي» تاليف «بول دونان»

من معاصرينا كلمة نبيل هذه بكلمة «ضابط» لم يكونوا يقصدون بذلك ان يشيروا الى الاثرياء من اجداد ذلك الرجل، وانما الى صفته النبيلة ليس الا.

فالسلوك الذي لايكون صفة لضابط ونبيل، يكون اعتداء صادرا من محكمة عرفية. فالضابط بكل وضوح لايمكن ان يحاكم امام محكمة عرفية لانه لايملك سلسلة نسب، بل لان تصرفه لم يكن تصرفا اخلاقياً، (او كان يتصرف بطريقة مستنكرة) كالطريقة التي يريد بها ان يفقد احترام جنوده له. ففي الوقت الذي يعيش المرء فيه مع جنوده الخاصين به، يستطيع ان يفرض عليهم الاصالة الخلقية، التي تضمن احترامهم له، ولكن من دون ادنى شك في ان يكون متفوقاً او وضيعاً.

مايزال المعنى المزدوج لكلمة «نبيل» يسبب سوء الفهم. فحين نقرأ في كتاب قديم بان «سمث» او «جونس» لم يكن نبيلا، لسوء الحظ، فاننا سرعان ما نفول كم اعتاد اجدادنا ان يكونوا من الوضعاء! غير انه ينبغي لنا ان لانتهور في اطلاق هذا الحكم. ذلك لان القصد من وراء ذلك، قد يكون بان الرجل لم يكن يعمل في سبيل غايات فضلى، او انه كان فظاً، او منحط الخلق، او كافراً.

ولقد اوجز الملك «جمس الاول» هذا الامر حين قال «انني استطيع ان اجعل من الرجل لوردا، ولكن الله العظيم وحده هو الذي يستطيع ان يجعله نبيلا!». والواقع ان التأريخ يزخر باسماء الملوك والامراء، والارستقراطيين، الذين كانوا ابعد جدا من ان يصبحوا من النبلاء.

خلال فترة قيام الكومنولث، تحت زعامة اوليفر كرمويل (١٦٤٩ - ١٦٦٠) كانت بريطانيا تخضع لحكم، يديره عسكريون من رتبة لواء، وهي تجربة لم يستمتع بها الشعب. كانت كراهية الناس للحكم العسكري، قد سببت خوفهم من العسكريين الحرفيين. غير ان احدى السياسات مالبثت ان تطورت نتيجة لذلك، وطبقاً لتلك السياسة لم تعد تدفع لضباط الجيش النظاميين مرتبات تكفي لان يعيشوا هنا. وهذا يؤكد بان الرجال الوحيدين الذين لديهم وسائل عيش خاصة، هم الذين يستطيعون ان يصبحوا ضباطا. والواقع ان هؤلاء، كانوا في مرحلة واحدة، يتوقعون ان يشتروا ليس امتيازاتهم حسب، بل وحتى كل خطوة في سبيل ترفيعهم!

اما الضباط الذين لايستطيعون ان يوفروا المال لتحقيق ذلك، فانهم كانوا يرغمون على الخدمة في البلدان النائية، او غير الصحيحة. وعلى هذه الشاكلة

كانت وضعية «كتيبة غربي الهند» التي قيل بانها كانت «تشرب نخب حرب دامية، او فصل ممرض، حيث يكون ذلك هواملها الوحيد في تحقيق نقلها او ترفيعها!».

ومع ذلك، وعلى غرار المزيد من العادات الكثيرة المستهجنة، وغير المنطقية في بريطانيا، فان النظام الذي لايسمح الا للرجال الذين لديهم وسائل عيش خاصة، في ان يصبحوا ضباطا، كان من الانظمة الناجحة بشكل مشهور.

فالمبدأ الاول هو ان الجيش الذي يتزعمه رجال يعيشون في اوضاع مريحة، لن يكون راغبا في الاقدام على القيام بانقلاب، واقامة حكم عسكري[١٥] غير ان هؤلاء الضباط كانوا على الدوام يكرسون انفسهم، بكل حماسة، لكتائبهم، ذلك ان البعض منهم كانوا ينفقون حتى اموالهم الخاصة على رجالهم، وعلى بدلاتهم العسكرية بل وحتى خيولهم! ذلك لأن اعظم مطمح لكل ضابط هو ان يصبح آمرا لاحدى الكتائب قبل ان يتقاعد.

كانت لكل واحدة من كتائب الجيش مكافأتها في المعارك، والتي كانت تنقش على راياتها الملونة، وتكون لهذه الكتائب ايضا القاعدة الخاصة بها. فهذه هي الكتيبة الخامسة، وتلك هي كتيبة «الموت العصيب»[١٦] وكتيبة «المخلصين»[١٧] وكتيبة «الكبار الناهضين»[١٨].

غير ان هؤلاء الضباط الذين كرسوا انفسهم، على مثل هذا النحو، لوحداتهم، لم يكونوا من الطلاب الحرفيين في الفن العسكري. ذلك لان الادارة، وعمل الاركان، لم يكونوا كافيين في الغالب (لقد كانوا، بصفة اعتيادية، يزدرون بالخطر.) هناك حكاية لطيفة عن «السر هيو غو»[١٩] حدثت اثناء حروب السيخ في الهند، تروى عنه بانه كان يرتدي بدلة عسكرية مزخرفة لكي يحول نيران العدو عن قواته

---

(١٥) اننا نخالف المؤلف في هذا الرأي. ذلك لان ما يطمح اليه المرء دوما ليس الرفاه المادي، وحده، بل ممارسة السلطة والحكم على الاخرين. ولذلك وجدنا في اكثر الانقلابات العسكرية التي وقعت في الشرق الاوسط وافريقيا وامريكا الجنوبية ومانزال تحدث حتى الان، ان كبار الضباط، الذين تكفي مرتباتهم لان يعيشوا عيشة مريحة، كانوا في مقدمة من يقدمون على اجراء الانقلابات، ليس طمعا بالمال حسب وانما بالشهرة وشهوة الحكم في الدرجة الاولى. وخير واقرب شاهد على ذلك هو الانقلاب الذي حدث في السودان في شهر نيسان سنة ١٩٨٥؟!

(16) DIE HARDS

(17) LOYAL

(18) OLD BRAGGS

(19) SIR HUGH GOUGH

هو. ولقد اظهر الضباط البريطانيون في كل انحاء العالم، مثل هذا التكريس لوحداتهم، سواء كانت الوحدات من «الغورغا» او «السيخ» او «العرب» او اي عنصر اخر.

كانت نتائج هذه الصفات حدوث تطورات مثمرة بثلاثة اضعاف في كل وضوح. الاول: هو ان الجيش البريطاني، منذ سنة ١٦٦٠، لم يتدخل في السياسة اطلاقا، كما انه ليس من المتوقع انه ينبغي له ان يفعل ذلك في الوقت الحاضر. والثاني ان الجيش البريطاني، على مستوى الكتائب، قد انتج احسن الوحدات العسكرية في العالم.

والثالث ان الجيش البريطاني، كان بصفة اعتيادية متخلفاً عن الجيوش الاوربية الاخرى، في فن الحرب، والقيادة، وعمل الاركان، او الادارة. وسبب ذلك يعود الى ان ضباطه كانوا كلهم من النبلاء اولا، ولم يكونوا من العسكريين المحترفين. غير ان الجيش البريطاني في صفة كتائب، او افواج فردية، كان من الطف جيوش العالم.

ولهذا السبب فحين كان ابي يلح عليّ بان اكون، قبل أي شيء آخر، نبيلا بريطانيا بسيطا وشريفاً، فانه كان يحمل في ذهنه صورة واضحة ينبغي ان يتصف به الضابط والنبيل.



الفصل الخامس

عزلة لانهاية لها!



عزلة لانهايـة لها

دعونا نعـود الآن الى حديثنا عن تلك الانحرافات المطولـة. فحين جـرح «سايمونز» تولى النقيب «اتكنسون»[1] الأمر الثاني، آمرية السرية.وفي اليوم الثامن من شهر شباط ١٩١٦، قدمت الفصيل الاول من السرية، الى خط الجبهة مرة اخرى، في «زيلبيك»، ولكن «اتكنسون» جرح في ذات اليوم، ولذلك اصبحت، من الناحية النظرية، انـا آمر السـرية، غـير انني واصلت بقائي بكـل سعادة، مـع فصيلي في «زيلبيك».

وفي الساعة الحادية عشرة قبل ظهر اليوم الخامس عشر من شهر شباط، كنا نعمل في خندق اطلق عليه اسم «وارنغتون افنيو»[2] في «الغابة المقدسة» حينما امطرتنا زخة من قنابل المدفعية الالمانية التي كانت تصفر، وتئز من فوقنا، حيث ادت الى مقتل زارع الالغام «سمث» وجرح كل من «بنسون» و «غردلر» واصابت شظية قبعتي فأسالت الدم من رأسي.

تم اخلاء كل من «بنسون» و «غردلر» الى «فلامر تنغل»[3] باعتبارهما من الجرحى. اما انا فقد نقلت من هناك، وعدت فانضممت الى سريتي. وفي اليوم العشرين من شهر شباط تولى النقيب «ج. ١. ماك كوين»[4] آمرية السرية. ولقد توسلت اليه بان يدعني مع حضيرتي في «زيلبيك» ولكنه ابى ذلك، وقال ان عليّ ان اعود الى مأوى المؤخرة.

ATKINSON(١)

WARRINTON AVENUE (٢)

FLAMERTINDLE (٣)

J.A.MCQEEN (٤)

كان ينبغي لي ان اسلم حضيرتي الى ضابط جديد يدعى «شابلن» وان اصبح انا الآمر الثاني للسرية، وهذا معناه ان علي اسكن في مأوى المؤخرة، الواقع على مقربة من «فلامر تنغل»، وان اغدو في امرة الادارة. ومع ذلك فقد عهد الي ايضاً بمهمة النقل التي كانت تتألف من بضع مائة وعشرين حصاناً، وحوالي خمسة وخمسين رجلا.

كانت كل الخيول التي تعمل في النقليات العسكرية تقريباً، تحتسب بالارقام الزوجية، حصانان، أربعة احصنة، أو ستة احصنة، ولذلك كان كل سائق يتطلع الى حصانين. واذ كنت قد كرست نفسي، منذ الطفولة للخيل، فانني شرعت بالتدريج استمتع بذلك العمل، فرحت احب حوذي تلك الخيل، مثلما احب زارعي الالغام السابعين الي.

في شهر آذار سنة ١٩١٦، انتقلنا من الغابة المقدسة، وعدنا ثانية الى الخنادق، على بعد اميال قليلة الى الجنوب من بلدة «بلف»[٥]. ولقد دارت هناك على الفور معركة محلية حادة، الى درجة ان «الجداء»[٦] استطاعوا الاستيلاء على خط جبهتنا، حيث تولت فرقتنا الثالثة اعادة احتلالها فيما بعد. وفي اليوم العشرين في شهر آذار، تسلمنا نحن، ذلك الخط من الفرقة الثالثة. كان موقع بلدة «بلف» يمثل احدى الضفاف التالفة لقناة «ايبر - كومان». فهذا الريف المنبسط الذي يؤلف رابية ترتفع الى حوالي عشرين، او ثلاثين قدما، كان يعين المرء على ان يطل على مواقع العدو الى اميال عديدة. وكانت نتيجة ذلك ان وجدت هناك ضفة تالفة اخرى، مثل ضفة «بلف» ينبغي القتال في سبيلها بضراوة. كان قتلانا مايزالون يتساقطون بكثافة على ضفة «بلف»، غير ان احداً لم يكن يستطيع ان يخرج من الخنادق لكي يواري القتلى التراب!

في اليوم الثالث والعشرين من شهر آذار، سقط «شابلن» الذي كان يقود الحضيرة الاولى من السرية مريضا. ولكم فرحت حين تم ارسالي ثانية الى تلك الحضيرة، وتوليت آمرية رفاقي القدامى. لم يكن هنالك خط متواصل من الخنادق في قطاع «بلف». وبعد ان تتابعت المعارك امام الجبهة، وما خلفها، تم التمسك ببعض المواقع المعزولة في الحفر التي احدثتها القذائف.

واذ حاولت ان ازور هذه المواقع في احدى الليالي، وسرت فيما بينها، وجدت

---

(٥) BLUFF

(٦) استخدم المؤلف كلمة «جداء» جمع «جدي» للاشارة الى الالمان مستخدما في ذلك الكلمة الالمانية «BOCK» التي تعني (جدي) وان كان قد اخطأ التهجئة فكتب الكلمة BOCHE بدلا من BOCK، لان جمعها في الالمانية هو BOCKCHEN وربما خيل اليه ان المفرد هو BOCKLE

نفسي تائهاً في ارض لا بشر فيها. وفي نوبة من الخبال المفاجيء فقدت احساسي بالاتجاه، فلم اعد اعرف في اي اتجاه توجد «الجداء» او ابناؤنا. وبعد مرور مؤذ لمدة ربع ساعة من الزحف الحذر، عثرت على احد مواقعنا.

كانت «بلف» مغطاة فعلا بجثث القتلى. ذلك لاننا والالمان قد اصبنا، اثناء المعارك، بخسائر كثيفة جداً، ولم يستطع اي من الفريقين ان يخرج من الخنادق لكي يدفن القتلى. وكان من نتيجة ذلك ان بقيت تلك الجثث تتعفن وتتفسخ في العراء، ومن ثم تتساقط في الوحل الذي كان يغمر حفر القذائف او الخنادق ذاتها.

في شهر آب سنة ١٩١٦، انتقلنا الى منطقة «السوم»(٣) وشاركنا في الهجوم الكبير الذي وقع في اليوم الخامس عشر من شهر ايلول، ضد «الغابة العليا»، وكانت تلك اول معركة كانت الدبابات قد استخدمت فيها. ولقد مكثنا في جبهة «السوم» من اليوم الخامس عشر من شهر ايلول حتى نهاية شهر كانون الثاني من سنة ١٩١٧.

كان ميدان معركة «السوم» بعرض حوالي ستة اميال من خط الجبهة، الى مدينة «البرت»(٤). وكانت كل هذه المنطقة مؤلفة من بحر لا نهاية له من الاوحال، تقوم فيه، هنا وهناك، اكوام من الآجر، او الابنية المدكوكة، حيث كانت القرى تقوم هناك. وفي مكان واحد او مكانين، توجد جذوع الاشجار المتناثرة، التي كانت فيما سبق غابات قائمة. لقد كان كل شيء، وكل انسان يطمس في البلل، ويغوص في الوحل، وكانت الغيوم الغبراء الواطئة، والضباب، والامطار التي تدفع كل شيء امامها، او الثلوج، كل هذه قد اكملت تكوين هذا المنظر المخيف الذي لا يمكن وصفه.

حدث ذات مرة خلال هذه الاسابيع الثمانية عشرة، ان حصلنا، انا و«بيكر» على اجازة لمدة يوم واحد، فامتطينا خيولنا، واتجهنا نحو مدينة «البرت» التي كانت ماتزال نصف مهدمة، وان كان يندر وجود اي مدني فيها. لقد استطعنا ان نكتشف مقهى «دي جو دي بوم»(٥) حيث تناولنا طعام الغداء فيها، وعثرنا على امرأتين هناك!

كانت اعظم مسرة اصبتها حين اعطيت اجازة لمدة يومين، كي ازور ابي الذي كان آنذاك في مقر الجيش الثاني في «كاسل»(٦) فقد بعث الي بسيارة لتنقلني اليه، وهكذا

---

(٣) SOMME

(٤) ALBERT

(٥) CAFE DUJEU DE PAUME

(٦) CASSEL

سارت السيارة في منطقة منعزلة، وفي ريف لم يصبه التلف بعد، وخلال مدن فيها حوانيت، وشوارع غاصة بالمارة، ونساء يرتدين الملابس الجيدة. لقد علمتني اربعة شهور امضيتها في «السوم» بان الحياة من دون نساء تكون حياة خالية من الجمال او المتعة.

اشار ابي الى هذه الزيارة في رسالة بعث بها الى امي فقال: «ان جاكو»[٧] قد وصل الي في مساء يوم الثلاثاء، وقد ابقيته هنا ثلاث ليال، واخذته الى الحانوت الخاص بالضباط، وجعلته يصلح نفسه بصفة لائقة، بما حصل عليه من الملابس الداخلية، والجواريب، التي اخبرني مراسلي عنها بان «غلوب» كان في حاجة ماسة اليها. وكان اسوأ شيء بالنسبة الى المكان هو تحمل الوحدانية المرعبة. ذلك انه لم ير لا مدنياً، ولا حانوتاً او حتى مسكنا لمدة اربعة شهور، وهو يبدو قويا جداً، وفي صحة تامة.

وحين كنا في جبهة «السوم» كتبت ذات مرة في يومياتي «ان المرء يتحول الى شخص مادي جدا في تفكيره، في هذه الدورة المألوفة من عمل لا نهاية له في اجواء مخيفة وكالحة، تحيط به، ومن دون حتى حلول يوم واحد من ايام الاحاد، او شيء من المشروبات الروحية. ينبغي علي ان انكب دوما على مطالعة كتاب «تطبيق وجود الله» لمؤلفه «برذر لورنس»[٨]، فالكل ذات الشيء، وان كنت اعتبره نادراً. ذلك ان الله لن يرفض التمتع بوجوده حينما اطلبه منه!»

في احد الايام كنت في خط الجبهة. وكنت اعود سائراً في جو اغبر اللون، مليء بالضباب،وقد جلست بضع دقائق على كومة من الانقاض في قرية «مارتنبويش»[٩] المهدمة، وعلى حين غرة استحوذ علي احساس بالمتعة، كان شديداً خارج حدود الوصف، وقد استمر بعض دقائق، ثم اخذ بعدها يضمحل رويدا رويدا.ومنذ ذلك الوقت اخذت اعرف على الاقل دائما معنى عبارة «الانجذاب الروحي».

واذ اقرأ الآن يومياتي القديمة فانني اعجب كيف كنت على استعداد لأن اتحسس وجود الله حين افكر فيه، وان الشيء الوحيد الذي استطيع الآن ان استخلصه هو: ان النفحات الروحية البهيجة كانت تشيع بكل يسر بين الشباب العاطفيين اليافعين.

لقد انقضت ستون سنة، منذ ان احسست بذلك الانجذاب الروحي في جبهة «السوم». اما الآن فان الحياة ثابتة ووقورة، ولكن تنقصها تلك اللفتات من العاطفة

---

(٧) JACKO وهو لقب تحبيب كما يبدو

(٨) BROTHER LAWRANCE

(٩) MARTIN PUICH

الروحية. ذلك ان «حصان» الحرب القديم قد حل محل «الفلو»!. ولقد احتفظت امي بالرسائل التي كنت قد بعثت بها اليها من فرنسا، وهنا انني اثبت هنا اثنتين منها اخترتهما كيفما اتفق.

٢١ / ١ / ١٩١٧

امي العزيزة

قبل كل شيء اشكرك كثيرا على الرزم التي كانت تحتوي على: (١) زيت من علامة «مارس» (٢) بطاريات كهربية، والواح صابون وغيرها: (٣) مسحوق الاسنان العجيب، والمناديل، والجواريب. كما ارجوكِ ايضاً ان تشكري عمتي على ارسالها إحدى الرزم التي تحوي كعكتين فاخرتين!

لدي طلب آخر! هل في مستطاعكم ارسال علب من مادة الغسيل من فضلكم؟ انه نوع من الصلصال لتنظيف رؤوس الحبال البيض، وآثار الحبال وغيرها. كذلك تسلمت النماذج التي اعادها ساخطا «الفريد ويب مايلز». ينبغي علي أن احاول، والفق قياساتي، بالنسبة الى النماذج التي يعتقد بانها ملائمة لي. انها تذكرني بـ (سندريللا) و بـ (فينوس ميلو) في اسطورة «قبلة لسندريللا». الا تتذكرون كيف كنا نستمتع بذلك؟ انني مندهش لانكم لم تذهبوا لرؤية مسرحية «ج.م. بري»[١٠] المعنونة «قصة حب استاذ» بدلا من مسرحية «هـ. لودر»[١١] اننا في قبضة الشتاء هنا. فقبل خمسة ايام مضت كانت كثافة الثلج قد بلغت اربع بوصات، ومنذ ذلك الوقت ونحن نواجه ريح الشمال السوداء القارصة المطعمة بالثلوج. لقد كان الثلج جافاً اشبه بالمسحوق. وقد تجمدت كل برك الأوحال والمياه. ان ريح الشمال تلسع اذن الانسان، وانفه، وذقنه. ينبغي علي ان اتوقف الى هنا الآن، وان كانت هذه الرسالة جد فقيرة! وداعا يا عزيزتي مع مزيد من الحب.

جاك

مازلت اتذكر، وكأنه اليوم، كآبة ذلك الحزام الذي كان عرضه يمتد الى ستة اميال، من ذلك التدمير الهائل الذي حدث في «السوم». ذلك لانني قرأت في الصحف اليومية عن احتمال وقوع حرب نووية بين الولايات المتحدة الامريكية

---

(١٠) J.M.BARIE

(١١) H.LAUDER

وروسيا السوفياتية، والتي سوف تحول كل امريكا الشمالية، واوربا، وروسيا، السوفياتية، الى اكوام من الانقاض، ومن دون اي شكل من اشكال الحياة. ان العزلة المؤلمة لستة اميال من حمأة اوحال لا حياة فيها، كيف يراد لها ان تمتد الآن الى تدمير كل القارات. تلك هي حصيلة الاربع والستين سنة من التقدم![12]

ان من المستحيل العثور على تفسير منطقي، لتصميم النوع البشري ذلك التصميم الواضح على التسابق في الانتحار. ان العالم يضم موارد وفيرة لتموين الجنس البشري. واكثر من هذا، ان اكثر الامم ثراءاً، هي التي تقود هذا السباق المخبول لتدمير حياة الانسان (والحيوان والنبات معا). ان الامم المختلفة لا تحتاج الى ان تخاصم احداها الاخرى الا في سبيل الخوف المتبادل.

لقد كنا نسمع باستمرار عن حياة المسيح، بانه كان يأمرنا بان نحب اعداءنا، ولذلك اخذت تصيبنا رجة، ونحن في سن كهولتنا، لكي نتأكد، كيف ان هذا النظام الذي كان ضروريا، ينحط الى الارض بصفة عملية حقاً. لا يوجد هناك اي سبب يجعل الامريكيين لا يحبون الروس. فانهم في الواقع، حين كانوا يلتقون افرادا فان من المحتمل ان يحب احدهم الآخر.

لكي تحب كل انسان على وجه الارض، أودعنا نقول، ان تعتبرهم جميعاً، ذوي نفع ومودة، فان هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها الجنس البشري ان يحيا. فاذا لم نكن كلنا نعرف الحب الجماعي، فان الجنس البشري، سوف يفنى ويباد قبل ان تظهر هذه السطور مطبوعة في كتاب.

علينا ان نقول بان الله، اي روح الكون، انه هو الحب، وليس قطعة شعرية للمثالية. انه على وجه التأكيد بيان عملي ثابت، لمبدأ لا تستطيع الحياة بدونه ان تعيش طويلا.

هنا ادرج رسالة اخرى من رسائلي مؤرخة في ١٣ / ٣ / ١٩١٧

امي العزيزة!

اشكركم كثيراً على الرزم التي كانت تلقى الترحاب، والتي كانت تتألف من التمور، والجواريب، والجبنة وقطع الشاي. كذلك تسلمت القفازات الجميلة التي بعثتم بها، وقد استعملتها في هذا الجو البارد.

---

(١٢) يشير المؤلف بذلك الى الفترة التي مرت بين سنة ١٩١٧ وسنة تأليف المذكرات وصدورها في اواسط سنة ١٩٨٣.

لقد اصبح الجو في هذه الامسية اكثر دفئاً، وقد تذوب الثلوج اخيراً. تقول عمتي المتخيلة، بان سراويلي تنبعث منها رائحة التبغ. انني متأكد بان هذه السراويل لا تحمل رائحة التبغ على الاطلاق، كما انني لم الاحظها على هذه الشاكلة في اية حالة ابدا. لا! انني لست ادخن في الوقت الحاضر، ومهما يكن الامر فانني لن ادخن بساقي، وادع سراويلي تشم منها رائحة التدخين.
اجل! لقد حصلت على نباح الخنازير المبقبقة الذي اوقف في الحاكي. وانني اخشى ان تكون ملاحظتكم المتفائلة حول حصولي على اجازة عاجلة، من الامور السابقة لاوانها!. لقد عدنا نعيش مرة اخرى في جزء متمدن من العالم، بعيدا عن الحشود المخبولة، ولا نتذكر الحرب، الا حين نشاهد طائرة المانية مصادفة ليس إلا. لقد تناولنا عشاء نفيسا هذه الليلة، احتفالا بسكننا في اوربا المتمدنة.

لقد غدا الجو في الاخير اكثر دفئاً، ومع ذلك فانه الطف جمالا. لقد كانت هذه الامسية كاملة تماما. لقد غربت الشمس الآن، ولم تعد تهب حتى ولا نسمة من ريح. فالسماء من فوقنا ماتزال صافية زرقاء تماما، لكنها اخذت تزداد شحوبا اكثر فاكثر تدريجيا باتجاه الافق، ومن ثم بدت بلون اصفر مخضوضر بشكل خفيف جداً جداً، فامتزجت باللون الاصفر الشاحب، وبالحمرة البرتقالية، في حين انتشرت عتمة ضبابية خفيفة فوق الافق. انني احب الجزء الاصفر الشاحب لانه يعطي الانسان فكرة عن اللانهائية. كل شيء مايزال ساكنا وهادئا تماماً. ذلك ان السلام التام فيه، يبدو وكأنه قد اخذ يتسلل الى روح كل انسان.

اما الآن فان عليّ ان اعود الى الدائرة، لان أي شخص لا يستطيع ان يهرب من دائرة تضم اشكالا وانواعا، وان كان يتولى امرة سرية ميدان، وذلك هو ما اقوم به الآن، بعد ان اعفي «ماك» من هذه المهمة لكي يعد دورة من التعليم. وداعا عزيزتي ومزيدا من الحب

جاك

* * *

في شهر آذار سنة ١٩١٧، انضمت فرقتنا، وهي الفرقة الخمسون، الى الفيلق الثامن عشر، الذي بدأ يتدرب بصفة فيلق مطاردة. ذلك لان معركة جديدة كانت على وشك ان تنشب في «ارّاس»(١٣)، فبعد ان استطعنا أن نخترق خطوط الخنادق

ARRAS (١٣)



الالمانية، كان على الفيلق الثامن عشر، ان يقتحم المعركة، وان يطارد العدو الى برلين!

وفي اليوم الحادي عشر من شهر نيسان سنة ١٩١٧، وفي غمرة عاصفة ثلجية، امضينا الليل كله في مسيرة، ودخلنا مدينة «اراس» عند الفجر، لكننا اخفقنا في اقتحامها. ذلك اننا بدلا من تعقيب العدو المنهزم، استولينا على خنادق امام «فانكورت»[١٤] واستأنفنا الاسلوب القديم في حرب الخنادق.

وفي اليوم السادس من شهر آب كتبت الى امي ما يلي:-

امي العزيزة!

اصبحت الاجازة الان تراجعا ليس الا، ولست ادهش اذا ما استطعت ان افاجأكم بمجيئي في نهاية هذا الشهر. هل وصلتكم بدلة ملابسي العادية، واحذيتي السود، وعصاي، وقبعتي الكروية؟ انني اتطلع عن طريق «جورج» الى الحصول على اجازة. وداعا ياعزيزتي، وآمل انكِ قد غدوت في وضع افضل مؤخراً. لك المزيد من الحب.

جاك

ولكن للاسف ان هذه الاجازة لم تحصل، لأنني اولاًكنت قد جرحت. ففي اليوم الحادي والعشرين من شهر آب سنة ١٩١٧ وفي «هنينل»[١٥] شرقي «اراس» اصبت بشظية من قنبلة المانية حطمت فكي الاسفل تحطيما تاماً، ولم اكن اتوقع أن اعيش، ولذلك تم اخلائي الى انكلترا، وبقيت طيلة ثلاثة اشهر ارقد في المستشفى العمومي الثالث بلندن في «واندسورت» ولم اتلق أي علاج اطلاقا، وظل جرحي متقيحاً، وينشر رائحة كريهة ومن ثم نقلت الى مستشفى خاص في «فروغنال»[١٦]، في «سدكب» بـ «كنت». وهو مستشفى كان قد انشىء خصيصاً لمعالجة الجروح التي تصيب الوجه.

كانت «فروغنال» عبارة عن منزل ريفي واسع، مايزال يحتفظ بالمكتبة التي تعود الى مالكه. وهنا وللمرة الاولى، قرأت كتابا ينكر وجود الله، ويعزو العالم المحيط بنا من حولنا، الى عملية ذاتية للتطور. لقد كنت على الدوام اتقبل حكم الله على العالم،

---

(١٤) WARNCOURT

(١٥) HENINEL

(١٦) KENT, SIDCUP, FROGNAL

وكنت قادراً على الصمود امام كل مشاق الحياة، وآلامها، اعتقاد امين بان الله هو المسؤول. وعلى حين غرة، وباعتقاد مني، بانه ربما ان يكون الله غير موجود، انهارت قاع عالمي!

اسرع مستشفى معالجة جروح الوجه، في تنظيف جرحي، وتم اقتلاع العظام الميتة، والاسنان المحطمة. ومن ثم تجبير فكي الاعلى والاسفل معا ولم تبدأ عظام فكي الاسفل في النمو ثانية الا في شهر آذار من سنة ١٩١٨ لقد اصبت بكآبة شديدة جراء جمودي الاجباري، ذلك لان قلبي وروحي كانا مع الفتيان في فرنسا. كانت امي تعيش في غرفة جلوس تحتانية واسعة في (٣٧ الفريدبليس)[١٧] الذي يطل على محطة سوث كنسغتون»[١٨] وكان البيت ملكاً لامرأتين بلجيكيتين من لاجئات الحرب من موطنهما بلجيكا، وقد افردتالي غرفة تحتاينة صغيرة خلف البيت.

حدث بعض الخطأ بمناسبة تاريخ مولدي. وقد بقيت امي تتألم باستمرار دائم منذ ذلك الـوقت،وعلى الاخص حين تكون متعبة. ذلك لانها كانت تنفق ساعات عديدة، بل حتى اياما طريحة الفراش بذلك المرض القديم الذي كانت تشير اليه بانه هو مرض (العظم الركابي)[١٩]

انني لا تذكر جيداً كيف كنت اركع بجانب سريرها، واقول لها «لا استطيع ان امكث هنا في انكلترا، من دون ان اعمل شيئا ما، في الوقت الذي يعاني فيه الفتيان، المزيد في فرنسا!»

جبر الجراحون فكي الاسفل، بان ربطوه بالفك الاعلى، وبذلك اصبح يتحرك اشبه بالجبيرة، بقصد الابقاء على الاجزاء المحطمة من فكي الاسفل سوية، واعانتها على ان تتوحد، وهكذا فانني لم اعد استطيع ان افتح فمي. ومهما يكن فقد فقدت كل اسناني تقريبا، واستطعت ان ادفع بقطع من الخبز، والزبدة في فمي بين اللثات التي فيه. ولم اكن استطيع التحدث الا بمشقة، مثلما يحصل لدى اي فرد يحاول ان يتكلم في الوقت الذي يبقى فيه فكاه مغلقين.

كنا نمتلك حاكيا قديما يدار باليد في غرفة امي، وقد اعتدت ان ادير الاسطوانات التي لا يزيد طول الواحدة منها عن عشر بوصات في تلك الايام.وانني لا تذكر الآن

---

37 ALFRED PLACE (١٧)

SOUTH KINGSINGTON (١٨)

OPEDTIBULUM (١٩)

معزوفة «هاندل» المسماة «لارغو» وكذلك معزوفة «بوكشريني»[٢٠] المسماة «ملايين دي هارلكوان» و «ليالي المرح»[٢١] وفي احدى المرات، واذ كنا ندير اسطوانة «ادورد» تضم رقصات «نيل غوين» الالمانية، اسندت ربة البيت البلجيكية، برأسها الى الباب، وتمتمت «آه! هذا شيء جميل!»[٢٢]. كذلك اعتدنا ان نستمع الى الحان الملحن الارلندي «جون ماكورماك»[٢٣].

واذ بقي فكاي مجبرين لجملة من الاشهر، اصبحت اقدر على الخروج، لكنني كنت احس بانني كسول، ولا نفع لي في ذلك. واخيراً تطوعت للعمل في صالة «كنسنغتون تاون» حيث كان يجري اصدار بطاقات التموين. كنت اجلس الى منضدة صغيرة داخل باب الصالة تماما، وتحت اعلان يقول «استفسارات». وكان كل الناس يحتشدون عند الباب للحصول على بطاقات التموين الجديدة، او يسألون عن الاسباب التي تدع اصحاب الحوانيت يرفضون ان يبيعوهم اي مزيد من لحم الخنزير المملح، او الزبدة، او السكر!

لقد طبعتني هذه التجربة بعدم عقلانية الكثيرين من الناس. لقد كانوا كلهم من النساء طبعاً، ومعظمهن من ربات البيوت اللواتي كان ازواجهن بعيدين عنهن، في ميادين الحرب. وقد يتعاظم جنون البعض منهن ضدي، بسبب عدم كفاية التموينات المزعومة، وان كنت قد عينت هناك لغرض واحد، هو ان اوضح لهن النظام المعمول به. ولم تكن غلطتي اذا كنّ قد استهلكن بطاقات لحم الخنزير، او السكر المحددة لمدة شهر وذلك في النصف الاول من الشهر!

ولغرض رفع معنوياتي اعتادت امي ان تأخذني معها الى المسرحيات، او الكوميديات الموسيقية المسائية. واذكر اننا كنا قد ذهبنا الى كوميديات «تشوتشن تشاو» و «الليلة هي ليلة»، و «حكايات هوفمان» و «جندي من الشوكلاتة» كما اظن، كما شاهدنا مسرحية «الحلوة نيل» من «اولد دوري» مع «اسك» و «اللي برايتون».
وفي الاخير نمت عظام فكي الاسفل سوية، واستطعت ان اقنع المجلس الطبي بانني ملائم للعودة الى خط الجبهة. كانت الفرقة الخمسون، اثناء غيابي عنها، قد تولت مهمة كامل القوة التي واجهت الهجوم الالماني على «السوم» خلال شهر نيسان

---

(٢٠) BOCCHERINI
(٢١) NIGHTS OF GLADNESS
(٢٢) ذكرت هذه الجملة بالفرنسية هكذا AHC'EST JOLICA
(٢٣) JOHN MCCORMACH

سنة ١٩١٨ . اما بقاياها فقد تحركت الى قطاع هادىء على مقربة من «سواسونز»[٢٤]، حيث القى الالمان، على وجه الدقة، بثقل هجومهم الثاني، في تلك المنطقة، وكانت النتيجة ان ابيدت الفرقة الخمسون، ولم يعد لها من وجود ابدا.

* * *

وحين نجحت اخيراً في العودة الى فرنسا في اليوم الحادي عشر من شهر تموز سنة ١٩١٨، كان ابي، وبطلب مني، قد رتب لي امر العودة الى سرية الميدان السابقة. كان هذا يمثل خيبة امل له، لانه ارادني ان اتقبل منصب نقيب اركان في مقر احد الوية المشاة. وبالنظر الى عملي المقبل، فقد كان من المفيد كثيراً، بالنسبة لي، ان اكتسب بعض التجربة عن الاركان قبل ان تنتهي الحرب. على انني الححت على العودة الى سريتي القديمة، لانني اعرف افرادها واحبهم فلم اكن لاهتم بعملي المقبل. والحقيقة ان حياتي كلها كانت تكرارا لهذا الموقف. فقد كانت دوافعي على الدوام منصبة على حب الناس، وليس المال او التقدم. عثرت على الفرقة الخمسين حين كانت ترتاح في كنيسة «مارتن» على مقربة من «دييب»[٢٥]، لكنها لم تكن هي تلك الفرقة التي عمدتها.

لقد ابيدت منها افواج حملة البنادق من «نورثمبرلاند»، وافواج «درهام» للمشاة الخفيفة. وقد اعيد تشكيل الفرقة بافواج سحبت من «سلانيك» بعد ان اصيبت بالملاريا!

كانت سرية المشاة السابعة، قد ابيدت هي الاخرى أيضاً، ولم يبق على قيد الحياة أي من ضباطها. وكل ما بقي منها عدد قليل من زارعي الالغام، وان كان البعض من سائقي وسائط النقل، مايزالون موجودين فيها.

واخيرا وفي اليوم السادس عشر من شهر ايلول كانت الفرقة الخمسون التي اعيد تشكيلها، قد دفع بها مرة اخرى الى الجبهة. لقد سرنا الآن عائدين عبر ميدان معركة «السوم» المخرب. حتى ان مدينة «البرت» التي كانت نصف مهدمة في وقتنا، قد ازيلت الآن من الوجود تماما.

كان الالمان يتراجعون على امتداد خط الجبهة. باشرنا العمل عند «فاندهويل»[٢٦]

SOISSONS (٢٤)

DIEPPE (٢٥)

VEND HUILE (٢٦)

فوق قناة «كمبري ـ سان كونتان»[٢٧] في اليوم الثالث من شهر تشرين الاول. كانت الجبهة برمتها تتحرك!. وكنا في كل يوم، وثان او ثالث، قد نقوم بالهجوم، ونتقدم مسافة اربعة او خمسة اميال. وما ان اجتزنا «لي كاتو»[٢٨] حتى وصلنا الى حافة «فوري دي مورمال»[٢٩] عند الجنوب الغربي من «موبييج»[٣٠]

كنت اتولى قيادة سرية الميدان السابعة، عندما قمنا بهجومنا الاخير في اليوم الرابع من شهر تشرين الثاني. لم تكن الحرب قد دمرت الريف هنا. وكانت تقطعه سياجات من نباتات، أو بساتين، بالاضافة الى قرية «فونتين او بوا»[٣١] وكان المشاة قد انتشروا في حفر اتخذوها مواقع لهم، او تحت السياجات.

حدد موعد الهجوم باليوم الرابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨، وان يتم على جبهة عريضة جدا. ولكن المشكلة هي تجميع المشاة خلال الليلة السابقة، بحيث يستطيع الهجوم كله ان يمضي سوية قدما. ولهذا الغرض طلب الى زارعي الالغام، ان ينجزوا عملية اقامة خط طويل من اشرطة بيضاء تحت عتمة الليل امام مواقعنا المتقدمة. وفي الوقت ذاته كان ينبغي لنا ان نقطع، وان نؤشر ممرات الاقتراب، وان نمرق عبر السياجات والبساتين، لنساعد كل فوج مشاة على ان يجد طريقه الى موقعه في الشريط الذي ينبغي القفز من فوقه. فكل هذه الامور يجب القيام بها في جنح الظلام اثناء الليل قبل ان يبدأ الهجوم الكبير، وذلك لكي نمنع العدو من رؤية او سماع ما كان يحدث.

سار كل شيء سيراً حسنا نتيجة جهودنا الدقيقة. فلقد تقدم المشاة عند الفجر، من الخط الذي وضعت فيه الاشرطة، ولقد حصل ـ لوقت قصير ـ تراشق بالقنابر، ونيران الرشاشات، ومن ثم اختفى العدو

وابتداء من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، وما بعدها، كنا نتقدم في كل مكان، من دون ان نجابه باية مقاومة. فلم نر الجيش الالماني مرة اخرى. وفي اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني طلب الينا ان نتوقف بسرعة في المكان الذي كنا فيه، لان الحرب قد انتهت!

CAMBRAI ST. QUINTIN (٢٧)

LECATEAU (٢٨)

FORET DE MORMAL (٢٩)

MAUBEUGE (٣٠)

FONTAINE-AU-BOIS (٣١)

واذ كنت ضابطا نظاميا فقد تم استدعائي الى «تشاتام» في شهر شباط سنة ١٩١٩، وذلك لغرض الاشتراك في دورة للهندسة تستمر سنة واحدة•كان عملنا في فرنسا بسيطا، وكان يتم انجازه بالرفوش، واكياس الرمل، والاوتاد، والاسلاك، والعوامات، والجسور، والواح قطن المدافع. اما في «تشاتام» فاننا كنا نتعلم اعمال البناء، واعمال الربط والشد للهياكل والعارضات الفولاذية، والهندسة الآلية بالشكل الذي كانت عليه في تلك الايام. وكنا في الفترات التي تقع بين المحاضرات، نتجمع في ساحة الثكنة.

ركب ابي في «كولون» صهوة جواده مع مقر الجيش، باعتباره رئيس مهندسي جيش الاحتلال، لكنه ما لبث بعد اسابيع قليلة ان تقاعد من الجيش، واستأجر، هو وامي، بيتا لهما ولمدة سنة في «بوكستيد» بمقاطعة «سوسكس». كان ابي آنذاك في الستين من عمره، وقد انفق حياته مع الخيول. ومع ذلك فان انكلترا كانت قد تغيرت فلم يعد في مقدوره ان يحتفظ باحد الخيول، ولكنه اشترى سيارة مستعملة قديمة!

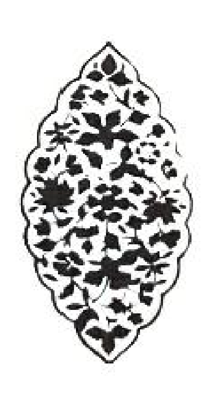
وفي احد الايام، اصطحبني معه في سيارته التي كان يسوقها بنفسه الى لندن. وما ان بلغنا التقاطع المزدحم لسيول وسائط النقل في زاوية «هايد بارك» حتى توقفت ماكنة السيارة. لم تكن السيارات في سنة ١٩١٩ تحرك بمفاتيح ذاتية للتحريك، فكان من اللازم ان تحرك السيارة بمقبض للتحريك. ولقد توليت انا القيام بهذا الدور الاخير، فقفزت من السيارة، ووقفت امامها، وحاولت ان ادير الماكنة لكي تتحرك، غير ان شيئا ما من هذا لم يحدث، وهنا خاطبني ابي يقول «وجه اليها لطمة جيدة!» بذلت كل جهدي في ذلك، لكن السيارة ابت ان تشتغل. توقف السير، وتجمع حشد من الناس من حولنا، واذ ذاك وجه احد رجال الشرطة اللطاف (وكانوا لطيفين ومساعدين في تلك الايام)كلمات التشجيع. فرحت احرك الماكنة، الى ان آلمتني ذراعي، ولكن من دون جدوى. واخيرا دفع الحشد الواقف بالسيارة الى خارج الطريق تحت صف من الاعمدة في داخل الحديقة، حيث بدأت تتحرك بطقطقة وضجيج مرتفع!

***

انتهت دورتي الاضافية في «تشاتام» في شهر حزيران سنة ١٩١٩•كان ابواي يمكثان آنذاك عند البحيرات الايطالية، وقد طلبا اليّ ان انضم اليهما (حين كنت طفلا ركبت البحر المتوسط من جزر موريشيوس. ولكن في سنة ١٩١٩ اكون قد امضيت اربع سنوات في اوحال الخنادق، ومن بعدها تسعة اشهر في ثكنات «برومبتون» في «تشاتام».

وما ان وصلت الى ايطاليا ببواخر شركة «سمبلون اكسبريس» حتى اخذت على حين غرة بجمال هذه البلاد. فمن «ميلانو» الى «كومو» ومن ثم ركبت احدى البواخر في البحيرة[٣٢]. لقد بدالي وكأنني في حلم من الجمال، والدفء، واللون. كان ابواي يقيمان في قرية صغيرة تدعى «سان ماميت»[٣٣] على بحيرة «لويغانو»[٣٤]

كان الفندق الصغير يقوم على شاطىء البحيرة، وكنا نتناول وجبات طعامنا على شرفة تحت كرمة متشابكة الاغصان، حيث يتلاطم ماء البحيرة بالجدار القائم بجانبنا. فاللون، والشمس الدافئة، والبحيرة، والجبال، كل هذه كانت تتمثل لي في صفة رؤى لفردوسي ارضي، لم يكن لدي اي مفهوم عنه قبلا.



---

(٣٢) يقصد بها بحيرة كومو COMO وهي من اشهر البحيرات في ايطاليا

(٣٣) SAN MAMETTE

(٣٤) بحيرة LUGANO من البحيرات الشهيرة في ايطاليا والتي يقصدها السواح من مختلف انحاء العالم في كل فصول السنة.

الفصل السادس



شرقي السويس

انتهت دورتي الاضافية في تشاثام، وغدوت مهيئاً للنقل. فما الذي سوف افعله؟. ان السنة التي امضيتها في تشاثام قد أمرضتني نتيجة حياتي في الثكنات. لايوجد اي شيء يمكن عمله في انكلترا. فلست انا زير نساء، وليست لدي حياة اجتماعية!.

كان نقص مواهبي الاجتماعية قد سبب لي شيئا من القلق، بالنسبة الى «الدعوات» و «الولائم»! فقد كان الضباط الشباب يتوقعون ان تتم دعوتهم، لكي يزوروا اسر الضباط الكبار، وان يتركوا لديها بطاقات الزيارة، التي قد تنجم عنها دعوتهم لتناول الشاي، وكانت مثل هذه الدعوات تقع في اوقات تناول الشاي، حين يكون الزوج، على اكثر احتمال. مايزال في عمله، ولاتوجد في البيت سوى سيداته!

ولكم حاولت، في اغلب الايام، ان اخطر امام احد المنازل، وان اكر راجعاً مرة اخرى، واحاول ان اعين أية اشارات للحركة. فاذا ما شاهدت احداً خلال النوافذ، مضيت في سبيلي، واجلت زيارتي الى يوم آخر، الى حين ان يسعفني الحظ الجيد لان اجد كل انسان في الخارج!

وانني لأتذكر احدى المناسبات، حين صممت انا وضابط شاب آخر، ان نزور احدى العوائل (ولنقل عنها) انها عائلة العقيد «جنكنز» الذي كان يسكن على مبعدة ميل، او ما يعادل ذلك في «غلنغهام»(١). على اننا ماكدنا نصل الشارع، لم

(١) GILLINGHAM

نعد نتذكر ما اذا كان رقم الدار هو (١٧) ام (٢٧). ولذلك قررنا ان ندق جرس باب الدار رقم (١٧). وحين فتحت الخادمة الباب، اخذنا نتساءل عما اذا كانت «الليدي جنكنز» تسكن هناك.

ومع ذلك، ولشدة ارتباكنا، فتحت الليدي لنا الباب، وحيتنا بمودة، وطلبت الينا ان ندخل، وقدمت لنا الشاي، ولقد امضينا نتحدث لمدة نصف ساعة، من دون ان نعرف ما اذا كنا نتحدث الى الليدي جنكنز ام لا!... او حتى ما اذا كان زوج المرأة ضابطا ام لا. كان جهلنا بهذه الامور، قد حدد حديثنا تماما، لاننا لم نود ان نكشف في الواقع، باننا لسنا نعرف من تكون تلك المرأة.

ولكن لما كانت امثال هذه الزيارات تؤلف كابوساً بالنسبة الي، انا الذي كنت في الثالثة والعشرين من عمري، فانني استطيع الآن ان اقيم النظام المعمول به في الوقت الحاضر، اي بعد ستين سنة من ذلك التأريخ، وهو التخلي عن الزيارات، وبطاقات الزيارة الاعتيادية. ففي الايام القديمة، كان المرء اذا ما وصل ليسكن في منطقة جديدة، فان الجيران يقبلون لزيارته خلال ايام قلائل، ويتركون له في بيته بطاقات زياراتهم التي تحمل اسماءهم وعناوينهم[٢].

ومن المحتمل ان يقدم المرء على رد الزيارة خلال اسبوع او اسبوعين، وان يجد البعض منهم في الدار. وهكذا ففي خلال شهر واحد، يكون الساكن الجديد، قد عرف كل فرد في الضاحية.

اما في الوقت الحاضر، فان في مستطاعك ان تعيش في منطقة جديدة من دون ان تعرف اي احد فيها، او أن يعرفك اي من الناس فيها. كم من المؤسسات القديمة التي ينظر الآن اليها بازدراء، كان لها في الواقع قصد عملي جدا!

* * *

(٢) هذا الحال الذي يصفه المؤلف هنا ينطبق تماما الانطباق على ما كان يجري في بغداد، في الدرجة الاولى، وفي بعض المدن الاخرى في سني العشرينات، وحتى الثلاثينات، فحين كان احدهم يستأجر او يشتري بيتا في احدى المحلات وينتقل اليه مع عائلته، سرعان مايقبل عليه جيرانه فيرحبون بمقدمه وسكناه في جوارهم، فيهيئون لاسرته وجبات الفطور، وطعام الغداء والعشاء لايام متواصلة قد تزيد عن اسبوع، مما كان يزيد من روابط المودة والصداقة، والتعاون في اوقات الشدة والافراح وغيرها.

غير ان هذا الوضع قد تغير الان تغيرا تاما، وانعدمت هذه الروحية الكريمة بين الناس، بعد ان اشتد التكالب على المادة، وبعد ان غصت بغداد وكل المدن الاخرى بالقادمين اليها من الارياف من ذوي الطباع الجافة والخشنة، والذين كانوا فيما مضى ينظرون الى سكان المدن نظرة حسد وحقد، وتحفز للانقضاض عليهم وسلبهم كل مايملكون. الى درجة ان اصبح البعض لايعرف من هو جاره ولايزوره او يتحدث اليه حتى لو مكث الى جواره عدة سنين فسبحان مغير الاحوال، وما اغرب تقلبات الزمان!

حين يوصد الله احد الأبواب، فانه يفتح اخرى غيرها. ففي مجرى العمليات العسكرية ضد الاتراك، في الحرب العالمية الاولى، كانت بريطانيا قد احتلت وديان نهري دجلة والفرات، التي تعرف الأن باسم العراق[٣]. ولقد تم تسريح الجيوش منذ ذلك الوقت، ولم تبق منها سوى قوى الهياكل بقصد الحفاظ على الامن.

ولقد جرت المفاوضات التي لم تكن لها نهاية للتوصل الى تسوية السلم العالمي. في فرساي[٤] وانصب اهتمام هذه المفاوضات في الدرجة الاولى، على الدول الكبرى، فرنسا، والمانيا، وروسيا الثورية، وبالخطط التي وضعها الرئيس «وودرو ولسون»[٥] للانتدابات وعصبة الامم. وكان مستقبل جزء واسع من الامبراطورية العثمانية، قد ادرج في جدول مفاوضات «فرساي». وقد تعاظم قلق العراقيين لان مستقبلهم بقي غير مقرر.

وفي ربيع سنة ١٩٢٠ انفجرت الاضطرابات[٦]. كان معظم الضباط البريطانيين في القوات البريطانية الملغاة على استعداد لتسريحهم من الجيش.
ونتيجة لذلك دعت وزارة الحرب ثلثمائة من الضباط النظاميين للتطوع بالذهاب الى العراق، فقدمت اسمي وتم قبوله.

في اللمحات المترددة التي لم يتم التفكير فيها، من الفكر المعتاد، كانت الامبراطوريات تعتبر في بريطانيا، خلال تلك الايام، من المؤسسات الخالدة. ولكن القضية لم تكن على هذه الشاكلة في سنة ١٩٢٠. فقد كان أبي يعتقد بان واجب بريطانيا هو أن تحمي شعوباً كثيرة في الامبراطورية، وان تساعدها وتشجعها.

---

(٣) **ميسوبوتاميا**

ا

(٤) فرساي VERSAILLES مدينة تقع جنوبي غربي باريس بحوالي ثلاثة وعشرين كيلومترا اشتهرت بقصورها وجنانها ومتاحفها. كانت مقر الملوك الفرنسيين. وفي فرساي هذه وقعت معاهدة حرب استقلال الولايات المتحدة الامريكية عن بريطانيا ايضا.

(٥) وودرو ولسون WOODROW WILSON رئيس الولايات المتحدة الامريكية خلال الحرب العالمية الاولى وصاحب النقاط الاربع عشرة الشهيرة عن حق تقرير مصير الشعوب، ولكن الحلفاء الغربيين، وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا، لم يأبهوا بتلك النقاط ولا بمبدأ حق تقرير المصير، واقتسموا البلاد التي كانت تابعة لحكم الاتراك فيما بينهم، فكان العراق وفلسطين من حصة بريطانيا، وسوريا ولبنان من حصة فرنسا.

(٦) على غرار ما عرف عن الاستعماريين في كل زمان ومكان، الذين ينكرون على الشعوب المضطهدة حقها في التحرر والاستقلال، يطلق غلوب على ثورة العشرين في العراق نعت «الاضطراب» او «الاخلال بالنظام» او «التمرد» على اقل تقدير.

كان الواجب في الغالب ثقيلاً وباهضاً، ويشتمل على انفصال طويل لافراد كثير من العوائل. وكان مثل هذا الامر، في تلك الايام، يمثل العبء الحقيقي والمؤلم، للرجل الابيض.... وتلك عبارة كانت تعامل بازدراء في تلك الايام الفظة!.

غادرت انكلترا فرحاً ممتلأً بالأمل، وملهماً بذات المتعة في الخدمة التي كنت احس بها في جبهة «السوم». اما امي فانها قد اكتأبت كثيراً لذلك. من النادر ان يتحقق الشبان كيف ان الكبار يحتاجون اليهم حاجة قصوى. فالاطفال ضعفاء ومعقدون، وهم مضطرون الى الاعتماد على الدعم القوي، ممن هم اكبر منهم سناً. لكنهم ما ان يكبروا ويحصلوا على الثقة الذاتية، حتى يصبحوا مسرورين، لأن يتحرروا من السيطرة الابوية، الامر الذي لابد له ان يقع.

غير ان الشباب ما ان يصبحوا اقوياء، كاملي النضج، حتى ينسوا، بأن آباءهم سوف يغدون اكثر ضعفاً. وسرعان ما تنقلب مراكزهم النسبية، فاذا بالكبار قد غدوا ضعافاً وقلقين، ويحتاجون حاجة ماسة الى المرح، والدعم، والمساعدة من الشبان. اما الاخيرون فان من النادر لهم ان يقيّموا مثل هذا التغيير الذي يحدث في الادوار، ولا ان يقدروا بان من واجبهم ان يحموا آباءهم، مثلما كان آباؤهم يحمونهم ذات مرة!

ومع دلك فان النقيض قد ينتج مآسيه. فالبنات والاولاد، قد يكرسون انفسهم احيانا للعناية بآبائهم. ولكن حين يموت الكبار طبعا، فانهم يخلفون وراءهم عانسا، او اعزب من متوسطي العمر، ممن لم يعد في مقدروهم ان يتزوجوا لكبر سنهم، واذذاك يكون مصيرهم بان يقضوا بقية حياتهم في عزلة.
«ان الحل المثالي لذلك هو حل جغرافي. فالشباب ينبغي لهم ان يغادروا منازلهم، ويتزوجوا، لكن يجب ان يكون على مقربة كافية من كبارهم، لكي يصبحوا في الغالب، قادرين على زيارتهم، ومساعدتهم وتسليتهم».

لقد كانت هذه القضية صفة مثيرة. كانت جزءاً من الثقل الذي كانت الامبراطورية تنوء تحته، وكان عبئا ثقيلا في ذلك الوقت. ففي الوقت الذي كان فيه الأباء يخدمون في بعض الاجزاء النائية من الامبراطورية، كان اولادهم في المدارس في انكلترا. وحين نما الجيل الجديد، دفعه التقليد العائلي الى الخدمة في بعض الاقاليم الامبراطورية البعيدة، ولربما في احدى المناطق التي امضى فيها آباؤهم خدمتهم.

غير ان الآباء في ذات الوقت كانوا قد كبروا وعادوا الى انكلترا، ليموتوا فيها، في الوقت الذي كان فيه اولادهم وبناتهم، قد غادروا موطنهم للخدمة فيها وراء البحار.

* * *

وصلت الباخرة الى مالطا. حيث تسلمت هناك برقية وداع كئيبة من امي. نزلنا من الباخرة في «بومباي»، وبعد انتظار طال مدة اسبوع، استقلينا باخرة نقلتنا الى البصرة، ومن ثم غدونا نسير ببطء، وبصفة متواصلة، عبر ضفاف طينية في زورق بخاري متوجهين الى بغداد. ولقد استمرت هذه الرحلة اسابيع اكثر مما تستمر الآن بضع ساعات!

كان الوضع في العراق في سنة ١٩٢٠معقداً. فقد انقضت سنتان، منذ ان انتهت الحرب العالمية الاولى، غير ان مؤتمرات الصلح المختلفة قد اخفقت في اتخاذ اي قرار بشأن مستقبل العراق. كانت بريطانيا من ناحية، قد شجعت القومية العربية، تحت امرة شريف مكة لكي تعاون هذه القومية في الحرب، ضد الجيش العثماني في فلسطين وسوريا. وتنفيذاً لتعهداتها، اقامت بريطانيا الامير فيصل بن شريف مكة، ملكاً على سوريا.

ومن ثم اقدم حلفاؤنا الفرنسيون على مهاجمة دمشق، فاحتلوها، وطردوا «فيصلا» منها، حيث التجأ ضباطه الى العراق، وشرعوا يستنكرون بشدة خيانة بريطانيا لفيصل. والحقيقة ان بريطانيا لم تخن فيصل[٧] بل اغتاضت من العمل الذي اقدمت عليه فرنسا في سوريا. غير ان بريطانيا لم تستطع ان تعلن الحرب على حليفتها، في الوقت الذي مازالت فيه مفاوضات الصلح جارية في «فرساي».ونتيجة لذلك تحول كثير من البغداديين ضد بريطانيا، التي كان جيشها (وان تم تقليصه كثيرا) مايزال قائما في العراق[٨]

---

(٧) لامجال ابداً لتصديق هذا القول من المؤلف. كيف لم تخن بريطانيا، فيصلا واباه، وكل العرب الذين ثاروا على الاتراك، وهي التي سارعت، في غمرة الحرب، الى عقد اتفاق سايكس - بيكو لتقسيم البلاد العربية التي انسلخت عن تركيا فيما بينهما؟

(٨) وهذه مغالطة شنيعة اخرى من المؤلف. لان ايا من العرب او العراقيين لم يكن يريد من بريطانيا ان تعلن الحرب على حليفتها فرنسا ابدا، وانما المبادرة بتحقيق الوعود والعهود التي قطعتها للعرب باستقلالهم وتحررهم، بعد انسلاخهم عن الحكم التركي الذي انهار بسبب الحرب.

وفي الوقت ذاته تمت محاولة انشاء «ادارة لاحد اقاليم العدو المحتلة» تتولى ادارة البلاد، وهي عملية اشتملت على جمع الضرائب[9]. لم تكن السلطات التركية قد نجحت ابداً في عملية جباية الضرائب الاعتيادية من العشائر، وعلى الاخص في منطقة الفرات الادنى المضطربة. ومع ذلك فان ادارة احد اقاليم العدو المحتلة، كانت اكثر منهجية، وكانت تملك القوة، ولم تكن مرتشية.

ومع كل ذلك، وفي الوقت ذاته، كان المزارعون في العراق يدركون ما حدث في مصر، في عهد «اللورد كرومر»[10] ففي الوقت الذي كانت فيه مصر، قد افلست تحت حكم الخديو اسماعيل في سنة ١٨٧٩، فانها اصبحت مرفهة وغنية (؟؟) بتأثير اللورد كرومر القنصل البريطاني العام!!!. اما في العراق فان كثيراً من المزارعين قد تحققوا من هذا الامر، لكن الطبقة المثقفة في المدن كانت اكثر وطنية!.

كانت «القومية» هي اللعنة التي استوردت من اوربا.[11]. فقد كان يجري حكم الامبراطورية العثمانية لعدة قرون، بخليط من الاصول العرقية، من دون تحزب او تحيز. ولم تكن لدى عشائر الفرات اية احاسيس قومية، اذ كان الاتراك، والبريطانيون، والعرب، يمثلون ذات الشيء بالنسبة الى تلك العشائر[12]. على ان تلك العشائر لاتريد ان تدفع ضرائب الى اي انسان. وحين اصبح الجيش البريطاني ضعيفاً، نتيجة لعملية التسريح العامة فيه، ثارت العشائر، وابت ان تدفع الضرائب[13]

---

(٩) باشرت بريطانيا فور احتلالها العراق. الى جني الثمار التي استهدفتها من وراء ذلك الاحتلال. الا وهي جمع الضرائب من الشعب العراقي، والتسلط عليه بالقوة، والمبادرة باستغلال ثرواته الطبيعية. وعلى الاخص النفطية منها. ففي الوقت الذي كان فيه الجيش البريطاني يزحف الى الشرق والغرب والشمال لاكمال احتلال الاراضي العراقية، كانت فرق الجيولوجيين تسير مع الجيش الزاحف للتنقيب عن النفط في كل بقعة من بقاع العراق التي احتلها الجيش الانكليزي. [انظر كتابنا. معركة النفط في العراق ج١ طبعة ١٩٥٢]

(١٠)اللورد كرومر LORD CROMER (١٨٤١ ـ ١٩١٧) من عتاة الاستعمار البريطاني في الشرق كان في الاصل من ضباط المدفعية وخدم في مجلس نائب ملك بريطانيا في الهند، ثم عين وكيلا لبريطانيا وقنصلا عاما لها في القاهرة، وبقي يشغل هذا المنصب مدة اربع وعشرين سنة وهو يحكم مصر بيد من حديد. وقد تقاعد عن العمل في سنة ١٩٠٧.

(١١)كانت «القومية»، وهي تعني بالمعنى الضيق التعصب القومي الاعمى. من اهم الوسائل التي استخدمتها اوربا بعد فشل غزواتها الصليبية على البلاد العربية والاسلامية. لتمزيق العالم الاسلامي. وذلك عن طريق اثارة النعرات العنصرية والقومية وقد نجحت في ذلك ومازالت ناجحة في هذا الاسلوب حتى الآن

(١٢)لانوافق المؤلف على هذا الراي اطلاقا، ذلك لان العشائر العراقية لم تكن خلوا من التحسس بالاحاسيس الوطنية ابدا، وانها كانت تفرق جيدا بين الحكم العربي، والحكم العثماني والاحتلال الانكليزي

(١٣) لانقر المؤلف على هذا الادعاء الباطل. فعلى الرغم من سوء الاوضاع الاقتصادية، ومن ثقل عبء الضرائب التي فرضها الانكليز على العشائر، فان الاحاسيس الوطنية والدينية كان لها العامل الاقوى في ثورة العشائر والشعب العراقي برمته ضد الانكليز، ابتداء من سنة ١٩١٨ وانتهاء بالثورة العراقية الكبرى في سنة ١٩٢٠ والتي شارك شعب العراق، بمختلف عناصره وقومياته، مشاركة فعالة فيها ابتداء من الشمال حتى الجنوب، ومن الغرب حتى الشرق.

وفي الوقت ذاته برزت معارضة شعبية واسعة في بريطانيا، ضد استمرار وجود القوات البريطانية في العراق. ومع ذلك فقد كانت في بغداد، فئة من الناس، مؤلفة من العراقيين والبريطانيين الذين كانوا يحبون العراق، من امثال المس غرترودبل، والذين تأكدوا بان الانسحاب البريطاني المباشر سوف يؤدي الى الفوضى، وكذلك من اولئك الذين كانوا يدافعون عن استمرار الوجود البريطاني ليس بعيداً عن الاستعمار، بل بعيدا عن الحب الاصيل للعراق[١٤].

قد يكون مثل هذا الرأي خاطئا او غير خاطيء! فلو ان بريطانيا كانت قد جلت عن العراق فلسوف تنجم عن ذلك فعلا، اعمال الفوضى وسفك الدماء، التي قد تستمر لسنين عديدة. غير ان بريطانيا لايمكن ان تتهم بالجشع الاستعماري[١٥] ومهما يكن فان العراق لم يكن في الواقع قد عاش من دون شك، لان الاتراك كانوا يطالبون بولايات الموصل وكردستان، وظلت مطالبتهم هذه متشددة لجملة من السنين، وكانت بريطانيا هي التي دافعت عن ملكية العراق للموصل[١٦] وعلى هذا فان التوتر في الواقع، قد جعل النزاع بشأن الموصل، يبدو لوقت ملموس، وكأن الحرب بين بريطانيا وتركيا، غدت وشيكة الوقوع.

* * *

وصلت الى بغداد في شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٠، فاعطيت لي غرفة صغيرة في «السراي القديم» لكي اسكن فيها، الى ان تم نقلي. وبعد ظهر يوم احد، رحت انطلع الى مياه نهر دجلة العريضة، وجلست لكي اقرر هدف حياتي، وشرعت اسجل تأملاتي على الورق، وهذا نص ما كتبته.

---

(١٤) ان الذين تظاهروا من الانكليز بالحب للعراق، من امثال المس بل وغيرها من اقطاب الاستعمار البريطاني، لم يكن الدافع لهم سوى تركيز السلطة البريطانية في العراق، وخدمة المصالح الاستعمارية البريطانية الاصيلة التي استهدفتها بريطانيا من الزحف على العراق واحتلاله. والا فلماذا سكت هؤلاء المحبون للعراق، عن المظالم التي انزلها الانكليز به وبشعبه، ونهبهم خيراته وثرواته الواسعة طيلة بقاء نفوذهم فيه حتى انهياره مؤخرا باعلان حكومة البعث الوطنية وتأميم الثروات النفطية في سنة ١٩٧٢.

(١٥) كيف لم يكن لبريطانيا جشع استعماري سواء في العراق ام في غير العراق، وهي التي بذرت البذرة القوية الاولى لقيام اسرائيل المعتدية في فلسطين، واعلنت الحرب علانية ضد مصر حين ارادت التحرر من شركة قناة السويس التي كانت بريطانيا تمتلك اكثرية الحصص فيها؟

(١٦) ان ولاية الموصل جزء لايتجزأ عن العراق منذ ان وجد العراق. وان دفاع بريطانيا عن هذا الجزء الحيوي من العراق لم يكن مبعثه حب العراق والاهتمام بمستقبل الحكم فيه، وانما لان بريطانيا تأكدت، حتى قبل نشوب الحرب العالمية الاولى، ان الثروات النفطية التي تزخر بها ارض العراق، كانت في ذلك الوقت مقتصرة على منطقة الموصل، وذلك قبل ان تكتشف حقول النفط الاخرى الواسعة في ولاية البصرة.

هدف حياتي

«انني ادون تماماً هذه الملاحظات نتيجة الجدية التي احس بان نفسي تميل الى طرح هذه الاسئلة،من امثال:ما اذا ينبغي لي ان العب لعبة «البردج» او «التنس»، او اميل الى فكرة انني لست مثل بقية الآخرين في اهتماماتي ومسراتي، وتلك امور اذا ما استطعت ان اصوغها بحدة في عقلي بانها تؤلف الاهداف الضرورية لحياتي، فانني لا اتوقع ان اجد اهمية مهما كان نوعها.

غير انه، وان كان، او تقريبا كل واحد، على استعداد لأن يعترف، بان هذه الامور قد تكون من الامور المجردة غير المهمة تماما، مع كل ذلك فانها تكون ضرورية لوجهة النظر الثابتة التي تحدد النقاط الحيوية التي تكون ظاهرة امامنا دوما، قبل ان نستطيع في الواقع، ان نمعن النظر في المسائل اليومية الصغيرة، بصفة مغايرة.

سوف ابدأ اولاً بتقسيم حياتي الى قسمين هما (١) الانجازات المادية الثابتة (٢) الكمال الروحي لشخصيتي الخاصة بي، لان هذه تكون في نظام مغاير من الاهمية، وان من اليسير بحثها في هذا النظام. اولا هناك سلوكي المادي. لقد تأثرت كثيراً بمقطع من «الفريد دي فني»[١٧] يتحسر فيه على حياته التي انفقها في الجيش، حيث يقول «لقد وجدت نفسي بانني قد ارغمت على ممارسة حياة نشطة بصفة خالصة، وعلى نزعة تأملية خالصة». وبذلك وجدت انا بان النزعة النشطة والتأملية، تكون قائمة بصفة قوية في شخصيتي، ولذلك كنت في العطلات الهادئة، او حين اكون وحيداً في الاماسي، اشعر بذات الاشمئزاز من الجيش، مثلما كان «دي فني» يفعل ذلك، في حين اصبح، اثناء عملي اليومي، شديد الاهتمام حتى بأصغر التفصيلات العملية، الى درجة انني كنت انسى كل شيء في طاقة العمل التي لاتنضب، فاندفع الى العمل، واكمل كل شيء».

---

(١٧) الفريد دي في ALFRED DE VIGNY (١٧٩٧_١٨٦٣) من زعماء الشعر الرومانسي في فرنسا، ومن ارق الشعراء الفرنسيين عبارة، ولد في مدينة «لوش» في اقليم «اللوار» في فرنسا في اليوم السابع عشر من شهر اذار سنة ١٧٩٧. وما ان بلغ السنة السادسة عشرة من عمره حتى انضم الى الجيش، وذلك لان اباءه واجداده كانوا من العسكريين. امضى في ثكنات الجيش اثنتي عشرة سنة. وقد اصدر ديوانه الاول حين بلغ الخامسة والعشرين من عمره، ثم اتبعه بعد اربع سنوات، باول قصة نثرية له. استوطن انكلترا فترة من الزمن، فتعلم الانكليزية واتقنها، وترجم عنها «عطيل» رائعة شكسبير الى اللغة الفرنسية، تزوج، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، من فتاة انكليزية هي «ليديابنبري» انتخب عضوا في الاكادمية الفرنسية، غير انه اعتزل الناس في اواخر حياته الى ان توفي بباريس في اليوم السابع عشر من شهر ايلول سنة ١٨٦٣ من اشهر قصائده «بيت الراعي LAMAISON DE BERGER التي اهداها الى عشيقته «ايفا» وهي مدام درنال، اما اشهر قصصه النثرية فهي قصته «لوريت LORETE».

لقد ادى هذان الجانبان بي، في اوقات مختلفة، الى مطمحين منفصلين اولهما مطمح العسكري المتميز، وثانيهما مطمح الانسان الذي يرغب في الهدوء، وفي التقاعد، لكي يدرس، ويقرأ، كي يستطيع، في يوم من الايام، ان يضع كتاباً عظيماً، تلك الوسائل التي تجلب النور، والفضيلة للالوف من الاحياء.

انني اجلس الأن لاول مرة لكي ازن منافع احد المطمحين ازاء الآخر، وان احدد لكل منهما، مكانه النسبي. فبالنسبية الى الهدف الادبي:

(أ) لقد كنت افزع من الوساوس التي تثور في الضمير، بالنظر الى صحة الرأي القائل بان العسكري ملزم بان يطيع الاوامر. ومع ان ذهني مايزال، حتى مع ذلك جلياً تماماً، فانني اميل الى الاعتقاد بانني في حالة اذا ما امرت ان اقوم بشيء يخالف فكرتي في صوابه، فان من واجبي ان استقيل.

(ب)لست اعتقد بأن شخصيتي قد تكون ملائمة لان يتم استخدامها في قيادة رفيعة، وانني وان كنت قد وطنت نفسي عليها ايام السلم، فانني استطيع بعقلي ان اناها.

(ج)اذا ماتم الاعتراف بصواب الحرب، فانه يجب الاعتراف ايضا بان العسكريين يكونون نافعين للعنصر البشري، فكما ان الرجال يمكن ان يصبحوا عسكريين صالحين ليس الا، عن طريق العمل، فان الحياة التي يمضيها العسكريون في تطبيق الحرب، يجب الاعتراف بانها نافعة للعنصر البشري. ومع ذلك فان احد الكتب يمتلك المزيد من القوة لاغراء الناس الآخرين، ويحدث ذلك بصفة مباشرة، عن طريق التحدث عن نفسه هو!.

اما الامور المناقضة للهدف الادبي فهي: (أ)لم تكن لدي اية فكرة عما اذا كنت امتلك المقدرة الادبية ، وما اذا كان ما اكتبه سوف يصبح مقروءاً، وهذا امر يتعارض، نوعاً ما، مع الاعتبار الذي اشرت اليه في الفقرة (ج) اعلاه. وعند موازنة مامر اعلاه، استطعت ان استنتج مايلي:-

١- انني كنت لحظتئذ ابعد من ان اكون مستعداً حتى الآن، لان اكتب أي شيء، وليست لدي وسائل للعيش. وانه ينبغي لي ان اظل عسكرياً، الا اذا كان هناك دافع قوي من الوعي، يرغمني، في وقت ما او في غيره، على الاستقالة.
٢- في الوقت الذي اكون فيه عسكريا، يجب ان اكون كفؤاً تماماً، مكرسا نفسي لواجبي في المهنة التي لن يستطيع احد ان يتوقع بان الصلاة في الكنيسة، قد تكون اكثر تكريماً.

٣ـ يجب عليّ ولسنين كثيرة. ان اكرس كل وقتي الذي استطيع ان اوفره من الفقرة (٢) لتزويد فكري بآراء عامة واسعة، ستكون ضرورية لاية صفة من صفات التأليف.

٤ـ لايمكن الاعتراف باي شيء في حياتي لايفضي الى الفقرتين، الثانية، او الثالثة، او الى التقدم الروحي الذي تمت الاشارة اليه في البداية، والذي يعتبر اول واجب في حياة اي فرد.

السراي بغداد

يوم الاحد الرابع والعشرون من شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٠

* * *

كانت هذه المذكرة النادرة قد القيت في واحد من صناديق عديدة من الاوراق التي القمت بشباكها حول حياتي، ولم استطع ان اعثر عليها الا في سنة ١٩٧٩، اي بعد تسع وخمسين سنة من كتابتها. وقد تبدو هذه الاوراق اقل تظاهراً بالتقوى، وذلك لان الشبان عرضة لان يجعلوا انفسهم اكثر جدية، ولكن تلك الاوراق كانت قد دونت لكي تراها عيناي وحدهما بالطبع.

بعد ايام قلائل نقلت الى الواجب، وكانت السنون الست والثلاثون القادمة، قد انفقت في واجبات نشطة وحادة، ومعظمها خارج نطاق السكن. ففي هذه السنين كلها، نسيت بالمرة افكاري الاول عن الكتابة والتأليف.وحين اقترح علي «جون اتنبرو»[١٨] مدير شركة «هودر وستوتن»[١٩]، بعد الحرب العالمية الثانية، بأن اضع احد الكتب، كان هذا العرض قد وصل الي في صفة بدعة حديثة تامة.

* * *

حين وصلت الى بغداد، كانت الثورة العشائرية[٢٠] قد تم القضاء عليها، غير ان فيالق مختلفة من الجيش[٢١] كانت تتحرك في ارجاء القطر، لكي ترفع العلم البريطاني فيها، ولتجبي الغرامات من البنادق.

---

(١٨) ATTENBOROUGH

(١٩) HODER AND STOUGHTON

(٢٠) لم تكن الثورة العراقية الكبرى في سنة ١٩٢٠ ثورة عشائرية حسب. بل شاركت فيها كل فصائل الشعب العراقي، وكان ابناء المدن وعلى الاخص المثقفون والضباط هم الذين اججوا الروح الوطنية التي انبثقت الثورة عنها، وتولوا قيادة الحركات العسكرية في كثير من المناطق التي قامت الثورة في ارجائها.

(٢١)المقصود به الجيش البريطاني

ينبع نهر ديالى من جبال «زاغروس» في ايران، ويتدفق خلال مضيق في جبل «حمرين». وقد حفرت، عند نقطة منبعه، قنوات للري بقصد سحب الماء منه لارواء الحاصلات النباتية في السهل الواسع الذي يمتد الى نهر دجلة. كانت النواظم عند رؤوس القنوات قد دمرت، واعيد بناؤها من قبل دائرة الري. وكان ينهض باصلاح هذه النواظم احد افواج الجيش الهندي، هو فوج المشاة التاسع والتسعون.

تم ارسالي الى هناك بصفتي ضابط الهندسة الوحيد الموجود، لبناء معبر على نهر ديالى، وتشغيله، لان العمل كان قائما على جانبي النهر. اقمت اول الامر سلكا هوائياً، فأرسيته على الكهوف الواقعة في اي من جانبي المضيق الذي ينساب الماء خلاله من الجبال. ولقد تم استخدام صندوق، اشبه بالسلة التي تعلق تحت المنطاد، والتي يستطيع المسافرون بواسطتها، ان ينتقلوا عبر المضيق.
ومع ذلك، وحيث ان عدداً من العاملين كان ينبغي لهم ان يعبروا المضيق كل مساء وصباح، فقد تطلب الامر توفير وسائل اسرع للنقل.

وطبقا لذلك اقمت سلكاًفولاذياً عبر مستوى الماء، وربط زورق فوق بكرة، فغدا يمكن العبور خلاله. وقد بدا بان هذه الواسطة كانت كاملة تماما.
وفي احدى الليالي تم ايقاظنا في الساعات الاولى، على صوت ازدياد الخرير، واذ تلصصنا من الخيمة، رأينا بان النهر، قد تحول على حين غرة الى تيار فائر. ولما كان مخيمنا يقوم على ارض مرتفعة فقد عدنا الى مراقدنا. كان النهر يتدفق من جبال زاغروس على بعد اقل من مائة ميل، وكانت احدى الزوابع المتحركة فوق الجبال، توشك ان تسبب ارتفاعه فجأة، وتدفقه وهو يهدر في صفة طوفان، ومع ذلك فلم تكن لدينا اية معرفة بهذه الظروف المحلية.

في صباح اليوم الثاني كان معبري يؤدي عمله كالعادة، ولكن الرجل الذي كان يدير المعبر، قد فزع من التيار الفائر، ففقد اعصابه، وقفز من المعبر عائدا الى الشاطيء. وفي لحظة من الارتباك سقط احد الحمالين الهنود على المعبر. كنت اجلس في خيمتنا، حين سمعت على حين غرة، جوقة من الصيحات والصرخات، وما ان اسرعت بالخروج من الخيمة راكضاً، حتى قيل لي بان احد الهنود قد سقط من المعبر، وقد جرفه التيار.
ومن دون اية لحظة للتفكير، قفزت الى النهر، وان كنت لم ارَ الرجل الذي جرفه الماء، ثم غطست على الفور تحت الماء. كانت السباحة مستحيلة، وكنت ارى ضفة

النهر وكأنها تجري مسرعة، لكنني نجحت في اخراج رأسي فوق الماء، كي استطيع ان اتنفس بين آونة واخرى. ولما كان الماء يجري من المضيق الى السهل، فانه كان يجري بهدوء اكثر، وبذلك استطعت ان ابقي رأسي خارج الماء.

وعلى بعد الى امام، شاهدت احدى الجزر التي غطتها الشجيرات وسط النهر، فسبحت نحوها وأستطعت ان امسك باحد الاغصان حين قذفني التيار اليها، فتشبثت بها، ثم استلقيت على تلك الجزرة من شدة التعب، وكان من حسن الحظ ان رآني احد الاعراب، فاقبل لانقاذي سابحاً على ظهر احد الجربان. وبهذه المساعدة، وباستعمال الجراب اداة للسباحة، نجحت في الوصول الى الشاطيء، بعد ان قذف بي التيار الى مسافة ما. اما الحمال الهندي الذي سقط في النهر، فلم نسمع عنه شيئاً ابداً بعد ذلك، وما ان رأى الاعرابي بانني قد انقذت، حتى اختفى، ولم استطع حتى أن اشكره.

* * *

في اوائل سنة ١٩٢١ نقلت الى «الرمادي» على نهر الفرات، حيث كانت مهمتي تنصب على صيانة جسر طواف فوق النهر، يقوم على زوارق مصنوعة من القصب المطلي بالقار. لم تكن توجد في هذا الموقع لا قوات بريطانية ولا هندية، وكانت الفرقة المكلفة بالحفاظ على الجسر، من العرب المحليين من عشاعر الدليم.

واذ كنت اتحرك بصفة رئيسة ببواعث العلاقات الانسانية، فانني سرعان ما اصبحت صديقاً لافراد فرقة الجسر الذين كانوا يعملون تحت امرتي. ولقد قام هؤلاء، كما هو شأن كل العشائر العربية، على الفور بدعوتي الى تناول الطعام في بيوتهم. كانت عشائر الدليم في معظمها تتألف من الزراع على امتداد ضفاف الفرات، وهم يروون حقول القمح، والشعير وبساتين النخيل بواسطة «الكرود»[٢٢] او روافع الماء التي تحركها الخيول. ومع كل ذلك فانهم لم يتوطنوا إلا مؤخراً، وكانوا آنذاك مايزالون يسكنون الخيام السود، المصنوعة من شعر الماعز.

واذ كنت اعمل وحيدا بين افراد العشائر العربية، فقد غدوت على الفور، اليفا لهم وحفظت بعض الكلمات العربية. كانت صداقتي مقتصرة على عوائل العمال

(٢٢) كتب المؤلف كلمة «كرود» باللفظ العربي هكذا KIRDS

الذين يعملون تحت امرتي. لقد كان الدليم يؤلفون قبيلة كبيرة، غير انني لم التق باي من شيوخها، كما انني بالطبع لم ار أية امرأة، او اتحدث الى امرأة.ومع ان الرجال والنساء كانوا يختلطون باقاربهم بكل حرية، الا انه حين يكون احد الاغراب ضيفاً لديهم، تظل النساء خلف الستار الذي يقسم الخيمة الى قسمين.

* * *

في سنة ١٩٢١ دعا «ونستون تشرتشل» الى عقد مؤتمر في القاهرة، لبحث السياسة الخاصة بالشرق الاوسط. وفي ذلك المؤتمر تم اتخاذ القرار الشجاع، بان يستبدل الجيش، بالقوة الجوية البريطانية، لصيانة الامن في العراق، وكانت نتيجة ذلك ان نقلت الى بغداد، وعهدت الي مهمة بناء اكواخ ومآوي لاحدى قواعد القوة الجوية البريطانية، خارج بغداد تماما، وفي مكان يدعى «الهنيدي» وهي كلمة غريبة حقاً، لانها تعني «الهندي الصغير»[٢٣]

كان كل الصناع والكتبة الذين يؤلفون قوة العمل لدي، كلهم من الهنود، بما في ذلك نسبة كبيرة من السيخ. كان رئيس الكتبة من سكان مستعمرة (غوا)[٢٤] وصاحب اسم ارستقراطي برتغالي طويل. غير ان عمالي كانوا من العرب، وكانت اغلبيتهم من الدليم الذين اصبحت معروفاً لديهم، ممن يسكنون على مقربة من «الرمادي».وكان الكثير منهم قد تبعوني من هناك. غير انه كان يستحيل تجنب استخدام العمال الذين يقطنون في انحاء دجلة الى الاسفل من بغداد. ولذلك كانت تحدث على الدوام خصومات شديدة بين العمال المنتمين الى عشائر الدليم، وأولئك القادمين من اسافل نهر دجلة.

وكما هو معتاد، فلقد احببت صناعي الهنود وعمالي العرب. وفي احد الايام حدث ان نصب فريق من الغجر خيامهم في جوار مخيم العمل الذي كنا نقيم فيه، وبدأت الفتيات الغجريات، يرقصن امام العمال، فلم يتردد البعض من اولئك العمال عن تقبيل الفتيات الغجريات وممارسة بعض الملاذ، حيث اعتادت اولئك الغجريات تلك المعاملة دون ريب لانهن كن في الواقع يحصلن على عيشهن من ورائها.

---

(٢٣) تصغير اسم «هندي»، وقد تخلى الانكليز عن هذا المعسكر للجيش العراقي في سنة ١٩٣٦ واصبح يدعى معسكر الرشيد ومانزال اهم المنشئات العسكرية قائمة فيه حتى الان.

(٢٤) مستعمرة «غوا» GOA اول مكان وطأته اقدام الغزاة البرتغاليين في الشرق وعلى ساحل المحيط الهندي في الهند وقد بقيت هذه المستعمرة قائمة حتى بعد ان استقلت الهند في سنة ١٩٤٧ بعدة سنوات.

غير ان موقفي البريء والفروسي تجاه النساء، جعلني استهجن مثل ذلك السلوك، ولذلك جمعت كل عمالي العرب، وامرتهم جميعا بان ينزعوا «اعقلتهم» عن رؤوسهم، وهي عبارة عن دوائر صغيرة من حبال يحفظون بها كوفياتهم على رؤوسهم. لقد كان العقال[٢٥] يشير الى الرجولة، ولذلك فالنساء لاتلبسه.. ولم البث ان جمعت تلك الاعقلة كلها فحرقتها.

لقد قصدت من وراء هذه العملية ان اعبر عن تفكيري بان اولئك العمال لم يكونوا رجالا، ولقد تعجب اولئك العمال الذين لم يجدوا ضرراً في تعاملهم مع الغجريات، مما قمت به واعتبروني مجرد «مجنون صغير!»
وعلى الرغم من سوء الفهم التافه هذا، فانني برهنت على هويتي مع عمالي تماما.
لقد كانت شرطة بغداد تعتقد ان وجود مخيم كبير للعمل، لابد وان يضم بعض اللصوص او المجرمين، ولذلك بعثت بجاسوس منها الى خيام العمال. ولقد نقل الى العمال نبأ حضور ذلك الجاسوس، فاستبد بي الغضب الشديد، واذ ذاك امتطيت مهري فاخرجت ذلك الجاسوس من المخيم بطريقة مزرية نوعا ما.

وفي ذات الوقت ادعت القوة الجوية البريطانية بانها هي التي تتحمل المسؤولية عن الامن العام في العراق، ولذلك تحركت عدة رفوف من تلك القوة الى مخيمي الجديد في الهنيدي. كانت العشائر في العراق ماتزال خارج نطاق السيطرة عليها بصفة واسعة. وكانت النظرية تقول بانه حيثما تنفجر اعمال الاخلال بالامن في اية منطقة، وعلى بعد مئات من الاميال كما هو متوقع، فان الطائرة سوف تقلع من «الهنيدي» وتقصف المعادين..... وبذلك تنتهي اعمال الاخلال بالامن، في الفترة مابين تناول الفطور والغداء.

على انه في حالة نشوب مثل تلك الاعمال، فان الطائرات سوف تصل فوق المنطقة المضطربة باسرع مايكون، ولكن حين تفعل ذلك فان ملاحيها لن يكونوا قادرين على تشخيص الهدف. ولقد حدث في جملة من المصادفات، ان قصفت الطائرات بطريقة الخطأ، اكثر الموالين للحكومة. ولذلك كانت قضية الصعوبة التي يجابهها ملاحو القوة الجوية البريطانية في تشخيص اهدافهم، تهدد بالغاء نظرية «السيطرة الجوية» برمتها. (قد يكون من المناسب ان يشار هنا الى ان القنابل التي القيت في سنة ١٩٢٠، كانت ذات تأثير ضئيل ومن النوع المعروف باسم «كوبر»

---

(٢٥) كتب المؤلف كلمة «عقال» باللفظ العربي العامي(AGAL)

والتي اعتقد بانها لم تكن تزن اكثر من خمسة الى ستة باونات. وكان معدل تأثير القصف على احدى القرى، محدوداً اعتياديا، بجرح احد الاشخاص، او ربما قتل بقرة او شيء من هذا القبيل)

كان الحل الذي اتخذه مقر القوة الجوية البريطانية، ينطوي على تعيين ضباط في المناطق الريفية، يكون واجبهم اثناء تعيينهم، هو ان يلائموا انفسهم مع كل العشائر والقرى. فاذا ما حدثت اضطرابات هناك. فان هذا الضابط، يستطيع ان يذهب الى معسكر الهنيدي، ويقود الطائرة التي ترسل لمهاجمة المتمردين، والقضاء عليهم، ولما كنت قد حصلت قبلا على الشهرة بالمامي باللغة العربية، فقد عرض علي مقر القوة الجوية البريطانية أن اتولى العمل في واحد من هذه المراكز.

كان الجيش البريطاني قد سبق ان بدأ بمغادرة العراق، وكان ينبغي لي باعتباري عسكريا فيه، ان اغادر معه•غير انني ما ان وقعت في حب العراق، غدوت على استعداد لتقبل المركز الذي اعطي لي. ودعت وداعا عميقاً، هيأة ضباطي من الهنود الذين بعثوا الي برسالة مشتركة ، يبدون لي فيها تمنياتهم الطيبة، وتهنئتهم. لقد كانوا اناسا ظرفاء، وكنت استطيع ان اتحدث معهم باللغة الهندستانية المعمول بها آنذاك.

حين ينهمك الانسان في العمل، فان احدا لايمكن ان يتأنى في تحليل البواعث التي تحرك انساناً ما. ومنذ ان تقاعدت في انكلترا، اخذت افكر في العوامل النفسية التي لونت حياتي. ويبدو لي الآن ، بانني قد اصبت باعثا لاسبيل الى مقاومته، هو ان اشخص نفسي مع المجتمع الذي كنت اعمل بين افراده، وكان هذا الباعث قد جذبني وثيقا الى رجالي من زراعي الالغام، او سواق وسائط النقل في فرنسا، او الى فرقة الجسر التي كانت تعمل تحت امرتي في «الرمادي»،او الى صناعي من الهنود، وعمالي من العرب في معسكر الهنيدي.

لاتستطيع ان تساعد الناس الا بان تصبح واحدا منهم، تشاركهم بؤسهم، وفقرهم، ومسراتهم، واحزانهم. لقد كان المسيح يفعل ذلك. انك لاتستطيع ان تساعد الناس وانت بعيد عنهم. لقد كانت الأم «تريزا» ترى المسيح في كل انسان كانت تلتقي معه، وحين كانت تحيي الناس بابتسامة، فانها كانت تبتسم لله.

وربما يحلث في هذه الايام، وقد اصبحت شيخاً، ان الخص هذا الميل، بانه يمثل الواجب، في ان نحب كل انسان، غير انني لا استطيع في هذه الايام ان احلل هذا الميل. فالشيء الذي كان يحدث هو انني ما ان التقي بنفر جديد من الناس،

حتى اغرم بهم سريعا. غير ان هذا كان يصدق على الدوام، حسب المقياس الذي نحدده نحن، والذي يقاس لنا مرة اخرى. فحين احببت الجماعة التي كنت اعمل معها، فان افرادها قد ردوا لي مودتي بصفة ذاتية.

على هذه الشاكلة انتهى مسلكي باعتباري مهندسا، حين الانتهاء من بناء معسكر القوة الجوية البريطانية، ومهابط الطائرات في الهنيدي، وكنت آنذاك في الرابعة والعشرين من عمري، واذا ما استعملت المصطلحات الارلندية التي كانت امي تستعملها، فان حياتي الهندسية، كانت «قصيرة وحلوة» اشبه «بركضة حمار!!».

* * *

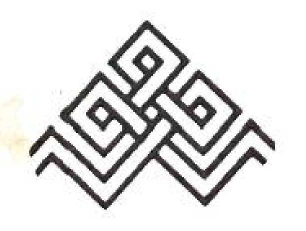
قد يكون من المناسب ان اشير في هذه النقطة الى ان نظام الانتداب، لم يكن كما كان يشار اليه دائما، طريقة تنكرية للحصول على المزيد من المستعمرات او استغلال البلدان الاخرى(٢٦). لقد سن هذا النظام في الاصل، على يد «وودرو ولسون» رئيس جمهوريات الولايات المتحدة الامريكية في نهاية الحرب العالمية الاولى، وكان المقصود منه ان يكون نظاماً مثالياً خالصاً، فلغرض مساعدة البلدان المتخلفة، كما نقول، في انشاء ادارات غربية متمدنة، قيل في حينه ان الانتداب كان واجباً مقدسا قد القي على عاتق الامم الكبرى،

وفي ضوء الواقع كانت كل خدماتي في الشرق الاوسط، قد جرت في البلدان التي انشئت الحكومات فيها في ظل الانتدابات، والتي غدت جميعها مستقلة منذ امد بعيد، ففي تجربتي ان امثال الضباط البريطانيين الذين خدموا في العراق والاردن، قد تم تكريسهم لتلك البلدان، وانهم قد فعلوا كل ما في قدرتهم لانشاء ادارات كانت معرضة للفساد، وذات كفاءة هناك.

---

(٢٦) هذا قول مغاير للواقع. ذلك لو ان الدول التي فرضت الانتداب او الاستعمار الاستيطاني وما شابههما، على البلدان الاخرى، لم تكن تبغي المزيد من المستعمرات والاستغلال، كما يزعم المؤلف ذلك، لبادرت تلك الدول التي طبقت انظمة الانتداب، الى الاستجابة الى مطالب البلدان المنتدب عليها بالاستقلال وممارسة السيادة الوطنية، ولما بقيت متمسكة باساليبها الاستعمارية الاستغلالية الى ان اجبرتها الثورات التي قامت في الاقطار المنتدب عليها على التسليم بهذه الحقوق، والتخلي عن الاستغلال والتسلط.

ان بريطانيا لم تستغل ايا من البلدين[٢٧] بل على النقيض من كل ذلك، ان الاردن كانت تتلقى منحة جوهرية في صفة معونة من الخزينة البريطانية، ما دامت الاردن تحت الانتداب. وبقدر مايتعلق الامر بمثل هذه البلدان، ففي نظري كان الحديث عن الاستعمار حديثا خاطئاً. قد يكون الغض عن القيمة الذاتية، احدى الصفات البريطانية، غير انها على الاقل لم تكن قابلة لان تفضل العجرفة التي يساء وصفها.



(٢٧) هذا ادعاء من المؤلف لايقره لا المنطق ولا الواقع الذي سارت عليه السياسة البريطانيه في العراق والاردن. لقد استغلت بريطانيا وجودها في هذين البلدين الى ابعد حدود الاستغلال فلقد اتخذت من العراق نقطة ستراتيجية قوية لتامين الطريق الى الهند، وباقي المستعمرات الانكليزية في الشرق الاقصى. واضافة الى ذلك بقيت بريطانيا تستغل موارد العراق النفطية وباقصى الحدود المعروفة في ذلك الوقت من سنة ١٩٢٧ (التي تدفق فيها النفط في حقول كركوك) حتى سنة ١٩٧٢ التي اعلن فيها التأميم. اما بالنسبة للاردن، فان بريطانيا قد اقتطعت هذه الشريحة الصغيرة من فلسطين. لكي تضمن بها تامين خطوط مواصلاتها البرية مع الهند وبقية الجزيرة العربية اولا. ولكي توطن اقدام الصهاينة في فلسطين بعد ان وعدتهم، خلال الحرب الاولى، باقامة وطن قومي لهم، وعملت ومازال تعمل حتى الان. ليس على صيانة كيان هذا الوطن القومي الصهيوني حسب، بل مساندة اسرائيل في كل اعتداءاتها على العرب. وفي تحويل فلسطين بصفة نهاية الى بلد صهيوني والتشجيع على تحقيق احلام الصهاينة في اقامة اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات

الفصل السابع

الغوص الى اعماق أوقات الراحة!

الغوص الى اعماق اوقات الراحة!

على هذه الشاكلة تم تعييني ضابط استخبارات تابع للقوة الجوية البريطانية وكنت احمل لقب ضابط مهمات خاصة،وقد وضعت منطقة الفرات بمثابة «ابرشية» لي.[1] كان يندر وجود اي عمل من اعمال الدائرة فيما كنت امارسه،وان كنت اقدم في كل شهر تقريراً الى مقر القوة الجوية سواء كانت واجباتي تستلزم مني ان اعرف كل قبيلة وكل قرية تقع في منطقتي،كيما استطيع في حالة حدوث عمليات،ان ارشد الطائرات الى اهدافها.كانت الطائرات في تلك الايام تطير ببطء وعلى ارتفاع حوالي.الفي قدم،وكان هيكل الطائرة مفتوحا ولذلك كان يمكن اختيار الاهداف بالميلان فوق الجانب.

كانت هناك مسرة اضافية بالنسبة لي في هذا العمل.ذلك لان كل جولاتي تقريبا كانت تتم بامتطاء الخيول،في حين كانت تتم بواسطة القوارب في الاهوار الواقعة في منطقة الفرات الادنى. لاوجود للقومية بين القبائل [2] ولا اهمية لان تصبح انساناً هناك ـ. لقد كنت في كل مكان اعامل من لدن الاعراب، وكأنني واحداً منهم انفسهم، وبهذه الوسيلة استطعت ان اغوص الى الاعماق.

انتقلت في شتاء سنة ١٩٢٢ـ ١٩٢٣ لفترة قصيرة الى الموصل حين كان خطر الحرب مع تركيا يبدو وشيك الوقوع. ولقد ارغمت على ان اطير ساعات طويلة في

---

(١)يقصد بانه كان يعيش في مكان اشبه بدائرة كنسية

(٢)لايمكن نكران القومية بين العشائر بل انها قد تكون اشد تعصبا من سكنة المدن. ويبدو ان المؤلف قصد من ذلك عدم وجود روحية عدائية شديدة ضد الاغراب من افراد العشائر الذين عاش معهم سيما وان سمة الكرم والوفادة كانت تقابل الجميع بالعدل ودون تفريق بين العروق والاجناس وعلى الاخص في مضايف الشيوخ ومضاربهم.

طائرة مقاتلة من طراز «بريستول» فوق جبال كردستان المنخفضة. فما ان تبدأ الماكنة تقرقع وتغمغم كما كان يحدث ذلك في الغالب، فان احداً لايستطيع ان ينظر الى الجانب في شيء من الارتعاش، وهو يعجب مما اذا كان مستطاعاً ان يهبط هبوطا اضطراريا، وهذا امر كان يحدث في كل طائرة من طائرات سنى العشرينات

ومع ذلك فان خطر الحرب مع تركيا بدا عليه في صيف ١٩٢٣، وكأنه قد تقلص ولذلك عدت الى الناصرية في الفرات الادنى. وعلى بعد ستين ميلا شمالي الناصرية وفوق ضفة نهر الفرات ايضا تقوم مدينة السماوة التي كانت تؤلف سوقا صغيرة وقد احتلت الريف المحيط بها مجموعة قبلية عرفت باسم «بني حجيم» كانت خارج السيطرة.(٣)

لقد وقعت في هذا الموقع حادثة شاذة. ذلك لان سكة الحديد الممتدة من بغداد الى البصرة تمتد لمسافة خمسة عشر ميلا عبر اراضي بنى حجيم القبلية، والتي لم تكن الحكومة تمارس عليها اي نوع من انواع السلطة. وعلى هذا الاساس قامت حالة من التوطن الضمني والسماح بالسكن ضمنيا بين الحكومة والعشائر. ذلك ان الحكومة قد احجمت عن التدخل في شؤون العشائر او عن جباية الضرائب. كما ان العشائر مقابل ذلك لم تتدخل بامور سكة الحديد.

ومهما يكن فليس في مقدور اية ادارة ذاتية محترمة تستطيع ان تتقبل مثل هذا الوضع بصفة دائمة. وعلى هذا تقرر بان بنى حجيم يجب ان يخضعوا لسيطرة الحكومة. كانت المنطقة واسعة جدا يمكن قصفها من قبل الطائرات برمتها في آن واحد، ولذلك تقرر ان يتخذ مثال من عشيرتين هما «البركات» والصفران(٤) ولكن لاتوجد خرائط تبين الاماكن التي تسكن فيها هذه العشائر، ولهذا طلب لي بان اعد واحدة من تلك الخرائط.

ما ان بلغت السماوة ممتطيا صهوة جوادي حتى انبأني القائمقام بانه يستحيل على ممثل الحكومة ان يزور العشائر التي كانت في ثورة. واعتماداً على شهامة العرب وطرح عباءة عربية على بدلتي العسكرية، ركبت مع اثنين من الاعراب الى قرية شيخ عشيرة البركات.

ترجلنا عن خيولنا خارج المضيف ثم دخلنا اليه والقينا التحية، فرد الحاضرون في

---

(٣) حجيم (بالجيم الفارسية)

(٤) هاتان العشيرتان فرعان من فروع بنى حجم وقد تمردتا في وقت من الاوقات على الحكومة العراقية فانذرتهما بوجوب الخلود الى السكينة والاقلاع عن الاعمال التخريبية فلم ترتدعا، فاضطرت الحكومة الى استعمال القوة ضدهما واستعانت بطائرات القوة الجوية البريطانية في قصف مواطنهما فثاب رؤساهما الى رشدهم، واخلدوا الى الهدوء.

المضيف على تحيتنا. وبذلك فهمنا باننا كنا في امان ولذلك نزعت عباءتي العربية. ولقد دهش افراد العشائر حين شاهدوا ضابطاً بريطانياً ببزته العسكرية. وما ان اصبحنا في المضيف آمنين حتى اخذنا نستمتع بحديث ودي وطويل مع افراد العشائر.

لقد ادى ذلك الوضع الى قيام علاقات ودية حيث سمح لي بان ازور كل مضارب وقرى عشيرتي البركات والصفران وان استمتع في كل مكان بالكرم والضيافة، وفي الوقت ذاته اكملت رسم الخارطة التي سوف تساعد القوة الجوية البريطانية على قصف تلك العشيرتين. ونظراً لانعدام صداقتهم للحكومة فقد شعرت باني مضطر الى ان انبأهم بذلك.

كانت خطة الحكومة تنطوي على استدعاء اثنين من شيوخ العشيرتين للحضور الى السماوة، واذا لم يفعلا ذلك فلسوف يجري قصف عشائرهما. فاذا ما استطعت ان اقنع الشيوخ من دون قصف فان ذلك سيكون امرا حسنا جداً. وهكذا فانني ما ان اكملت رسم الخارطة حتى اوضحت لافراد العشائر بانني ذاهب الى بغداد وان الشيوخ سوف يتم استدعاؤهم، فاذا لم يحضروا فلسوف يتم قصفهم، ولسوف اقود انا الطائرات القاصفة، واذ ذاك قالوا بانهم قد فهموا الموضوع تمام الفهم.

وحين استدعي الشيوخ لم يحضروا، واذذاك قدت الطائرات القاصفة على الفور، وكان كل ملاح فيها يحتفظ بنسخة من الخريطة التي اعددتها. وما ان سمع افراد العشائر هدير الطائرات وقد عرفوا مني قبلا ماسوف يقع، حتى هربوا جميعا من قراهم واختفوا في قنوات الري. لم يقتل احد سوى رجل مسن. ونتيجة لذلك القصف كان كل شيوخ تحالف بني حجيم (وليس البركات والصفران حسب) قد حضروا الى الحكومة ووضعت المنطقة برمتها تحت سيطرة الحكومة ومن دون اراقة للدماء!.

والذي اتذكره ان الحكومة في تلك القضية قد ارتكبت ذات الخطأ الذي ارتكبته الدول الحليفة في معاهدة فرساي. ذلك انها ما ان دحرت اعداءها حتى حاولت ان تفرض عليهم الشروط التي تحول دون انتفاضتهم مرة اخرى، وطبقا لذلك فقد امرت عشيرتا البركات و«الصفران» بان تدفع غرامة للحكومة تتألف من جملة مئات من البنادق.

بعد يومين من ذلك الحادث كانت العشيرتان قد اختفتا تماما وتناثرت بين العشائر المجاورة. لم يتم جمع الغرامة، وهكذا انتهت هذه العملية التي انطوت على النجاح

الباهر بملاحظة غير مرضية.ففي نظري يبدو بان الاسلوب المطلوب هو«ان تقاتل وتربح»،اذا كان يجب عليك ان تفعل ذلك. ولكن حين تربح القضية يجب عليك ان تسامح الناس،وان تجعل من اعدائك اصدقاء وثيقين لك. لقد كنت اود ان تقيم الحكومة وليمة للبركات والصفران،وبذلك تبرهن لهما بانها صديقتهما الحقيقية الاكيدة. غير ان السلطات كانت تفكر تفكيرا مغايرا لذلك تماماً.

تم القضاء على تمرد العشائر ولم تعمد الى التمرد ضد الحكومة مرة اخرى. ولكن الذي اراه ان فرصة تحويل تلك العشائر الى ان تصبح من اكثر الرعايا اطاعة وتكريسا للحكومة قد ضاعت. فالواقع ان مثل هذه الفكرة لم تكن قد دخلت قط في رأس اي انسان!

اوصت قيادة القوة الجوية البريطانية بتكريمي.غير ان الحكومة البريطانية التي كانت تخشى طرح التساؤلات في البرلمان، لم تكن تود ان يكون معروفاً وجود عمليات عسكرية في العراق،ونتيجة لذلك كوفئت بمدالية الملك لرجال الشرطة،والتي كانت تمنح عادة لرجال الشرطة الذين يوجهون لاعتقال المجرمين الخطرين!

كانت المنطقة التي كنت مسؤ ولا عنها تمتد الى حوالي خمسمائة ميل حتى نهر الفرات، من الحدود السورية الى مقربة من البصرة على سبيل الحصر، وربما الى حوالي ثلاثين اوأربعين ميلا على كل جانب من النهر. اما الى الغرب الجنوبي فكانت الصحراء تمتد الى نحو مائتي ميل،من حدود ماكانت تعرف باسم بلاد نجد آنذاك،اي المملكة السعودية في الوقت الحاضر.

لم اكن انا الضابط الوحيد ذو المهمة الخاصة في منطقة الفرات.ففي اوقات مختلفة تم تعيين الآخرين هناك حين كانت المنطقة واسعة جدا بالنسبة الى رجل واحد. كانت مهمتي هي ان اعرف كل فرد وان اذهب الى اي مكان يسهل الوصول اليه، عن طريق عادات الكرم المتطرفة التي يتسم بها اعراب الريف.

فقد كانت كل خيمة وكل كوخ في منطقتي التي تبلغ مساحتها مائة الف ميل مربع، مفتوحة امام اي غريب يدخل اليها ويجلس فيها. وفي معظم انحاء المنطقة كان الناس يسكنون في خيام سود مصنوعة من شعر الماعز. اما في منطقة الاهوار من الفرات فكان الناس يستخدمون الصرائف[٤]وكانت هذه الصرائف تتألف من قصب مستل من الاهوار،يتم نسجه في صفة حصر قصبية كبيرة ومن ثم يتم طيها لصنع اكواخ اشبه

(٤)كتب المؤلف كلمة «صرائف» بلفظها العربي الدارج» صريفة» sarifas

بالانابيب المجوفة، توصد نهاياتها بحصر اخرى من القصب ايضا. وكانت بعض الصرائف تؤلف ابنية واسعة الحجوم حقا، ومزخرفة بتصاميم زخرفية من القصب. وسواء كانت بيوت الاعراب تتألف من الخيام السود ام من الصرائف، فانهم كانوا يقسمونها عند الوسط بالستائر الى قسمين حيث تعيش العائلة في جانب، بينما يتم الاحتفاظ بالجانب الآخر للضيوف من الرجال. ويستطيع اي رجل حتى وان كان غريبا تماما، ان يدخل الى هذه الخيام والصرائف ويجلس فيها ويصبح واحداً من الضيوف. والعادات الحسنة تمنع المضيف نظريا ان يطرح اي سؤال على ضيفه، الابعد ان يكون قد امضى ثلاثة ايام.

***

خلال شتاء سنة ١٩٢٣ - ١٩٢٤، اتخذت قاعدتي في الناصرية التي كانت مركز ادارة متصرفية «المنتفق» ذلك الاقليم الذي لم يكن يضم السهول الملائمة للزراعة والاهوار حسب وانما يحتوي على منطقة الصحراء التي تمتد حتى حدود نجد.

كانت مدن الاسواق المحلية التي تشمل المنطقة برمتها قد بنيت معظمها من اللبن المجفف بنور الشمس، ولو كانت توجد هناك احيانا بعض المباني الجيدة المشيدة من الآجر. ففي هذه المدن الصغيرة كان يعيش موظفو الادارة. كان حاكم المنطقة يعرف باسم المتصرف وحاكم فرع المنطقة يسمى قائمقام. وكان جميع هؤلاء بلا استثناء يعيشون في مودة وفي كرم.

كانت اواسط الجزيرة العربية اونجد مأهولة على نطاق واسع منذ امد لايمكن تذكره بالقبائل البدوية التي كانت تعنى بتربية الابل والاغنام والماعز، والخيول ايضا، ولكن باعداد قليلة. وكانت الابل والاغنام والمعيز تعتاش على الشجيرات الصغيرة وعلى العشب الجاف في الصحراء. غير ان الخيول، وان كانت من بين اجمل الخيول في العالم، لم تكن تربى الا باعداد قليلة لانها كانت تحتاج الى اغذية اضافية.

كذلك توجد واحات في اواسط الجزيرة العربية تنمو فيها بساتين النخيل، وكان معظم رجال الواحات من التجار، ويعرفون بانهم من قبيلة عقيل الذين كانوا يشترون الحيوانات من البدو الرحل ويسوقونها في فصلي الشتاء والربيع، الى سوريا والاردن ومصر لبيعها هناك.

وفي سنة ١٧٠٠ او حدودها، ظهر في الجزيرة العربية فتى من عشيرة تميم يدعى «محمد بن عبد الوهاب» واذ كرس الفتى نفسه للدين، فانه كان قد درس في مكة والمدينة، والبصرة، ودمشق، ثم عاد في سنة ١٧٤٢ الى نجد وراح يعظ قومه ببعث ديني خالص، وعلى اساس العودة الى القرآن ومن دون اية بدع اخرى. ويبدو ان احدا لم يهتم كثيراً بدعوته تلك الى ان التقى بشيخ صغير من عشيرة عنزة يدعى «ابن سعود» الذي اهتدى به.

كانت عظة «المصلح» التي حظيت بالدعم من سيف «الشيخ» قد اكتسحت اواسط الجزيرة العربية في موجة فجائية غامرة من الحماسة، وهكذا استولى الوهابيون في سنة ١٨٠٣، على المدينتين المقدستين «مكة» و«المدينة» اللتين كانتا تخضعان بصفة اسمية لتبعية سلطان تركيا.

استمرت هذه الفترة الاولى من الحكم الوهابي من سنة ١٨٠٣ الى سنة ١٨١٣، حين تمت استعادة «مكة» على يد جيش مؤلف من الالبانيين وغيرهم بعث به محمد علي باشا الذي اعلن نفسه حاكما على مصر، وبعد مرور ست سنوات من حرب غير متواصلة تم تمزيق الحكم الوهابي.

ولقد بقيت اوساط الجزيرة العربية لمدة تبلغ حوالي مائة سنة في غمرة التناحر بين القبائل والشيوخ، الى ان استطاع في سنة ١٩٠٢، فرع فتي من العائلة السعودية يدعى « آل عبد العزيز» ان يستولي على الرياض العاصمة السابقة للاسرة. ولكي يثير هذا الفرع حماسة انصاره فانه اثار بعثا متطرفا للمذهب الوهابي الطهري القديم، واستطاع في سنة ١٩٢٠ ان يبسط حكمه على كل انحاء نجد، وان يصبح مجاوراً للعراق الذي يخضع الآن للانتداب البريطاني. كان تطرف الوهابيين قد اثار الحمية، ولذلك رأى السعوديون بانه لايوجد اي سبب يدعو الى ان يتوقفوا عند الحدود السياسية التي كانت قائمة آنذاك.

في شهر آذار سنة ١٩٢٤ حصلت على اجازة محلية لمدة شهرين، واذذاك ركبت بعيرا عبر الصحراء السورية من العراق الى عمان في الاردن. واذ كنت بعيدا عن قاعدتي في الناصرية كان احد الوهابيين «فيصل الدويش» من قبيلة «مطير» قد قام بغارة ممزقة على القبائل العراقية في الصحراء. لم يكن في الصحراء المزيد من الماء مما يكفي للقيام بغارات كبيرة ولكن ما ان اقترب فصل الخريف حتى اصبحت القبائل العراقية قلقة بصفة متزايدة.

كان الوهابيون الذين عرفوا باسم «الاخوان» كلهم من القبائل التي كانت تمتلك الابل وتسكن الصحاري الواسعة. ولكن في العراق ايضا توجد اعداد كبيرة من القبائل شبه البدوية التي لاتعنى الا بتربية الاغنام وتستخدم الحمير لنقل خيامها، وكان افراد هذه القبائل يصيفون على شواطىء نهر الفرات ثم لايلبثون ان ينتقلوا الى داخل الصحراء حيث يتوفر المرعى والماء العذب هناك ابتداء من شهر تشرين الثاني حتى شهر آذار.

على ان هذه القبائل التي كانت تعني بتربية الاغنام كانت تحت رحمة الاخوان الذين يمتطون الابل. كان الاخوان يقتلون كل الذكور. وكان مثل هذا التطبيق العملي للمذابح هو الذي يثير المزيد من الفزع

* * *

كنت في بعض الاحيان ارى الصحراء تبدو لي ارض موات لاحياة فيها، قفر قاحل، او مشهد لقمر. ولم يكن هناك شيء أبعد عن الحقيقة ذلك لان الصحراء، كانت في الواقع، جميلة بصفة لايمكن وصفها، وذلك بهوائها النقي، وبآفاقها الزرقاء النائية وبتلالها المتدحرجة، ووديانها المغطاة بالشجيرات فهناك فتنة سحرية تلف الصحراء التي تملأ نفس المرء بالزهد القطرى.

ففي الايام السابقة وحين اعتاد البدو ان يزوروا المدن، او القرى قد اعتادوا ان يكمموا مناخرهم باكمام مادية لكي تحميهم من التلوث وما ان يركبوا مطاياهم خارجين من القرى والمزارع الى هواء الصحراء النقي، غير الملوث، حتى يرفعوا الاكمام عن مناخرهم، وينفجروا في الغناء ويدفعوا بابلهم الى الجري خببا. حتى اذا ما حصل توقف لتناول الطعام كانت التربة نظيفة نقية، كأن لم يكن هناك انسان قد اجتاز قبلا ذلك الطريق. وفي دقائق قليلة تكون النار قد اوقدت من شجيرات الصحراء التي كان الكثير منها زكي الرائحة اشبه بالبخور.

كانت معظم الصحاري الشمالية لجزيرة العرب تتألف من حجر الكلس والتي يندر وجود كثبان للرمل فيها بينها. وحتى اذا ماوجدت كثبان الرمل فانه تكون بهيجة بعدة طرق، لانها كانت تنبت الشجيرات الشوكية الطويلة مثلما تنبت الاعشاب ايضا. كذلك تؤلف الرمال مطارح ناعمة يمكن الاستلقاء عليها اثناء الليل، بعد ان تلف نفسك بالعباءة!

وكذلك لايمكن ان تكون الصحراء خالية من الحياة ففيها تعيش الخنافس، والذباب، والسحالي، والجرابيع (جرذان الصحراء الصغيرة) والثعالب والغزلان والذئاب، والضباع وكلها تعيش من دون ماء وبشكل واضح في الغالب. غير ان الجمال الرئيس للصحراء قد يتمثل في نقاء الهواء وفي الآفاق الزرق البعيدة!

* * *

قبل حلول عيد الميلاد بوقت قصير تلقيت رسالة تفيد بان «فيصل الدويش» يوشك ان يغير على العراق. كان الرعاة العراقيون قد سبق لهم ان انتشروا في الصحراء وكانت مضاربهم الرئيسة تقع في «جو هادية»(٥) على بعد سبعين ميلا عن الفرات. لم تكن الحكومة العراقية قد اهتمت بامر الصحراء وكذلك لم يهتم الاتراك انفسهم ايضا.

وحين تم ابلاغ مقر القوة الجوية البريطانية بالموضوع طلب تأكيداً آخر له. ولذلك استأجرت جماعة من اصحاب الابل لكي نذهب الى رعاة الماشية ونطلب اليهم بان يعودوا لكنهم تأخروا في العودة، وطبقا لذلك فقد قررت بان اذهب انا بنفسي الى ذلك الموضع، فاستأجرت بعيراً لكي اركبه واصطحبت معي ثلاثة من البدو.

لم تكن الابل قد هيئت في اليوم المحدد ونجم عن ذلك انني تأخرت مدة اربع وعشرين ساعة. واخيرا تحركنا فوصلنا الى بعد حوالي عشرين ميلا عن المضارب التي يقيم فيها الرعاة في حدود الساعة العاشرة صباحا. وما ان هبطنا، على حين غرة، حافة واطئة حتى شاهدنا امامنا واديا سحيقا امتلأ باناس اصابهم الهلع، وبقطعات من الاغنام والحمير وقلة من راكبي الخيل، وقد اتجهوا هاربين نحو الشمال في شيء من الهياج.

وعلى مبعدة ميل الى الجنوب كنا نرى «الاخوان» الذين يمتطون الابل يرفعون اعلامهم الحربية، وهم يطبقون على الهاربين ويقتلونهم ويسوقون اغنامهم. كان الهاربون الذين مروا بنا قد اتسعت حدقات عيونهم من شدة الفزع وراحوا يهتفون «الاخوان! الاخوان! انها معركة! انها معركة! اين الحكومة؟» كان منظر النساء الخائفات وهن يحملن اطفالهن ويسحبن الصغار الذين كانوا يصرخون ويعولون من المناظر المثيرة بمنتهى الشدة. لقد كان الكل يصرخون فزعين «ياالله! ياعلي! ياالله

---

(٥) جو هادية: تقع الى الجنوب من منطقة العيون والى الشرق من جرف «هابه» في الناحيه الشمالية من المنطقة المحايدة (انظر الخارطة المرفقة)

احمنا، واسدل الرحمة علينا!».
كان البدو الثلاثة المرافقون لي قد اصابهم الفزع فصرخوا يخاطبونني «دعنا نهرب! انهم الاخوان. انهم مقبلون علينا!» امسكت ببعيري وترجلت عنه لكي اهدىء اعصابي وأعصاب رفاقي. لم يكن هناك مااستطيع ان افعله لانني كنت على بعد حوالي، خمسين ميلا تقريبا عن اقرب دائرة للبريد تقع في محطة جليبة(٦)

كان في مستطاعنا ونحن على ظهور ابلنا ان نهرب باسرع مما يستطيعه الرعاة، سيرا على الاقدام غير انى لم استطع ان اهظم فكرة التخلي عن الهاربين الفزعين، ولذلك امتطينا ابلنا، اناوالبدو المرافقون لي واخذنا نسير بهدوء وسط بؤ رة الشر التي كانت تثير الضيق والغم

كنا نستطيع رؤ ية راكبي الخيل الذين كانوا يتعقبوننا وان نسمع قرقعة بنادقهم قريبة وراءنا، ولكن بصفة تدريجية. وما ان اقترب المساء حتى اخذ المتعقبون يتراخون ولم يكن هنالك ادنى شك في ان هؤلاء المتعقبين الذين ساروا الليلة السابقة كلها بقصد الاغارة على مضارب الرعاة وتقويضها، قد انهكهم التعب وقد سبق لهم ان احاطوا بالالوف من الاغنام العائدة للرعاة.

واذ غربت الشمس استعرت حصاناً من احد المضارب واسرعت به قاصداً محطة «جليبة» وعلى حين فجأة تحقق لدي ان ذلك اليوم كان هو عيد الميلاد. وصلت الى محطة «جليبة» عند الفجر وبعثت منها بسلسلة من البرقيات التي طلبت فيها تطهير الخط الى مقر القوة الجوية البريطانية والرف الرابع والثمانيين من القوة الجوية البريطانية المرابطة في الشعيبة فطلبت الى جميع الطائرات بان تقلع وان يعطى لها الموقع المثبت على الخارطة.

مالبثت احدى الزوابع ان انفجرت وتساقط المطر مدرارا فتبللت حتى بلغ البلل جلدي.رد رف الطيران على طلبي بان الجو لايساعد على الطيران.غير ان آمرية الرف بعثت بعد الظهر الي بطائرة لكي تلتقطني وتطير بي الى الشعيبة وفي صباح اليوم السابع والعشرين من كانون الاول حلقت (ولكن بثلاث طائرات ليس الا)-لقد تحقق لدينا وجود منطقة من الصحراء لاتزيد مساحتها عن ثلاثة اميال في ميلين مغطاة بالالوف من راكبي الابل يتحركون نحو الجنوب وهم يسوقون امامهم قطعان الماشية التي

(٦)«جليبة» هي محطة الجليب التي تقع على سكة حديد بغداد ـ البصرة الى الجنوب من محطة تل اللحم، وعلى الطرف الغربي من هور الحمار

نهبوها من الرعاة.بدأنا بمهاجمتهم في ذلك اليوم وفي اليوم التالي الذي اعقبه، ولكن كان من المشكوك فيه ماذا كنا قد الحقنا بهم اصابات كثيرة
هناك شيء واحد وعيته بحيوية هو انني كنت قد تأخرت لمدة اربع وعشرين ساعة لان الابل التي استأجرتها لم تكن قد هيئت في اليوم الذي امرت باعدادها فيه. فلوانني بدأت مذ صممت فلربما كنت ارقد في مخيمات اولئك الرعاة في فجر يوم عيد الميلاد وقد لااكون قد بقيت على قيد الحياة؛ان الله يتصرف حسب وسائله السحرية!

ما ان شاهدت بنفسي واحدة من مذابح الصحراء هذه وهروب الذين خبلهم الهلع،حتى اصبح لدي فيما بعد سبب يدعوني الى ان اكرس نفسي لانقاذ اولئك الرعاة العراقيين من الدمار. لقد كان هناك حوالي ثلاثين الفا من الناس في المنطقة الجنوبية الذين كانوا يتحركون الى داخل الصحراء اثناء الشتاء ويستخدمون الحمير لنقل خيامهم

ومهما يكن الامر فقد كان هناك سبب لم يجعل تلك الحوادث تلاقي سوى القليل من العطف الخارجي. ذلك ان السنوات الاخيرة للامبراطورية العثمانية قبل ان تتداعي في سنة ١٩١٨كانت كلها قد انفقت في السعي لتقليد اوربا. اما في سنة ١٩٢٤ فان معظم الموظفين الصغار ان لم اقل كلهم قد عاشوا في ذلك الجو التركي الذي تميز بتقاليد اوربا والتشبه بها. انهم لم يريدوا ان يفعلوا اي شيء مع القبائل ولم يكونوا ليهتموا بآلامها ابدا.

عهد الى الحكومة البريطانية بالانتداب على العراق. وكان الهدف من وراء ذلك هو ان تساعد العراقيين على تكوين ادارة غربية عصرية، كما كنا نقول: ولقد كان تقليد الغرب يمثل الرغبة لدى العراقيين. كذلك كان من واجب الحكومة البريطانية ان تدافع عن حدود العراق الى ان يستطيع انشاء جيشه الخاص به. وبما ان الحكومة العراقية لم تكن تطلب الدفاع عن قبائلها الصحراوية فان الحكومة البريطانية لم تكن راغبة، بصفة خاصة، لان تفعل ذلك بنفسها.

وفضلا عن ذلك فان الحكومة البريطانية في لندن كانت ترغب ايضا في ان تحافظ على قيام علاقات ودية لها مع ابن سعود. ولذلك كان امرا طبيعيا، بالنسبة الى تلك الاوساط (العليا) ان يعتبر التزام شاب متحمس بالدفاع عن الرعاة الفقراء، امراً غير متوازن على اقل تقدير، ان لم يكن يدل على الغرور، وغالبا ما ينقصه الاحترام الصادق من لدن رؤسائه.

لقد اصبحت منهمكا بامور العراق، بكل حماسة، الى درجة انني سمحت بانقضاء خمس سنوات، من دون ان اعود الى انكلترا في اجازة. ان العالم مليء حقا بالاثارة، بالنسبة الى الشباب!

في صيف سنة ١٩٢٥، جئت اخيرا في اجازة، والتقيت مع والدتي في احد الفنادق بمدينة نابولي، ومازلت حتى الآن اتذكر عناقها الحار، وصيحتها الفرحة وهي تهتف «انها خمس سنوات ياكنزي وذخيرتي! غير انك ماتزال في الصورة ذاتها!». سافرت معها سوية نحو الشمال، مروراً بمدن روما، وفلورنس، وميلانو، الى ان التقينا مع ابي، فمضينا سوية الى بلدة «سرميون»[٧] على بحيرة «غردا»[٨].

كانت ايطاليا تمثل الفردوس الذي كنت احلم به منذ زيارتي الاولى القصيرة لمدينة «سان ماميت»[٩] في سنة ١٩١٩ وذلك بعد حياة الخنادق التي امضيتها في منطقة «الفلاندرز». اما الآن فان الشمس الدافئة والسموات الزرق والجبال والبحيرات كلها قد اضيفت، الى قصة التاريخ وفن العمارة ولذلك انكببت، بكل حماس على دراسة المدن الايطالية التي تعود الى القرون الوسطى

لقد شاهدنا في روما كلاً من «الفوروم» و«الكولوسيوم»[١٠] والفاتكان بحراسة السويسريين، ومعبد «سستين» ولكن حماستي ازدادت اثارة بجمال فلورنس وسيينا ومدن الشمال. وفي نهاية اجازتي عدنا الى انكلترا لتمضية اسبوعين فيها، واذذاك عدت الى العراق بقطار الشرق السريع[١١] من باريس الى استنبول، وبتجربته المليء بالذكريات.

* * *

ما ان عدت الى الناصرية حتى جوبهت بوضع حرج على الحدود السعودية حيث كان فصل الغارات على وشك ان يبدأ. تكون الصحراء اثناء الصيف خالية من الناس في الغالب. ولكن في شهر تشرين الاول او تشرين الثاني تبدأ اولى الامطار بالسقوط واذذاك تبدأ القبائل بالخروج الى الصحراء.

---

(٧) SIRMIONE

(٨) GARDA

(٩) SAN MAMETTE

(١٠) الفوروم والكالسيوم صرحان مدرجان يقعان في ميدان «الاسرار» بمدينة روما يكون على شكل نصف دائرة يمتد مئات الامتار والمدرجان من طراز البناء الروماني بناه الفلافيون في سنة ٨٠ للميلاد وكان الكالسيوم يتسع لحوالي خمسة واربعين الف متفرج.

(١١) ORENT EXPRES وكان هذا القطار في اول انشائه مخصصا لنقل الملوك والامراء ومن شاكلهم من اوربا الى الشرق وقد وقف العمل به في سني الستينات.

كانت الطريقة الوحيدة آلتي يستطيع بها مربو الاغنام ان يرعوا قطعانهم ايام الشتاء ي ان ينتقلوا الى الصحراء. كان امر القوة الجوية البريطانية يعتبر عشائر الرعاة من المدنيين. وحين يقع التهديد بنشوب الغارات، كان يطلب الي ان اقوم باخراج الرعاة من الصحراء. ولقد اعترضت على هذا الاجراء، لانه اذاما تم تطبيقه فان اغنام الرعاة سوف تموت جوعا. ولذلك كان من واجب الحكومة ان تحميهم في مواطنهم الاعتيادية. على ان آمر القوة الجوية البريطانية قد اعتبرني بانني لا احترام الاوامر اذا لم اكن اخضع لها.

في الشتاء التالي غزا ابن سعود وقبائل الاخوان بلاد الحجاز التي كان يحكمها الملك حسين شريف مكة سابقا، ووالد فيصل ملك العراق. وحين بدأت الامطار بالسقوط في شهري تشرين الاول وتشرين الثاني كانت القبائل العراقية تخشى الخروج الى الصحراء، لانها كانت تخاف ان تتكرر غزوة (جو هادية) التي حدثت قبل سنة، وفي الوقت ذاته اخذت حيواناتهم تموت جوعا بسبب نقص المراعي

كانت قبيلة «الضفير» هي القبيلة الوحيدة التي تهتم بتربية الابل، في الصحراء الجنوبية من العراق. اما بقية القبائل الاخرى فانها كانت تعني بتربية الاغنام والحمير ولقد استشرت «عجمي بن سويط» شيخ الضفير، بشأن احسن وسيلة بالنسبة الى الوضع الراهن. لقد كان الاخوان بعيدين عنا في الحجاز، وكان يبدو بان غاراتهم على العراق غير متوقعة، ولكن عجمي رد علي يقول بان القبائل لن تخرج الى الصحراء الا اذا ذهبت معها.

وطبقا لذلك نصبت لي خيمة بيضاء (كانت كل الخيم العربية سوداء)، وعلى اثر ذلك تحرك عجمي واتباعه الى داخل الصحراء على ان اتبعهم انا بخيمتي البيضاء. كانت القبائل التي ترعى الاغنام ماتزال حَذِرة، وتبعث بكشافة منها الى مخيم عجمي، حيث كان اولئك الكشافة يشاهدون خيمتي البيضاء ويتساءلون على الدوام قائلين: «ماهي تلك الخيمة البيضاء؟» فكان «عجمي» يرد على تساؤلهم ذاك بلهجة معتادة «اه! انها الحكومة»

وما ان تشجع الرعاة بوجود الحكومة حتى تحركوا للانضمام الى مخيم عجمي، وسرعان ماتحركنا نحن بعزم نحو المنطقة المحايدة [١٢] حيث كانت المراعي فيها فاخرة

---

(١٢) المنطقة المحايدة منطقة اشبه بالمعين كانت تقع بين العراق والسعودية وتصل الى حدود الكويت. وكانت من اهم المواقع فيها هي الرخيمية، وانصاب، وجليدة وقد وزعت هذه المنطقة خلال السبعينات بين العراق والسعودية ولم يعد لها من وجود منذ ذلك التاريخ

كانت المنطقة المحايدة تحتوي على عدد من الابار العميقة التي تحتاج القبائل العراقية والنجدية اليها،وبذلك اصبحت محايدة بالنسبة للرعاة العراقيين والنجديين على حد سواء.

لم استطع المكوث خلال الشتاء في خيمتي البيضاء لان مقر القوة الجوية البريطانية قد طلب الي بان ارد على الرسائل التي كان يبعث بها الي، وان اكتب التقارير اللازمة. غير انني تركت الخيمة البيضاء على حالها في مخيم عجمي لكي ترمز الى وجود الحكومة، وكنت اقوم بنفسي بزيارة ذلك المخيم من وقت الى اخر. وعلى هذه الشاكلة انقضت سنة،دون ان تتعرض الخيمة البيضاء لاية غارات،ذلك لان «الاخوان» كانوا يقاتلون في الحجاز.

* * *

وفي ذات الوقت تلقيت في سنة ١٩٢٦ رسالة من وزارة الحرب البريطانية تنبئني فيها بأنني قد أمضيت خمس سنوات خارج الجيش،وانني سوف اعاد الى بريطانيا بعد وقت قصير.ولما كنت قد كرست نفسي لخدمة العراق والعراقيين فقد اجبت وزارة الحرب بالاستقالة من مهمتي.

ولقد كان من حسن حظي ان خف السر كنهان كورنواليس، مستشار وزارة الداخلية العراقية الى نجدتي،بان عرض علي توقيع عقد امده عشر سنوات للعمل بصفة اداري مدني لدى الحكومة العراقية،الامر الذي تقبلته مسرورا!

والواقع ان ذلك العقد كان ذا فائده مزدوجة.ذلك لان الانتداب كان سينتهي امده في سنة ١٩٢٨حين يصبح العراق مستقلا استقلالا تاماً ويصبح حراً في طرد الموظفين البريطانيين لديه. غير ان مطامحي الشخصية وحبي للعراقيين كانت تطغى بصفه تامة كالعادة على اي اعتبار بالنسبة الى سلامتي الخاصة أو الى عملي في المستقبل.

ومما تجدر الاشارة الى تأكيده هنا هو كيف ان الوضع الداخلي للشرق الاوسط كان قد تحول تحولا تاما خلال سني العشرينات. ففي ذلك الوقت كانت كثير من البلدان العربية تضم قبائل مسلحة،وكانت الاضطرابات التي تثيرها تلك القبائل تؤلف تهديدا ثابتا للقانون والنظام.ونتيجة لذلك كان سكان المدن موالين للحكومة دوما، لانهم كانوا ينتظرون منها حمايتهم من تلك القبائل.ولقد استمر هذا الوضع طيلة الوقت الذي بقيت فيه قوات الحكومة مسلحة بالبنادق التي يستطيع افراد العشائر انفسهم ان يتسلحوا بها ايضا.

على انه ماان اصبحت الحكومات العربية قادرة على ان تسلح قواتها بالاسلحة الحديثة، من امثال الطائرات والسيارات المصفحة حتى اصبح افراد العشائر عاجزين

ومن ثم فان سكان المدن (الذين لم يعودوا موالين للحكومة بسبب الخوف من العشائر) قد اصبحوا هم المتمردون في الوقت الذي بقى فيه افراد العشائر موالين.

اخذت مقاومة المدينة للحكومة صيغتين: الاولى هي اغراء الجيش الذي راح فيما بعد يؤيد سياسة حكومات المعارضين لاعداد انقلاب عسكري لقلب الحكومة القائمة. فلقد اقدمت كثير من حكومات الشرق الاوسط على تطبيق عملية التجنيد الالزامي املا في ان تحصل على جيش كبير بثمن بخس. وكانت نتيجة ذلك غدت الجيوش المؤلفة من المجندين اصحاب المرتبات الضئيلة، غير موالية للحكومة في الغالب. لقد كان من الافضل ان يزجى النصح الى الحكومات بان تكون لديها جيوش متطوعة من افراد يتقاضون مرتبات طيبة ممن يعتمد على اخلاصهم

اما النقطة الثانية من صيغ المقاومة لدى اهل المدن والتي اخذت تتطور، فانها قد اشتملت على اعمال الاغتيال والارهاب او زرع القنابل الموقوتة. لقد دارت العجلة الآن دورة كاملة فقد اصبحت العشائر موالية بصفة عامة للحكومة وان كانت متباينة بالنسبة الى السياسة الحزبية. غير ان الحكومات كانت على الدوام مهددة بالتنافس بين ساسة المدن، وكانوا في الغالب يلجأون الى استخدام الارهاب او اقتراف حوادث الاغتيال، اوتدبير الانقلابات العسكرية التي كانت تنهض بها العناصر غير الموالية في الجيش.



الفصل الثامن

العراق وبريطانيا



العراق وبريطانيا

قسم العراق الى الوية او مقاطعات، يحكم كل واحدة منها متصرف يكون رئيساً لكل الدوائر في مقاطعته. وكان يعمل معه مستشار اداري بريطاني، يكون واجبه، تقديم النصح والمساعدة·ولربما كنت انا صغير السن كيما انال مثل هذا التعيين، ذلك لانني وان كنت ذكيا بصفة مؤكدة، وقد كرست نفسي للعمل بحماسة، الا انني كنت اصغر سناً من المتصرف، الذي يفترض فيّ ان ازجي النصح اليه.

امضيت السنة المحددة من ربيع سنة ١٩٢٦ حتى ربيع سنة ١٩٢٧، في الادارة المدنية في لوائي «الحلة» و«الديوانية» في الفرات الاوسط. ولقد هيأت لي هذه السنة، معرفة وثيقة باعمال الادارة، والضرائب، والمنازعات العشائرية حول الاراضي، بصفة خاصة.

كانت جميع الاراضي الزراعية، زمن الاتراك، تعود بصفة نظرية، الى الحكومة، وان كان المزارعون، من الناحية العملية، يشترون ويبيعون الاراضي، احدهم الى الآخر. ولكن امثال هذه المعاملات لم يتم تسجيلها في سجل رسمي، لأن الحكومة كانت تزعم بانها هي المالكة لكل الاراضي الزراعية.

على ان السلطات العثمانية، مالبثت ان قررت في بداية القرن العشرين، ورغبة منها في تقليد اوربا، بان تشجع الملكية الخاصة للاراضي، ولذلك تم اصدار تعليمات بقصد تسهيل مهمة نقل الاراضي الحكومية الى الملكية الخاصة.

ومع ذلك، ومثل اي شيء اخر، فان هذه الاجراءات، خلال السنوات العشر الاخيرة من الحكم العثماني، كانت قد فسدت، نتيجة ارتشاء الموظفين العاملين في دائرة الاراضي، ذلك لانه كان في مستطاع الاغنياء، واصحاب النفوذ، ان يذهبوا الى دائرة الاراضي، وان يحصلوا عن طريق الرشوة، على سندات خاصة، بامتلاك اية منطقة من الاراضي التي يطمعون في امتلاكها. ومن المحتمل تماما، ان الارض موضوعة البحث، كانت تزرع قبلا، ولمدة اجيال، من قبل العشيرة المحلية، التي لم تكن تدرك بان احد الاغنياء، قد استطاع في الوقت ذاته، ان يحصل على هذه المستندات التي تخوله ملكية تلك الاراضي. وغالبا ما يكون الرجل الثري قد حصل على هذه المستندات عن طريق الادعاء، ولايحاول تثبيتها، لان العشيرة لابد وان تقاوم ذلك.

ولابد ان تحين احدى الفرص في وقت ما، حين يحدث ان يحل احد الفيالق العسكرية التركية في المنطقة، واذ ذاك يظهر المدعي مستندات ادعائه، والتي تكون نافذة المفعول من الناحية القانونية، حتى وان كانت تلك المستندات قد تم الحصول عليها عن طريق الرشوة في الواقع.

واذا ذاك تشرع العشيرة التي كانت تزرع تلك الارض لعدة اجيال، بمقاومة ادعاء المدعي بكل عنف، حيث تنجم عن ذلك مصادمات مع القوات الحكومية احيانا. وقد يتم ترتيب الصلح والتوفيق في بعض الحالات، ولكن كان من العسير جدا اجلاء العشيرة، التي تستطيع لوحدها ان تزرع الارض، ولكن كان يتم ارغامها، تحت ضغط الاحتجاج، على ان تدفع بدل ايجار الى المدعي بملكية تلك الارض.

هنالك مشقة اخرى، كانت تتمثل في الواقع، في أن الارض المتنازع عليها، لم يكن قد جرى تسجيلها. ولذلك فان من المحتمل، حين يقدم احد الاغنياء على دفع رشوة الى دائرة الاراضي، ويحصل على مستندات بملكية قطعة من الارض، ان يسأله كاتب الاراضي عن الحدود التي يشير اليها في المستندات التي يحتفظ بها. وغالبا ما كان يتم تحديد تلك الحدود بعبارات مبهمة من امثال «الى الشرق من بستان الحاج محمد، والى الغرب من الصحراء!».

وانني لاتذكر بهذه المناسبة، ان مستنداً لملكية الارض، مؤرخاً من العهد التركي، قد ابرزه احد المدعين بملكية الاراضي، فاذا به يحدد حدود تلك الارض بانها تشتمل على «شمال الهور، وشرقي الهور، وجنوبي الهور، وغربي الصحراء!».

. لقد اشرت الى بعض هذه المشاكل،لانني اردت ان ابين الارتباك الاداري، الذي خلفه الاتراك فيما وراءهم،واتساع مقدار العمل الذي يحتاج اليه لتسوية هذه الحالات المربكة على اساس قانوني معقول.

ولقد كان من سوء الحظ، ان غدت القضايا السياسية والقومية، تؤلف الموضوعين اللذين يتلقيان معظم الشهرة والذيوع. فلم يكن هنالك من احد يهتم بالقدر الواسع من العمل الاداري الذي يحتاج اليه، لتقليص تلك الفوضى العثمانية، وتحويلها الى دولة حديثة.

كانت الضرائب في العهود التركية، تجبى على اساس مقدار كميات القمح، او الرز، او التمور، التي يتم حصادها فعلا في كل سنة. ولم تكن مثل هذه القاعدة صائبة. ذلك لان المزارع الذي يبقي ارضه غير مزروعة، لايدفع اية ضرائب بالمرة. فلو كانت الضريبة المحددة واجبة الدفع عن الارض، فان المزارع سوف يتشجع لانتاج اكثر مما تستطيع الارض انتاجه.

كان الاجراء المطبق بالنسبة الى الضرائب، هو الافتراض بان يقدم المزارعون، وقت الحصاد، على جمع قمحهم على الارض التي تتم تذريته فيها، واذ ذاك تقوم لجنة تقدير حكومية بالكشف على اكوام الحنطة او الشعير، و«تقدير» قيمة القمح ومقداره، وحصة الحكومة من الضريبة. وكان تكديس القمح في اكوام مختلفة، هي الطريقة المثلى، في ذلك الوقت، لقسمة الحاصلات بين المزارع، والعمال الذين يعملون في مزرعته.

على ان طريقة التخمين كانت بالطبع، معرضة لاضرار الرشوة المتوقعة التي تقدم الى لجنة التخمين، وان كان من المتعذر ابطال مثل هذه الرشوة، لان لجان التخمين كانت تتألف بصفة جزئية من الموظفين الحكوميين وبعض الوجهاء المحليين.

ولعل اخطر من هذا كثيراً، هو ان تعمد لجنة التخمين الى انقاص تقدير حاصلات احد الوجهاء المحليين، ولكنها في الوقت ذاته، تتجاوز تقدير حاصلات رجل فقير، قد لايستطيع الذهاب الى بغداد، وتقديم شكواه بهذا الشأن.

لقد كنت مقتنعا بصفة شخصية، تمام الاقتناع بانه كان من المستطاع، خلال السنوات الثمان من الانتداب على العراق، انجاز مقدار واسع من العمل في كل هذه الميادين، وذلك بمساعدة من عمال دؤبين، لفرقة صغيرة من الموظفين البريطانيين المكرسين لمثل ذلك العمل.

فلقد تم بالطبع انجاز عمل مماثل في دائرة اخرى. ذلك لان الجيش العراقي قد تم اعداده وتدريبه بمساعدة من البعثة العسكرية البريطانية[1]. وبذات الطريقة، كانت دوائر الاشغال العامة، والري، وسكك الحديد، والوزارات، تحتفظ بموظفين من صنوف عالية، من العراقيين والبريطانيين معا، وفي الوقت الذي كنت فيه اعتقد بانه بمثل هذه الوسائل، يمكن معاونة العراق لكي يصبح دولة عصرية مستقلة، خلال سنوات الانتداب الثماني، فان النظام كان قد ساء على ايدي اصحاب الافكار السياسية في المدن. اما في المناطق الريفية التي عملت فيها بمفردي، فلم تكن الحالة على مثل هذه الشاكلة اعتياديا. ذلك لان ابناء الريف والموظفين الاداريين، كانوا في الغالب يتميزون بالصداقة والمساعدة فيما بينهم.

ومع كل ذلك فان الازدواجية، او الحكم المزدوج، كان نظاما شاقا ينبغي العمل في ظله. ففي ميدان الادارة، كانت السلطة التنفيذية كلها محصورة في يد الموظف العراقي، في حين لم يكن زميله البريطاني سوى مشاور ليس الا. ومع هذا كان الناس يسعون، بصفة حتمية، الى بذور الشقاق بين الموظف العراقي، والمشاور البريطاني! ولكن كان الاثنان، مع كل ذلك وبصفة عامة، يعملان معاًوبسعادة عادة. وكان مثل هذا الاحتكاك حين يقع، يقتصر في العادة على مدينة بغداد وحدها. ومع هذا وبشكل عام تماما، فان النتيجة الخالصة لكل ذلك، هي التذمر الشائع لدى اصحاب الافكار السياسية من العراقيين.

وكما سبق ان بينت، كان نظام الانتداب برمته، من مبتدعات الرئيس الامريكي، «وودرو ولسون» ذلك المثالي الاكاديمي. فالولايات المتحدة الامريكية، كانت في ذلك الوقت امة لم يمض آنذاك على تكوينها اكثر من مائة وخمسين سنة، وكانت منعزلة على نطاق واسع، فيما وراء المحيط الاطلسي، ولربما كانت على اتم الاستعداد، لان تحاول فرض تفوقها. غير انها اخفقت في تحقيق مساهمات كافية، بالنسبة الى ثقافات تمتد جذورها الى الوف عديدة من السنين في الاجزاء الاخرى من العالم. ولهذا السبب، كان نظام الانتداب، يشتمل، ومن دون ذكاء، على عنصر من التفوق والتنازل المفترضين.

---

(١) لاينكر اي منصف متتبع للحوادث ان مهمة البعثات العسكرية البريطانية كانت تنحصر في الدرجة الاولى، في قولبة الجيش العراقي حسب القوالب الانكليزية، والحيلولة دون نمو الوعي القومي التحرري بين الضباط في الغالب، وتنقية الجيش من العناصر الواعية المتأثرة بالاحساس الوطني العارم، كما دللت على ذلك الاعمال التي اوصت بها البعثة العسكرية البريطانية بعد ثورة ايار ١٩٤١، حين اقدم عبد الاله ورفاقه من صنائع الانكليز على طرد واحالة العشرات من الضباط في ذلك الوقت» على التقاعد.

لقد وزعت الانتدابات من لدن عصبة الامم، وفرضت على البلدان التي تقرر فرضها عليها، من دون استشارة تلك البلدان، ولذلك فان هذه الاخطاء الخالية من المناهج، قد وردت في مذكرة اثارت الحنق والاشمئزاز. لايوجد ادنى شك في ان البلدان، التي كانت تعود قبلا الى الامبراطورية العثمانية، كانت في حاجة الى المستشارين والفنيين(٢) من الغرب. ولكن اذا ما تركت تلك البلدان وشأنها، فانها سوف تختار اولئك المستشارين والفنيين من امم مختلفة، وبذلك تتجنب المذلة بان تصبح خاضعة لدولة واحدة مسيطرة.

ومع ان الانتداب كان فكرة امريكية، الا ان الولايات المتحدة الامريكية، سرعان ما انسحبت من الميدان على الفور، وتركت الحلفاء الآخرين هم الذين ينظمون الوضع، ولو كان الحلفاء كلهم قادرين على ايجاد فريق المستشارين من الاقطار الاوربية الغربية، وسمحوا للبلدان المنتدب عليها بان تختار المستشارين الذين تحتاج اليهم، لامكن بذلك تجنب التوتر والاشمئزاز.

فقد كان في مستطاع كل قطر ان يختار خليطا من المستشارين البريطانيين، والفرنسيين، والامريكيين والايطاليين، او الاسكندنافيين. وبهذه الطريقة يستطيع ذلك القطر ان يتجنب الشك المذل بانه عنصر يخضع لبلد غربي معين.

كانت كل الامم الغربية التي عهد اليها بالانتدابات، قد اخذت تعامل الاقطار المنتدب عليها بطرق متباينة. فالبعض منها، كانت تعامل تلك الاقطار في صفة مستعمرات خالصة، ولذلك كانت تعهد بكل الوظائف الادارية العليا، الى موظفيها الخاصين ليس الا(٣) ولست اعتقد بان بريطانيا كانت قد فعلت مثل هذا الامر في العراق، ذلك لان كل الموظفين البريطانيين في العراق كانوا استشاريين حسب.

هناك عاملان اشتركا، بصفة خاصة، في حوادث العراق(٤). لقد وافق الاتراك، اثناء مفاوضات الصلح، على التخلي عن البلدان التي كانت تابعة لهم، والمأهولة باكثرية عربية، غير انهم ادعوا، في الوقت ذاته، بان الموصل وكردستان لاتضم

---

(٢) نود ان يلاحظ القارىء بان كلمة «فنيين» هنا انما يقصد بها اصحاب الفن المحلي التطبيقيTECHNOLOGISTS مما تعارف عليه الان لدى كثير من المترجمين بكلمة «تقنيين».

(٣) في هذا يلمح المؤلف الى معاملة الفرنسيين والايطاليين بصفة خاصة لسكان البلدان التي استولوا عليها، او التي عهد اليهم بالانتداب عليها، والفظائع التي انزلوها بالشعب العربي في ليبيا، وسوريا وتونس والجزائر والمغرب التي مانزال نئن من اثار الاحتلالين الفرنسي والايطالي.

(٤) يقصد بذلك ثورة العراق الكبرى في سنة ١٩٢٠، والانتفاضات التي اعقبتها بعد فرض الانتداب وتشكيل الحكم الملكي فيه.

اكثرية عربية، وطبقا لذلك فيجب ان تبقى هذه الاقسام تابعة الى تركيا. لم تكن لدى العراقيين حينذاك اية قوات مسلحة،وكان الاتراك يستطيعون ان يحتلوا الموصل وكردستان بيسر، اذا لم تنهد بريطانيا للدفاع عنها.

ولو تحرك الاتراك فتقدموا الى داخل ولاية الموصل وكردستان، لاستطاعوا بذلك، ان يطبقوا على ولاية بغداد ذاتها. واذ ذاك فان العراق حتى اذا ما استطاع تماما ان يحيا، فانه سوف يتحول الى دولة صغيرة اشبه بشرقي الاردن، التي فصلت عن سوريا التي غزاها الفرنسيون. وعلى هذا الاساس فانه لم يعد هناك ادنى شك بانه لو لم تقدم بريطانيا على الدفاع عن العراق في سني العشرينات، لما كان له من وجود بالشكل الذي هو عليه اليوم(٥).

ومع كل ذلك فان التذمر من الانتداب الذي فرض على العراق من دون استشارة سكانه، لم يمكن التغلب عليه، وعلى هذا الاساس شاع التذمر والاشمئزاز، طيلة فترة الحكم المزدوج، والتي اعانت العراق على ان يبرز في صفة دولة متحضرة، من غمرة فوضى الحكم التركي. ونقول ان ذلك التذمر قد شاع بفعل الساسة العراقيين(٦).

في سنة ١٩٢٨، وحين انتهت فترة الانتداب، اوصت بريطانيا بقبول العراق في عصبة الامم، باعتباره دولة مستقلة. وبذلك اصبحت الخدمات التي احالتها

---

(٥) واضح تماما ان الوضع الحرج الذي اصبح العراق فيه عند انتهاء الحرب العالمية الاولى، قد خلق مجالا واسعا امام بريطانيا لتثبيت اقدامها في العراق، والتشبث بكل الوسائل لبسط سيطرتها عليه. فلقد تضافرت تحركات الاتراك ومطالباتهم بولاية الموصل التي كانت تشمل كردستان، مع المؤامرات الانكلو فرنسية التي تمثلت في معاهدة سايكس بيكو وما اعقبها، ولهذا فان بريطانيا لم تقدم على العمل لاعادة ضم ولاية الموصل الى العراق، الا بعد ان كبلت العراق بالمعاهدة الاولى، التي ارغمت اعضاء البرلمان العراقي بالقوة وعند منتصف الليل، على المصادقة عليها. ذلك لان هذه المعاهدة، والمعاهدات الاخرى التي اعقبتها، هي التي حققت الهدف الاول من الاحتلال البريطاني على العراق، والمتمثل في استغلال موقعه الستراتيجي المهم، وموارده النفطية الهائلة. فبعد ان تم التصديق على تلك المعاهدة صدر قرار عصبة الامم بان ولاية الموصل جزء لايتجزأ من العراق، وتم تثبيت ادعاءات بريطانيا وشريكاتها في نفط العراق والمبادرة باستغلاله على الفور.

(٦) على الرغم من كل الفضائل المزعومة لفترة الانتداب البريطاني على العراق، فان العراقيين قد تحققوا بصفة عملية، بان الاجراءات التي طبقتها بريطانيا، لم يكن يقصد بها تحويل العراق الى دولة عصرية مستقلة، كما كان الانكليز يزعمون ذلك على الدوام، بقدر ما كان يراد بها الحفاظ على المصالح الاستعمارية البريطانية في العراق، وفي مقدمتها استغلال موارد العراق وخيراته، ونفطه بصفة اساسية، وابقاء العراق طريقا مأمونا للوصل بين بريطانيا ومستعمراتها في الشرق الادنى، من امثال الهند، وبرما، والملايو، وضمان سيطرتها الكاملة، ومن دون منافس اطلاقا، على الخليج العربي، وشبه الجزيرة العربية، الى جانب فلسطين، وشرق الاردن.

بريطانيا الى العراق، بصفة نظرية، واسعة جدا. ومع ذلك فان ذكرى السنوات الثمان من الحكم المزدوج(٧)، استمرت تثير التذمر بين الساسة العراقيين.

* * *

خلال سني العشرينات، واذ كنت مازال في سني العشرينات من عمري، شعرت لاول مرة بنوع من «مركب النقص» ازاء الفرنسيين. لقد كنت اظن بان بريطانيا ماتزال دولة ملكية، في حين كانت فرنسا دولة جمهورية، وان الفرنسيين لابد ان يكونوا اكثر مساواة دون ريب. ولكن حين التقيت بالفرنسيين، في مختلف المؤتمرات التي عقدت بشأن الحدود السورية، اصبحت سطحية الاراء التي كنت اومن بها، اكثر وضوحا لدي.

فحين يكون شيوخ العرب، او الموظفون حاضرين، لااتمالك نفسي من ان الاحظ بان الضباط الفرنسيين كانوا يعاملونهم بطريقة اقل صداقة ورفقة، مما كان البريطانيون يظهرونه ازاء العراقيين. كما انني لست اعتقد بان تهم الاستعمار التي كانت توجه بكل حرية ضد بريطانيا من قبل مواطنيها، مما كان يمكن تبريره بالنسبة الى قضية البلاد العربية(؟). ذلك لان نظام الانتداب قد تم تطبيقه من دون تدبر، وان المباهاة المشروعة لدى الامم الصغيرة كانت مؤذية.

قد يؤدي وجود القوات البريطانية الى التذمر. ولكن لم يكن، بعد الحرب العالمية الاولى، من معدى لذلك، لان الامة العراقية الحديثة لم تكن لديها قوات خاصة بها. وقد تكون تهمة الاستعمار قد قامت على اساس الشك في نوايا البريطانيين. فحين تخلت بريطانيا عن الانتداب في الموعد الذي حدد لانتهائه، ادعى الوطنيون العراقيون بان بريطانيا لم تكن تنوي الجلاء اصلا، ولذا كانت قوة معارضتهم هي التي اجبرتها على ان تفعل ذلك(٨).

---

(٧) المقصود به الحكم الذي قام خلال الفترة الانتدابية، حيث كان الانكليز يحكمون العراق في الخفاء الى جانب الحكم الملكي الذي قام فيه سنة ١٩٢١.

(٨) لايوجد ادنى شك في ان الثورة العراقية الكبرى في سنة ١٩٢٠، وما قبلها، وان المعارضة الوطنية للانتداب، قد كانت من الاسباب الاساسية التي حملت بريطانيا على إجلاء قواتها عن العراق في وقت سريع، وتقليص التزاماتها، وعلى الاخص بعد ان ضمنت هيمنتها على السياسة العراقية عن طريق المعاهدات التي عقدتها مع العراق ولاسيما معاهدة سنة ١٩٣٠.

والواقع انه كانت هناك معارضة اوسع في بريطانيا، لاتقوم على اساس قبح الاستعمار وشراسته، وانما على العكس من ذلك، كانت تقوم على اساس اننا نحن البريطانيين، لم نكن ملزمين بان ننفق تلك الاموال على بلد بعيد جدا عنا.

كان مما يسوؤني في الغالب، حين يذكر لي ابناء الجيل الناهض في بريطانيا، بانهم يشعرون بالخجل الواسع من شراسة الاستعمار البريطاني بعد الحرب العالمية الاولى. فبالنسبة اليّ كانت خدمتي في العراق تعتبر على الدوام عملا ينطوي على الحب.

* * *

كانت السنة التي امضيتها بصفة موظف اداري مدني في العراق، تعتبر سنة تثقيفية وممتعة. فقد كان جميع الذين عملت معهم، سواء كانوا من الموظفين العراقيين، او شيوخ العشائر، يظهرون لي الود والمساعدة. ومع ذلك فقد غدت الامور كئيبة بسبب فعل الساسة في بغداد، والذين كانوا يمارسون الضغط بصفة دائمة على المتصرفين، لكي يساعدوا المنتمين الى احزاب اولئك الساسة، بتفضيلات ادارية من امثال خفض الضرائب المفروضة عليهم، او تسوية المنازعات على الاراضي لصالحهم.

لقد جعلتني هذه التجربة امقت السياسات الحزبية، واستهجنها طيلة حياتي. والحقيقة ان بريطانيا كانت معرضة الى اي لوم بشأن علاقاتها مع العراق، ومن المحتمل ان يكون ذلك اللوم ناتجا، في الواقع، عن استخدامها نفوذها لاقامة نظام الديمقراطية والسياسة الحزبية في ذلك القطر. غير ان هذا كان قد وقع بنتيجة غيرة انسانية خاطئة، وليس نتيجة استعمار شرير![9]

ولم يتطرق الى ذهني ادنى شك في ان مختلف الأعراق البشرية، كانت تحتاج، نتيجة لامزجتها المتباينة وللآلاف من السنين التي انقضت في تغير الثقافة والتقليد، الى انظمة متباينة من الحكومة. ذلك لان الاعتقاد بأن اي فرد يستطيع ان يقيم

---

(٩) لامجال لتبرئة بريطانيا في هذا المجال، من سوء النية والتطبيق. فلو كانت بريطانيا تعتزم اقامة حكم ديمقراطي في العراق، على اسس النظام القائم فيها، لاستطاعت ان تقيم مثل ذلك الحكم على الاسس الرصينة التي توطد اركانه، وتحقق ديمومته، وفي مقدمة تلك الاسس حرية الانتخابات، والكلام، والصحافة، والاحزاب، والحكم بالعدل في القضايا التي تحدث، وعدم اختيار طبقة معينة، حصرت بها وحدها مقومات الحكم ووجوده بحيث اندفعت تلك الطبقة فيما بعد الى التناحر الشخصي البغيض، واستخدام العشائر والجيش الى ازاحة البعض من زملائهم عن كراسي الحكم والحلول محلهم فيها.

حكومة، تكون هي النموذج، لمجموع العنصر البشري، يكون وهما له خطورته البالغة.

وفضلا عن ذلك، وفي الوقت ذاته، فان اقتراح نظام التبعية، الذي كان يراد تطبيقه اثناء الانتداب، لم يكن من الضروري له ان ينقص من قيام نظام اريد من ورائه تطبيق التعاون المثمر بين الاصدقاء.

وبادراك متأخر، نستطيع ان نرى كيف حصل سوء التفاهم فيما بعد، ولذلك فلم يكن هنالك ادنى عذر لتوجيه الاتهامات العنيفة بطريقة ما او اخرى، لانه لاوجود لطرف سافل في هذه الحكاية.

لم تكن بريطانيا، في سني العشرينات، تتسم بالنزعة التوسعية[10] لقد بدأت آنذاك، بتقليص سيطرتها على الهند، فلماذا تريد، في مثل ذلك الوقت، ان تحصل على المزيد من البلدان في الشرق الاوسط؟. اما بالنظر الى مصالح بريطانيا التي كانت ماتزال قائمة في الهند، وفي الشرق الاقصى، واستراليا، فقد كان خوفها الوحيد يتمثل في ان تقدم دولة كبرى، من امثال روسيا. او المانيا، على توطيد اقدامها في البلدان العربية، وان تقطع المواصلات البريطانية مع المحيط الهندي.

لقد كانت بريطانيا تبدو سعيدة حين وجدت ان تركيا قد غدت تحت السيطرة، لان الامبراطورية العثمانية الضعيفة لم تكن تؤلف خطرا عليها. غير ان مصير الحرب كان قد ادى الى اختفاء الامبراطورية العثمانية، وجعل بريطانيا هي التي تسيطر على العراق.

وكذلك فانني اعتقد بانه ينبغي على بريطانيا ايضاً، بأن تتحمل قسطا معيناً من المسؤولية. وذلك لانها ما ان وجدت نفسها، طائعة ام مكرهة، موجودة في

---

(١٠) لاتقر المؤلف على هذا القول المغاير للواقع تمام المغايرة. لقد كانت بريطانيا في سني العشرينات، وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى هي الدولة الوحيدة في العالم التي تملك امبراطورية لاتغيب الشمس عنها ابدا. اما ماذكره المؤلف بشان تقليص السيطرة البريطانية على الهند، فلا يقره الواقع ابدا، ذلك لان بريطانيا عمدت بعد تلك الحرب وفي اوائل سني الثلاثينات الى ضرب الحركة الوطنية الاستقلالية في الهند باقسى الضربات وباشد الاساليب عنفا وقسوة، ولم تسمح للهند بنيل استقلالها الا في سنة ١٩٤٧، اي بعد مرور زهاء ثلاثين سنة كاملة على انتهاء الحرب الاولى، وبعد ان اججت الفتنة الدينية التي مزقت الهند وما تزال تمزقها حتى الان، كما ان بريطانيا وافقت على استقلال الهند، وبقية الاقطار التي كانت خاضعة لها في الشرقين الادنى والاوسط، مكرهة، لانها خرجت من الحرب العالمية الثانية على شفا الافلاس، فاضطرت الى التخلي عن الكثير من مستعمراتها الى النفوذ الامريكي، الذي حل محل النفوذ الانكليزي في تلك المستعمرات التي تعتبر الان من البلدان المستقلة.

العراق، فلم يكن لها اي حق في البقاء هناك الى ان يستطيع العراق ان يصبح دولة مستقلة مدعمة بصفة ذاتية، ومن ثم تجلو عنه؟ وفضلا عن ذلك، وفي الوقت ذاته فان اقتراح نظام التبعية، الذي كان يراد تطبيقه اثناء الانتداب، لم يكن من الضروري له ان ينقص من قيام نظام اريد من ورائه تطبيق التعاون المستمر بين الاصدقاء.

وبادراك متأخر، نستطيع ان نرى كيف حصل سوء التفاهم فيما بعد، ولذلك فلم يكن هنالك ادنى عذر لتوجيه الاتهامات العنيفة بطريقة ما او باخرى، لانه لاوجود لطرف سافل في هذه الحكاية.



الفصل التاسع

تقلب الاوضاع!



تقلب الاوضاع!

مرت السنتان ١٩٢٥، ١٩٢٦ بسلام على الحدود السعودية، وذلك لان ابن السعود كان بعيدا في الحجاز، حيث استولى على كل من مكة، والمدينة، وجدة، واخرج منها الملك حسين والد فيصل ملك العراق. ومع ذلك فقد عاد ابن السعود في خريف سنة ١٩٢٦. وقد تحقق لدى اتباعه «الاخوان» بانهم هم الذين اقتحموا الحجاز، وليس ابن السعود الذي لم يكن لديه جيش نظامي. وما ان اعتقدت القبائل بان السلطة تكمن في ايديها حتى كانت على استعداد لان ترفض سلطة ابن السعود.

وجد عبد العزيز السعود نفسه في مأزق. لقد اثار بنفسه تطرف الاخوان، لكي يدحر منافسيه من العرب. اما الآن فانه لايستطيع ان يكبح جماح «الاخوان»، وان كان لايود ان يثير خصومة بريطانيا له، بالاغارة على العراق. وطبقاً لذلك، وفي شتاء سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧، قام الاخوان بغارات مكثفة على الرعاة العراقيين، وقد وصلت احدى هذه الغارات الى نقطة لاتبعد سوى خمسة وعشرين ميلا عن محطة القوة الجوية البريطانية في «الشعيبة» خارج البصرة. والحقيقة ان الاخوان لوواصلوا غزوهم، لاستطاعوا ان يدمروا تلك المحطة برمتها.

لقد فشلت القوة الجوية البريطانية فشلا ذريعا في معالجة هذه المشكلة. اما انا فانني كنت مازال منهمكا في الادارة المدنية في منطقة الفرات الاوسط. وفي اليوم الثاني من شهر آذار سنة ١٩٢٨، تلقيت على حين غرة، برقية تنبئني بانني قد نقلت

الى الصحراء الجنوبية، واذ ذاك وجدت نفسي اعود اليها، ولكن بالقليل من الاحترام، من دون مقر القوة الجوية البريطانية.

كنت منذ ان قدمت الى العراق، ومنذ ايام عملي مع فرقة العمل في جسر الرمادي، القب باسم «ابي حنيك»[1] واللغة العربية تستخدم على نطاق واسع، صفة التصغير، وذلك باضافة الحرف (ي) في وسط الكلمة. فالكلمة «حنك» تعني الفك الاسفل، في حين ان كلمة «حنيك» يقصد بها الفك المصغر. وعلى هذا فان العرب حين كانوا يدعونني ابو حنيك.. فانما يشيرون بالطبع الى الجرح الذي اصبت به اثناء الحرب على مقربة من مدينة ارّاس في سنة ١٩١٧

في سنة ١٩٢٨ تلقيت اسما جديدا من التكريم، لكنه يعتبر مع ذلك محدودا بالنسبة الى عالم البدو. فبين القبائل التي تعنى بتربية الابل، غالبا ما يتلقى المحاربون فيها اسماءهم من قطعان الابل التي يملكونها، فيسمون انفسهم «صاحب العالية». و«صاحب الضبطة»[2] فالكلمات «عالية، وضبطة» كانت تعني اسماء الابل.

ولقد حدث في بعض الايام (حين كنت غائبا) ان شرع بعض البدو في خيمة الضيوف لدينا، يتناقشون في موضوع احتمال حماية لقطعانهم من الاخوان، حين تمتم احدهم يتحدث عني بقوله «والله انه صاحب الابيض الصغير» (وكان يعني بذلك بعيره) ومن يومها اصبحت معروفا بانني «راعي وضيحة» اي «صاحب البعير الابيض الصغير»[3]

ان اي امرىء يخيم في الصحراء، يكون في حاجة لان يهيء نفسه لاستقبال الضيوف الذين لايمكن منعهم من الدخول الى المخيم والجلوس فيه. ونتيجة لذلك كنا ـ اضافة الى كل مواقعنا ومضاربنا-ننصب على الدوام خيمة خاصة بالضيوف، والتي تكون نافعة كاداة لجمع المعلومات.

فمن خيمة واحدة من خيام الضيوف التي كانت لدينا في هذا الوقت، كنت أتلقى التحايا التي اتذكرها دوما. ذلك لان البدوي، الذي ينتقل من منطقة لأخرى، يسأل رجل القبيلة المحلي عن نوعية الرجل الانكليزي الذي كان معهم،

---

(١) تحول الكاف في اللغة العراقية الى الجيم الفارسية، فاصبح لقب غلوب عندهم هو ابو حنيج (وظل شائعا حتى في الاردن ايضا ابو حنيك)

(٢) تقول العامة «راعي» بدلا من كلمة صاحب عادة.

(٣) راعي وضيحة، يقصدلها في الواقع مالك الناقة البيضاء وليس البعير الابيض.

فيرد رجل القبيلة بكلمتين قائلا «دائما يضحك»![4]. كنت على الدوام احب الملاحظة التي كان يبديها «روبرت لويس ستينفنسون»[5] والقائلة «لايوجد واجب نستخف به اكثر من الواجب الذي نغدو به سعداء»

* * *

في شهر آذار سنة ١٩٢٨، كان موسم الرعي على وشك ان ينتهي، ولذلك اخذت العشائر تعود الى ضفاف نهر الفرات. كانت لدي ستة اشهر كي استعد لفصل مقبل من الغارات، التي قد تكون مكثفة على الارجح.
امعنت التفكير في كيفية تعليم العشائر العراقية عملية الدفاع عن نفسها. كان مقر القوة الجوية البريطانية يفكر عكس تلك الفكرة تماما. ولما كان هذا المقر يعتبر العشائر العراقية من المدنيين، فانه طالب باخراج تلك العشائر من الصحراء، بقصد ان يعهد الى القوة الجوية البريطانية، بان تلتحم مع المغيرين الذين لايمكن ان يمكثوا في مكان ما.

كانت الرقابة الجوية ماتزال تحت التجربة حقاً،ولذلك كان مقر القوة الجوية متشوقاً، الى ان يبرهن بان كل شيء يمكن عمله من الجو وحده. ومنذ ذلك الوقت تعلمنا بان القوات الجوية والبرية شركاء ضروريين، غير ان القوة الجوية البريطانية في سنة ١٩٢٧ لم تكن لتأخذ القوات البرية بنظر الاعتبار.

ومهما يكن فقد كانت الحكومة العراقية متعاونة في هذا الموضوع الى اقصى حدود التعاون. فطبقا لما طلبته انا بعثت الي الحكومة العراقية، باربع سيارات تجارية من حمولة طن واحد، واربع سيارات لحمل الماء، كانت قد اشترتها من الاسواق المحلية في بغداد. كذلك خولتني الحكومة العراقية، بان اسجل مائة من بدو الصحراء في صفة شرطة.

وفي الوقت ذاته كانت العشائر التابعة لنا حنقة جداً على الحكومة العراقية، لانها كانت ترغمها على دفع الضرائب من دون ان تفعل شيئاً لحمايتها. ولذلك كانت المهمة التالية بالنسبة الي، هي ان اكسب ثقة عشائرنا، وتعاونها معنا، وهو امر

---

(٤) كتب المؤلف هذه العبارة باللفظ العامي «دايم يضحك» DAIME YADH'HAK

(٥) ROBERT LOUIS STEVENSON هو ابن المهندس الاسكتلندي المعروف ديفيد روبرت ستيفنسون (١٨١٥ - ١٨٨٦) وكان لويس هذا من كتاب المقالات الاجتماعية والعلمية في اواخر القرن الثامن عشر بانكلترا.

استطعت ان احققه عن طريق الزيارات والمناقشات التي كنت اجريها مع تلك العشائر.

كانت خطتي تنطوي على ان اضمن التعاون المخلص التام من لدن عشائرنا، وان ارتب في الوقت ذاته، استطلاعات ارضية تقوم بها شرطة الصحراء في سيارات، لكي تكون طليعة جديدة لعشائرنا، وبذلك ننقذ القوة الجوية البريطانية، من ساعات لانهاية لها، من الاستطلاع المبهم في صحراء خالية، والتأكد في ذات الوقت، باننا نستطيع ان نحدد مواقع المغيرين المتقدمين!

لقد علمت بان العشائر العراقية من الرعاة والبدو على حد سواء كانو في العهود التركية، وقبل ان يعمد ابن السعود الى اثارة التطرف الديني في الجزيرة العربية، قد اعتادوا ان يطرحوا المعركة على القبائل النجدية، بما في ذلك قبيلة مطير ذاتها. وعلى هذا فلم اجد اي سبب يدعو الى عدم اقدام العشائر العراقية، بما لها من قيادة ملائمة، على ان تدافع عن نفسها ضد الاخوان. ذلك ان افراد العشائر لم يعودوا يعاملون من قبل القوة الجوية البريطانية بصفة مدنيين، وانهم كانوا يؤمرون بان يهربوا حين يتلقون الانذار بوقوع غارات الاخوان عليهم.

في شهر نيسان سنة ١٩٢٨، رافقت احدى البعثات الدبلوماسية العراقية، الى ابن السعود الذي كان مقررا له ان يستقبلنا في جدة.. وقد تقرر ان يقوم السرغلبرت كلايتن الذي كان يعرف ابن السعود، بدور محكم بريطاني (٦) غير اننا ما ان وصلنا الى القاهرة حتى قيل لنا بان الوقت هو موسم الحج السنوي الى «مكة» وانه طبقاً لاتفاق دولي، لايسمح لاحد بالهبوط في جدة خلال موسم الحج، الا اذا كان قد سبق تطعيمه ضد قائمة مطولة من الامراض الوافدة الى الشرق. ووفقاً لذلك تم اعلامي بانني لااستطيع الذهاب الى هناك، كما انبأني الاطباء بانني احتاج الى ثمانية اسابيع لمساعدتي على تلقي كل التطعيمات المطلوبة، مع حدوث فترات مناسبة بينها.

---

(٦) السير غلبرت كلايتن SIR GILBERTCLAYTON. من اقطاب المكتب العربي في القاهرة الذي انشأه الانكليز في اوائل الحرب العالمية الاولى، والذي قام اعضاؤه بالاتصال بالشريف حسين وحثه على الثورة ضد الاتراك. قدم كلايتون، بعد الحرب الاولى الى العراق وتولى منصب المندوب السامي البريطاني فيه في سنة ١٩٢٩ وقد توفي ببغداد في اليوم الحادي عشر من شهر ايلول ١٩٢٩. وقد اشترك كلايتون في الاجتماع الذي عقده كورنواليس مع ابن السعود في جدة في شهر ايار ١٩٢٨، كما سبق له ان مثل الحكومة العراقية في التوقيع على اتفاقية بحرة مع السعودية في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني ١٩٢٥. وكان للسر جلبرت كلايتون اصدقاء كثيرون من العراقيين للنظر الى علاقاته القديمة مع البعض منهم ايام الثورة العربية ولما عرف عنه فيما بعد بانه كان يتولى ادارة الاستخبارات البريطانية في العراق بعد الحرب العالمية الاولى.

وحين سألت الطبيب، عما اذا كنت استطيع ان اتلقى كل التطعيمات على الفور، رد علي بقوله انه لم يسمع من قبل باجراء من هذا القبيل. ومع ذلك استطعت ان اقنع الطبيب بان يعطيني كل التطعيمات في مدى نصف ساعة من الوقت. ولم اصب باي رد فعل اطلاقا نتيجة لذلك. والذي اعتقده انه كانت هناك سبعة انواع من الامراض الوافدة من بينها «الطاعون الدبلي»(٧) والكوليرا، والحمى الصفراء وغيرها

وفي اليوم السابع من شهر ايار سنة ١٩٢٨ اجتمعنا مع عبد العزيز السعود في جدة. كان ابن السعود شديد التأثير على من ينظر اليه، لأن راسه وكتفيه كانتا اعلى من افراد حاشيته، وكان يمتلك الشخصية التي لايمكن تحديدها، والتي كانت ترغم كل انسان على ان ينفذ ما يأمر به. وفي الوقت ذاته كان تصرفه صريحا وبشكل مبهج، وابوي، مطبوع على حب الخير.

كان من سوء الحظ اننا لم نستطع ان نتفاوض معه مباشرة. فقد كانت تمثله جماعة من المحامين اللبنانيين، والفلسطينيين، والمصريين، الذين كانو يتجادلون، كما عبرت عن ذلك امي «حول السيقان الخلفية للحمار»!

كان ابن السعود قد جوبه بمشكلتين: اولاهما، وهي اكثر اهمية بالنسبة اليه، هي مشكلة اشد القبائل المتطرفة التي كانت تقوض سلطته وهما قبيلتا «المطير» و«عتيبة». اما المشكلة الثانية: فانه ظل لسنوات عديدة، يحاول ان يبرر غارات هذه القبائل على العراق، وذلك بشكواه علنا، من ان البدو القاطنين في العراق، كانوا يغيرون عليه.

كانت هذه الشكاوى قد ايدت بقوة، عن طريق المذكرات ذات اللهجة القوية، التي اصدرتها الحكومة البريطانية. والحقيقة ان هذه الغارات العراقية كانت صغيرة، وكانت تتم بصفة سرية، وتلقى التشجيع من لدن فيصل ملك العراق، والذي طردت اسرته من الحجاز على يد ابن السعود.
ففي اليوم الخامس من شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٥ قامت قبيلة شمر بغارة واسعة من شمال العراق، فنهبت الابل من الكويت، تلك الدولة الصديقة المجاورة. كنت في ذلك الوقت مازال اعمل مع القوة الجوية البريطانية، ولذلك كان علينا ان ننهض للعمل، فنقصف المغيرين الذين كانوا يرتوون عند مجموعتين

---

(٧) الطاعون الدبلي BUBLONIC PLAGVE

رئيستين من الآبار العراقية في الصحراء الجنوبية، واعني بهما آبار «البصية» و «السلمان»[٨]

ونتيجة لتلك الغارة، فقد اوصيت ببناء حصون للشرطة عند آبار «البصية» و «السلمان»، لان تلك ابسط وسيلة لانهاء الغارات الصحراوية• وفضلا عن ذلك، فان هذه المواقع الصحراوية اذا مازودت باجهزة اللاسلكي، فانها تستطيع ان تنقل الى السلطات المختصة، كل انباء تلك الغارات، والتحركات القبلية.

* * *

ارسلت توصياتي بهذا الشأن الى مقر القوة الجوية البريطانية، التي اوصلتها بدورها، الى الحكومة العراقية، التي صادقت على اقامة حصن للشرطة عند آبار «البصية». ومع ذلك ففي هذا الوقت (اي في شهر ايار سنة ١٩٢٦) كنت قد غادرت الصحراء، لاصبح مفتشا اداريا للديوانية.

سارع «الاخوان» الى تقييم خطتي لاقامة الحصون عند الآبار، وان هذه الخطة سوف تضع نهاية للغارات الصحراوية. ولذلك تم في شهر ايلول سنة ١٩٢٧ ارسال فريق مؤلف من اثني عشر عاملا الى «البصية» يصحبهم سبعة من افراد الشرطة. وفي ليلة اليوم الخامس ـ السادس من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٧، قام فريق مؤلف من حوالي خمسين رجلا من افراد قبيلة «المطير» بمهاجمة مخيم العمال والشرطة فقتلوهم جميعا ماعدا رجل واحد تخلوا عنه على اساس انه ميت، لكنه نجا من الموت في الواقع. تم ارسال فريق آخر من العمال الى البصية، ولكن كانت تصحبه في هذه المرة، سيارات مدرعة تابعة للقوة الجوية البريطانية، واذ ذاك كمل بناء الحصن المطلوب.

ولغرض استرضاء قبائله المتمردة، وتهدئتها، طلب منا ابن السعود، وهو في جدة، تدمير الحصن الذي اقيم في «البصية». ولقد رددنا على طلبه ذاك، بان الحصن كان قد اقيم لكي يساعدنا في منع قبائلنا من الاغارة على ابن السعود نفسه، وكان ذلك امراً واقعا حقا.

---

(٨) تقع البصية في المنطقة الجنوبية الغربية لمحطة «تل لحم» على سكة حديد بغداد ـ البصرة. اما السلمان فانها تقع الى الغرب كثيرا من تلك المحطة•ومن اشهر ابار البصية بئر الجهمة والجهيم، وحسيان الثامرية، والعكيد (بالكاف المعجمة والياء المشددة). اما ابار السلمان فاشهرها «الجل» وعميد واللعاعة والوجاجة» (عن كتاب البادية للمرحوم عبد الجبار الراوي).

لم يتم التوصل الى حل، لان ابن السعود لم يكن ليسيطر على اتباعه. ولقد كنت انا شخصياً اعطف كثيراً على ابن السعود. وكان يبدولي ان من المرغوب، فيه ان اساعده في بسط سلطته، لانه اذاما اخفق في ذلك، فان الفوضى سوف تعم الجزيرة العربية كلها، ولذلك كنت اميل الى منح امتيازات، الى ابن السعود، اكثر مما كانت تقبل به الحكومة البريطانية او العراقية[٩].

عدنا الى بغداد في نهاية شهر ايار سنة ١٩٢٨، من دون التوصل الى اتفاق مع ابن السعود. كانت لدي خمسة اشهر كي استعد فيها لموسم الغارات المقبلة. وقد سبق لي ان تقدمت بمقترحاتي الى الحكومة العراقية منذ شهر آذار. وقد طلبت اليها في تلك المقترحات الموافقة على تأليف فيلق للهجانة في الصحراء الجنوبية، والذي كان يتألف مما يلي:-

١- سبعين هجانا.
٢- ثلاثين رشاشا منصوبة على السيارات.
٣- ثماني سيارات متنوعة، اثنتان منها مزودة برشاشات من طراز «فكرز»[١٠].
٤- اربع سيارات جديدة من طراز «فورد» مزودة برشاشات من نوع فكرز.
٥- سيارات للاسلكي.

جوبهت هذه المقترحات بمعارضة من قبل «آمر الجيش» الذي قال بانه لايود ان يخوض افراد الشرطة اي قتال، وان القوة الجوية البريطانية، هي وحدها التي تقوم بمثل هذا القتال. والحقيقة ان الرد على الغارات التي يقوم بها آلاف المغيرين الذين يمتطون الابل، يجب ان يكون بواسطة السيارات المدرعة المتوفرة لدى القوة الجوية البريطانية، لكن القوة الجوية البريطانية لم تكن ملتزمة بالعمل.

---

(٩) هذا ادعاء باطل ومردود من المؤلف ذلك لان غلوب منذ ان هبط ارض العراق لاول مرة لم يكن يتحرك الا وفقا لاوامر تصدر اليه من دوائر الاستخبارات البريطانية. فكيف يجرأ بانرى على ان يطلب منح امتيازات اكثر لابن السعود من الحكومة العراقية على الاخص؟ والحقيقة، ان الحكومة البريطانية قد اختارت ابن السعود حليفا لها، منذ ان استطاع الاستيلاء على الرياض قبل الحرب العالمية الاولى بسنوات، وقضى على حكم منافسيه من آل الرشيد، وخططت لان يصبح ابن السعود هو وحده المسيطر على الجزيرة العربية، وفضلته على الملك حسين لان الحسين بدأ في نظرها واسع الاطماع والطموحات، ولذلك سكتت بريطانيا، بل وربما شجعت اقدام ابن السعود على انتزاع الحجاز من الملك حسين وابنائه، وعلى الاخص بعد ان غدرت بالحسين ونفته الى جزيرة قبرص. وبذلك اصبح ابن السعود ليس المسيطر الوحيد على الجزيرة العربية وحدها حسب وانما غدا له نفوذه في سوريا وفي فلسطين ايضا. فكان اول من عمل على افشال ثورة ١٩٣٦ في فلسطين، وماتبع ذلك من تطورات خطيرة، وبسط نفوذه على امارات الخليج العربي والشؤون العربية بصفة عامة. ولكن ارتباط السعودية ببريطانيا، قد تغير كثيرا بعد ان افلح الامريكيون في العثور على النفط في المملكة السعودية، ومانجم عن هذا الوضع من احداث وتطورات خطيرة جدا في السياسة العربية، ماتزال قائمة حتى الان.

(١٠) VICKERS وهو اسم صاحب المصنع الذي كان يصنع تلك الاسلحة في بريطانيا.

اخفقت الحكومة البريطانية ان تتفهم ان ابن السعود كان قد فقد سيطرته على القبائل التابعة له. ولذلك اعاقت خططنا الدفاعية التي اعتبرتها موجهة ضد ابن السعود. ولذلك بدا ان لاامل هناك اطلاقا لممارسة العمليات العسكرية في الصحراء، تلك العمليات التي يسيطر عدد كبير من الموظفين الجالسين في دوائرهم ببغداد ولندن، سيطرة مطلقة على كل تفاصيلها. ووفقا لذلك فقد صممت بان استخدم قوتي الصحراوية الجديدة بمثابة نقطة متحركة قوية، تتجمع حولها القبائل العراقية.

ومع انه كان من اليسير اقناع مقر القوة الجوية البريطانية بذلك، الا اننا كنا نعتمد،في معدل واسع، على الطائرات التي كان «الاخوان» يخشونها، كما انني كنت في ذات الوقت، اتمتع بمساعدة وثيقة وحماسية من الرف الثامن والاربعين من القوة الجوية البريطانية القائمة في «الشعيبة»،والتي كانت الوحدة الجوية هناك تشتمل عليه تماما.

وسرعان ما انطلقت قبائلنا، فاندفعت في شهر تشرين الثاني نحو الحدود. كنا ملزمين بان نسير مع هذه القبائل، ولذلك خيمنا في موقع «المغيزل» في الرأس الشمالي للمنطقة المحايدة. وبالاضافة الى تنظيم القبائل العراقية واعدادها للعمل طبقاً لاوامرنا، سعيت الى تحقيق نظام التجسس الذي كنت اشرف عليه بمدى واسع داخل اراضي الاخوان ذاتها،وبذلك اصبح جواسيسي الان يأتونني بالانباء، بصفة اعتيادية، من المخيمات التابعة للاخوان.

ومن التحريات التي قمت بها بشأن الحرب القبلية الصحراوية القديمة، استطعت ان اكتشف بان نظام الدفاع المعترف به كان قائما، وان كان يتألف من نصب جميع الخيام في خط مستقيم، تكون فيه الواحدة قريبة من الاخرى بحيث تصبح حبال الخيام متداخلة فيما بينها، وحينذاك يتم ربط كل الابل والاغنام خلف الخيام. واذا ماكان المخيم واسعا، فان من المحتمل ان يمد خط ثان مشابه من الخيام، خلف الخط الاول. فهذه الخطوط المؤلفة من الخيام، بالحبال المتقاطعة فيما بينها، تؤلف عقبة لايمكن التسلل خلالها للوصول الى الخيول المربوطة اوالى راكبي الابل.

والحقيقة ان الابل، باعتبارها اداة للركوب، لاتستخدم، على نطاق واسع، اداة للقتال، ذلك ان سكان نجد حين يواجهون بمعركة جدية، تراهم يترجلون عن ابلهم ويعقلونها، ومن ثم يتقدمون الى القتال سيرا على الاقدام. ولكن حين تكون

الخيام التي يجري الدفاع عنها، منظمة اساسا في صفة خطوط، فان كل واحد من الرجال المدافعين،يستطيع ان يفتح له فجوة لبندقيته امام الخيمة، وان يطلق النار على العدو الذي يتقدم سائرا على قدميه.

على هذه الشاكلة كانت تجري اساليب الدفاع البدوية القديمة. غير اننا ادخلنا تحسينات على هذه الطرق القديمة، بان شرعنا نحفر المتاريس امام خطوطنا، ومن ثم كنا ننزل رشاشاتنا من سياراتنا ونثبتها في تلك المتاريس، وبذلك كانت تتهيأ لنا نار جبهوية،يمكن اطلاقها بانتظام ضد العدو المتقدم نحونا.

ومهما يكن الامر فقد كان المردود العظيم لهذا النظام، ان اصبحت قطعان الماشية والاغنام لاتستطيع ان ترعى، ونتيجة لذلك فان مثل هذا الخط الدفاعي القوي لايمكن الاحتفاظ به لاكثر من اربع وعشرين ساعة، بل اكثر من ثماني واربعين ساعة على اعظم تقدير• وثانيا ان بناء الخيام، بمثل هذه الكثافة، يتطلب وجود تجهيزات مائية واسعة جداً، حيث يفضل في مثل هذه الحالة تهيئة غدير كبير من ماء المطر.

والواقع ان الاحتفاظ بالموقع الدفاعي لوقت قصير، يعني بان المخيمات القبلية، يجب ان تترك متناثرة على مدى واسع لغرض الرعي الى حوال اربع وعشرين ساعة، قبل ان يبدأ العدو بالهجوم. ومثل هذا الامر يتطلب الحصول على معلومات دقيقة تماما، بالنسبة الى الوقت المحتمل الذي سوف يقدم العدو خلاله على الهجوم. كذلك يتطلب الوضع ايضاً، اطاعة دائمة من لدن جزء من القبائل، التي ما ان تتلقى الدعوة للتعسكر، حتى تكون قد سارت يوما وليلة للوصول في الوقت الملائم لاقامة الخط الدفاعي. لقد اوضحت كل هذه العمليات عن طريق الموظفين القابعين في دوائر بغداد، او الحكومة البريطانية، فان الاجراء الوحيد كان يتمثل في استخدام الطرق القبلية للدفاع عن انفسنا، والتخلي عن امل مساندة الحكومة لنا. وكان من حسن حظنا ان «الاخوان» لم يكونوا يعرفون، بان القوة الجوية البريطانية، لم تكن تساندنا في المعركة!

* * *

في اليوم السابع عشر من شهر شباط سنة ١٩٢٩، جاءني احد جواسيسي الذين اعتمد عليهم بمعلومات مفصلة. كان فيصل الدويش رئيس قبيلة المطير يتقدم ضدنا بالاف من راكبي الابل، وانه قرر ان يهاجمنا في فجر اليوم العشرين من شهر

شباط. بعثت ببرقية لاسلكية الى مقر القوة الجوية طالبا اليه ارسال مالديه من السيارات المصفحة، وعلى اثر ذلك ارسلت كل السيارات الى كل القبائل العراقية بان تتجمع حول مخيم شرطتنا في «البطّية»[١١]

وضعنا خطط المعركة مع هذه القبائل بكل عناية، واذ ذاك تجمعت القبائل على الفور. وفي اليوم التاسع عشر من شهر شباط، كانت كل القبائل العراقية، قد تمركزت في خط صلب، مع وجود ساتر من شرطة الصحراء وسط ذلك الخط. وصلتنا اشارة من مقر القوة الجوية البريطانية يرفض بها ارسال السيارات المصفحة ويقترح بان علينا ان ننسحب قبل ان يصل المغيرون من الاخوان.

في اليوم التاسع عشر من شهر شباط بدأت في مخيمنا رقصات حربية لتقوية شجاعتنا، ولقد عرضت تلك الرقصات مفارقة مهمة بين مختلف مراحل التقدم الحضاري. ذلك ان الرعاة كانوا يمارسون ماعرف بالهوسات[١٢] وهي رقصة نشطة ذات طاقة تنطلق فيها نيران البنادق في الهواء. اما البدو الذين كانوا يركبون الابل فانهم كانوا كالعادة اكثر تميزا، لانهم وقفوا في خط طويل وهم يتمايلون بخفة وفقا لاصوات انشادهم.

لقد كان امرا ملحوظا كيف ان حضارة اواسط الجزيرة العربية تؤكد الهدوء، والاعتبار، على نقيض الرقصات العراقية الصاخبة العاصفة. في فجر اليوم العشرين من الشهر كنا ننتظر هجوم الوف كثيرة من راكبي الابل المغيرين، غير ان شيئا من ذلك لم يحدث. ولقد مضت ثلاثة ايام قبل ان نسمع بان فيصل الدويش قد وصل فعلا الى الموقع في ليلة التاسع عشر-العشرين من شباط

ففي منتصف تلك الليلة وصل ابن الدويش الى «جليدة»[١٣] في المنطقة المحايدة على بعد حوالي خمسة وثلاثين ميلا من موقعنا الذين حسبنا بانه سوف يهاجمه عند الفجر. كان قد اتخذ الحذر لوضع جاسوس في مخيمنا سوف يلتقي معه عند منتصف الليل عند جليدة. ولقد افهمه ذلك الجاسوس بان جميع القبائل قد تهيأت للمعركة. لم يكن فيصل الدويش بالطبع قد عرف بان القوة الجوية البريطانية قد

---

(١١) موقع لابار خفيفة يقع على الطريق بين نقرة السلمان وابار البصية الى الجنوب منها بمسافة ثمانين كيلو مترا. والمواهم بئر فيه هو بئر «تكيد» بالكاف المعجمة، ومعناه (خذ حذرك) والتي تقع على يمين الطريق.

(١٢) كتبها باللفظ العربي HOSA.

(١٣) جليدة بئر تقع على مسافة مائة وخمسة وثلاثين كيلومترا عن البصية (البادية؛ عبد الجبار الراوي ص ٩٥ الطبعة الثانية ١٩٤٩).

رفضت مساعدتنا.وبناء على ماانبأه به جاسوسه،وجد ان اقدامه على القيام بالهجوم سوف يكون محفوفاً جداً بالمخاطر ولذلك انسحب نحو الجنوب.

يستحيل على المرء (بعد مرور خمسين سنة) ان يتحقق من نوعية هذا الحادث الممزق، الذي كان يقع في الصحراء. ذلك لان «الاخوان» قد اعتادوا طيلة عشر سنوات، النهب والقتل في كل انحاء الصحارى الجنوبية للعراق. اما الآن فانهم، على حين غرة، قد تراجعوا عن تلك الاعمال بصفة مشينة. ولم يكن مثل هذا الحادث ليبدو بانه شيء اقل من معجزة!

امضينا مع القبائل العراقية الشهرين الاخيرين من مواسم الرعى في عشب اخضر رائق، وفي روحية من الانتعاش والسمو لامجال الى وصفها. ترى هل كانت نهاية السنوات العشر الطوال من الرعب، قد اصبحت منظورة؟. لقد انقذنا ابن السعود بصفة عرضية ايضا. فلو ان «الاخوان» المتمردون عادوا مثقلين بالغنائم، لعاد ذلك على ابن السعود، وعلى اواسط الجزيرة العربية، بتفاقم الفوضى الناجمة عن القبائل المتحاربة. والحقيقة ان المغيرين من «الاخوان» عادوا خالي الوفاض، الامر الذي ادى الى التفاف «نجد» حول ابن السعود.

في اليوم التاسع والعشرين من شهر آذار سنة ١٩٢٩ خاض ابن السعود. معركة عنيفة مع القبائل المتمردة من «مطير» و «عتيبة» في موقع «سبلّة» (بتشديد اللام)[١٤] ودحرها. ومنذ ذلك الوقت ومابعده اصبحت العمليات الحربية الكبرى، مستحيلة الوقوع، نظرا لقلة المياه.

ففي طيلة صيف سنة ١٩٢٩ كانت نجد في حالة من الفوضى،وكانت القبائل المتمردة على ابن السعود، والموالية له، تغير احداها على الاخرى. اما الغارتان اللتان قام بها «الاخوان» على العراق، فقد امكن صدهما ودحرهما بسياراتنا المصفحة، ومن دون اسناد جوي.

خلال ذلك الصيف استسلمت قبيلة «عتيبة» لابن السعود، وتركت قبيلتي «مطير» و «العجمان»، اللتين فقدتا الامل الآن، خارج الحسبان. وفي اليوم الثلاثين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٩، خيمنا في «جليد» في المنطقة المحايدة، وقد خيمت معي شرطتي الصحراوية المتحركة، واحاطت بها القبائل العراقية التي امتلأت الآن بروحية القتال. وفي اليوم الثالث عشر من شهر كانون الاول سنة

(١٤) سبلة على حدود المعين الذي كان يؤلف المنطقة المحايدة بين العراق والسعودية.

١٩٢٩، وصل وفد من قبيلة «مطير» التي اعتادت خلال السنوات العشر الماضية، ان تنهب العراقيين، وتقتلهم باستمرار، اقول وصل هذا الوفد الينا يطلب اللجوء الى العراق،واذ ذاك سارعت قبيلة «شمر» والقبائل النجدية المخلصة الاخرى، بالانضمام الى القبائل العراقية معنا، خوفاً من قبيلة «مطير».

لم نكن طيلة السنوات العشر الماضية الملىء بالفزع في الصحراء، نحلم بهذا المنقلب العجيب للحظ، وتبدل الاوضاع تبدلا تاما. لااستطيع الآن ان الم بالكلمات التي تصف التأثير العجيب لهذا التغير غير المتوقع في الحظ. ذلك لان القبائل العراقية كانت، طيلة عشر سنوات، تعيش في حالة خوف متواصل من المذابح، وتغامر بحذر في الخروج الى الصحراء بحثاً عن العشب الجديد النامي، ومن ثم تنطلق هاربة في خبال، حين ترد اليها اشاعة ماعن الخطر. فقد كان يتم، في كل سنة غالباً، الاستيلاء على مخيم او مخيمين للرعاة، وتتم تصفيتهم.

ولقد عشت انا نفسي ست سنوات في خوف دائم على ظهور الابل، او في سيارتي من طراز «فورد»، او ان اعيش وحيداً في خيمتي الصغيرة البيضاء على عمق سبعين ميلاً داخل الصحراء، لكي اشجع الرعاة العراقيين على التحرك.

ولم اكن احس بانني كنت اخاطر بحياتي لخدمة العراق، مدعما بموافقة الحكومة العراقية، وحماستها، او من الحكومة البريطانية، بل على العكس من ذلك كانت الحكومة العراقية آنذاك، لاتميل الا لتحضير القبائل، وتنظر اليها نظرة كراهية وعدم مبالاة. اما الحكومة البريطانية فانها كانت تتطلع على تحسين علاقاتها مع ابن السعود، ولا تجد اية حاجة الى مضايقته، في الوقت الذي لم تكن فيه الحكومة العراقية لتطلب اية مساعدة. وفي هذه الحالة لم تفعل القوة الجوية البريطانية،في فترات الفزع، اكثر من ان تنبىء القبائل العراقية بان تهرب!

اما الآن، وبعد مثل ذلك العدد الكبير من السنين، التي تسللت في خوف، فاننا قد وجدنا انفسنا، على حين غرة، محاطين بقبائلنا العراقية مع القبائل الموالية لابن السعود، وهي تحتمي وراءنا، ويروح «الاخوان» الخائفون يتوسلون الينا لكي نسمح لهم بالالتجاء الى العراق!-لقد كنت افرك عيني، ويندر ان اصدق بان ذلك قد حدث حقا!!.

* * *

في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الاول، وفي مثل هذه الحال الحذرة، حيث كانت توجد قبائل متمردة على الحدود، وقبائل عراقية، وموالون نجديون كانوا قد خيموا حولنا، تلقينا بغتة امرا قاطعا يقضي بضرورة الانسحاب. ومهما يكن الامر، ففي اليوم التالي هبط رئيس اركان القوة الجوية، عميد الجو «بونت»[١٥] في مخيمي. فبعد عشر سنوات من العمليات العسكرية، يبعث آمر القوة الجوية البريطانية، بضابط كبير الى الجبهة!. ومن ثم سارت الامور سيرا حسنا، على اساس ان وقائع الحال كانت واضحة.

في اليوم الخامس من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٠، ظهر ابن السعود مع كل قواته فجأة في موضع «الركعي»[١٦] وعلى بعد ثلاثة اميال ليس الا من المخيم الذي كنت فيه. وصلت سيارة من الملك ابن السعود تحمل السيد يوسف الياسين، احد المحامين السوريين لدى ابن السعود. وفي الوقت ذاته استبد الخوف بالقبائل المتمردة على ابن السعود فهربت الى داخل اراضي الكويت، فاصبحت الآن خارج نطاق حكمنا.

وفي اليوم العشرين من شهر كانون الثاني في سنة ١٩٣٠، تم عقد اجتماع بين ابن السعود وممثلين عن بريطانيا والكويت، تم الاتفاق فيه على اخراج القبائل المتمردة من الكويت[١٧] والعودة الى نجد، الامر الذي تم تنفيذه على الفور.

اظهرت الحكومة البريطانية، التي كانت تتطلع دوما الى تحقيق الهدوء، رغبتها في اقتناص هذه الفرصة لتحقيق المصالحة بين فيصل ملك العراق، وعبد العزيز بن السعود. وحيث ان ايا من الملكين لم يكن يرغب ان يزور الآخر، فقد تم اعداد اجتماع على ظهر مركب شراعي هو السفينة «س. لوبين»[١٨] في الخليج العربي بعيدا عن منظر الارض.

---

(١٥) BURNETT.

(١٦) الركعي: موقع يقع على رأس معين المنطقة المحايدة، من ناحية الشرق فيه آبار ماء خفيفة قليلة العمق، ومياهها عذبة، تبعد عن الزبير بمقدار مائتين وخمسة كيلو مترات، وعن «البصية» بمقدار مائة وسبعين كيلو مترا (البادية: عبد الجبار الراوي ص ٩٤ الطبعة الثانية).

(١٧) تم التوصل بين شيخ الكويت وابن السعود، وبتأثير بريطانيا طبعاً، الى اتفاق يتضمن قطع الامدادات عن القبائل المتمردة من نجد والتي التجأت الى الكويت، واستطاع ابن السعود عن طريق هذا الاتفاق ان يتخلص من فيصل الدويش وانصاره، وان يحسن علاقاته مع العراق ومع الكويت، حيث توطدت العلاقات السعودية الكويتية كثيرا، بعد ذلك الاتفاق الذي ادى الى رفع الحصار الذي فرضه ابن السعود على الكويت، بعد ان التجأ المتمردون من الاخوان الى الكويت [د. احمد حسن جودة (بالانكليزية) المصالح البريطانية في الكويت من ١٩٣٩ المطبعة العربية ١٩٧٩ ص ١٤٠ ومابعدها].

(١٨) S.LUPIN وهي واحدة من ثلاث سفن، منها السفينة «ستوارت» التي اقلت ابن السعود، والسفينة «نرخوس» التابعة لميناء البصرة، والتي اقلت الملك فيصل الاول.

وفي مساء اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط، وصلت ثلاث سفن في الموعد المحدد لها. كانت احدى هذه السفن تقل الوفد العراقي الذي كان يتألف من الملك فيصل، ورئيس الوزارة العراقية[19] ومستشار وزارة الداخلية (كنهان كورنواليس) والمندوب السامي البريطاني في العراق[20] وانا باعتباري خبيراً بالامور القبلية. تم ارسال سفينة بريطانية لجلب وفد ابن السعود، وكان المقرر ان تتم الاجتماعات على ظهر السفينة «لوبين».

وفي ذات المساء صعدنا الى ظهر السفينة «لوبين» لترتيب تفاصيل الاجتماعات، وقد طلب الى ربان السفينة بان ينزل ممرين خشبيين، احدهما عند الجانب الايمن من السفينة للسماح بصعود الملكين الى ظهر السفينة في آن واحد، وان يلتقيا في الوسط. غير ان الربان اعلن بكل اسف انه ليس لديه سوى ممشى واحد. ولقد احدثت هذه الحقيقة ازمة، ولكن الربان نفسه هيأ الحل لذلك، فقد اعلن يقول «في قوانين البحرية يكون الرجل الذي هو اكبر سنا هو الذي يصعد الى ظهر السفينة في الاخير! فلماذا لاتوضحون هذا للملك فيصل، وتطلبون اليه، طبقا لذلك، ان يصعد الى ظهر السفينة في الاخير، ثم تدعون ابن السعود الذي لايعرف العادات البحرية، بان يصعد الى ظهر السفينة اولا؟..

تم اختيار هذا الاقتراح بكل نجاح، وكان كل من الملكين يعتقد بانه قد ظفر بالتقدم على صاحبه. لايمكن القول بان ايا من الملكين كان يحب احدهما لاول نظرة. ولكن الواقع انهما قد اجتمعا، واكلا، وشربا سوية، وباهمية كان يبعد التوصل اليها. واهم من ذلك كله ان اجتماع «لوبين» كان قد ادى الى سلام دائم، فقد انقضت بعد ذلك الاجتماع خمسون سنة لم تستأنف خلالها الغارات، لا على حدود العراق او حدود السعودية.

كان تكريسي لنفسي في سبيل الدفاع عن قبائل الرعاة، نتيجة ارتباطي الشخصي المحبب معها. ومع كل ذلك كان «الاخوان» في سني العشرينات، مايزالون يؤلفون خطرا جديا على العراق. ففي الفترة التي سبقت السلطة الوهابية، في بداية القرن التاسع عشر كان «الاخوان» قد اشاعوا الذعر في كل مدن الفرات الادنى، وقد

---

(١٩) هو المرحوم ناجي السويدي.

(٢٠) هو السر فرنسيس همفريز، المندوب السامي البريطاني في العراق. والى جانب هؤلاء، شارك عدد من الاشخاص من بينهم «فيفان هولت» سكرتير المندوب السامي، الدكتور سندرسن الطبيب الخاص للملك فيصل الاول، ومارشال الجو «لود لوهوت» وملاح السفينة لوبين، وهو السرجون الين [راجع مذكرات سندرسن التي ترجمناها وطبعت ثلاث مرات خلال الفترة ١٩٨١ - ١٩٨٥.

دكوا حتى مدينة «كربلاء» المكان المقدس لدى الشيعة. ولذلك كان من المستحسن، على وجه التأكيد، ان تتم مجابهة «الاخوان»، وردهم بعيدا الى داخل الصحراء، بدلا من السماح لهم بالوصول الى مدن الفرات الادنى وقراه، وبث الرعب فيها.

حين كنت في الصحراء، كنت احس بالخوف، اكثر مما كنت اشعر به حين كنت في فرنسا خلال الحرب العالمية الادنى، ذلك لان احتمال ان تقتل في فرنسا كان اوسع من ان تقتل في الصحراء، ولكن الانسان كان يحظى بمساعدة احد الاخوان من الضباط والرجال الآخرين. والحقيقة ان كثيراً من الرفاق الذين قتلوا في الحرب، كان يبدو عليهم بان الموت الذي اختطفهم كان اقل فزعا لهم. اما في الصحراء فانني كنت وحيدا تماماً، ومن دون رفاق يساندونني. ذلك لان عملياتي في الصحراء لم تحظ لا بالدعم، ولا بالموافقة، لامن قبل الحكومة البريطانية، او الحكومة العراقية. فاذا جابهتنا الكارثة فان المسؤولية سوف تلقى على عاتقي وحدي ليس إلاّ!



الفصل العاشر

عصبة الاخوان



عصبة الاخوان

في الوقت الذي كانت تجري فيه حربنا القبلية واجتماع الباخرة «لوبين» كان الانتداب الذي فرضت عصبة الامم على العراق قد انتهى في سنة ١٩٢٨، وكانت بريطانيا تضغط على قبول العراق في عصبة الامم، باعتباره دولة مستقلة، في ذلك الوقت كنت شخصيا، قد كرست جهودي لهذا القطر، غير ان مستقبلي، بصفة عضو في الادارة، بدا مشكوكا فيه.

وفي ذلك الوقت بالذات كانت حكومة شرقي الاردن، التي ماتزال تحت الانتداب، لم تتخذ الخطوات اللازمة لتدعيم سلطتها في صحاراها. وما ان سمعت حكومة شرقي الاردن، بتوطيد القانون والنظام في صحارى العراق، حتى تشجعت على انتهاج مثال العراق، وعرضت علي ان تستخدمني لديها لهذا الغرض. ونظراً لعدم تأكدي من مستقبلي في العراق، فقد ابديت استعدادي لتقبل ذلك العرض.
استدعيت الى القصر ببغداد لاتلقى توديعي الرسمي للملك «فيصل»، ولاتلقى منه وسام الرافدين. لقد كان الملك معروفا بالنسبة الى شرقي الاردن، لان الامير فيصل هو الذي قاد القوات العربية، التي شقت طريقها من «العقبة» الى «دمشق» في الحرب العالمية الاولى، باعتبارها حليفة لبريطانيا.

كانت تلك، بالطبع، هي الحرب التي نال فيها لورنس الشهرة، وحقق فيها سمعته السيئة بتبذيره الاموال (وكلها من النقد الذهبي) على القبائل البدوية.

وجه الي الملك فيصل كلمة الوداع في صفة نصيحة فقال يخاطبني «لاتعط المال الى البدو. ان في مستطاعهم ان يفعلوا كل شيء من اجل التكريم. اما ان تهبهم المال فان ذلك سوف يحطم صفاتهم الخلقية!»

* * *

كانت امارة شرقي الاردن تمتد حوالي مائتين وخمسين ميلا، من الشمال الى الجنوب، ومائة وثلاثين ميلا من الغرب الى الشرق، وهذه تعادل في الغالب نفس مساحة انكلترا، من دون سكوتلندا، او ويلز. غير ان الارض القابلة للزراعة، وسقوط الامطار الكافية لزراعة القمح، ونمو الاشجار، لاتؤلف سوى اكثر بقليل، من سدس اراضي القطر، اما البقية فهي صحراء•كانت المنطقة الصحراوية تتألف بصفة رئيسة من تلال جبسية متموجة، ينتشر فيها حجر الصوان بصفة منطلقة. اما في ناحية الشمال، فان الصحراء مغطاة بمقذوفات بركانية مندرسة، بينها تشتمل في ناحية الجنوب، على سلسلة من جبال تعرف باسم «جبال طبيق»[1]. اما الحدود الغربية لشرقي الاردن فانها تتألف من نهر الاردن ومن البحر الميت، وواد منحدر واسع يدعى وادي «عربا» الذي ينحدر الى خليج العقبة.

* * *

انشئت الادارة الحكومية وسلطتها. في المنطقة المزروعة وحدها، وكانت تضم مناطق معروفة مثل «مواب» او «جليد» التي وردت في التوراة•وكان حاكم الاردن هو الامير عبد الله اخ فيصل ملك العراق، وابن الشريف «حسين» الذي طرده «ابن السعود» من مكة.

كانت القبيلتان البدويتان اللتان تعنيان بتربية الابل، هما «بني صخر» و «الحويطات» وان كانت توجد بعض القبائل البدوية الاخرى الصغيرة التي تعني بتربية الابل ايضا من امثال «سرحان» و «عيسى» و «سردية» و «اهل الجبل» الذي كانوا يسكنون التلال البركانية الشمالية.

---

(١) جبال طبيق: تقع الى الشمال الغربي من المملكة السعودية، وفي جنوبي صحراء الصوان التي تجاور عند الغرب وادي سرحان، وتمتد حتى مدينة «معان» في الاردن.

ونظراً لأن الامير عبد الله هو ابن الشريف حسين، فقد كان الود معدوما آنذاك بين شرقي الاردن، والبلاد التي اصبحت تعرف فيها بعد باسم المملكة السعودية العربية. غير ان حدود شرقي الاردن، كانت اكثر بعداً عن المناطق التي كانت تسكنها قبائل «الاخوان» المتطرفة، ونتيجة لذلك كانت غارات هذه القبائل على شرقي الاردن، اقل حدة مما كانت تجري على العراق.

وفضلا عن ذلك، ففي سنة ١٩٢٤ اقتحمت قوة واسعة تماما من «الاخوان» تضم الالوف من الرجال الاشداء، اراضي شرقي الاردن، ووصلت الى مكان يدعى «زيزا» على بعد عشرة اميال حسب، من «عمان»حيث كان مستطاعا احتلالها بعد فترة قصيرة، والقضاء عليها قضاء مبرما.

كانت للقوة الجوية البريطانية نقطة هبوط في «زيزا». وقد صادف ان كانت احدى سيارات القوة الجوية البريطانية، التي تنقل الوقود الى نقطة الهبوط، قد وصلت في اللحظة الحرجة. لقد شاهد سائق تلك السيارة نوعا من معركة قائمة، ولذلك اسرع بالعودة الى معسكر القوة الجوية البريطانية في عمان لينبأه بما كان يحدث.

حلقت طائرات القوة الجوية البريطانية، فصدت المغيرين، بالقاء قنابل صغيرة عليهم، في الوقت الذي وصلت فيه السيارات المصفحة التابعة للقوة الجوية البريطانية الى مكان الحادث. كان الوف من راكبي الابل، الذين كانوا يتقدمون في ريف مكشوف، قد وجدوا انفسهم من دون حماية امام السيارات المصفحة، ولذلك تلقى الاخوان هزيمة منكرة، حفظت شرقي الاردن في السنوات التي تلت ذلك من مذابح لغارات كبيرة اخرى.

كان من نتيجة ذلك ان بقيت العلاقات بين شرقي الاردن، وابن السعود من سنة ١٩٢٦ حتى سنة ١٩٣٠؛ في غمار حرب دبلوماسية. استمرت الغارات الصغرى من قبل كلا الجانبين، وكانت تلك الغارات تستهدف نهب الحيوانات، وليس ارتكاب المذابح، ومع ذلك بقي ابن السعود يحتفظ له في لندن بنهر متدفق من الشكاوى.
تولت بريطانيا الاحتفاظ بالانتداب على شرقي الاردن، وكانت مسؤولة عن الدفاع عن حدوده، غير انها كانت في الوقت ذاته تحتفظ بعلاقات ودية مع ابن السعود، ولذلك كانت شكاوى ابن السعود، يجري نقلها الى شرقي الاردن بخبث اضافي!

في هذا الاطار الدبلوماسي كانت حكومة شرقي الاردن هي المتضررة، لانه ليست لديها السيطرة على صحاراها، وليست تعرف بما كان يجري هناك، ولم تستطع ان تفند اتهامات ابن السعود، او ان ترد باتهامات مضادة لغارات سعودية (كانت متواصلة تماما) لانه ليست لديها اية فكرة عما كان يحدث.

* * *

حين ظهرت شرقي الاردن الى الوجود في سنة ١٩٢١، نتيجة تفكك الامبراطورية العثمانية، كانت قد ورثت معظم الجيش الذي استطاع به الامير فيصل، الاستيلاء على دمشق في سنة ١٩١٨. فهذه القوة، وان لم يكن تعدادها، ليزيد عن الف وخمسمائة نفر، كانت تضم وحدات من المدفعية والمخابرة.

واذ كان هذا هو الجيش العربي الوحيد الذي خاض غمار الحرب العالمية الاولى، فقد اطلق عليه اسم الجيش العربي. وحين طرد الفرنسيون «فيصلا» من دمشق، كانت بقايا هذا الجيش، قد التفت حول شقيقه الامير عبد الله. ومع ذلك فان الحكومة البريطانية لم تكن ترتاب في اخلاص هذه القوة، ولذلك اعلنت بان الفا وخمسمائة رجل لايمحن ان يؤلفوا جيشا، ولهذا اطلقت عليه اسم «الفيلق العربي»[٢]

اودعت قيادة هذا الفيلق الى العقيد «بيك»[٣] الذي عمل مع فيصل ولورنس. وكان من سوء حظ الفيلق العربي، ان عين «اللورد بلومر»[٤] مندوبا ساميا على فلسطين وشرقي الاردن (كان بلومر يحمل رتبة فريق (فيلد مارشال) وكان آمرا للجيش الثاني في فرنسا وبلجيكا في الحرب العالمية الاولى، وكان ابي يحتل منصب رئيس المهندسين في هيأة اركان بلومر هذا)

التحم العقيد «بليك» بجيشه الصغير هذا في سلسلة من العمليات العسكرية في شرقي الاردن، ضد القبائل المتمردة التي لم يستطع الاتراك ان يسيطروا عليها، واستطاع بكل نجاح ان يوطد اركان القانون والنظام.

ومع كل ذلك، وعند هذه النقطة، كان اللورد «بلومر» المندوب السامي الجديد قد

---

(٢) ARABLEGION وكلمة فيلق «هنا ليست دقيقة من الناحية العسكرية لان كلمة LEGION تعني «الجوق» ولكن تم الاتفاق بين المعنيين على هذه التسمية

(٣) F. D. PEAKE

(٤) LORD PLuMER

جاء في زيارة رسمية الى الامير عبد الله . ابلغ الفيلق العربي بان يهيء حرس الشرف، وسارع كثير من الرجال الى اظهار كيفية عرض السلاح.

ادى هؤلاء العرض تماما حين وصل اللورد بلومر، فقام هذا بتفتيش الحرس، ولكنه بدلا من ان يدخل الى القصر، كما كان متوقعا، بقي واقفا مكانه، وقال «اصرفوا الحرس من فضلكم!» وكانت تلك مناورة لم يكن افراد الحرس مستعدين لها وقد اوقعتهم في شيء غير قليل من الارتباك!

بعث اللورد بلومر الى لندن بما هو مناقض للفيلق العربي، واقترح بان يتم خفض عدده الى النصف، وان يتم انشاء قوة جديدة يتولى امرتها ضباط بريطانيون، للدفاع عن حدود شرقي الاردن، التي كانت بريطانيا مسؤولة عنها، وفقا لصك الانتداب. وعلى هذه الصورة تم تجريد الفيلق العربي الذي انقص عدده، من مدفعيته، ومن مخابراته، ومن وحداته الاضافية، واصبح مسؤولا عن الامن الداخلي ليس الا.

ومع كل ذلك واصل ابن السعود اتهاماته الصادرة من جانب واحد، بان قبائل شرقي الاردن، كانت تغير على رعاياه، وان الحكومة البريطانية، قد امرت بارسال قوة الحدود الاردنية الى الصحراء وهي تحمل اوامر مشددة بمنع القبائل الاردنية من الاغارة على الاراضي السعودية. ولم ترد اية اشارة عن منع الغارات السعودية على شرقي الاردن، وان كانت هذه الغارات في الواقع متعددة، مثل الغارات التي كانت تصدر من الجهة المقابلة.

* * *

في ربيع سنة ١٩٣٠ قام «الاخوان» بغارات على شرقي الاردن، كانت الاولى يتزعمها ابن عم ابن السعود، وقد الحقت خسائر فادحة بالقبائل الاردنية. وفي هذه اللحظة بالذات، كانت قوة الحدود الاردنية قد وصلت الى الصحراء، وهي تحمل اوامر متحيزة بصفة اجماعية ضد القبائل الاردنية!! وعلى هذه الشاكلة وجدت القبائل الاردنية مستضعفة من جانب حكومتها، ومدمرة بغارات من الجانب الاخر!

تقرر ان تجري محاولة وتهيئة شيء من النظام في غمرة هذه الفوضى، ولذلك استدعتني الحكومة الاردنية لان اتولى السيطرة على الصحراء التابعة لها، وعلى هذا الاساس منحت رتبة لواء في الفيلق العربي، وطلب الي بان اوطد القانون والنظام في منطقة الصحراء.

بادرت بتسجيل مائة رجل، وسبعين من الهجانة، وثلاثين رشاشة محمولة على سيارات، وهي ذات القوة الصحراوية، التي سبق لي ان انشأتها في العراق. كانت هذه العملية تحتاج الى المال طبعا. وفي الوقت الذي تمت فيه المصادقة المالية على ذلك (لان بريطانيا هي التي ستدفع هذه الاموال) كنت قد توجهت الى الصحراء.

كانت قبيلة «الحويطات قد تولاها اليأس، بعد ان هصرت، وجرى تهديدها، ودفعها عن مواطنها من قبل قوة الحدود الاردنية، بناء على اتهامها بانها كانت تغير على اراضي ابن السعود، في حين ان هذه القبيلة كانت تجابه بصفة منتظمة، بغارات من الجانب السعودي، في الوقت الذي لم تكن فيه لدى قوة الحدود الاردنية، اية اوامر لان تحمي هذه القبيلة من الغارات الصادرة من الاراضي السعودية.

استطعت، خلال شهري تشرين الثاني وكانون الاول من سنة ١٩٣٠، ان اطوف بسيارتي حول مضارب قبيلة «الحويطات» والتحدث الى افرادها. يوفر الكرم، الذي يتميز به البدوي، فوائد عظيمة، لمن قد يتوقف عند اية خيمة، وان يدعى على الفور الى تناول طعام العشاء،وان يمضي الليلة هناك. والغالب ان اي مجتمع آخر، لايمكن الاتصال فيه بين الناس وادارة حكومتهم،الا عن طريق دعوة احد الناس الى احدى الدوائر الحكومية، وذلك بتوجيه رسالة اليه، كما هو الامر في بريطانيا.

يمكن للمرء الاتصال بالعرب الذين يسكنون الخيام، بصفة ضيف غير مدعو من قبل اية عائلة، وتناول طعام العشاء، والجلوس حتى منتصف الليل، والتحدث في جو رخي. ذلك لان الناس الذين يجلسون سوية على الارض، حول النار الموقدة، ويقدمون دورات لانهاية لها، من اقداح القهوة، يكونون اكثر انساً وانفتاحاً، من الرجل الذي يجلس امام منضدة. في حين يقف الرجل الآخر امامه.

كان الوضع نموذجيا لتطبيق المثل الذي كنت اطبقه وهو «حب وثق (بانك) ستكون محبوبا وموثوقا به».ولذلك فلم يشأ عرب «الحويطات» الا الموافقة على اشارتي لهم، بانهم كانوا في طريقهم الى الفناء. ذلك لانهم لايستطيعون في ذات الوقت ان يقاتلوا حكومتهم والحكومة السعودية، بما لديها من قبائل. غير انهم لايستطيعون ان يجدوالهم مخرجا من هذه المعضلة.

ولقد ارتابوا في ضعف مقترحي القائل بان عليهم ان يساندوا حكومتهم مقابل ان تقدم حكومتهم على حمايتهم، وراحوا يتساءلون منكرين «هل تفعل الحكومة ذلك؟،

وهي التي لم تفعل اي شيء سوى فرض الضرائب علينا، ومحاصرتنا والالقاء بنا في السجن» غير انهم لابد وان كانوا قد سمعوا بما حدث في العراق، ذلك لان الصحراء، كانت في تلك الايام، تؤلف عالما واحدا، وان في مستطاع البدوي ان يعرف كل مايحدث في الصحراء على مسافة خمسمائة ميل، ولو انه قد لايعرف ادنى شيء عن الحوادث التي تقع على بعد خمسين ميلا عن مخيمه في المنطقة الزراعية.

كان نجاحي الاول يعود الى وصول بعض رجال من شرطتي من العراق، الذين استقالوا من عملهم هناك، وتبعوني الى شرقي الاردن. كان هؤلاء من البدو الذين يعيشون بين البدو، وبذلك اصبح مستطاعا ان اؤكد كل ماسبق لي ان قلته عن العراق. وحين تمت المصادقة على الميزانية التي اقترحتها،كان اولئك المحاربون من العراق اول الرجال الذين سجلتهم لدي.

كان عرب الحويطات على شفا الهلاك جوعا، وكانوا يرتدون الاسمال، لكنهم كانوا في الوقت ذاته ملهمين بمقت حكومتهم وقواتها. كانوا على قناعة بان البريطانيين كانوا حلفاء ابن السعود في تدميرهم(٥) وعلى الرغم من هذه الكراهية المجسدة تجسيدا عميقا، ومن الاهواء، فقد استطعت ان اكسب صداقتهم وثقتهم بصفة بطيئة.

* * *

مضى شهران على مثل هذه الشاكلة. وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩٣١، استطعت ان اجمع سبعة او ثمانية جنود من البدو، من هنا وهناك، ولكن لم يكن بينهم احد من عرب الحويطات. لقد كان التنافر بين الحويطات والحكومة الاردنية، وقواتها، شديداً الى درجة انني طلبت الى السلطات الاردنية بان تعمد الى نقل كل القوات المسلحة.

بعد لاي (من الجدل)، وافقت الحكومة الاردنية على سحب قوات الحدود في اليوم الاول من شهر شباط سنة ١٩٣١، على اساس التجربة، وكانت مفعمة بالأمل في أن الفوضى سوف تنتج عن ذلك الاجراء، وانه ينبغي لقوات الحدود ان تعود على عجل. هيأ هذا الوضع لي الفرصة لأن ادعو عرب الحويطات بان ينقذوا انفسهم

(٥) كانت هذه القناعة في محلها. ذلك لان بريطانيا اعتمدت من الاساس على محالفة ابن السعود معها، لانها كانت تخشى مطامح الملك حسين، وتمسكه بالعهود التي قطعتها له ابان الاتصال معه قبل اقدامه على اشعال نيران الثورة ضد الاتراك،ولذلك شجعت بريطانيا ابن السعود وامدته بالمال للقضاء على ملوكية الاسرة الشريفية في الحجاز واستخذائها سواء في سوريا، ام العراق، ام الاردن.

بانفسهم، واذ ذاك انفذنا كمائن من الخيالة، والهجانة لكي يراقبوا الحدود تحسبا للغارات السعودية. كانت السيارات التي طلبتها قد وصلت،وبدأ التدرب على استعمال رشاشات «لويس» و «فيكرز»،وبالتدريج اصبحت العلاقات اكثر ثقة•وفي نهاية شهر شباط اصبح لدي عشرون رجلا بينهم بعض من عرب الحويطات.

* * *

وصلت الانباء مسبقا بان قوة سعودية تتألف من عدة الاف من الرجال، تحت قيادة «ابراهيم النشمي» احد اتباع ابن السعود، تتقدم نحو الاردن، ولقد نجحت في اقناع عرب الحويطات بان يتماسكوا فيما بينهم، ويستعدوا للقتال•كان تجاوبهم متوسطا، لانهم لم يتعلموا بعد،ان يثقوا بي ثقة تامة، مثلما كانت قبائل العراق تفعل ذلك، وكان من حسن الحظ ان «ابراهيم النشمي» لم يتقدم للاغارة.

وفي شهر اذار سنة ١٩٣١، تلقيت معلومات تفيد بان فريقا من عرب الحويطات، يقدر رجاله باربعين نفرا، كانوا قد توجهوا للاغارة على الاراضي السعودية• لم اعمد الى استخدام الجواسيس في صفوف القبائل التابعة لنا، غير انه كان لي اصدقاء من عرب الحويطات كانوا يعرفون بما قد يقع.

تعتبر قضية الجواسيس هذه احدى المسائل المهمة، لان كل فرد في البلاد العربية يعتقد بان لدى الحكومة الالاف من الجواسيس. ففي اول الامر كان رجالي يقولون لي، بطريقة التملق والاطراء «اننا نعلم بان لديك المئات من الجواسيس!» ولكنني لااعتقد بانني قد استخدمت حتى ولاجاسوسا واحدا في شرقي الاردن. اما في العراق فقد كنت ابعث بالجواسيس لمراقبة «الاخوان» بشأن غاراتهم، ولكنني لم اكن اتجسس على قبائلنا في العراق لانهم كانوا على الدوام، يفضون الي بكل شيء!

وما ان سمعت بان ذلك الفريق المغير من عرب الحويطات، قد خرج للاغارة، حتى نقلت حوالي خمسة عشر من رجالي الذين سجلتهم، في السيارات•ذهبنا الى المخيم الذي غادره المغيرون، واستولينا على كل ابلهم، من دون ان نجد مقاومة لذلك. وبعد انقضاء ثلاثة اسابيع على ذلك، وحين عاد المغيرون وجدوا ان كل قطعانهم قد ذهبت!

لم يكن امامهم ان يفعلوا اي شيء سوى ان يفدوا علي، فكان لنا حديث طيب معهم، ولذلك وعدوا بان لايكرروا مافعلوه مرة اخرى، واذ ذاك اعدت اليهم قطعانهم، وتم اغلاق الحادثة.

فلو ان الحكومة الاعتيادية، كانت قد تلقت انباء عن المغيرين، فانها سوف تبادر باستدعائهم، وكأنهم مطلوبون من لدن الشرطة. ويندر ان يعثروا عليهم. ولكن اذا ماحدث واعتقل احدهم، فلسوف يحكم عليه بالسجن الطويل وغالبا ان يموت في السجن مثل هذا الرجل الذي امضى حياته في الهواء الطلق، أوأن يموت على اكثر احتمال، بداء السل، الذي يبدو بان البدو لايملكون اية مقاومة ضده.

اعقبت ذلك الحادث، حادثة وحدة او حادثتان من وقوع غارات صغيرة، كانت واحدة منها ضد القبائل التي تسكن جنوبي «بئر السبع» في فلسطين. وفي اية قضية كنت اتلقى المعلومات عنها، انهض عند الفجر فاقوم بمباغتة المخيم الذي انطلق منه المغيرون. ان الفائدة المتوخاة من الوصول عند الفجر، تتمثل في ان قطعان الابل تكون، عند ذلك الوقت، مالتزال معقلة امام الخيام، واذ ذاك اضع سياراتي الاربع التي تحمل الرشاشات في موضع يطل على المخيم، وحينذاك يخرج الكبار من المخيم، فاعطيهم اسماء الرجال الذين خرجوا للغزو واطلب تسليم الابل العائدة لهم.

لن يحدث آنذاك اي جدل، وانما يجري تسليم الابل المطلوبة. وحين يعود الغزاة يفدون علي خجلين، فاعيد اليهم ابلهم، وانبأهم بان لا يظلوا حمقى! وقد يحدث في بعض الاحيان في ان افرض عليهم غرامة تتألف من بعير واحدا وبعيرين. وهكذا فان هذا النظام الذي طبقته، قد وضع نهاية ليس للغارات حسب بل حتى لاعمال السرقة بين الاردنيين انفسهم!

* * *

تتوقف الغارات، خلال ثلاثة او اربعة اشهر. ففي خلال هذه المدة لاتطلق حتى ولا اطلاقة واحدة، ولايتم ارسال واحد من افراد القبائل الى السجن. ولقد كانت آخر غارة وقعت على الحدود الاردنية السعودية قد حصلت في شهر تموز سنة ١٩٣٢، وكانت قد جاءت من الاراضي السعودية.

لقد استطعت ان اكسب عرب الحويطات، بان اوضحت لهم بانهم لا يستطيعون ان يحاربوا الحكومة السعودية، والحكومة الاردنية في وقت واحد.

وكان الاقتراح الثاني الذي طرحته عليهم، هو انه بدلا من دفع قوات الحكومة الى الوراء، من الافضل لهم، ان ينضموا الى قوتي الاستطلاعية في الصحراء والمؤلفة من مائة رجل، وان يبسطوا سيطرتهم على صحاراهم الخاصة بهم. لقد احتاج هذا الاقتراح، الى وقت اكثر، لكي يستقر في اذهانهم، ولكن استطعت في غضون اسابيع

قليلة، ان اجند العدد اللازم لذلك.

لقد بدأ المجندون يفدون من كل القبائل، وكان الشرط اللازم للتجنيد، هو ان يتخلى المجندون عن الهوس القبلي، وان يكرسوا انفسهم لخدمة الحكومة وحدها. ذلك لانه يستحيل تجنيد او تدريب اية قوة تسمح بها المشاعر القبلية من امثال سرية، من الحويطات، او سرية من شمر، او اخرى من «بني بكر».

جهزنا قواتنا التي تقوم بمهمة الاستطلاع في الصحراء، بملابسهم الطبيعية، المؤلفة من السراويل القطنية البيضاء، ومن الثياب الطويلة البيضاء ايضا، تلقى فوقها عباءة طويلة من نسيج «الخاكي» وحزام نسيجي واسع احمر اللون، وكمية من احزمة الذخيرة، واحزمة عريضة للطلقات، ومسدس ذي محفظة حمراء، وخنجر فضي. اما لباس الرأس فكان مؤلفا من «يشماغ» ذي لون احمر وابيض، والذي اصبح طرازا للنموذج العربي. ذلك لان المألوف قبلا، هو ارتداء الكوفيات البيض في الاردن وفي فلسطين.

كان هؤلاء المائة من الرجال يمثلون قيادة عسكرية نموذجية، وسرعان ما اخذ العدد يتكاثر، وذابت الحساسيات الشخصية. لقد كنا في فرقة استطلاع الصحراء هذه، نؤلف عصبة حقيقية، مكرسة حقا من الاخوة. فالروح التي كانت تربطنا معا، هي روح الخدمة الاصيلة. وفضلا عن ذلك فاننا لم نكن جميعاً من البدو، اذ كان لدينا سائقون للسيارات كانوا من ابناء المدن، واثنان او ثلاثة من عمال اللاسلكي الذين كانوا من العرب المسيحيين، ولذلك فلم يكن هناك اي احساس باي من الفوارق الاصلية نظرا لتفوق الاحساس بالرفقة، وعلى هذا استطيع ان اعبر عن هؤلاء حقا، بما عبر به الملك «هنري الخامس» حين قال «نحن قلة، ولكننا قلة سعيدة، لاننا عصبة، عصبة من الاخوة»!

وسرعان ماكانت هنالك قائمة مطولة من الشبان الذين كانوا ينتظرون الانضمام الينا. فقد كان الانضباط تاما ومباشراً، لانه كان قد فرض بصفة ذاتية. لم تكن العقوبة معروفة في الغالب، وكان الجرم الوحيد الذي كنت اعاقب عليه بشدة، وذلك بفرض غرامة تقتطع من المرتب، هو النوم اثناء واجب الحراسة. ذلك لان الهجوم المؤقت ليلا اثناء القيام بعملية الاستطلاع في الصحراء يجعل حياة رفاق الحارس تعتمد تماما على اليقظة اثناء الحراسة. وعلى اثر ذلك اعانتنا الشهرة والشعبية الواسعتين اللتين تميزت بهما قوة استطلاع الصحراء، على ان لانختار سوى اعلى المستويات الممكنة من المجندين.

وفي شهر نيسان سنة ١٩٣٢، اصبحت الاغارة على امتداد الحدود السعودية، اثرا من آثار الماضي، ولذلك حولنا اهتمامنا نحو ناحية الشمال، حيث توجد منطقة مكونة من حوالي خمسة الاف ميل مربع، من الصحراء التي تعلوها الصخور البركانية بشكل مكثف، لايمكن اجتيازها الا سيرا على الاقدام، وبمشقة.

والمعتقد ان هذه الحقول البركانية ربما كانت قد حدثت، قبل آلاف السنين، بفعل سلسلة من البراكين، التي تمتد نحو الجنوب الشرقي من «جبل الدروز». ولقد كانت التلال البركانية مأهولة بقبائل بدوية خاصة تعرف باسم «اهل الجبل»وكان الريف البركاني، قد تم شقه اعتباطا من قبل صانعي السلام، في اعقاب الحرب العالمية الاولى، ولكن بقلم ازرق اللون على خارطة صغيرة دون ريب!

كانت القبائل الجبلية تمضي فصل الصيف في جبل الدروز في سوريا، لكنها كانت تمضي فصل الشتاء في الحقول البركانية في شرقي الاردن. وهي لاتضرب خيامها خارج المكان الذي توجد المقذوفات البركانية فيه، ومع ذلك فانها كانت تقوم بغارات صغيرة ومفاجئة على القبائل التي كانت تخيم في الصحراء المكشوفة.
والمعتاد ان تحدث امثال هذه الغارات قبل شروق الشمس مباشرة، حيث يبرز من المنطقة البركانية فارسان او ثلاثة فوارس يندفعون نحو قطيع من الابل القريبة التي ترعى هناك، ويكررون ذلك ثلاث او اربع مرات، ثم يعودون مسرعين الى المنطقة البركانية، حين تبدأ الشمس بالمغيب.

واستطعنا في الايام القلائل التالية ان نطور واحدا من الاساليب. فقد اقمنا اولا نقطة استطلاع في اقرب رابية، ومن ثم بدأنا العمل في ازاحة الصخور البركانية، بعد ان تركنا رجلا واحدا في كل سيارة يبقى جالسا خلف رشاشته المحمولة هناك.
امضينا في ذلك العمل شهورا عديدة خلال فصل الصيف، فاستطعنا ان نتغلغل الى جملة اميال في المنطقة البركانية، على امتداد الطريق الذي فتحناه، والذي كان عرضه يبلغ حوالي تسعة اقدام. لقد كانت القبائل تنتقل اثناء فصل الصيف نحو الشمال والى الاراضي السورية الخاضعة للانتداب الفرنسي، ومن ثم تعود في شهر تشرين الاول، او تشرين الثاني حين يعثرون علينا مباشرة في خط هجرتهم. وقد يتراوح عددهم، ما بين ثمانية الاف، وعشرة الاف نفر. ولقد اعتدت ان اصطحب معي حوالي خمسة وعشرين رجلا في اعمال الاستطلاع هذه.

* * *

يبدأ سقوط الامطار في شهر تشرين الثاني. ولقد شاهدنا في احد الايام ثلاثة من راكبي الابل يقتربون منا. كان كل رجالنا قد ابلغوا بما ينبغي لهم ان يفعلوه، واذ ذاك هتفوا بصوت عال «الله يعطيهم العمر!. انها الساعة المباركة التي نراكم فيها!» ومالبثوا ان مدوا بساطا داكنا على الارض، واوقدوا النار من الشجيرات المحلية، ثم اوغلوا اوعية القهوة في النار، وسرعان ماكان كل واحد يتحدث مع الآخرين بسعادة!

بعد ايام قلائل وفد احد الشيوخ علينا لزيارتنا، فلقي الترحيب الودي منا، وسرعان ماتحول الوضع تحولا كاملا، فلم تطلق الاطلاقات، ولم يرسل الرجال الى السجن. وفي خلال شهور قليلة اصبحنا على علاقات ودية مع قبائل الجبال، وراح كثيرون منهم يتضرعون الينا في ان يتم تجنيدهم في قوة استطلاع الصحراء!

وما ان استطعت ان اجد لي اصدقاء ثابتين من كل القبائل البدوية في شرقي الاردن، حتى بقيت امامي خطوة لان اجعل سيطرة الحكومة هناك دائمة. وكان هذا الامر يتطلب بناء حصن عند كل بئر دائمة. صحيح ان برك الامطار تتكون اثناء الشتاء في الاودية هنا، وهناك، وان القبائل تستطيع ان تخيم عندها، الا ان المعتاد هو ان الجميع كانوا يعتمدون على الآبار الدائمة. وعلى هذا فاذا ماتم بناء حصن عند كل بئر دائمة، فان الحكومة تستطيع ان تمسك بالمنطقة كلها.

تمت اقامة اربعة من هذه الحصون في كل من «الازرق» و «البير»، و «الجفر» و «الروم».ولقد استولينا في «المدورة» على حصن قديم كان الاتراك قد بنوه (تقع المدورة على جدول ماء صالح للشرب، وكانت تعتبر مرحلة على طريق الحج القديم من دمشق الى مكة)

لم تبن حصوننا هذه لكي تقاوم المدفعية. ولكن كان مستطاعا مهاجمتها من قبل قوة تتألف من جملة آلاف من «الاخوان» المغيرين من اواسط الجزيرة. فهؤلاء الناس كانوا في الغالب لايشعرون بالخوف، وقد يحاولون ان يتسلقوا جدران الحصن، بان يصعد الواحد منهم على اكتاف الآخر. ووفقا لذلك جعلنا حصوننا بان تنغلق على فراغ مكشوف يبلغ زهاء عشرين يردة مربعة، وان يحاط الفراغ بجدران ترتفع الى حوالي اثني عشر قدما. وفي زاويتين متقابلتين افقيا، انشأنا ابراجا من طابقين، مع مزاغل لاطلاق الرصاص خلالها من الخندق الذي يكون في اسفل الجدران.

لم تكن القاعدة التي اعتمدناها لبسط سيطرتنا على الصحراء،لتنطوي على القوة بل

كانت تعتمد على الاقناع والمودة. ففي كل دائرة لاي حصن صحراوي هناك، علق اعلان على الجدار، يذكر فيه «احتذاء المثل الحسن اقوى من السلوك، وعلى هذا ينبغي لك ان تتزعم رجالك بخصالك الحمدة».

كنت اقوم بزيارة كل مواقع الصحراء في فترات متوالية، وغالبا ماكنت اجمع الرجال، واتحدث اليهم عن واجبنا ازاء الشعب. لقد كان اولئك الرجال جفاة، تمت تربيتهم، على الغارات والرشوة، ولكنهم كانوا اناسا بسطاء، وغالبا ماكنت ارى الدموع تنحدر على خدودهم حينما كنت اتحدث اليهم عن واجبنا تجاه الامة.

غير ان مثل هذه الطرق لن تكون ناجحة في المجتمع المعقد كثيرا، ولكم كان محقا مؤلف «المزامير» الاول حين كتب يقول «مبارك ذلك الانسان الذي لا يجلس في مقعد الاحتقار! ان السخرية والخديعة تكون على الدوام هي الاسلحة التي تستخدم ضد اولئك الذين يحاولون ان يقدموا الخدمة للآخرين.ان هؤلاء الناس لم يكونوا مثقفين، بما فيه الكفاية، لكي يتعلموا كيف يهزأون بالغير»!

وما ان حققت هذه السيطرة الصارمة والمجدية معا على كل قبائلناحتى اصطحبت معي وفداً اردنياً للتفاوض في عقد معاهدة حسن جوار مع ابن السعود في «جدة».وكما سبق لي ان اتيت على وصفه قبلا،فقد كنت موفدا قبلا الى جدة ايضا مندوبا عن العراق، وكان السر غلبرت كلايتون، هو الذي كان يمثل الحكومة البريطانية في تلك المناسبة.

ففي المناسبة الاولى، هيأ لنا ابن السعود دارا تدعى «الكندرة» خارج المدينة. وكان يخرج في الاماسي لزيارتنا، فيجلس وساقاه متصالبتين على احدى الارائك، ثم يبدأ يدردش بود حول مواضيع كثيرة. ولكن حين عدت مع الوفد الاردني بعد ثلاث سنوات من ذلك التأريخ كان كل شيء قد تغير،ذلك لان ابن السعود لم يقدم الينا، ولم يبادلنا الدردشة المعتادة. فقد كنا نتلقى بيانا رسميا يذكر فيه، ان جلالته سوف يستقبلنا في ساعة محددة. وكان يحيط بنا في حضرته ضباط يرتدون البزات الاوربية، ولم يكن يسمح لنا الا بمصافحته ومن ثم نغادره محاطين باولئك الضباط انفسهم!.

لقد بدا لي، ان هذه المحاولة في تقليد المراسيم الغربية، كانت مدعاة للاسف. لقد كان عبد العزيز ابن السعود رجلا ذا شخصية هائلة يستطيع ان يستحوذ على اي تجمع في اية امة في العالم. لقد كان صريحا وبدويا ذا عقلية مبسطة،يقول الحق من دون

خوف، او محاباة، غير ان مستشاريه من المصريين والسوريين قد اقنعوه بان هذه ليست هي الطريقة للتعامل مع الاوربيين.وكانت نتيجة ذلك، انه لم يعد مستطاعا الوصول الى ابن السعود، وان المناقشات كانت توجه بلا نهاية من قبل المحامين الذين كانوا يجهلون الغارات، وحياة الصحراء جهلا تاما.

لقد كان ابن السعود يدعي، من دون ادنى حق، بان يصبح هو الحاكم الطبيعي لكل البدو في الجزيرة العربية.ولكن ممثليه لم تكن لديهم التجربة مع البدو على الاطلاق. ولذلك وجدت نفسي، في اكثر من مرة واحدة مجبرا على ان اتحدث الى هؤلاء الممثلين،واوضح لهم عادات البدو وكيفية التحدث اليهم. ومع ذلك فقد تمت المصادقة على المعاهدة في النهاية[٦] ولكن انقطاع الغارات لم يكن بسبب ماوجده المحامون الذين وضعوا المعاهدة، وانما بسبب الحقيقة القائمة وهي ان الصحراء قد اصبحت الان تحت السيطرة.

كان من دواعي فخري وابتهاجي، ان هذا السلام والأمن الجديدين، قد تم توطيدهما، من دون اطلاق رصاصة واحدة او توقيف او حبس رجل واحد.
يقول «بليس باسكال»[٧] «اكسب القلوب، لان الرجال اكثر اهمية من القضايا» لقد كانت فكرة «باسكال» البارعة تمثل تماما الطريقة التي طبقناها في صحارى العراق والاردن معا.

لقد طبقت قبل سنوات خلت، احدى التجارب في فرنسا، تم بموجبها ارسال بعض القسس للعمل في مختلف المعامل الصناعية بقصد اقامة علاقات اوثق بين العمال والكنيسة. لقد قيل لهؤلاء القسس، لاتحاولوا ان تبدلوا عقيدة العمال، وانما امنحوهم الحب ليس الا»
لقد كانت تلك من النصائح الصائبة. ذلك لان تحويل العقيدة باعتبارها عملية ثقافية غالبا ماتثير التذمر، ذلك «لان ماتؤمن به انت خطأ، ومـاأومن به انا هو

---

(٦) لم يشر المؤلف الى التأريخ الذي عقدت فيه هذه المعاهدة بين الاردن والسعودية ولم نعثر على ذكرها في مذكرات الملك عبد الله، او مذكرات الملك حسين بن طلال.

(٧) BLAISE PASCAL (١٦٢٣ - ١٦٦٢) فيلسوف كهنوتي فرنسي ولد في «كلرمون فران» في العاشر من حزيران ١٦٢٣ تعلم على يد ابيه وكان مدينا بمعلوماته الى الشاعر الفرنسي «مونتاين»اصدر في سنة ١٦٤٧ كتابه «تجارب جديدة عن الفراغ» NOUVELLES EXPERIENCES SUR LE VIDE عاش فترة في باريس،اصيب في اخر عمره بوجع في الرأس اخفق الاطباء في علاجه فمات في التاسع عشر من اب ١٦٦٢ من اشهر كتبه «احاديث عن انفعالات الحب» DISCOUR SURLEPASSIONS DEL. AMOUR
كتبه بعد فشله في حب شارلوت ده رواندیه «شقيقة دوق «رواندیه»

المصيب» هو الامر الوحيد الذي يثير التذمر، في حين ان الحب هو الذي ينتزع من القلوب كل الكراهيات.

فقبل ان يتم تشكيل قوة استطلاع الصحراء، كان الامير «شاكر» ابن عم الامير عبد الله، يترأس ماكان يعرف باسم «مجلس السيطرة البدوية»•ومع ذلك وحيث ان ذلك المجلس لم يكن يملك قوات في الصحراء، فانه لم يستطع ان يسيطر على اي فرد. ومنذ ان نجحت في تأليف قوة استطلاع الصحراء غدا الامير «شاكر» من اوثق اصدقائي والمساندين لي. لقد كان يجسد بحق عبارة «النبيل الطبيعي» لانه كان على الدوام صريحاً ودودا، مرحا، ومجاملاً، ويتولى ابنه «الامير زيد بن شاكر» في الوقت الحاضر، منصب آمر القوات الاردنية المسلحة.



الفصل الحادي عشر

الارباك الذي يسببه التغازل

الارباك الذي يسببه التغازل

حين كنت فتى، لم يكن الفتيان في ذلك الوقت قد «تعلموا» شيئا عن الجنس. وكان الحادث الوحيد الذي حدث، حين كنت في حدود السنة السادسة عشرة (من عمري)، هو ان قال لي ابي، ذات مرة، «لا تطارد النساء ايها الفتى الكبير!.. انك ان فعلت ذلك فلسوف تندم ندما شديداً، حين تلتقي في النهاية، بامرأة تريد ان تتزوجها. قد لا يفكر بعض الرجال في شيء ما، غير ان الاغراء لم يكن كبيرا نحوي بهذه الوسيلة والذي آمله، انك لن تكون على هذه الشاكلة!». كان ذلك كل ما تلقيته عن التربية الجنسية.

وحين كنت في (المدرسة)، كانت الخيول تؤلف الحماسة الطاغية المستحوذة علي. فقد كنت اثناء عطلاتي المدرسية، اقضي كل وقتي تقريبا، وانا امتطي احد الخيول. كنت في اول امري استخدم مهري الصغير الذي خصص لي. غير ان ابي سمح لي فيما بعد، بان اجرب ركوب جواده هو ايضاً. وكان هذا يستغرق مني عمليا، كل يومي، ويمنحني الحماسة كذلك، لان اكرس اوقاتي لزيارة الريف. كان الفتيان والفتيات في تلك الايام طبعا،يتم تعليمهم في مدارس منفصلة، ولم التق بواحد منهم ابداً، كان صديقا لفتاة.

وفي سنة ١٩١٤ وحين غادرت «تشلتنهام» للالتحاق بالكلية العسكرية في «وولتش» ومن بعدها للعمل في مستودع المهندسين في «تشا تام»، كنا جميعا قد كرسنا انفسنا جسميا وروحيا، للمغامرة الكبرى التي تقول «ان الحرب هي التي تنهي الحرب!»

وحتى بعد مضي سنة فيما بعد الحرب (حين استأجر ابي وامي دارا لمدة سنة في «بكستيد» بمقاطعة سوسكس) فقد اخفقت هذه الامـور في اثارة اي اهتمـام لدي بالنساء .

وفي شهر حزيران سنة ١٩٢٠، تطوعت للخدمـة في العراق، وامضيت عشـر سنوات في ذلك البلد، كنت خلالها اعيش غالبا في المناطق العشائرية . وفي خلال هذه المدة من النشاط المكثف خارج المسكن، لم تكن فكرة النساء قد دخلت الى دماغي بعد! .

في سنة ١٩٢٥ كنت اقطع الصحراء السورية على ظهر بعير، من «الرمادي» على نهر الفرات، الى «عمان» في شـرقي الاردن، واذ ذاك بعت ذلك البعـير، وذهبت بسيارة اجرة الى بيت المقدس. ولقد استدعاني المندوب السامي هناك،«السرجون تشانسلر» (١) الذي كان يعرف ابي. وفي دار الحكومة مررت بسيدة جميلة ترتدي ملابس شفافة، وكانت متكأة برشاقة على احدى الارائك.وحين تحول الحديث الى رحلتي عبر الصحراء على ظهر بعير، ما لبثت تلك السيدة ان غمغمت، وقد فزعت من ذلك، تقول «آه! انني اود ان ارافقك عبر الصحراء!». لقد كانت تلك السيدة هي «روزيتا فوربس» التي اصبحت فيما بعد رحالة ومؤلفة شهيرة.(٢) القيت اليها باعذاري الكثيرة عن ذلك، ومن ثم حصلت على اجازتي بعد ذلك، بفترة قصيرة .

كنت في الثالثة والثلاثين من عمري حين غادرت العراق، وعهد الي بمهمة توطيد الامن في الصحراء الاردنية. وفي غضون سنتين بعد ذلك، تـذكرت لاول مـرة، الاحساس بالتطلع الى بيت والى رفيقة لي.

ومما اتذكره بهذه المناسبة، انني كنت في احدى الامسيات اجلس امام جذوة من نيران احد المخيمات في صحارى الاردن الجنوبية، وانا اتحدث الى «عناد بن جازي» شقيق الشيخ الاول لعرب الحويطات. كان يهنئني على نجاحي لكسبي ولاء القبيلة، حين انفجرت فجأة، بالشكوى وانا اقول «كل هذا لاشيء! الشيء الحقيقي الذي اريده هو ان تكون لي زوجة، واطفال وبيت، مثلما هو متوفر لك الآن».

---

(١) SIR JOHN CHANCELLOR

(٢) روزيتا فوربس ROSITA FORBIS من الانكليزيات اللواتي ظهرت شهرتهن بعد الحرب العالمية الاولى وذلك بما قامت به من جولات في عدد كبير من البلاد العربية والبلدان الشرقية وكانت تركز اهتمامها في كتبها ومقالاتها على الاوضاع الاجتماعية في الشرق وعلى الاخص اوضاع المراة فيها، وقد طمست شهرتها تقريبا بعد ان برزت الى الوجود شهرة المس غرترودبل وفريا ستارك وغيرهن .

خلال السنوات الخمس الاولى من خدمتي في العراق، لم اطلب اجازة للذهاب الى انكلترا. ولكن بعد انتقالي الى شرقي الاردن، اخذت احصل في كل سنتين، على اجازة كنت اقضيها في انكلترا. لقد كبر ابواي، ولربما لاول مرة بدأت احس بالالتزام نحوهما!.

كتب الي ابي يقول ان امي المسكينة الصغيرة في خوف شديد على عينيها، فمن الذي يستطيع ان يلومها على ذلك؟ انها ضربة قلب تماما، وهناك ظلام!. لابد من القيام بعمل ما. ولكن لايوجد احد سوف ينبىء احدا بذلك. انني احاول ان اقرأ لها بصوت عال، لكن وضعي سيء جدا لذلك! . . . . يبدو بان رسائلي على وشك ان تتحول الى شكوى طويلة. آمل ان هذه الرسائل لن تردد لك مثل هذا.

محبك الـدائم

ابوك

ومنذ ذلك الوقت، وما ان اصبحت اباً وجداً، وانا افكر غالبا، في هذه اللا مبالاة الحية، باعتبارها واحدة من مآسي الحياة القليلة. ينمو الشبان اقوياء، ومعتمدين على انفسهم، ويلفهم العالم الذي يعيشون فيه. ولابد ان يتذكر الكبار، الشيء المحبب الى الشباب، غير انه يستحيل على الشاب ان يتحقق بانه سوف يغدو كبيرا!

اثناء عملي في الاردن، كنت استحق اجازة امدها شهران عن كل سنتين. ولكن امي كانت تحب ان تقضي اوائل الصيف في اوربـا، وعلى الاخص، في ايـطاليا، والنمسا، وتريدني على الدوام ان اشاركها بهجتها هناك. وكنت افعل ذلك حقا، فاروح ابحث عن تأريخ البلد الذي نزوره، وعن المناظر فيه. ولكن النتيجة كانت، انني في كل اجازة لم اكن امضي سوى شهر واحد في انكلترا. وقد غدوت الآن اتشوق الى وجود شريكة لحياتي والى بيت!

وهكذا حدث، فقد كان لافضل اصدقاء والدي وجيرانهما، فتاة لائقة للزواج، واصغر مني سنا ببضع سنوات.وكان آباء العائلتين سيفرحون اذا ما قمنا بسيـرة. استأجرت سيارة لقضاء اجازتي في انكلترا، ولقد انتقلنا بها عبر الريف لمدة ساعتين لقد كنا سعداء معا، وتحدثنا باسهاب عن كل موضوع تحت الشمس، وفي اليوم الذي لم نستطع فيه، انا وتلك الفتاة، ان نخرج، لاي سبب كان، كنا نتبادل الرسائـل. وسرعان ما اخذت ايام الاجازة القليلة تبلغ نهايتها، فطلبت الى الفتاة بان تتزوجني،

ولكنها ردت بانها لاتستطيع ذلك! . وما ان عدت الى شرقي الاردن حتى تلقيت منها رساله تقول فيها «آه جاك! انني آسفة. انك قد رحلت الآن فما الذي اصنعه؟». وحين عدت بعد سنتين الى انكلترا وجدتها قد تزوجت شخصا آخر!

على انه كان على بعد مئات قليلة من الياردات من دار ابوي، يسكن عقيد متقاعد مع زوجته، ولهما فتاة ايضاً من عمر مناسب. ومرة اخرى لم يكن لدي سوى شهر واحد ليس الا، امضيه في انكلترا. وسرعان ما استأجرت سيارة، واقمت صداقة مع هذه الفتاة، كانت العائلة شديدة التدين، وكانت الفتاة نفسها على هذه الشاكلة ايضا. وللمرة الثانية، وقبل ان تنتهي اجازتي بوقت قصير، سألت الفتاة بان تتزوجني لكنها رفضت هي الاخرى!

عدت الى شرق الاردن يغمرني اليأس، وذلك انني لم استطع ان اعرف سبب الرفض. ففي كلتا الحالتين كنا نخرج معا ونسوق سيارة لعدة ساعات حتى النهاية، وكنت احس بالسعادة، ولم تكن أي من الفتاتين سريعة التقلب، طائشة!

واذا انظر الان، الى تلك المخاوف، وآلام القلب، فانني استنتج بان سبب اخفاقي كان يعود الى عدم قدرتي، على ممارسة اية تحببات جسدية، وكان هذا يعود من ناحية، الى براءتي، والى نقص التجربة لدي. ومع ذلك فانني كنت احس، وليس ذلك قطعا، بان لياقتي الجسمانية قبل الزواج، كانت شريرة!

* * *

في سنة ١٩٣٦ امضيت شهرا من اجازتي في انكلترا. ولقد اوضحت قبلا بان والدتي كانت تفضل السفر الى اوربا، وكانت تتحدث وتقرأ بعدة لغات. وقد حدث في سنة ١٩٣٦ ان نشرت والدتي اعلانا في احدى الصحف المحلية، تطلب فيه دعوة شخص يفد عليها، ويتحدث اليها باللغة الالمانية. وكانت زوجتي المقبلة، التي تعلمت الالمانية في بيت اهلها من احدى السيدات، هي التي اجابت على ذلك الاعلان الذي نشرته امي.

وكالعادة استأجرت سيارة لمدة شهر في بريطانيا، فكنت اخرج مع امي، والمحدثة الالمانية التي تدعى «روزميري فوربس». وعلى الفور قررت امي بان تمكث المحدثة معنا في البيت، فاصبحنا انا وروزيري فوربس صديقين حميمين.

هنالك عامل جديد اتذكره عن هذه المناسبات، هو انني اعتدت ان اغني. لم يكن لدي صوت طبعاًولم اكن اعرف ان اميز نغمة عن اخرى، ذلك لانني حين كنت في المدرسة لم يكن الفتيان آنذاك يتعلمون الموسيقى، التي كانت تعتبر في ذلك الوقت حرفة نسائية خالصة.

ومع ان صوتي الاجش لم يمنعني فانني غالبا ماكنت امضي في الغناء، مما كنت اكتنزه من الحان، لترويح صديقتي الجديدة. كانت الاغنية المشهورة في ذلك الوقت هي اغنية «بيتي الصغير المغبر في الغرب» ومع ذلك فانني لم اتردد عن الانكباب على غناء احدى «الاوبرات» الايطالية من امثال «آه لي! كم يتأخر الموت كم يتأخر الموت عن انسان يود ان يموت»[٣] او «دار على مقربة من جبالنا» من طراز «التروفاتور»[٤] غير ان التمثيلية المفضلة لدي ربما كانت هي تمثيلية «قبعتي العالية القديمة»[٥] التي تقول:-

«انني اذكر الزمان ياقبعتي القديمة العالية!».
«حين رحمت رأسي لاول مرة!»
«ماهو الوقت الذي كنت احمل فيه «صمصامي» !»[٦]
«ومهمازي، وصداريتي الحمراء!».
«انني اتذكر الفتاة الصغيرة حلوة المذاق»
«التي كان خداها متلألئين كلاهما!».
«حين سرقت منها قبلة لاول مرة».
«واها لها! لقد كانت قبل سنة طويلة خلت!».
«لقد طوفنا بالعالم سوية..».
«انا وانت ياقبعتي القديمة العالية!».
«ولكننا لم نعبأ بامرما،ان كان الخلاف حول العدو!»
«قد حدث قبل عشر سنوات مضت، عشرين، ثلاثين، اربعين، خمسين».

وللمرة الثانية كانت اقامتي في انكلترا موجزة، لكننا تواعدنا بان يكتب احدنا للآخر!

* * *

---

(٣) عنوان الاغنية بالايطالية هو A CHE LA Morte
(٤) IL TROVATORE
(٥) MYLSHAKO
(٦) SABRE TACHE

في اوائل سنة ١٩٣٨ اصيب ابي بنوبة قلبية، فعدت طائراً الى انكلترا. كان لدينا اخصائي في القلب من لندن. صحبت ابي في سيارة الاسعاف التي نقلته الى دار للتمريض في لندن، لكنني ارغمت فيما بعد، على ان اعود طائرا الى شرقي الاردن. وبعد اسابيع قلائل عاودت ابي ذات النوبة فمات في دار التمريض، ولذلك طرت عائدا الى انكلترا مرة اخرى، في الوقت الذي جرى فيه تشييعه ودفنه الى جانب امه في باحة كنيسة ابرشية (كاوفولد)[٧] في سوسكس، حيث كان يعيش هناك مع امه وهو فتى، بعد ان عادا من الهند في اعقاب وفاة ابيه، بعد العصيان الهندي مباشرة.

اقدم هنا خلاصة من نبأ الوفاة الذي نشر بمناسبة وفاة ابي في مجلة المهندسين على الشكل التالي:-

« الفريق السر فردريك غلوب، حامل وسام .K.C.M.G.B.D.S.O الذي توفي في لندن في اليوم الحادي والثلاثين من شهر تموز الماضي، يعتبر بالنسبة لجيله اكثر من حرفته، وهو شهير وان كان يبدو لاول وهلة بانه اكثر شهرة مما هو عليه حقيقة بعد تسع عشرة سنة من تقاعده، بالنظر الى الجيش القائم الآن. وليس ينقص من قدر معاصريه اذ نقول بان شهرته بصفة مهندس عسكري في المراحل الاخيرة من الحرب العالمية الاولى، وعلى الاخص بعد معركة « مسينيس»[٨] لم تكن ليفوز بها احد في الجيش. وبالنظر الى عمره، كما انبأه بذلك رئيس اركان الجيش، فانه لم يتم اختياره ليخلف الجنرال رايس[٩] رئيساً للمهندسين في الجبهة الغربية.

ومع ذلك فانه كان ذلك الرجل نفسه، اكثر من تجربته، ومن قابليته التي منحته الثقة المطلقة من لدن رؤسائه، والمحبة والاعجاب من قبل جميع من كانوا على اتصال معه، وبوأته مركزاً مماثلا لمركز رجل الدولة الاكبر في جيش فرنسا. فهو بقلبه العظيم الذي كان يحمله جسمه الضئيل، وباشتهاره بالبساطة التامة، قد استطاع ان يشرك المبادىء الرفيعة مع العطف ولين العريكة، والطبع الهادىء الذي حببه الى الجيل الشاب، في الوقت الذي كان فيه يستخلص منهم آخر «اونس» يستطيعون بذله!
لقد كانت له تلك الموهبة العظيمة في ان يلهم الجميع، الاحترام المشفوع بالود. لم يكن من طراز ذلك الرجل الذي يستطاع معه اغتنام الفرص والحريات، ولذلك فلم يكن مستطاعاً تحسين ما قاله عنه «دون جيليوكايتاني»[١٠] ضابط الارتباط الايطالي

---

(٧) COWFOLD

(٨) MESSINES

(٩) RICE

(١٠) DON GIULIO CAE TANI

(الذي عين فيما بعد سفيرا لايطاليا في واشنطن)، بعد فترة قصيرة من التعارف معه «يسوؤ ني ان اترك الجنرال غلوب لانه رجل!»

انها لمهمة عسيرة حقاً، ان تبرز رجلا، لاولئك الذين لم يكونوا يعرفونه، والذين لم يكونوا قد عرفوا بان «توني غلوب» قد خلف ذكرى حية من الظرافة الهادئة، والرجولة الغالية. ان الذين كانوا يعرفونه، كانوا يدركون كم انهم كانوا مدينين له، بالاتصال بالقوة، والحكمة، واستقامة الشخصية. فلقد كان بطريقته البسيطة التي تنبع من ود ذاتي، رجلا عظيما».

كانت رسائل التعزية الخاصة الكثيرة التي تلقتها امي، تحمل شـواهد عن آراء مرسليها، بان ابي كان يجسد مفهوم «النبيل الانكليزي»[11]. نادراً مايثمن الشباب من الناس، الصفات العامة لآبائهم. فبالنسبة اليهم كانـوا يرون ان مهمـة آبائهم في الحياة، هي ان يكونوا آباء ليس الا. وان فيض العواطف الجياشة التي تلقيناها بعد وفاته، هي التي جعلتني اتحقق كم كان ابي عظيما حقا.

* * *

قررت اختي ان نبيع منزلنا في «بمبوري» وان اعد نفسي لكي آخذ امي الارملة معي الى الاردن. لكنني جـوبهت، فيما بعـد، بازمـة في عـلاقتي مـع «روزميـري فوربس». ذلك لانه اذا مابيع بيتنا في انكلترا، فانه قد يكون من المشكوك فيه ان اعود الى انكلترا.

بقينا، انا و « روزميري» نتراسل لمدة سنتين. وكان واضحا تماما، انه ينبغي اتخاذ قرار كان ضرورياً. لم استطع ان ارتب موضوع الخطوبة الاعتيادية، والاستقبال بعد مرور يومين على وفاة ابي. ولذلك ذهبنا الى دائرة التسجيل في « تنبرج ويلز » وتزوجنا في اليوم العشرين من شهر آب سنة ١٩٣٨. وفي اليوم التالي لذلك اخذت امي وعدنا بطريق البحر، من مارسيليا الى بيروت، وانتقلنا من هناك الى عمان.

بعد مرور ثلاثة اشهر طارت زوجتي ومعها امها قادمتين الى بيروت، فعقدنا زواجنا مرة اخرى في كنيسة « كل القديسين »، وهي كنيسة انجليكانية صغيرة تقـع على شاطىء البحر. كانت التهاني الوحيدة التي تلقيناها، قد جاءت من والدتينا. امضينا

(١١) ترجمة حرفية لعبارة ENGLISH CIENL MAN الجنتلمان الانكليزي.

يومين من شهر العسل في احد الفنادق ببيروت، تصحبنا والدتانا، ومن ثم عدنا الى عمان.

* * *

على هذه الشاكلة، عثرت اخيراً، على شريكة حياتي. لقد كنت، بعدة طرق، غير جدير بها. وغالبا ما كنت اهملها لانني كنت امضي وقتي في العمل المجهد. ولقد عانينا كثيراً من التقلبات لكنها كانت تساندني خلال تلك التقلبات كلها. والآن[12] اصبحنا متزوجين منذ اربع واربعين سنة! ولم نكن قد تخاصمنا خلالها ولا مرة واحدة ابدا، واستطيع ان اشكر الله وحده لتوجيهه الذي قادني عبر اخطار لا نهاية لها، الى هذا العمر الطويل المسالم، محاطا باولادي، واحفادي، لقد جعلتنا تلك الاخطار والقلق الذي شاركنا فيه سوية، اوثق واكثر وثاقا معا، وابعد بكثير مما كانت تفعله فينا تحمسات الشباب الاولى.

* * *

قبل سنوات قلائل سمعت من التلفاز، احد الشباب يعرب عن رأي يقول « ان اعظم خطوة يمكن انجازها الى الامام في الايام الاخيرة، تتمثل في تحرر الفتيات اليافعات من السلطة الابوية ». ان البرهان على قيمة « الكعك » الذي تتناوله، لاتظهر إلا بعد ان تأكله. والى ان عدت الى انكلترا في سنة ١٩٥٦ بعد ست وثلاثين سنة أمضيتها في الشرق الاوسط، لم اكن اعرف أي شخص كان قد اقدم على الطلاق.

اما اليوم فان نسبة كبيرة من الزيجات التي جرت في انكلترا قد انتهت بالطلاق. واسوأ ما في هذه الحالة، ان سنتين او ثلاث سنوات، من المغامرات الجنسية التي تعقب زيجات الشباب، تكون كافية لانجاب طفلين، واذ ذاك يخمد الهياج ويقرر الزوجان الشابان، الحصول على الطلاق، وهكذا تتحطم العائلة ويحرم الاطفال من سعادتهم، ومن الأمن الذي ينشدونه في البيت.

لقد كرست قدراً كبيراً من الوقت لدراسة قيام الحضارات القديمة وانهيارها، وكنت أهتم اهتماماً شديداً بالكشف عن ان معظم الادوار القومية للانحطاط، قد تميز بازدياد سهولة الاقدام على الطلاق، والانحلال الجنسي.

---

(١٢) اي في سنة ١٩٨٣، والتي صدرت فيها هذه المذكرات وذلك قبل وفاة غلوب في السابع عشر من شهر اذار سنة ١٩٨٦

لقد صحب انهيار الجمهورية الرومانية، نتيجة الحرب الاهلية واعمال القتل، إزدياد سهولة الطلاق، وتحطيم الاسرة الرومانية. فحين هيأ (اغطس)[١٣] نفسه لاستعادة عظمة روما، قرر بان واحدة من الطرق الضرورية لذلك، هو اعادة ضبط الاسرة الرومانية، وسلامتها وذلك عن طريق الاقناع الذي كان يهدف اليه، الى درجة انه شرع قانونا يعتبر العزوبة جريمة يعاقب عليها.

انني احب الناس اليافعين ويسوؤني ان اعبر عن آراء قد تثير سخطهم، لكني لاشك ابدا في ان الفتيات اليافعات في حاجة الى الحماية. انهن يؤلفن كنوز عنصرنا، وان مستقبل شعوبنا باسره، يعتمد عليهن، لانهن الامهات اللواتي يؤلفن صفات اولادهن!.

ولسوء الحظ ففي السنوات الخمس والعشرين الماضية، وبنتيجة الوسط القائم، والانحطاط العام الذي اصاب اخلاق الامة، أصبح الحب يعتبر بصفة اكثر فاكثر، محض متعة جسدية بدلا من ان يكون عطفا روحيا وعقليا معا بين الارواح الصغيرة. فاذا كان «الوقوع في الحب» يعني تجربة المتعة الجسدية ليس الا، فان مثل هذه المتعة لابد لها ان تضمحل خلال سنوات قليلة ومن ثم يفترق الزوجان.

كان النجاح النموذجي الخالي من المنغصات، لزواجنا يعود بدرجة كبيرة الى حلاوة « روزميري » وصبرها، لانني كنت في عمان ادربها تدريبا عميقا، وكان اهمالي لها هي واسرتي، يعود بصفة شاملة الى مشاغل عاجلة!

كنا ننهض في الساعة الخامسة صباحا، وانصرف في حدود الساعة السادسة والنصف الى دائرتي. ويحدث في بعض الاحيان ان آخذ معي احد الجياد الذي جلب الى البيت، فاستمتع بدورة قصيرة حول التلال قبل ان اترجل امام مقر الفيلق العربي. ومن ذلك الوقت حتى الساعة الواحدة بعد الظهر اكون منهمكا في المراسلات، والاحاديث والزيارات المتوقعة للقصر، او لاعضاء الوزارة.

ينتهي الدوام في الساعة الواحدة، بعد الظهر، لكن هذا الوقت يكون مزدحما بالزوار، واصحاب الطلبات الذين يكونون قد تجمعوا سلفا. كان هؤلاء من افراد العشائر، من الفقراء والاميين، الذين لايتم تقبلهم في الدوائر الحكومية في العاصمة.

---

(١٣) اغسطس المقصود به كايوس اكتافيانس. (٦٣ ق.م. ١٤م) ابن قيصر بالتبني اشترك مع انطونيوس ولبيدس في الحكم، ثم انفرد به واسس الامبراطورية الرومانية. اقر السلم وشجع الادباء، وفي زمانه ولد المسيح.

ووفقا للصيغ التقليدية للحكم العربي، ينبغي ان يتم اشغال كل منصب للسلطة من قبل رجل واحد « ليس من لدن لجنة، ولا غرفة، ولا من البرلمان ». ولكن ذلك الرجل يستطيع الوصول الى كل انسان من دون ادنى استثناء. كان تقليد اوربا، من لدن الاتراك قبل الحرب العالمية الاولى اولاً، ومن لدن الدول المنتدبة بعد الحرب ثانياً، قد ادى الى تحطيم هذا النظام. فاعضاء الوزارة، والموظفون، يوصدون عليهم ابواب مكاتبهم، فلا يمكن الوصول اليها بالنسبة الى عامة الناس، وعلى الاخص الفقراء منهم. ان الصيغ القديمة لسلطة رجل فرد، وامكانية الوصول اليه، ماتزال سارية المفعول في «السعودية» التي تقع على اميال قليلة من شرقي الاردن.

واذا اردنا ان نقيم الواقع، فان هذه التغييرات التي كانت قد حرمت الفقير والأمي، من الصيغ التقليدية للعدالة التي يفهمونها، فانني حاولت ان اجعل باب مكتبي بعد ساعات الدوام مفتوحة امام الفقير والجاهل.

فلقد كنت من الساعة الواحدة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، استقبل زيارات من الافراد المستضعفين بعد ساعات الدوام. وقد لا اعود الى البيت لتناول الغداء الا في الفترة مابين الساعة الرابعة والساعة الخامسة بعد الظهر. غير ان اصحاب الطلبات الذين لم يتم قبولهم قد يتبعونني الى البيت حيث يجلسون على قطعة عارية من جانب احد التلال وراء بيتي.

بعد ان اتناول غدائي مسرعاً في حدود الساعة الرابعة والنصف اشرع اعالج هذه القضايا. ولكنني لا ادعهم يدخلون علي البيت، وانما اروح ادور فيما بينهم ذهابا وايابا.

وفي حدود الساعة الثامنة مساء تنادي « روزميري » من الغرفة التالية قائلة « اليس مستطاعا ان نتناول عشاءنا الآن؟ » واذ ذاك انبىء الحاجب بان كل شيء قد انتهى، وحينئذ يدعو بقية الزائرين يقول لهم « غدا ان شاء الله! » وعند ذاك نستطيع ان نتناول عشاءنا معا!.

* * *

لم اكن اقصد من وراء هذه الاعمال ان انشىء نظاماً خاصاً بي، أو ان انتقد الآخرين بصفة ضمنية. لان كل ذلك كان يحدث بتلك الطريقة. فلقد عهدت الي حكومة الاردن مهمة اقامة القانون والنظام في الصحراء ولقد انجزت هذه المهمة عن طريق العيش مع القبائل واقناعها بالتخلي عن الغارات.

غير ان القبائل لم تكن تعرف قبلا، بصفة شخصية،أياً من الموظفين الكبار، ولذلك اعتبرتني صديقا للبلاط، وقد تأتي الي لتستشيرني في كل مشاكلها. ان أي فرد يذهب للتسوق في شوارع عمان، سوف يجد نفسه محاطاً بمجموعة من الصبية الصغار الصاخبين، وكل واحد منهم يحمل احدى السلال. وقد يصحب المتسوق معه واحدا من هؤلاء الصبية، يدور معه حول الحوانيت، ويحمل مشترياته ثم يصحبه في الاخير الى داره، وهو يحمل ما تسوقه في سلته. والملاحظ ان كثيرين من هؤلاء الصبية كانوا قد قدموا من قرى نائية، وقد ينامون لياليهم في الشوارع، او في مداخل الطرق.

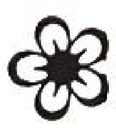
كانت « روزميري » قد تحركت للعمل بحنان نحو هؤلاء الاطفال،وقررت ان تبدا العمل بنفسها.فقد استأجرت دارا صغيرة قريبة من دارنا، وعهدت الى رجل شيخ بان يعلمهم القراءة والكتابة،ثم شرعت تمدهم بالورق واقلام الرصاص، والملابس ووجبات عرضية من الطعام، وتدفع اليهم علاوة، عوضا عما كانوا يحصلون عليه من استعمال سلالهم، وكانت بصفة عامة، تتصرف ازاءهم تصرف الام.

كان الصبية في البداية مرتابين ارتيابا عاليا،ولذلك كانوا يعطون اسماء كاذبة، ومواقع مغلوطة عن بيوتهم كيما يستطيعون ان يختفوا، دون ان يتركوا اي اثر لهم، ان وجدوا ذلك ضروريا. على انهم مالبثوا ان اخذوا بالتدريج يثقون بروزميري، وشرعوا يعطونها اسماءهم الحقيقية،وكان واحد او اثنان منهم يأتون الى دارنا للعمل فيها بين اونة واخره.

لقد كنا نذكر اولئك الصبية عرضا، بانهم سوف يصبحون من الفتيان. كان احدهم ويدعى (مفلح) قد صعد ذات مرة الى سيارتي التي كانت تقف امام دارنا، وحرك مقبض التوقف، واذ كانت دارنا تقوم على جانب احد التلال، فقد انحدرت السيارة الى الطريق، واصطدمت باحد الجدران.

كان من اعظم الصبية الذي نجحوا في المدرسة، صبي يدعى «عطا» كان قد قدم من قرية ريفية نائية، كان ذكيا ولذلك وفرناله التعليم التام، وفي النهاية تم ارساله الى كلية « ساندهرست » العسكرية في انكلترا فاصبح ضابطا في الجيش الاردني.

وهناك صبي اخر يدعى عبد العزيز كان ذكيا بصفة ملحوظة وقد تعلم القراءة والكتابة بسرعة،وما لبثت روزميري فيها بعد ان منحته من النقود ما يكفي لفتح حانوت له في موطنه بمدينة «الكرك» حيث راح يعيل نفسه بنفسه.



الفصل الثاني عشر



الحرب والسلم

قبل ان اتحدث عن مغازلتي الفتيات، وزواجي، اعطيت موجزاً عن انقطاع الغارات في صحارى شرق الاردن في سنة ١٩٣٢. فلقد تم الاتفاق، اثناء اجتماعاتنا في «جدة» على ان تعين الحكومات السعودية والاردنية، مفتشين للحدود، يستطيعون ان يتعاملوا مع احدهم الاخر، بصفة مباشرة، وان يتوصلوا الى تصفية لاية حوادث صغيرة قد تقع.

عينت من قبل حكومة شرقي الاردن مفتش حدود لديها، في حين عين السعوديون «عبد العزيز بن زيد». وهو موظف حكومي عملي، ولكنه ليس من منزلة اجتماعية رفيعة. ومن الواضح ا ن تعيين هذا الرجل قد جاء نتيجة شكوك ابن السعود، حول نوع الاستقبال الذي سوف يستقبل به ممثلوه.

كانت الحكومة البريطانية تتطلع دوما الى توطيد السلام في الشرق الاوسط[1]. ولطالما حاولت التوسط بين ابن السعود وشرقي الاردن في ان يتوصلا الى تسوية ادعاءاتها المتبادلة المتعلقة باعمال النهب التي كانت تقع اثناء الغارات. غير انها، اي بريطانيا، قد اخفقت في اقناع الطرفين بلزوم الاتفاق، واذ ذاك احيلت قوائم تلك المنهوبات الى عبد العزيز بن زيد.

---

(١) لم تكن بريطانيا تتطلع الى السلام في الشرق الاوسط الا بالقدر الذي يوطد اقدامها فيه ويمكنها من نهب خيراته وثرواته. فلو كانت تريد السلام حقا لما احتضنت الصهاينه وساعدتهم عن طريق انتدابها على فلسطين على تحقيق احلامهم العدوانية التوسعية باقامة دولة اسرائيل التي ماتزال الى الان تؤازرها وتشجعها على العدوان فضلا عن تحالفها المكشوف مع عصابة خميني في العدوان على العراق ومدها بكل اسباب القوة والحياة.

وفي اول اجتماع عقدناه طرح الممثل السعودي قائمة ادعاءاته ومطاليبه. وكان من حسن حظي انني الهمت بان اقول «لست اعرف كيف نستطيع ان نصدر حكمنا بشأن كل هذه الادعاءات؟ ولكن لما كنت اعلم بانكم فخامتكم سيكون رجل شرف، فانني اقبل باية ادعاءات تقدرون بانها ادعاءات محقة!» تغيرت طريقة الممثل السعودي على الفور، واجاب بانه لايستطيع ان يتخذ قرارات من جانب واحد ليس الا، وانه سوف يتقبل كل ما اقرره انا.

وخلال دقائق كان احدنا يجادل الآخر في اتخاذ تسوية من جانب واحد حسب. وهكذا تم حل المشكلة، فاتفقنا معا على ان نتخلى عن كل الادعاءات والمطاليب، وافترقنا صديقين حميمين!

كان ابن السعود قد تحقق على وجه الدقة من سرعة انفتاحي «لابن زيد» ولذلك عين مؤخراً الامير عبدالله السديري، احد ابناء عمه، (من فرع امه). ولقد اصبحنا صديقين وثيقين بصفة شخصية، وعقدنا الكثير من اجتماعات الحدود، الى ان تم ترفيعه بان اصبح حاكما على «المدينة»، الى ان خلفه في هذا المنصب «الامير عبد العزيز» وهو سديري آخر
وما ان رأت القبائل ممثلي الحكومتين على مثل هذه المنزلة من الصداقة والود حتى اصبحت تعيش في سلام، الى درجة ان اللصوص أصبحوا خارج نطاق البحث.

* * *

مرت الفترة بين سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٦ بسلام ولكن من دون كسل وخمول. فمن الامور التي اثارت قلقي في تلك الايام هي قضية الديون القبلية. فقد كان من المعتاد أن يجابه اي مزارع او مربٍ للحيوانات، احياناً بحلول سنة سيئة لأن الامطار تكون عزيزة. ففي الاوقات السابقة، كان رجال القبائل يتوجهون الى تجار المدينة، ويقترضون منهم النقود على ان يسددوها عينا حين تكون الاوقات افضل. وكان افراد القبائل وتجار المدينة يثق احدهم بالآخر، ولم يكونوا يتبادلون فيما بينهم سندات مكتوبة، وقد بقي هذا النظام يجري تطبيقه بصفة تامة.

ومن ثم شرع بانشاء المحاكم وسن القوانين وفقا للحماسة الجماعية من تقليد الغرب. وسرعان ماتحقق التجار من توقعات تطبيق القوانين. ففي المستقبل حين كان المزارع او مربي الحيوانات يريد الحصول على قرض، يبرز التاجر عقداً قانونيا

يوقع عليه ببصمة ابهامه، لان ايا منهما التاجر او رجل القبيلة لم يكونا يعرفان الكتابة.

وفي السنة التالية يتلقى مربي الحيوانات او التاجر دعوة بالحضور الى المحكمة، واذ ذاك يبرز احد المحامين السند الذي وقعه المقترض ببصمة ابهامه، والذي يظهر فيه بان المقترض قد رهن، من دون نباهة، مزرعته لدى الشخص الذي اقرضه النقود، والذي قرر الآن ان يتمسك بالرهن، فيتسلم المزرعة، او يضع يده على قطيع الماشية لدى الراعي. لقد كنت اشعر بالاسى العميق لان انشاء وزارة للعدل لم ينتج عنه سوى المزيد من الظلم والاضطهاد.

ولقد ظهر بان العلاج الوحيد لكل ذلك هو تعليم افراد القبائل القراءة والكتابة. ولهذا سعيت الى فتح مدارس في الصحراء. لم تكن هناك اموال متوفرة لدى الحكومة لهذا الغرض، وان من العسير انشاء مدارس لاطفال البدو، لان آباءهم كانوا في تنقل دائم، وفضلا عن ذلك فقد نجحت في الحصول على استخدام طبيب انكليزي، يقوم بزيارة القبائل البدوية التي لم تكن تحظى باية عناية طبية.

* * *

في سنة ١٩٣٣ كنت قد بلغت السنة السادسة والثلاثين من عمري وبدأت افكر بانني قد غدوت الآن اسير في طريقي الى الكبر!. وللمرة الاولى في حياتي شرعت آخذ النقود بنظر الاعتبار، وكذلك الحصول على تقاعد لكبر سني. فلم اكن حتى ذلك الوقت قد طلبت من الحكومة الاردنية ان اتعاقد معها حين دخلت في خدمتها، او ان احصل على تقاعد او مكافأة، حين بلوغي سن التقاعد.

وطبقا لذلك كتبت الى الحكومة البريطانية ورحت اسألها عما اذا كانت هناك وسيلة ماأستطيع بها ان احصل على مرتب تقاعدي.

ولكن الحكومة البريطانية ردت على تساؤلي ذاك، بانه لاتوجد تعيينات بريطانية في الاردن خاضعة للتقاعد، وان افضل ماتستطيع الحكومة البريطانية ان تفعله هو ان تعينني بمنصب «مساعد مفوض منطقة» في حكومة فلسطين من الدرجة الثامنة.

لم تكن لدي اية فكرة عن الواجبات التي يؤديها «مساعد مفوض منطقة» من الدرجة الثامنة. ولكن يبدو بان هذه الدرجة كانت تمثل في الاحرى طريقاً طويلا من الهبوط في سلم الحروف الابجدية. وكان المرتب المقرر لها يساوي ثلثمائة باون في السنة، ويرتفع بعلاوات سنوية مقدارها خمسة وعشرون باون الى ثمانمائة باون كل

سنة،وتلك عملية تتطلب الخدمة لمدة عشرين سنة، واضافة الى ذلك تعطي مخصصات غلاء معيشة بنسبة ثلاثين باوناً في كل سنة.

ومع كل ذلك فلم يكن المرتب ذو اهمية،لانني ما ان انتدبت الى حكومة فلسطين حتى عينت على الفور لاداء واجبي في شرقي الاردن. وتحدد العبارة الاخيرة من كتاب تعييني بان خدمتي سوف تكون خاضعة للتقاعد طبقا لمرسوم التقاعد الفلسطيني الصادر في سنة ١٩٢٥،وكان هذا بالطبع يؤلف الهدف من كل هذه المناورة. وكان كتاب التعيين قد وقعه السكرتير العام لحكومة فلسطين بتأريخ الثامن والعشرين من شهر نيسان سنة ١٩٣٤.

بهذه الوسائل وعلى الرغم من عدم وجود علاقة لي بفلسطين،استطعت بالتدريج ان اصبح مستحقا للتقاعد بصفة مساعد مفوض منطقة من الدرجة الثامنة،وقد تقبلت هذا العرض بكل سرور ولغرض المساهمة في الحوادث بقيت استحق هذا التقاعد حتى سنة ١٩٤٨،حين لم يعد لحكومة فلسطين من وجود، ولقد بلغت خدمتي تحت هذا الاسم مدة اربع عشرة،ومازال اتقاضى هذا التقاعد،وهو التقاعد الوحيد، الذي حصلت عليه من لدن الحكومة البريطانية او اية حكومة اخرى.

حاول عرب فلسطين في سنة ١٩٣٦ القيام بثورة ضد هجرة اليهود الاوربيين الذين استولوا على الاراضي العربية في فلسطين(٢)

كانت كل من فلسطين ولبنان معا من ضمن الامبراطورية العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى،وكانت كثير من العوائل الغنية تملك اراضي لها في فلسطين لكنها كانت في الوقت ذاته تعيش في بيروت.ولقد اصبحت فلسطين ولبنان بعد الحرب بلدين منفصلين،ولذلك وجد اصحاب الاراضي من البيروتيين ان من العسير عليهم ان يتعاملوا مع الحكومتين اللبنانية والفلسطينية.ولقد كان اصحاب الاراضي هؤلاء متغيبين عن اراضيهم في فلسطين قبلا،ولذلك فرحوا بان يبيعوا اراضيهم تلك في

---

(٢) كانت الخطوات الاولى التي طبقها اليهود في فلسطين حتى ماقبل الحرب العالمية الاولى هي اقدامهم على شراء الاراضي الزراعية المملوكة لعرب فلسطين بشتى الوسائل والمغريات وتحويلها الى نستعمرات يهودية خالصة لغرض تثبيت خطة الاستيطان اليهودي وتوسيع الهجرة اليهودية الى فلسطين،ولقد تعاظمت هذه الخطة بعد ان تولت بريطانيا الانتداب على فلسطين،وسعت بكل الوسائل الى تنفيذ وعد بلفور، واقامة دولة اسرائيل الحالية وحين تفاقمت الثورة في سنة ١٩٣٦ لجأت بريطانيا الى عملائها من الحكام في البلاد العربية حيث اشترك حكام السعودية وشرقي الاردن والعراق في توجيه نداء الى الثوار في فلسطين بوقف الثورة والدخول في مفاوضات مع الحكومة البريطانية الامر الذي ادى الى ضياع تلك الثورة والثمار المرجوة من ورائها وشق الحركة القومية العربية في فلسطين ومن ثم قيام دولة اسرائيل

فلسطين الى الصهانية الذين طردوا المزارعين العرب منها،واستبدلوهم باليهود فيما بعد [٣].

كان الفلسطينيون من دون تنظيم ولذلك تلاشت محاولاتهم للقيام بالثورة في سنة ١٩٣٨، لان قادتهم والمزارعين الذين طردوا من اراضيهم قد اصبحوا لاجئين في سوريا.ومع انهم كانوا لاجئين في سوريا، إلاأنهم كانوا يضعون الخطط في دمشق للقيام بثورة في شرقي الاردن،على امل ان يتم ارسال القوات البريطانية الموجودة في فلسطين،لاخماد تلك الثورة ومن ثم مساعدة الثورة في غربي الاردن على الانتعاش، وعلى هذا الاساس كانت العصابات الفلسطينية والسورية تحاول الدخول الى شرقي الاردن،لاشعال نيران الثورة فيها.

ونظرا لهذا التهديد، فقد تمت زيادة قوة الفيلق العربي في شرقي الاردن،وذلك باضافة فوجين من الخيالة،وتجنيد ثلثمائة وخمسين بدويا في السيارات المجهزة بالرشاشات،حيث اطلق على هذه الوحدة عنوان «قوة الصحراء الالية».

وفي سنة ١٩٣٩ تحركت «عصابات الانصار» الى داخل جبال (عجلون) في شرقي الاردن. كان نجاح هذه العصابات يعتمد بنطاق واسع على العطف والمساعدة اللتين كانت تتلقاهما من الاناس المدنيين.ومع ان الاردنيين كانوا يعطفون على الفلسطينيين الذين طردوا من اراضيهم في فلسطين،الا انهم،اي الاردنيون،كانوا راضين بحكومتهم بشكل بارز،ويرفضون ان يثوروا عليها. ولقد قاومنا عددا من المناوشات التي جرت مع العصابات الفلسطينية،الا انه تم اجلاء تلك العصابات في شهر نيسان سنة ١٩٣٩، ولذلك تخلت تلك العصابات عن محاولاتها لايقاد نيران الثورة في شرقي الاردن.

اكتشف الفيلق العربي ان طريقة التعامل مع قوات الانصار،هو ارغامها على التنقل اثناء الليل والنهار. كان الانصار قد اعدوا العدة للقيام بمناوشات اثناء النهار، بأن يعمدوا الى قطع اسلاك الهاتف اوان يسدوا الطرق، لكنهم كانوا في الوقت

(٣) الذي نعتقده ان الصعوبات التي لاقاها اصحاب الاراضي في فلسطين والمقيمين في لبنان في ذات الوقت كانت متعمدة من قبل الحكومتين البريطانية والفرنسية المنتدبتين على فلسطين ولبنان،وان سماسرة الصهاينة سواء في فلسطين ام سوريا ولبنان،قد نشطوا في تحريض اصحاب الاراضي في فلسطين على بيع اراضيهم الى الصهاينة. ولقد كان «احمد الاسعد» والد «كامل الاسعد» رئيس مجلس النواب اللبناني السابق، في مقدمة الذين باعوا اراضيهم في فلسطين الى الصهاينة،ولدينا وثيقة بذلك نحتفظ بها، وكما سبق ان قلنا في تعليقنا السالف ذكره في الشرح[٢] فان شراء الاراضي العربية في فلسطين من قبل الصهاينة واقامة المستعمرات اليهودية فيها،كان يمثل الخطوة الاساسية لزيادة عدد اليهود في فلسطين وتمكينهم من السيطرة عليها بالصفة التي ابرزتها الحوادث فيما بعد وعلى الاخص بعد التظاهرة الفاشلة التي قامت بها الحكومات العربية في ايار سنة ١٩٤٨ بارسالها جيوشها الى فلسطين حيث انهزمت معظم تلك الجيوش في الحرب ضد العصابات اليهودية

ذاته يتسللون اثناء الليل الى احدى القرى ويطالبون سكانها بان يقدموا الطعام لهم، ويضيفوهم.ومع ذلك استطاع الفيلق العربي ان يشتت اولئك الانصار،عن طريق تعقبهم اثناء الليل والنهار، وحرمانهم من الراحة والنوم!

وعلى خلاف ذلك كانت القوات البريطانية في فلسطين تلتحم مع احدى فرق الانصار اثناء النهار، لكنها تعود الى معسكراتها لتنام وتأكل، في ذات الوقت الذي كانت فيه قوات الانصار هي الاخرى تقوم بذات العمل في احدى القرى العربية. ومع ذلك فان الفارق الرئيس يتمثل في ان القرويين في فلسطين كانوا يساندون قوات الانصار، في حين كان القرويون في شرقي الاردن يقفون الى جانب حكومتهم!

وفي الوقت الذي كانت تقع فيه هذه المتاعب كان العقيد «بيك» آمر الفيلق العربي،قد تقاعد من خدمة الحكومة الاردنية،وغادر الى انكلترا،ولذلك حللت انا محله في اليوم الحادي والعشرين من شهر آذار سنة ١٩٣٩،آمرا للقوات الاردنية المسلحة التي كانت تضم الشرطة بين صفوفها.

كان العقيد «بيك» هو الذي انشأ الفيلق العربي اصلا في سنة ١٩٢١، وبقي آمرا له طيلة سبع عشرة سنة. وحين تسلمت انا آمرية ذلك الفيلق كان «هتلر» قد سبق له ان هدد «بولندا» باجتياحها. ولذلك شرعنا نحن في عمان نطبق الاحتياطات العملية للوقاية من الغارات الجوية!!

حين نشبت الحرب العالمية الثانية في شهر آب سنة ١٩٣٩، اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا حول ستراتيجيتهما في الشرق الاوسط.

كان ينبغي على بريطانيا بان تحتفظ لها بحامية في مصر،في الوقت الذي تحتفظ فيه فرنسا بجيش كبير لها في سوريا، واذذاك ابرق الامير عبدالله الى الحكومة البريطانية يعرض عليها بانه يضع كل موارد بلاده تحت تصرف الحلفاء!! ومع ذلك فقد شكرت السلطات البريطانية سموه على ذلك،لكنها اجابته بان مساعدته لن تتم الحاجة اليها مادامت الحرب سوف تقع في اوربا!... وذلك مثال ملموس على مدى تبصر الحكومة البريطانية بالعواقب غير انه لم يمنع شرقي الاردن من ان يعلن الحرب على المانيا!!

كان يستحيل الحصول على وسائط نقل اضافية او اسلحة من بريطانيا،لكنني ابرقت مباشرة الى شركة «فورد» الامريكية في «ديترويت»،بان تشحن ثلثمائة سيارة

من طراز «فورد»،والتي وصلت سالمة. كانت قلة من هذه السيارات قد تم استعمالها لتحسين السيارات المصفحة لدينا. لم تكن صفائح من الفولاذ الذي يستعمل للتصفيح،متوفرة لدينا. غير اننا استعملنا صفائح من الفولاذ المطروق مع صفائح من رقائق مطلية بالغراء لذلك الغرض.

في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الاول سنة ١٩٣٩ رزقنا بابننا الاول الذي ولد في عمان(٣). ومن ثم جاءت كوارث سنة ١٩٤٠،حيث سقطت كل من النرويج وهولندا وبلجيكا، وفرنسا بايدي الالمان.

والشيء المؤكد انه في قمة هذه الكوارث كان سقوط روزميري مريضة يائسة في مستشفى البعثة الايطالية في عمان،وكان ذلك وقتا يتسم حقا بالقلق،نتيجة مرض القلب وتدخله في الشؤون الشخصية والعامة معا.

* * *

وبسقوط فرنسا وصلت بعثة ايطالية المانية للاستيلاء على سوريا ولبنان وهكذا وفي عشية وضحاها، تحول الجيش الفرنسي الكبير الموجود في سوريا الى عدو(٤).وفي صباح احد الايام هبط كل من المستر انطوني ايدن (السر انطوني ايدن فيما بعد) والجنرال «ويفل» القائد العام للشرق الاوسط في عمان،وقد التقيا بالامير عبدالله، وقالا لنا بان الايطاليين يتقدمون نحو مصر من الغرب،وان العدو قد سيطر على جيش كبير في سوريا. لقد اصبح الجيش البريطاني في هذه الحالة مغلوباً بكثرة العدد تماما فهل في مستطاعنا ان نجد المزيد من الرجال؟

قمت باستعراض قوة الصحراء الآلية المؤلفة من ثلثمائة وخمسين رتلا امام «ويفل» و«ايدن» كما يشاهدانها،وقد طلبا إليّ على الفور وجوب مضاعفة اعداد تلك القوة وتشكيل كتيبة صحراء آلية.

---

(٣) هو (فارس) الذي يرأس الجمعية الانكليزية العربية في لندن. والتي تقوم بنشاط ملموس ضد الصهيونية. وقد اصدر (فارس) في سنة ١٩٨٥ كتابا عن الاسس المشتركة بين النازية والصهيونية ترجمت مجلة «الدستور» التي تصدر في لندن بعض فصوله.

(٤) امتدت يد حكومة فيشي التي انشأها الالمان بعد احتلالهم فرنسا بمعاونة بعض المتعاطفين معهم من الفرنسيين، الى سوريا ولبنان.ولذلك اقدمت بريطانيا في صيف ١٩٤١ وبعد القضاء على ثورة ايار الوطنية في العراق ١٩٤١ مباشرة على احتلال سوريا ولبنان وتسليمها الى قوات فرنسا الحرة التي كان يتزعمها الجنرال ديغول والتي اتخذت مقرها في المغرب والجزائر وتونس

كما طلب ايضاً تهيئة سرية ثابتة في فلسطين. فلقد كانت بريطانياتبدو بعيدة بالنسبة الى ايطاليا والمانيا اللتين تقعان بيننا وبينها.

ومن ثم حدث في شهر نيسان سنة ١٩٤١ انقلاب عسكري في بغداد، اذ استولى اربعة من القادة العراقيين على السلطة، واعلنوا الحرب على بريطانيا، وحاصروا قاعدة القوة الجوية البريطانية في الحبانية التي تقع على نهر الفرات. وآنذاك وصل الملك الصغير «فيصل الثاني» والوصي على العرش «الامير عبدالاله» لاجئين الى «عمان»[٥].

كان رشيد عالي، ذلك السياسي الذي عرفته وزيرا للداخلية، حين كنت في العراق، قد اصبح رئيساً للوزراء في بغداد. كان متوقعا وصول الالمان الى العراق في اية لحظة، ولذلك طلب الي بان اواجه القائد العام في القدس الجنرال السر «هنري ولسون» الذي عرف عموما بلقب «جمبو».

ماان دخلت مكتبه حتى سمعته يقول وهو يبتسم بملء شدقية «انني اخشى المزيد من المتاعب.» لقد تحطم احد الارتال في فلسطين حين كان يحاول ان يعبر الصحراء الى بغداد. تم انزال فرقة هندية في البصرة تحت امرة الجنرال «سلم».

كنت آنذاك اتولى امرة كل القوات المسلحة في الاردن، سواء كانت من الشرطة ام من الجيش، ولذلك فان مكاني قد يكون في مقري بعمان. ولكن حين يكون اي جزء من الفيلق العربي في مهمة فعالة، فلست استطيع ان اقاوم الاغراء بان اصحب ذلك الجزء، واترك مساعدي في المكتب.

كان الرتل يتألف من الكتيبة الآلية للفيلق العربي، ومن الخيالة التي تنقلها السيارات المحسنة (حيث تركوا خيولهم السود في فلسطين) ومن مدفعية بطرية ميدان، وسرية حملة البنادق مؤلفة من مائتي سيارة من حمولة عشرة اطنان محملة بالماء والنفط والارزاق، ليس لفيلقنا حسب، بل وللحامية المحصورة في الحبانية.

اطلق على الفيلق اسم «قوة حبانية»[٦] وكان يقوده الجنرال «كلارك مارك»، كذلك تم ارسال رتل سريع من الرطبة رأسا، كان يقوده اللواء كنسنغتون» مؤلف من كتيبة

---

(٥) لم يلجأ الملك فيصل الثاني الى الاردن كما ذكر المؤلف ذلك خطأ وانما نقل هو وامه الى اربيل في بيت «ملا افندي» احد الاشراف هناك. اما عبد الاله فانه التجا الى القوات الانكليزية التي احتلت البصرة ومن ثم نقله الى الحبانية ففلسطين حيث لحق به كل من نوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت الايوبي [انظر كتابنا ثلاثة ملوك في بغداد، الطبعة الاولى ١٩٨٣].

(٦) HAB.FORCe

خيالة وسريتين من كتيبة «سكس» وبطرية مدافع ميدان، والكتيبة الآلية للفيلق العربي. كان اللواء كنسنغتون ينظر الى هؤلاء الجنود العرب، ذوى المظهر الغريب بشيء من الريبة،ولذلك رحب باقتراحي القائل باننا يجب ان نتقدم رتله. وفي مساء اليوم الثالث عشر من شهر ايار (١٩٤١) دعا اللواء كنسنغتون الى عقد مؤتمر. كنا على اميال قليلة من الرطبة التي اقترح البريطانيون نجدتها في اليوم التالي. ولذلك اقترح اللواء كنسنغتون بان يقوم الفيلق العربي بعملية استطلاع ليس الا. وواضح من هذا انه، اي اللواء كنسنغتون، لم يرد هنا ان نربك عملياته. وطبقاً لذلك انتقلنا الى بعض الآبار الواقعة نحو الجنوب لكي نخرج من الطريق الذي سيسير فيه اللواء كنسنغتون.

وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. عدنا وكنا نتصور بان الرتل لابد وان يكون الآن قد دخل الحبانية فعلا، غير اننا اكتشفنا بان الرتل باكمله قد عاد الى معسكر موقت ليمضي الليل فيه،وهو في حالة من الرعب والذعر. ذلك لان كل سيارات الرتل قد غطست في الرمال،وسرت اشاعات مخيفة بان مالديهم من الماء سوف ينفد!

يختلف سطح الصحراء اختلافا في تركيبه،ويكون مهلكا لمن يحاول ان يسافر فيه، في خط مستقيم حسب البوصلة التي يحملها معه، مثلما يكون الجنود النظاميون عرضة لذلك. لقد عرضنا بان نقود الرتل الى الحبانية وذلك امر نجحنا فيه،في اليوم التالي، ولذلك فلم تبق اية سيارات غاطسة في الرمال. هوجمنا اثناء النهار من قبل ثلاث طائرات المانية من طراز «مسرشمت» كانت قد قدمت من سوريا، وقد قتل اثنان من عرب الفيلق العربي، ودمرت سيارتهما. تم انقاذ الحبانية، وتحرك البريطانيون الى «الفلوجة»، للتقدم نحو بغداد،غير ان العراقيين نسفوا ضفاف نهر الفرات، واغرقوا المنطقة كلها بالماء.

كانت المقاتلات الالمانية من طراز «مسرشمت»(٧) والقاذفات من طراز «هاينكل»(٨) تعمل من الموصل. وكان الالمان في سوريا يبعثون عبر القطار حمولات من الذخيرة من «حلب» الى الموصل ومنها الى بغداد.

كما كان يوجد لواء من المشاة العراقيين في الموصل ايضا.

MESSERCHMITT(٧)

HEINKLE(٨)

ولقد ظهر بان الشيء الضروري الاول،هو قطع الطريق وسكة الحديد، بين الموصل وبغداد. ووفقاً لذلك نقلنا الفيلق العربي بالمعابر عبر نهر الفرات،وتقدمنا خلال الصحراء الى نهر دجلة جنوبي سامراء، وفي اعقابنا بعض الخيالة الذين استداروا فيها بعد، وهاجموا الكاظمية، الضاحية الشمالية لبغداد. استولينا على محطة القطار في «المشاهدة» بعد قتال قصير،وبهذه الوسيلة قطعنا النجدات والذخيرة المرسلة من الموصل. غير ان عدد الطائرات الالمانية في الموصل قد ازداد، كما تعاظم نشاطها ايضاً.

وفي «المشاهدة» القينا القبض مصادفة على متصرف بغداد «جلال بك خالد» الذي كان يقوم بزيارة الى سامراء. لم اكن افكر في ان هذه الاضطرابات كانت بمثابة حرب. لقد امضيت عشر سنوات سعيدة في العراق، وكنت احبه.

لقد كنت احس بان هذه الحوادث مجرد انقلاب عسكري ليس الا. عثرت على زورق في بساتين النخيل القائمة على ضفاف نهر دجلة فبعثت بالمتصرف «جلال بك» بواسطة النهر الى دائرته في بغداد[٩].

في الحرب ينبغي دوما ان تؤخذ مخاوف العدو وقلقه بنظر الاعتبار،ان قطع سكة حديد الموصل لم يثر اعصاب حكومة رشيد عالي. كانت الفرقة التي قدمت من الهند قد استولت على البصرة،ولذلك فقد رشيد عالي اعصابه وهرب الى ايران.

اقتربت بعثة عراقية تحمل العلم العراقي بقصد تحقيق الهدنة من خط الجبهة البريطاني غربي بغداد، وتم تقديم الطلب بوقف القتال. صحبت الفريق «كلارك» وفيلدمار شال الجو «دالبياك»[١٠] للالتقاء بوفد الهدنة العراقي[١١] في الفجر الاغبش لليوم الحادي والثلاثين من شهر ايار سنة ١٩٤١[١٢].

---

(٩) كان المرحوم جلال خالد قد اصيب في تلك الحادثة اذ قطعت يده اليمنى ولذلك اعاده غلوب باشا باحد الزوارق الى بغداد. وقد توفي المرحوم جلال خالد في لندن على اثر اجراء عملية جراحية هناك في سنة ١٩٨١

(١٠) DALBIAC

(١١) تألف وفد الهدنة العراقي من كل من ارشد العمري رئيس لجنة الامن الداخلي وكان يتولى في الاصل امانة العاصمة،ومن نور الدين محمود مدير الحركات في وزارة الدفاع،فقد قابل الاثنان السفير البريطاني في السفارة البريطانية مساء اليوم الحادي والثلاثين من شهر ايار ١٩٤١،وبحثا معه موضوع الهدنة حيث تم الاتفاق على شروط الهدنة التي كانت تنص على وقف الحركات والسماح للجيش العراقي الاحتفاظ بكالة اسلحته واطلاق سراح الاسرى البريطانيين واعتقال كل الرعايا الالمان والايطاليين وانسحاب الجيش العراقي من الرمادي وماجاورها ومنح التسهيلات للقوات البريطانية في مختلف طرق المواصلات وتسليم الاسرى العراقيين الى الوصي عبد الاله!

(١٢) اخطأ المؤلف اذ ذكر بانه التقى بوفد الهدنة العراقي في فجر اليوم الحادي والثلاثين من شهر اذار والصواب هو فجر اليوم الحادي والثلاثين من شهر ايار ١٩٤١

في صباح اليوم التالي اخذت مراسلي «صفا» الذي يرتدي الآن بدلة الفيلق العربي الاسطوري، ودخلت السفارة البريطانية في بغداد،حيث كان ثلثمائة وستون نفرا من الرعايا البريطانيين قد احتجزوا فيها لمدة شهر،وقد قطع عنهم كلْ اتصال بالعالم الخارجي. لقد بدأ عليهم بان وجوههم قد تغضنت وشحبت،ولكنهم احتشدوا حولنا مسرورين.في اليوم التالي استأذن الفيلق العربي آمرية الحبانية وعاد عبر الصحراء الى عمان والاردن.

تم انقاذ العراق آنئذ،غير انه كان متوقعا ان ينقل الالمان فرقة بالطائرات الى سوريا قبل ان تصل القوات الالمانية اليها.وعلى هذا الاساس تحركت القوات البريطانية والاسترالية والهندية من فلسطين باتجاه بيروت ودمشق.كانت «قوة الحبانية» التي تضم رفاقنا البريطانيين الذين استولوا على بغداد، ماتزال موجودة في الحبانية. واذذاك صدرت الاوامر لها للقيام بهجوم عبر الصحراء على مدينة «تدمر» وان تتقدم من هناك الى «حمص»،وتقطع المواصلات مع الفرنسيين التابعين لحكومة «فيشي»،والذين كانوا مايزالون يحتفظون بمدينة دمشق.

عادت «قوة الحبانية» وقد التقينا بها وسط الصحراء بكتيبتنا الآلية، ومن ثم قدنا الرتل شمالا باتجاه «تدمر» . تقع هذه المدينة التاريخية القديمة من مدن الواحات في سهل مستو مكشوف،وقد عززها الفرنسيون بمعاقل صغيرة. لم تكن مدافع الميدان التي يملكها رتلنا قادرة على تخريبها.ولقد دافع «الفيلق الاجنبي الفرنسي»(١٣) عن المدينة دفاعا مجيداً،واستطاع بذلك ان يبرهن بانه كان كله تقريبا مؤلفا من الالمان.

استقر الفيلق البريطاني هناك لكي يقوم بمهاجمة المعاقل الصغيرة،لكنه هوجم في ذات الوقت بموجة تلو الاخرى من الطائرات المعادية. لم تكن توجد مقاتلات بريطانية متوفرة في حين كان للطائرات الفرنسية التابعة لحكومة فيشي وللطائرات الالمانية كل ماتحتاج اليه من اشياء تحت متناولها.

---

(١٣) هو ماتعورف عليه في التاريخ باسم «الفرقة الاجنبية» LEGION ETRANGIER وكانت تؤلف وحدة من الجيش الفرنسي وقد تأسست في سنة ١٨٣١ وكان مقرها في «سيدي ابو العباس» في الجزائر واغلبية افرادها من الاجانب الذين كانوا يلتحقون بها لقاء المرتبات التي يتقاضونها، ومع انهم ليسوا من رعايا فرنسا الا انهم كانوا يكتسبون الرعوية الفرنسية بعد ان يقضوا في صفوف الفرقة خمسة اعوام متتالية، وهم يقاتلون مع الجيش الفرنسي دوما. ولايسأل المتطوع في الفرقة لا عن جنسيته، ولا عن سابق عمله ولايكلف باعطاء اي توضيح عن حياته، وكانت تضم الكثيرين من الاوباش والاشرار المشردين وكان يبلغ تعدادها بعد الحرب العالمية الاولى حوالي عشرين الف مقاتل مقسمين الى اربعة الوية يتمركز احدها في سيدي ابي العباس بالجزائر، والثاني في مكناس بالمغرب والثالث في فاس والرابع في مراكش عاصمة المغرب. ومع عداوة الالمان للفرنسيين الا ان المتطوعين من الالمان في الفرقة الاجنبية كان يبلغ عددهم زهاء ثمانين في المائة وليس للفرقة الاجنبية علم خاص بها، بل هو العلم الفرنسي. وقد ذكر ان امير موناكو وشقيق ملك الدانمارك كانا في وقت من الاوقات من المتطوعين في هذه الفرقة.

ان تعرضك لهجمات متواصلة من الجو، في الوقت الذي لاتتوفر فيه لديك طائرات خاصة بك، ولادفاع ضد الطائرات، يعتبر حتى في تلك الايام تجربة غير مسرة-وفي الوقت ذاته كان الفرنسيون التابعون لحكومة فيشي مايزالون يسيطرون على نهر الفرات شمالي «البوكمال»، ولديهم حامية في «دير الزور».

كانت مواصلاتنا تمتد حوالي مائة ميل الى محطة «H-3»[14] الواقعة على خط انابيب نفط العراق. ومن هذه المحطة تمتد مواصلاتنا ايضا لمسافة مائتي ميل غربا نحو شرقي الاردن، وحوالي مائتي ميل شرقا حتى «الحبانية». وكانت هناك سيارات، لم تشخص هوياتها، تقوم بصفة متواصلة بقصف ارتال تموينناا في هذه المنطقة. ولقد ذكر بعض الاعراب ان قوة من سيارات مصفحة كانت قادمة من حلب. وطبقا لذلك قام الفيلق العربي في اليوم التاسع والعشرين من شهر حزيران ١٩٤١ باحتلال «سخنة»[15] لتغطية «قوة الحبانية» ضد الفرنسيين من حلب حتى دير الزور، غير انه لم تتم رؤية اي شيء!

وفي حدود السابعة والنصف من صباح اليوم الاول من شهر تموز سنة ١٩٤١. شوهد رتل من السيارات كان يقترب من ناحية الشرق، وكنت اقف في موضعنا على نشز حصوي مع ثلاثين من رجالنا وسياراتنا المصفحة (التي كانت من صنع الاردن). اما بقية رجالنا فقد تحركوا الى الوادي الصغير الذي يقع وراء يميننا، حيث اوقدت النار من الحطب لاعداد الشاي وطعام الفطور.

وعلى بعد حوالي خمسمائة يرد هنا توقف ذلك الرتل وهبط مشاة العدو من سياراتهم واضطجعوا على الارض. لقد كانت تلك غلطة مهلكة. فقد كنا على الدوام نقاتل من سياراتنا، ذلك لان كل رجل يمشي على قدميه ويحمل بندقية، في صحراء مكشوفة لامجال الى مساعدته.
انبأت سياراتنا المصفحة والثلاثين من رجالنا، بان يتمسكوا بالنشز الذي كنا فيه. ومن ثم اندفعت انا نفسي لكي اجمع سياراتنا التي تحمل الرشاشات، وكنت اقصد من وراء ذلك، بان اجعلها حول جناح العدو والاحاطة به. ومع ذلك فان رجال

---

(١٤) هي المحطة الثالثة من محطات الضخ على الانبوب الذي كان ينقل النفط العراقي الى ميناء حيفا وتقع هذه المحطة داخل الحدود العراقية. ولقد عطل العمل بهذا الخط نهائيا بعد حرب سنة ١٩٤٨ بين العرب واليهود والتي ادت الى قيام دولة اسرائيل بتظافر كل قوى الاستعمار في العالم شرقية وغربية، وتخاذل الحكومات العربية وارتباطها الوثيق بالدول الاستعمارية وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا وامريكا.
(١٥) تقع على مفرق الطرق الممتدة من تدمر الى دير الزور والى الرطبة

مشاتنا الثلاثين وسياراتنا المصفحة الثلاث،قد نفد صبرهم فلم ينتظروا،وانما اندفعوا الى امام واطبقوا على مشاة العدو.وحين ظهرتُ بالسيارات خلف جناح العدو،كانت سيارات العدو قد اسرعت كلها بالهرب. وفي صولة بسرعة ستين ميلا في الساعة اقتحمنا مواقع العدو،واحطنا بكل سياراته. كانت تلك الوحدة العسكرية تؤلف السرية الخفيفة الثانية من الحامية الفرنسية في دير الزور.

القينا القبض على ثلاثين من الضباط الفرنسيين وثمانين من السوريين والصنوف الاخرى، واستولينا على ثلاث سيارات مصفحة،واثنتي عشرة رشاشة،وبذلك لم يقع المزيد من الغارات على مواصلاتنا.

وبعد ذلك الحادث بيومين استسلمت مدينة تدمر. وفي اليوم الحادي عشر من شهر تموز سنة ١٩٤١ استسلمت حكومة فيشي الفرنسية في سوريا،وهرب الالمان عائدين الى اوربا.وفي الوقت الذي كانت فيه حكومة فيشي الفرنسية تقاتل ضدنا. كانت هناك قوة من فرنسا الديغولية(١٦) تقاتل الى اعلى من دمشق مع البريطانيين. وحين استسلمت حكومة فيشي تولى الفرنسيون الديغوليون السيطرة على سوريا وقد انضم معظم الفرنسيين الفيشيين الى الديغوليين،غير ان قلة منهم عادت الى فرنسا.

في مجرى هذه العمليات نمت روحية غير اعتيادية بين رجال الجيش البريطاني وافراد الفيلق العربي. ففي المراحل الاولى من الاستيلاء على تدمر،تم اسر وحدة استطلاع صغيرة تتألف من ستة رجال من افراد الفيلق العربي على ايدي الفرنسيين، وتم ارسالهم الى المؤخرة باعتبارهم اسرى حرب.

كان لدى الفرنسيين معتقلان لاسرى الحرب:احدهما للاسرى من الاردنيين، والآخر للاسرى من العرب. ومع ذلك فحين اكتشفت الصنوف الاخرى من الاسرى البريطانيين،ان بعض رجال من الفيلق العربي محتجزين في معتقل مختلف، فقد اضرب اولئك البريطانيون ورفضوا تناول الطعام،الا بعد ان يتم نقل رفاقهم من افراد الفيلق العربي الى ذات المعتقل الذي يقيم المعتقلون البريطانيون فيه.

وفي الوقت ذاته كان النازيون قد غزوا روسيا. كان الروس فقراء بالسلاح، ولذلك غدا من الامور الضرورية مساعدتهم بالاسلحة والذخائر.كان الطريق الرئيس لايصال هذه المساعدة يبدأ من ميناء حيفا الى بغداد، ومن هناك يجتاز ايران

---

(١٦) اي من قوات فرنسا الحرة التي كان يقودها الجنرال ديغول الذي تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية في اواخر الخمسينيات (٢٩ ايار ١٩٥٨) وطبق سياسة الجلاء عن المستعمرات الفرنسية وفي مقدمتها الجزائر وتونس والمغرب

الى الحدود الروسية.

ولقد اصبح الفيلق العربي مسؤولا عن سلامة خط المواصلات من حيفا الى الحدود الفارسية، وهي مسافة تبلغ حوالي سبعمائة ميل، وبمقدار المسافة تقريبا مابين وارشو ولندن!

قبل اشهر قلائل لم يكن الجيش البريطاني قد سمع بوجود الفيلق العربي اما الان فان القائد العام الجنرال ويفل، قد تساءل عما اذا يستطاع توسيع كتيبة الصحراء الالية الاردنية الى ست كتائب. وفي الوقت ذاته طلب «ويفل» انشاء سرايا مشاة ثابتة جهد المستطاع، وكان على هذه السرايا ان تحرس ميناء حيفا، ومستودعات السلاح، والذخيرة الخليفة في فلسطين والعراق، وعددا من المواقع على طريق الصحراء بين حيفا وبغداد.

لقد اشغلنا هذا التوسع المحموم في زمن الحرب اشغالا تاما، لانه كان يندر توفير اي من الاسلحة والسيارات. لقد عرضنا كتيبة للعمل في الصحراء[١٧] والاستدارة حول جناح «رومل» في الصحراء الغربية، وارسلنا جماعة متقدمة الى هناك، كانت قد تقدمت للعمل فقتل احد ضباطها واثنان من الصنوف الاخرى.

كسب الجنرال مونتغمري «معركة العلمين»[١٦] وتقدمت الجبهة نحو تونس ومن ثم عبرت البحر الى ايطاليا. تم تحذيرنا بانه قد يطلب الينا ارسال لواء الى اليونان، غير ان الالمان مالبثوا بعد ذلك ان انسحبوا من تلك البلاد.

* * *

طرت الى مقر القيادة العامة في القاهرة، لكي اعرض عليه بان يشارك الفيلق العربي في القتال في ايطاليا. غير اني انبئت بان اعظم قسم من المساعدة البريطانية والامريكية الى روسيا، كان يجري نقلها بطريق حيفا - بغداد. كذلك كانت سلامة خط انابيب النفط الى حيفا تعد من الامور الحيوية. ولذلك كان من الضروري ان نحتفظ بعدد كاف من القوات في الشرق الاوسط.

فلو ذهب الفيلق العربي الى اوربا، لتسلمت القوات البريطانية المسؤولية منه. ولذلك فان من الافضل ان نبعث بالقوات البريطانية الى اوربا، وان يبقى الفيلق العربي في البلاد العربية. لقد كان هذا الامر واضحا كل الوضوح، ولقد اذعنت بحزن

---

(١٧) وضع المارشال مونتغمري دراسة مكثفة عن معركة العلمين ترجمناها وقد صدرت مؤخراً.

على اساس الحقيقة القائلة بان الفيلق العربي لن ينال اكاليل اخرى من الغار في اوربا!

وفي الوقت ذاته تناثرت سرايا المشاة في الفيلق العربي في كل انحاء الشرق الاوسط، لكي تحمي الخط الرئيس للمواصلات الى روسيا، بالاضافة الى عدد لايحصى من المخازن والمستودعات التي تضم مخازن الاسلحة التي تقدر اقيامها بملايين كثيرة من الباونات.

ولكن هذه المهمة لم تكن تتناسب مع المرتب الضئيل الذي يتم دفعه الى القائمين بها. ففي كل ارجاء الشرق الاوسط كانت توجد عصابات من اللصوص والارهابيين مهيأة لسرقة الاسلحة. كان معظم الرجال يقومون بالحراسة ليلا ولمدة سبع ليال في الاسبوع، ومع ذلك فانهم كانوا اثناء النهار على الدوام عفيفين طاهرين، يعكفون على تلميع احزمتهم وابازيمها وتثقيبها، اشبه بما يفعله الحراس الذين يقذفون القنابل اليدوية.

وفي خلال الحرب كلها، واذ كانت وحدات الفيلق العربي موزعة في كل انحاء الشرق الاوسط، لم تظهر الى النور حتى ولا حالة جدية واحدة من حالات سوء التصرف، ولم اسمع عن اي جيش آخر انه كان بريئاً من حالات السكر الشديد، او الاغتصاب والرشوة وسوء السلوك. ففي اثناء الحرب كلها لم يذكر واحد من امثال هذه القضايا ضد حتى رجل واحد من رجال الفيلق العربي.

بهذه الوسائل تم تحويل الفيلق العربي الى جيش مخلص بغض النظر عن العادات او الطوائف. لقد كنت اشير دائما الى واجبنا ازاء الله، في كل الخطب التي كنت اوجهها الى المجندين، او وحدات هذا الجيش. ولقد كانت هذه الطريقة اكثر نجاحا من اية اثارة للروح العسكرية. وفي اي مستوى مع امثال هؤلاء الرجال البسطاء من امثال سكان القرى والبدو في الاردن، لم يظهر لي بان اي دين بل اية طائفة تستطيع ان تزعم بانها وحدها تحتكر رحمة الله، ذلك لأن امثال هذه الادعاءات انما تعود في الاصل الى ضيق تفكير الانسان.

* * *

في اليوم الثامن من شهر حزيران سنة ١٩٤٦ شارك فريق من الفيلق العربي في مسيرة النصر، في شوارع لندن. وما ان هبط هذا الفريق الى قاعدة التحية في ممر

«مال»[١٨] حتى ارتفعت عاصفة من الهتافات من لدن الحشود التي كانت تراقب العرض،حيث انطلقت الاصوات «حسنا ايها الفيلق العربي!» انه عمل حسن ايها الفيلق العربي »،وكانت هذه الاصوات قد انطلقت من قبل بعض الجنود الانكليز القدامى،الذين كانوا قد خدموا دون شك مع افراد الفيلق في السهول العاصفة المتربة في الشرق الاوسط.

قليل من البريطانيين يمكن ان يتذكروا الآن بان شرقي الاردن هي البلد الوحيد المستقل خارج نطاق «الكومنولث»[١٩] والذي وفر الجند الذين حاربوا الى جانب الجيش البريطاني،منذ بداية الحرب العالمية الثانية حتى نهايتها.

وفي شهر شباط سنة ١٩٤٦ قام الامير عبدالله بزيارة الى انكلترا،واجرى مفاوضات بشأن عقد معاهدة جديدة مع بريطانيا،تم بموجبها الغاء الانتداب،فاصبح شرقي الاردن دولة مستقلة،وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر ايار سنة ١٩٤٦ اجازت الجمعية التشريعية في شرقي الاردن،قانونا عدلت به الدستور من امارة الى مملكة . وعند ظهر ذلك اليوم استعرض الملك عبدالله، الفيلق العربي في عرض احتفالي عند مطار عمان.

كان ذلك اليوم بالغ الحماسة والسعادة،ولم نكن نعرف سوى الشيء الضئيل مما يخبئه القدر لنا. ومع ذلك، وفي الوقت ذاته فلم نستطع، انا وروزميري، ان نتفادى احدى المآسي الا من مخرج ضيق . لقد كانت روزميري ترقد في سريرها بعد اصابتها بهجمة من «الانفلونزا»،وفي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر انفجرت قنبلة موقوته تحت نافذة مخزن المؤونة في دارنا،والذي يقع في الطابق الارضي.

حطم الانفجار زجاج النافذة عبر الغرفة وغطى الجدار المقابل لها بشظاياه وكان من حسن الحظ ان كانت «روزميري» مستلقية على سريرها وظهرها الى النافذة وقد امتلأ شعرها برذاذ من الزجاج، ولو كانت ترقد على جانبها الآخر لتلقت الشظايا في وجهها،ولربما اصيبت بالعمى لقاء ذلك.

افادت الشرطة بان القنبلة الموقوتة كانت قد زرعت اثناء الليل من قبل شاب من دمشق كان يستهدف المعاهدة البريطانية الاردنية الجديدة،وفي الوقت الذي انفجرت فيه القنبلة كان ذلك الشاب قد عبر الحدود الى داخل الاراضي السورية.

MALL(١٨)

(١٩) الكومنولث COMMONWEATH اصطلاح يعني «الثروة المشتركة» اطلق على المستعمرات السابقة لبريطانيا والتي بقيت حتى بعد استقلالها ترتبط بروابط كثيرة مع بريطانيا وعلى راسها الهند واستراليا وكندا وغيرها.

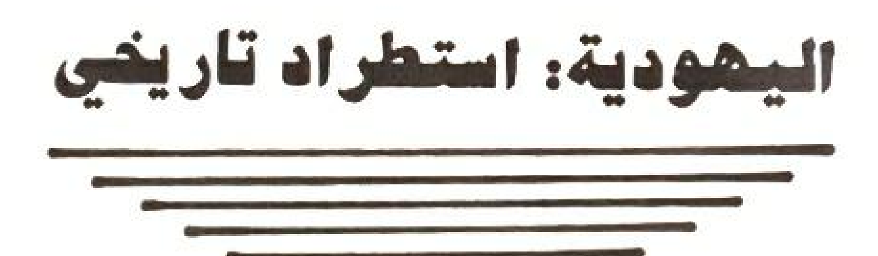
ومع انه لم يكن لدينا ارتباط رسمي بحكومة فلسطين،الا اننا كنا غالبا نزور القدس خلال سني الانتداب. كان هناك احساس روحي مفرح يتعلق بالمدينة المقدسة،ذلك انه تحت سيطرة دولة خارجية،يمكن للاديان ان تختلط معا ويتم احترام اماكن العبادة،وان يستمتع كل واحد بالجو الروحي الذي كان يغمر المنطقة كلها.

وماان انتهى الانتداب حتى غدت المدينة المقدسة مرة اخرى مدينة ممزقة نتيجة التطرف واراقة لدماء. ومع كل ذلك فما زالت سنوات السلام في القدس تؤلف في مخيلتي ذكرى عطرة. إن أنا نسيتك ياقدس فلتنسى ذراعي اليمنى براعتها!.



الفصل الثالث عشر

اليهودية: استطراد تاريخي



ماالذي فعلته الحكومات العربية في ايار ١٩٤٨؟

في حدود سنة ١٢٥٠ قبل الميلاد، قامت قبيلة بدوية عرفت باسم «بني اسرائيل» او «اطفال اسرائيل» بغزو «بلاد كنعان» اي فلسطين الحديثة. كانت بلاد كنعان ذات حضارة واستقرار لعدة الاف من السنين، في الوقت الذي كان فيه الاسرائيليون من افراد القبائل الساذجة الجاهلة الذين كانوا يرعون الماشية في دلتا النيل.

واذاقدم الاسرائيليون والغزاة على ذبح سكان «اريحا» والمدن الاخرى، فقد دانت لهم المدن والقرى القائمة على امتـ..داد سلسلة الجبال الممتـدة من مدينـة الخليل الى الجليل. وفي الوقت ذاته كان الفلسطينيون، وهم اناس من بحر «ايجة» قد هبطوا الى السهل الساحلي وافتتحوه، وحصروا الاسرائيليـين في الجبال.

ولما كان الاسرائيليون من البدو سكنة الخيام فانهم لم يألفوا السكن في المدن، ولا الفوا الزراعة ايضا، وانما اصبحوا مجرد اقطاعيين كانوا يجمعون الجزية من اصحاب الارض.

واذ لم يكن هناك في ذلك الوقت جيش امبراطوري منظم، فقد كانت المدن والقرى عديمة الجدوى، ذلك لان اية قبيلة بدويـة تستطيـع ان تتحرك في وحـدة منفردة، بخيامها وقطعانها، وان تستولي على المدن والقرى، الواحدة تلو الاخرى، وان تذبح

(١) اسهب المؤلف كثيرا في هذا الفصل، ولذلك فقد اعتمدنا النقاط الاساسية المهمة فيه وان نبين بكل جلاءان من اطلقوا على انفسهم «بني اسرائيل» لم يكونوا من فلسطين اصلا، بل غزاة عتاة اقتحموا فلسطين واستعبدوا اهلها، ونهبوا خيراتها تماما، مثلما فعله ويفعله الان شذاذ الافاق الذين اقاموا لهم دولة في فلسطين سموها دولة اسرائيل.

سكانها. وتلك عملية كانت تتكرر دوما في المناطق التي كانت تقع على حدود الصحراء، في فلسطين، وفي سوريا او العراق.

ان الاعتقاد بان شعب كنعان، بعد عصر «يوشع»(٢) كان كله من الاسرائيليين، اعتقاد ينطوي على خطأ جسيم. ذلك لان الاسرائيليين كانوا من البدو الغزاة الذين فرضوا انفسهم على شعب متحضر نسبياً، واجبروه على ان يدفع الجزية لهم. ولذلك فان الاسرائيليين قد وزعوا البلاد فيما بين قبائلهم ليس بصفة مالكين للارض، وانما محض اقطاعيين ليس الا. كان عدد الاسرائيليين الذين غزوا بلاد كنعان، يبلغ حوالي خمسة عشر الف نفر، وكانوا يستقون الماء من بئر واحدة. وانني اعرف هذه البئر معرفة جيدة، وقد بنيت حصناً عندها. ان خمسة عشر الف نفر، يفوق العدد الذي يمكن ان يرتوي من تلك البئر.

ولقد الفت انا بصفة مماثلة تلك الظاهرة تماما في العراق. ذلك لانه في بداية القرن السابع عشر الميلادي، استطاعت احدى القبائل البدوية القادمة من الصحراء، واعني بها قبيلة «المنتفق» ان تفتتح كل اقاليم القسم الادنى من العراق.

ولقد بقي البدو لمدة اربعمائة سنة، يعيشون في خيامهم الواسعة، ولا يساهمون ابداً لا في حياة المدن او العمل فيها، ولا يمارسون الزراعة، وانما كانوا يؤلفون طبقة من الشيوخ المحاربين الذين يعيشون على الجزية التي يدفعها المواطنون المحليون لهم، وكانوا يمارسون ذات العملية حين وصلت الى تلك المنطقة في سنة **١٩٢٣**.

وبذات الطريقة كان الاسرائيليون الذين غزوا بلاد كنعان وسكنوها، يمثلون الاقطاعيين المحاربين، في الوقت الذي كان فيه سكان البلاد الاصليون يواصلون اعمالهم المعتادة مثلما اعتادوا ان يفعلوا ذلك طيلة سبعة آلاف سنة.

لست اعتقد اطلاقاً بان الاسرائيليين كانوا يؤلفون السكان الوحيدين في فلسطين، او انهم كانوا يؤلفون الاكثرية بين اولئك السكان. فهناك مقطع في «سفر صموئيل» يجسد الروحية البدوية المتغطرسة لدى الاسرائيليين. ففي ذلك المقطع يقول الههم «يهوه» متسائلا: أأنت الذي سوف تبني بيتا اسكن فيه؟ انني لم امكث في بيت منذ اليوم الذي جلبت فيه الاسرائيليين من مصر حتى هذا اليوم، وانما كنت احيا حياة التشرد في خيمة!

---

(٢) يوشع Joshwa احد انبياء بني اسرائيل، وهو الذي ورد اسمه في القرآن الكريم بأسم «اليسع» وهو الذي تزعم البدو اليهود الذين اقتحموا بلاد كنعان واستولوا عليها.

ولقد اخطأ الذين اقدموا على ترجمة «التوراة» حين ترجموا كلمة «يهوه» بانه يقصد به الاله الحاكم، وبذلك اعطوا انطباعاً بان «يهوه» هو الذي خلق الكون. والحقيقة ان «يهوه» كان الهاً للاسرائيليين الذين كانوا يعتقدون بان لكل قبيلة آله خاص بها، مثل استارتي[3] الهة الصيدناويين، و «تشيموس» اله «الموابيين» و «ملكوم» اله «العمونيين».'

وعلى هذا فلم يكن خالق الكون هو الذي اختار بني اسرائيل. ذلك لان ما اتصف به الاسرائيليون من وحشية، وان اخلاقهم البدائية القائمة على ارتكاب المذابح، والرشوة، والقتل، واراقة الدماء، والكذب، حتى في ايام النبي داود، ان هذه الصفات والاخلاق لم تكن من صفات خالق الكون، ولاعلاقة لها به ابدا، ذلك لان اله الكون هو المعروف لدينا بانه آله المحبة!..

في سنة ٧٢٤ قبل الميلاد، غزا الاشوريون، البلاد التي احتلها الاسرائيليون، فنقلوا القبائل العشر التي تملكت تلك البلاد، اسرى، واسكنوهم في القسم الشمالي من العراق، حيث لم يعودوا الى فلسطين ابداً[4]. ولم يتم ترحيل الكنعانيين عن بلادهم، وانما تمت ازاحة الطبقة الحاكمة المؤلفة من الاقطاعيين البدو الذين عرفوا باسم «بني اسرائيل».

وفي سنة ٥٨٧ قبل الميلاد، اجتاح البابليون مملكة يهودا وجاءوا بالطبقة البدوية الحاكمة من بني اسرائيل، اسرى الى بابل[5]. ولم يكن قصد الآشوريين والبابليين من تلك الفتوحات تحويل السكان الى ارقاء، وانما تم نقلهم للحيلولة دون نشوء قوميات

---

(٣) هي المعروفة باسم «عشتار» و «عشتروت».

(٤) هذا هو السبي الاول الذي قام به سرجون الثاني ملك اشور (٧٢٢ ـ ٧٠٥) ق. م حيث نقل ٢٩٠ /٢٧ شخصا من سكان «السامرة» الى المناطق الجبلية في آشور، واعقب ذلك قيام سنحاريب بغزو ما عرفت باسم مملكة يهوذا في فلسطين. وقد شتت اولئك اليهود الذين سباهم الاشوريون في شمالي العراق، وتركيا وايران. ويرى كثير من الباحثين ان هؤلاء اليهود المسبيين اعتنقوا الديانة المسيحية. وكانت حملات السبي الاشورية ثلاث حصلت على يد «تغلات بلصر» الثالث (٧٣٢ ق . م . م) وسرجون الثاني (٧٢٢ ق. م .) وسنحاريب (٧٠١ ق . م .) اما الذين سبو الى ايران فقد اسكنوا في همذان وماجاورها وقيل نهاوند وما جاورها. وقد اشتهرت المنطقة التي تركز فيها اليهود المسبيون في شمالي العراق باسم «امارة حدياب» التي كانت تمتد من اربيل الى نصيبين والخابور وبحيرة اورميا، وكانت اربيل قاعدتها.

(٥) هذا هو السبي الثاني الذي حدث في عهد بختنصر ملك بابل العظيم من الاسرة البابلية الجديدة الحاكمة. فقد قام نبوخذ نصر الثاني «بختصر» في سنة ٥٩٧ ق . م. بغزو مملكة يهوذا وحاصر اورشليم القدس واسقطها وسبى سكان القدس، وكل الصناع واصحاب الحرف وجاء بهم الى بابل. ثم كرر نبوخذ نصر حملته في سنة ٥٨٧ ق . م . فجاء بالسبي الجديد الى بابل وفيه بعض حكماء اليهود وانبياؤهم ومن بابل زحف اليهود المسبيون الى الانحاء الجنوبية والوسطى من العراق.

عنصرية محلية، ولهذا فان الاشوريين والبابليين قد نقلوا الطبقة المحاربة للسلطة وليس سكان البلاد الاعتياديين. تم توطين اليهود الذين سبوا من فلسطين في القسم الادنى من العراق، وسرعان ما اصبحوا من الاثرياء القانعين بالبقاء في البلاد[٦]

بعد فتح دولة بابل، لمملكة يهوذا باربعين سنة، استولى «كورش» الفارسي، على بابل، وسمح لليهود بالعودة الى فلسطين[٧]. غير انه لم تعد الى فلسطين سوى اقلية ضئيلة من اولئك اليهود، اما الاكثرية فانها بقيت في بابل حتى ايامنا الاخيرة[٨].

كانت قد مضت سبعمائة سنة على الغزو الذي قام به «يوشع». كما كان من نتائج الغزو البابلي لفلسطين، ان تفرق سكان منطقة اليهودية في البلاد المجاورة، من امثال مصر وشمال افريقيا وآسيا الصغرى[٩]، وفي خلال الخمسمائة وثمانين سنة من الغزو البابلي حتى ظهور المسيح، اجرى اليهوذيون عددا من التغييرات في مصر، وفي شمالي افريقيا، وآسيا الصغرى، واوربا. فقد كتب الجغرافي اليوناني الروماني «سترابو» (الذي ولد سنة ٦٣ ق. م.) يقول في السنة السابعة والثمانين قبل الميلاد «كان يصعب وجود مكان في العالم لايضم طائفة كبيرة وذات نفوذ من اليهوذيين».

وفي الوقت الذي كانت فيه الديانة اليهودية قد انتشرت في كل انحاء عالم البحر المتوسط، فان «نحميا»[١٠] الذي كان يحمل كأس اردشير الاول ملك فارس، قد تم تعيينه من قبل سيده اردشير هذا، ملكا على منطقة اليهودية ذاتها، في حدود سنة اربعمائة واربعين قبل الميلاد.

كذلك عين ملك فارس في سنة ٣٩٧ ق. م. «عزرا» حاكما، فدشن هذا عمله

---

(٦) اندفع اليهود بعد حلولهم في العراق الى ممارسة اعمال الزراعة، على خلاف ما كانوا عليه حين غزوا بلاد كنعان، وزادوا على ذلك بالتسلط على مقومات التجارة، وتطبيق الربا لكسب ارباح الحرام الطائلة، من امثال بيت «موراشيو» في اريدو، وغيره من البيوتات الاخرى في مملكة بابل (انظر كتابنا: العراق القديم طبعة اولى ١٩٧٦ والثانية ١٩٨٦).

(٧) سمح كورش لليهود، وفيهم حكماؤهم وانبياؤهم بالعودة الى فلسطين مكافأة لهم على تعاونهم معه في اقتحام بابل وتدميرها (انظر كتابنا من قصص الجاسوسية في البلاد العربية طبعة اولى ١٩٨٦)

(٨) بعد ان حققت بريطانيا والدول الاستعمارية الاخرى، وبخيانة الحكومات العربية في سنة ١٩٤٨، انشاء دولة اسرائيل، تم اكمال المؤامرة بالسماح ليهود البلاد العربية بالتخلي عن جنسيتهم لتلك البلاد، والذهاب الى اسرائيل ليقدموا لها الدعم بالمال والرجال والسلاح في سنة ١٩٥٠ وما بعدها.

(٩) منطقة اليهودية Judea هي التي عرفت باسم اليهودية، او مملكة يهوذا واليها ينسب اليهوذيون او اليهود. وكان الذين وصلوا الى اسيا الصغرى من اليهودية قد استقروا عند بحر «الخزر» في اقليم «ابيجان» ومازال خلفاؤهم يعيشون هناك حتى الآن، ويتزعمون حملة هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي الى فلسطين المحتلة

(١٠) نحميا بعده اليهود واحدا من انبيائهم، وكان يخدم اردشير الاخميني بسقيه الخمر، ويغريه بالاعتماد على اليهود في حملاته التوسعية ضد العراق وغيره من البلدان العربية، كما هو الآن حال الطغمة الخمينية الحاقدة المعتدية المتحالفة علانية مع اسرائيل.

بان فصل اليهود عن بقية اصناف العنصر البشري . وتلا ذلك، ان حكام «اليهودية» قد اتخذوا لهم منذ حوالي سنة ٣٩٧ ق.م . وما بعدها، نهجا جديدا وذلك باقامة طائفة متطرفة ضيقة التفكير.

***

ولقد ذكر بانه حين حدوث حرب التحرير الاسلامي لفلسطين في السنوات ٦٣٣ - ٦٣٨ م، كان يوجد في فلسطين حوالي مائتي الف شخص يطبقون تعاليم «يهوذا». وقد تناقص هذا العدد، بعد ذلك بسنوات قليلة، الى حوالي مائة الف شخص ليس الا. ولم يقض المسلمون على الأديان ابداً، وانما كان كل من ينطق بالشهادة، ويعلن «اشهد ان لا اله الا الله، وان محمداً رسول الله» يتم قبوله بصفة تلقائية، وكأنه واحد من العرب.

بعد مرور ثمانمائة سنة على ظهور المسيح، كانت الدول المتنافسة على السيادة، تتمثل في الامبراطورية البيزنطية، وعاصمتها اسطنبول، والخلافة الاسلامية في بغداد. وكان الاتصال بين الدولتين، يتم عن طريق مملكة «الخزر» القوية التي كانت تقوم على نهر «الفولغا» شمالي البحر الاسود، والقفقاس.

كان سكان الخزر من اصل تركي، وكان البيزنطيون والمسلمون معا، يتطلعون الى التحالف معهم. وفي الوقت ذاته كان الخزريون يدينون بدين «سمعان»[11] الذي كانوا يخجلون منه. وكانوا يخشون ان هم اصبحوا مسيحيين فلسوف يصبحون اتباعا للقسطنطينية، وان هم اعتنقوا الاسلام، ان يصبحوا تابعين لبغداد، ولذلك قرر «الخان» الاكبر للخزر ان يعتنق اليهودية

غير ان مملكة الخزر ما لبثت ان تعرضت، في القرن العاشر الميلادي، لأعظم غزو بربري جاءها من ناحية الشرق، ولذلك تفرق سكان الخزر في هنغاريا، وبولندا، حاملين معهم العقيدة اليهودية، وعلى هذا الاساس امتلأت اوربا الشرقية باعداد كبيرة من اليهود، من اصل تركي، وسلافي، مع ان هؤلاء اليهود لم يكونوا متحدرين من بني اسرائيل القدامى.

---

(١١) Shaman نسبة الى شمعون او سمعان احد اسباط اسرائيل الاثني عشر. وكان سمعان هذا ابن يعقوب، ابن اسحق، يسكن في جنوبي فلسطين وواضح ان وجود الطائفة اليهودية الكبيرة في مملكة الخزر هي التي اقنعت «خان» الخزر باعتناق اليهودية بدلا من المسيحية او الاسلام. وقد اطلقت كلمة «الاسباط» على العشائر الاسرائيلية التي تاهت بعد خروجها من مصر بقيادة النبي موسى واخيه هارون

اطلق على اليهود الذين سكنوا غربي آسيا وشمالي افريقيا اسم «السفرديين»[١٢] في حين سمي المتحدرون من الخزريين باسم «الاشقنازيين» او الاشكناز[١٣].

* * *

ظهرت الصهيونية اصلا في روسيا، وكانت تطالب بالعودة الى جبل صهيون. ومع ان يهود روسيا كانوا من الاشقنازيين، ومن يهود شرقي اوربا. فانهم لم يكونوا يعرفون فلسطين لانهم كانوا متحدرين من الخزريين الاتراك.

عقد اول مؤتمر للصهيونية في سنة ١٨٩٧ في مدينة «بازل» بسويسرا، بتوجيه من «تيودور هرتسل»، واعلن ان هدفه هو ايجاد وطن لليهود في فلسطين. ولسوف يتبين، فيما بعد ان ما اطلق عليه اسم «الشعب اليهودي» لم يكن في الواقع قد تحدر من طوائف او فروع عرقية حتى وان كانت متعددة، ذلك لان التأثير الذي يوحد بين اليهود هو تأثير ديني مفرد ليس الا.

استفادت الصهيونية من الحرب العالمية الاولى، حيث حصلت من بريطانيا على بيان مبهم، عرف باسم «وعد بلفور» كان ينص على رأي الحكومة البريطانية في تأييد اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. ليس مستطاعا في الوقت الحاضر ايجاد حل للقضية اليهودية، وذلك لان اليهود الغربيين كانوا قد نزحوا من مصر، ومن شمالي افريقيا، ومن اوربا الغربية. اما يهود اوربا الشرقية فليست لهم اية علاقة بفلسطين.

كان الاضطهاد الذي مارسه «هتلر» هو الذي دفع باعداد كبيرة من اليهود الى الهرب الى فلسطين، حيث شرعوا يشقون طريقهم هناك، بطرد اكبر عدد ممكن من السكان العرب في فلسطين[١٤].

---

(١٢) Sephardic

(١٣) Askenazis

(١٤) كان هتلر في الواقع، ورغم تظاهره بالعداء ضد اليهود، واضطهادهم، اداة خطيرة بيد الحركتين اليهوديتين اصلا وهما الماسونية والصهيونية. فقد كانت اضطهادات هتلر لليهود في اوربا، هي التي جعلت الصهاينة والماسونيين وكل اتباعهما من الفصائل الاخرى، يستميتون في التخطيط لغزو فلسطين وتحويلها الى موطن ومقر للصهيونية العالمية.

اذكر بهذه المناسبة انني كنت اتحدث ذات مرة في بغداد في حدود سنة ١٩٥٠ الى احدى اليهوديات التي كانت تدعي «الادب والكتابة» وتؤلف الكتب، عن موضوع قيام دولة اسرائيل في فلسطين، فسألتني عمن اعتقد بانه يستحق التقدير من قبل دولة اسرائيل؟ واذ اخفقت في الجواب قالت «ان هتلر هو الذي يستحق التقدير العظيم، وان يخلد اسمه باقامة تمثال له من الذهب في تل ابيب، لانه هو مؤسس دولة اسرائيل في الحقيقة

ان من المستحيل في الوقت الحاضر ان نأخذ بالشعارات التي تقول بان «العربي» و «اليهودي» متحدران من شعب واحد!، كان يحمل هذين الاسمين قبل الف او الفي سنة خلت.

***

بعد الحرب العالمية الثانية التحم المهاجرون اليهود في فلسطين، في حملة من الارهاب ضد الجنود والموظفين البريطانيين، وكان كثيرون منهم قد قتلوا (١٥). ومع ان بريطانيا هي التي اصدرت وعد بلفور ويسرت هجرة اليهود الى فلسطين، فان الارهابيين اليهود كانوا يتهمون بريطانيا بانها دولة استعمارية تحتل «ارض اسرائيل»!!

لم تكن الدول العربية، مصر وسوريا، والعراق، جادة في الموضوع تماما(١٦) فقد كانت سوريا قد اعلنت استقلالها في ذلك الوقت، قبل ان يتوفر لديها الوقت لاقامة حكومة او جيش لها، كما ان اياً من تلك الدول لم يكن لديها اي مفهوم (مثلما كان لدينا نحن في شرقي الاردن) عن القوة والتنظيم اللذين اصابهما اليهود في فلسطين. كذلك كان معظم العرب، يتصورون اليهود محض متكسبين او اصحاب حوانيت(١٧).

وفي مثل هذه الاوضاع كان كل واحد يطالب بجلاء بريطانيا عن فلسطين. فقد طالب يهود الولايات المتحدة الامريكية بذلك الجلاء وبدعم واضح من لدن الحكومة الامريكية، كذلك طالب العرب بالجلاء البريطاني لانهم لايريدون ان يشيع الاضطراب في الموضوع. وكانت بريطانيا التي انهكتها الحرب العالمية الثانية، قد جوبهت بطلب جماعي للجلاء عن فلسطين، ولاول مرة كانت كل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي تتحدثان عن اتفاق وبصوت واحد.

لقد فعلت الدولتان الامريكية والسوفيتية ذلك لاسباب مختلفة. لقد كان رئيس الولايات المتحدة الامريكية «هاري . س . ترومان» يتلهف الى ان يضمن الدعم

---

(١٥) كان كل ذلك قد جرى بتدبير مع السلطات البريطانية، لكي تتخذ بريطانيا من هذا الارهاب المفتعل حجة للانسحاب من فلسطين والتخلي عن كل مؤسساتها فيها الى المنظمات اليهودية الارهابية والتعجيل في اقامة دولة اسرائيل.

(١٦) كانت كل الحكومات العربية في ذلك الوقت خاضعة خضوعاً شنيعا للاستعمارين الانكليزي والفرنسي، بصفة خاصة، وتجهل كل الوسائل التي كانت الصهيونية العالمية تستخدمها لاحتلال فلسطين وطرد سكانها العرب منها، واحلال اليهود فيها، ولهذا فحين اعلنت الجامعة العربية عن ارسال جيوشها الى فلسطين، لم تكن تلك الجيوش كبيرة ولا منظمة وغير مزودة بالاسلحة، وغير متحمسة لقتال اليهود ماعدا الجيش العراقي، الذي حالت القيادة الواهنة التي انشئت لتلك الجيوش دون قيامه بواجبه

(١٧) لقد كان الاعتقاد السائد لدى الشعب العربي في كافة اقطاره حتى الى وقت متأخر بان اليهود ضعفاء لايعرفون القوة ولا استخدام السلاح وليست لديهم الشجاعة في خوض الحروب

اليهودي لاعادة انتخابه، في حين فعل الروس ذلك، لان الشرق الاوسط كان منذ زمن بعيد، منطقة نفوذ غربية. وليس هناك ادنى شك في ان السوفييت كانوا يرون بان جلاء بريطانيا عن فلسطين سوف يؤدي الى الفوضى والحرب الاهلية، التي قد يحصد الروس منها بعض المنافع، كما انهم في الوقت ذاته لن يفقدوا اي شيء في اية حال من الاحوال.

وطبقاً لذلك انبأت بريطانيا، منظمة الامم المتحدة بانهاء انتدابها على فلسطين، وان ذلك سوف يتم في اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة ١٩٤٨. وبعد تأليف لجان كثيرة، ومرور فترة من التآمر الشديد في نيويورك، اقرت منظمة الامم المتحدة خطة لتقسيم فلسطين. كانت الخطة التي تعطى اقاليم لليهود، واخرى للعرب في مناطق متشابكة، نقول كانت هذه الخطة غير قابلة للتطبيق بصفة عملية. فقد تقرر ان تكون منطقة «القدس» منطقة دولية تديرها منظمة الامم المتحدة، تلك المنظمة التي لم تعهد الى تعيين موظفين او شرطة للسيطرة على المنطقة.

***

قبل ان ينتهي الانتداب على فلسطين بشهرين كان «توفيق باشا»[١٨] رئيس وزراء الاردن، قد ذهب الى لندن واصطحبني معه. اجرينا حديثا مع وزير الخارجية «ارنست بيفن» كنت انا الذي اقوم بترجمته. لقد قال توفيق ان الانتداب البريطاني على فلسطين يوشك ان ينتهي، وقد اصبح لليهود حكومة وجيش على اتم الاستعداد. اما عرب فلسطين فليس لديهم اي شيء من هذا القبيل، وانما يتطلعون الى شرق الاردن على ان تساعدهم. ما هو رأي الحكومة البريطانية يا ترى اذا ماعبر الفيلق العربي الى المناطق التي خصصت للعرب في فلسطين بقصد مساعدتهم؟

هنا اجاب «بيفن» يقول (يبدو ان من الواضح ان تفعلوا ذلك، لكن على شرط ان لاتدخلوا الى اية منطقة خصصت للدولة اليهودية) ثم اضاف «بيفن» الى ذلك قوله «اننا نستطيع ان نساعد في تطبيق خطة الامم المتحدة، ولكن ليس في احوال نصبح فيها ضد تلك الخطة. ففي الوقت الحاضر لاتوجد لدينا اية فكرة بان اي بلد عربي آخر سوف يتدخل في الموضوع».

---

(١٨) توفيق ابو الهدى

وطبقا لذلك وبمصادقة من الحكومة البريطانية، صممت حكومة شرقي الاردن على ان تساعد عرب فلسطين في الدفاع عن المناطق التي خصصت لهم في الضفة الغربية، والسامرة شمالي مدينة القدس،حالما ينتهي الانتداب[١٩] لم يكن من المتوقع حصول اي اصطدام مع اليهود الذين قبلوا بمشروع التقسيم الذي اقرته منظمة الامم المتحدة، وكان الملك «عبدالله» مستعداً للتوصل الى اتفاق مع اليهود على الاسس التي قام عليها مشروع الامم المتحدة.

لم تكن حكومة شرقي الاردن، تدرك بان «الوكالة اليهودية» انما قبلت بمشروع التقسيم، لكي تحقق بذلك انهاء الانتداب وجلاءبريطانيا عن فلسطين، وما ان غادر البريطانيون فلسطين، حتى اعدت الوكالة اليهودية، الخطة للاستيلاء على فلسطين برمتها.

ومع ذلك كان الجنرال «دارسي»[٢٠] آمر القوات البريطانية في فلسطين، مطلعاً تمام الاطلاع على هذه الخطة اليهودية، وكان يرى ان القوات اليهودية سوف تجتاح كل المناطق التي خصصت للعرب، والوصول الى حدود الاردن خلال اسبوع واحد ليس الا.

لقد كانت الحكومة الاردنية جد ساذجة في تفكيرها، وقد قبلت بالقيمة الظاهرية لموافقة اليهود على مشروع التقسيم، وطبقاً لذلك لم تكن حكومة شرقي الاردن تتوقع اية تعقيدات في الموضوع.

***

في اليوم الثالث عشر من شهر ايار سنة ١٩٤٨، وقبل يومين من موعد انهاء الانتداب على فلسطين، وصل عبد الرحمن عزام باشا الامين العام لجامعة الدول العربية الى عمان، وقد انبأنا بأن جامعة الدول العربية قررت ان تقاتل، وان الجيش المصري سوف يغزو فلسطين. قضى هذا الاعلان على مشروع الملك عبدالله

---

(١٩) لقد كان قصد الملك عبدالله من هذه الارض ان يمهد منذ البداية لضم القسم الذي خصص للعرب في فلسطين حسب مشروع التقسيم، الى شرقي الاردن، وقد تأكدت هذه النية بعد ان مد عبدالله يده الى الضفة الغربية فضمها الى مملكته ولم يلق سوى معارضة ظاهرية. ومع ذلك فاننا نقول بعد ان آلت كل فلسطين الى اليهود، كان من الافضل ان تضم تلك الاجزاء الى الاردن بدلا من ان يبتلعها الصهاينة ليقيموا عليها الاف المستوطنات ويجلبوا اليها الالوف من اليهود من كل انحاء العالم لتصبح اسرائيل بحق وحقيقة اقوى وانظم دولة الان. ولقد لعب الفلسطينيون انفسهم دورا بارزا في هذه النتيجة المؤلمة التي انتهت اليها فلسطين العربية، وعلى الاخص بعد ان سار بعض متزعمي الحركات الفلسطينية في ركاب بعض الانظمة العربية المشبوهة.

(٢٠) D'arcy

القاضي بالتوصل الى اتفاق مع الدولة اليهودية على اسس مشروع التقسيم (ومع ذلك فقد كنا في الواقع نعرف بان هذا المشروع لابد وان يتحقق، لان اليهود سبق لهم وان خططوا في اذهانهم، احتلال فلسطين كلها بقوة السلاح).

سأل عبد الرحمن عزام عن عدد القوات المتوفرة لدينا، فأنبأته بان لدينا ماعدا قوات الشرطة - حوالي اربعة الاف وخمسمائة نفر مابين ضابط وجندي. وقد علق على ذلك قائلاً «كنت اعتقد بان لديكم اكثر من هذا العدد بكثير!»(٢١)

ومن ثم سألني عزام باشا عن عدد اليهود فاجبته اقول «ربما ستين الف نفر، ولكن من مستويات مختلفة». ولقد اصابته الدهشة لدى سماعه ذلك فقال «لم اكن اعرف بان اليهود لديهم مثل هذا العدد الكبير!»

لقد تأثرت كثيرا بالحقيقة الواقعة وهي: ان الجامعة العربية قررت ان تخوض القتال، حتى من دون ان تسأل عن عدد الرجال لديها، او عن العدد الذي يؤلفه رجال العدو!.كان تدخل الجامعة العربية قد قلب كل خطط الملك عبدالله، رأسا على عقب، ومع كل ذلك قررت الحكومة الاردنية بان تنفذ ما اعتزمته من ارسال قواتها الى المناطق التي خصصت للعرب حسب مشروع التقسيم، وان لاتدخل الى اية بقعة خصصت للدولة اليهودية، كما حظر على الفيلق العربي حظراً شديداً دخول مدينة القدس، التي اعلنتها منظمة الامم المتحدة منطقة دولية.

انبأني توفيق ابو الهدى باننا اذا ما اشتركنا في المعركة ام لم نشترك فيها، فاننا لانتوقع ان نحصل على الاموال، ولذلك فان علينا ان نقاتل من دون ان نتجاوز في الصرف حدود ميزانيتنا التي اعدت زمن السلم.

كان مجموع القوات التي هيأتها جامعة الدول العربية يتألف كمايلي:

عشرة الاف نفر من مصر
أربعة آلاف وخمسمائة نفر الفيلق العربي
ثلاثة آلاف نفر من العراق
ثلاثة آلاف نفر من سوريا

---

(٢١) بهذه العقليات تفكر الحكومات العربية!! امين عام جامعة الدول العربية لايعرف اي شيء دقيق عن جيوش الدول العربية في ذلك الوقت ليس هذا حسب، بل لم تكن لدى اي جيش من الجيوش العربية آنذاك، حتى ولا خريطة عسكرية واحدة عن فلسطين، في الوقت الذي كان فيه اليهود يمتلكون معلومات دقيقة جدا عن كل جيش من الجيوش العربية ومقدار ما تملكه من سلاح وذخيرة ورجال، ناهيك عن نوايا كل بلد من البلدان التي شاركت في ارسال قواتها الى فلسطين. فقد كانت الاردن تحلم بضم القسم العربي اليها، وكانت مصر تتصور بانها سوف تسلخ «قطاع غزة». وكان العراق هو البلد الوحيد الذي كان يعتزم انقاذ فلسطين، ولكن تخاذل حكومته في ذلك الوقت وخضوعها للضغوط الاستعمارية هو الذي اكمل المؤامرة.

وحتى اذا ما اعتبرنا ان مجموع هذه القوات يبلغ عشرين الف وخمسمائة نفر، فان عدد القوات الاسرائيلية قد يقفز الى حوالي ستين الف نفر، وان هذا العدد يشمل كل صنف من الرجال يحملون السلاح!.

كانت القوة الرئيسة الضاربة لدى اليهود تتمثل في «البالماخ»(٢٢) التي تساوي عدد افراد الفيلق العربي تقريبا. وكان هناك لواء يهودي تدرب على القتال مع القوات البريطانيـــة في اوربا خلال الحرب العالمية الثانية، غير ان هذا اللواء لم يكن قد اشترك بعد في الواقع في اي قتال في فلسطين. والى جانب «البالماخ» تأتي «الهاغانا»(٢٣) وهي عبارة عن «ملشيات» كانت تتدرب جزئيا بصفة سرية. واخيرا هناك الحاميات المدنية اليهودية في المستعمرات اليهودية،والتي تم تسليحها للدفاع عن تلك المستعمرات.واضافة الى ذلك انفق اليهود مبالغ طائلة من الاموال. فكانت كل مستعمراتهم مزودة بالخنادق، والمراصد والاسلاك الشائكة، وحقول الالغام.وزيادة على ذلك فانهم انشأوا المعامل التي كانت تصنع الرشاشات وقنابل الرشاشات.

يجادل بعض الناس في القول بانه لما كان عدد اليهود اكثر كفاءة من عدد العرب الفلسطينيين، فان اليهود يستحقون ان يكون لهم وطن. ولكن امثال هؤلاء الناس انفسهم غالبا ما كانوا يعارضون «البيض» بشدة في جنوبي افريقيا، الذين لم تكن كفاءتهم المتفوقة قد منحتهم المبررات لان يسيطروا على تلك البلاد. والحقيقة ان الاعتداءات اليهودية في فلسطين، كانت مثالا نموذجيا للغازي الاوربي الذي يستولي على البلاد التي يسكنها سكانها الوطنيون.

وفي الوقت ذاته كانت هناك باخرة محملة بالذخيرة، تعبر قناة السويس الينا من قبل الجيش البريطاني، قد تم حجزها من قبل المصريين، وقد صودرت الذخيرة التي كانت فيها، وهكذا بقينا من دون اي احتياطي في السلاح لكي ندخل ولو في معركة واحدة ليس الا(٢٤).

كان الجيش البريطاني فيما سبق قد زودنا بالذخيرة، ولم يكن لدينا من المال ما نستطيع ان نبني به احتياطنا الخاص. وفي وسط هذه الانفعالات العنيفة، وانعدام

---

(٢٢) البالماخ Palmach تم تنظيم فصائل هذا الجيش الصهيوني على اساس فصائل الجيش الحضاري

(٢٣)

(٢٤) لم يكن المصريون في ذلك الوقت هم المشرفون الحقيقيون على قناة السويس حتى يحجزوا السفن التي تمر فيها ويصادروا حمولاتها.ذلك لان الامر كله كان بايدي الانكليز الذين كانوا يسيطرون سيطرة تامة على شؤون القناة وهم الذين احتجزوا تلك السفينة

الكفاءة الجماعية، وطغيان الحماقة، لم يكن امامي الا ان اركع واروح اصلي لله طالبا العون منه، لانني كنت احس بانني غير قادر اطلاقا على حل مثل هذه الفوضى.

اعتقد ان «دز رائيلي»[٢٥] هو الذي صرح ذات مرة يقول بان اليهود، من انشط الناس في العالم ولكنهم اقل حكمة. ذلك لان تصرف اليهود في سنة ١٩٤٨ كان عملا في صميم الموضوع. فقد جاءت هجرة اليهود الى فلسطين من المانيا، وبولندا، وروسيا، وكان كثيرون من بينهم من العلماء والاطباء، ورجال الاعمال، واصحاب مستوى من الثقافة الاوربية. وكانت تقف خلفهم، الثروة والقوة الهائلة التي يمتلكها اليهود في العالم، وعلى الاخص يهود الولايات المتحدة الامريكية.

فلو ان المهاجرين اليهود الى فلسطين، قد اظهروا صداقتهم وتحملهم نحو العرب في فلسطين اولاً، ومن ثم في العراق والجزيرة العربية ثانياً، لاستطاعوا ان يسيطروا على معظم الثروات، والاعمال، في الشرق الاوسط كله. فقبل ان يظهر «هتلر» كان اليهود يتمتعون بمركز بارز في ميدان الاعمال في المانيا، لانهم كانوا من المبرزين في ميدان المال والتجارة، وفي السيطرة على الوسط العام في الولايات المتحدة الامريكية. فاذا كانت فطنة اليهود في ميدان المال التجارة قد بوأتهم مثل هذه القوة في المانيا والولايات المتحدة الامريكية، فكيف يستطيع العرب ان يقاوموها اذا كان اليهود يمارسون تلك الفطنة ببراعة؟

لقد كان في مستطاع اليهود ان يسمحوا للعرب ان يحتفظوا بالمراكز الظاهرة للسلطة، في الوقت الذي يسيطر فيه اليهود، باعتبارهم رعايا للعرب، على الامور المالية والتجارية. ومع ان اليهود كانوا اذكياء تماماً، الا انه كانت تنقصهم الحكمة، بل انهم صمموا على امتلاك فلسطين بالقوة. فلقد اصر اليهود على ان يتصرفوا تصرف العناصر الفاتحة من الالمان والروس، الذين عانى اليهود الاضطهاد على أيديهم. وهكذا سيطر مركب النقص على اليهود المهاجرين الى فلسطين فراح يدفع بهم الى العنف.

***

---

(٢٥) Disraeli (١٨٠٤ - ١٨٨١) ابن لكاتب يهودي تحول الى النصرانية انتخب نائبا في البرلمان سنة ١٨٣٧ وكان من المحافظين المؤيدين لحركة انكلترا الفتاة وعارض قانون التجارة الحرة في سنة ١٨٥٢ اصبح امينا عاما للخزينة في السنوات ١٨٥٢ و١٨٥٨ - ١٨٥٩ وفي ١٨٦٧ ورئيسا لمجلس العموم ورئيسا للوزراء في سنة ١٨٦٨، وفي الفترة من ١٨٧٤ حتى ١٨٨٠ وكان هو المؤسس الثاني لحزب المحافظين وهو الذي مكن بريطانيا من شراء اسهم قناة السويس.

في الوقت الذي ادون فيه هذه السطور، هناك رسالة ملقاة على منضدتي، كنت قد تلقيتها من سيدة انكليزية تقول فيها «كلما يمضي الوقت يصبح الصهيونيون في فلسطين اكثر شدة وقسوة، فيروحون يعاملون الفلسطينيين في الاراضي المحتلة بذات الصفة التي كان النازيون يعاملون اليهود بها».

لست اعتقد بانه حتى يهود العالم يعرفون الوحشية التي يمارسها الصهاينة في فلسطين، وانهم يتغاضون عنها في الوقت الحاضر[٢٦] ولكن يهود العالم لم يتخذوا اي اجراء لمنع تلك الوحشية الصهيونية، في ذات الوقت الذي تنشط فيه العناصر الصهيونية المتطرفة التي تمسك بزمام الحكم الى احتكار وسائل الدعاية، وتعمد الى سحق من اصبحوا تابعين لهم بمنتهى العنف والقسوة.

انني مقتنع ان الحب «هو زيت التزييت» الذي يجعل الحياة تسير بنعومة وسعادة، ويبدو لي بانني جربت ذلك خلال الثماني عشرة سنة التي امضيتها في الاردن[٢٧]
ان اللغة الانكليزية مفتقرة كثيراً الى الكلمات التي تكون للحب فيها معاني كثيرة ويبدو لي بان الحب «تقليد شاحب» لموقف الله من الانسان، وهو الموقف الجماعي ازاء المنفعة. ومع ذلك فان الحب اكثر من ان يكون سياسة مهذبة، انه عاطفة شخصية دافئة

***

لقد وصلت وحيدا الى شرقي الاردن، ونجحت في انهاء غارات الغزو في الصحراء (بل وحتى عمال السرقة) من دون ان اطلق اطلاقة واحدة، او ان ابعث برجل واحد الى السجن. فالقبائل التي كانت قبلا من اشد اعداء الحكومة، قد غدت اكثر اخلاصا. فحتى قبائل جبل الدروز، وهم من الرعايا السوريين بصفة رسمية، كانوا يعبرون الى شرق الاردن، ويروحون يتوسلون بأن يتم تجنيدهم في الفليق العربي.

---

(٢٦) اننا نغاير تفكير المؤلف فنقول ان يهود العالم لم يتغاضوا وحدهم عن هذه الوحشية التي يطبقها الصهاينة ضد العرب في فلسطين حسب، بل ان كل اصحاب الديانات الاخرى في العالم، عدا المسلمين، قد سكتوا عن هذه الوحشية ولم تبدر منهم اية بادرة لاستنكارها والمطالبة بوقفها،وما تزال الحكومات المتنفذة في الامم المتحدة تحبط اي مشروع يراد من ورائه انصاف العرب في فلسطين ووقف هذا العدوان الطاغي ضدهم

(٢٧) ان هذه الافكار المثالية التي يتحدث بها المؤلف هنا توضح بجلاء انه لم يكن قد جرب غدر اليهود وغشهم وطغيانهم. فاليهود منذ ان وجدوا والى ان يبادوا،لم يعرفوا شيئا اسمه الدين او الضمير او الوجدان والحب في معاملاتهم مع الاخرين، وانما كان يطغى على تفكيرهم حب المال والكسب بمختلف الاساليب والصور. وهذا ما دللت عليه اعمالهم في كل عصر وزمان ومكان

في اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة ١٩٤٨، وهو اليوم الذي انتهى فيه الانتداب البريطاني على فلسطين، عبر الفيلق العربي نهر الاردن واندفعنا بسرعة نحو جبال فلسطين واتخذنا مواقعنا في «بيتل». لم تكن «القدس» مدينة مقدسة حسب، بل كانت المفتاح الستراتيجي الى كل فلسطين. قمنا باحتلال قمة ممر واطىء حسب، عبر جبال فلسطين، بين الخليل وسهل «اسدراكلون»[٢٨] حيث يسير الطريق خلاله من تل ابيب، ثم يهبط مستقيما الى اريحا. كانت القوات اليهودية تتدفق على الطريق من تل ابيب الى بيت المقدس، ومن هناك تستطيع ان تنحدر الى نهر الاردن عند اريحا. ولذلك بدا لنا ان اول خطوة يجب القيام بها هي ان نغلق طريق تل ابيب ـ القدس، وقد تم ذلك بوضع واحدة من كتائبنا الثلاث في «اللطرون». (وفي الوقت ذاته كانت دولة اسرائيل قد اعلنت في اليوم الخامس عشر من شهر ايار، ولذلك ينبغي لنا من ذلك التأريخ فصاعداً أن لانشير الى اليهود بل الاسرائيليين).

كانت مدينة اللطرون من ضمن المنطقة التي خصصت للعرب في مشروع التقسيم، ولذلك كان احتلال مدينة اللطرون عملا مشروعا بالمرة. ومع ذلك فأن كتيبتنا هناك، كانت تتلقى الهجمات ليلة بعد ليلة، على ايدي القوات الاسرائيلية ولكن من دون جدوى. ولم يكن في نيتنا ان نهاجم «القدس» التي اعلنت الامم المتحدة بانها تضعها تحت ادارتها الخاصة.

كانت سياسة الحكومة الاردنية في هذه المرحلة خاطئة في اتجاهها. لقد كانت الحكومة تعتقد بأن الامم المتحدة تضم كل الامم العظمى في العالم، وعلى هذا الاساس فأن سلطة منظمة الأمم المتحدة، سوف تكون عالية ومتفوقة!! لقد اقتضانا بعض الوقت لكي نتحقق من ان منظمة الامم المتحدة كانت تقع في «نيويورك» اعظم مركز لليهود في العالم. وكان الجو في نيويورك قد تم احتسابه بقدر كبير، ولقد اكتشفنا ببطء ان اسرائيل لم تكن تهتم بأي من اعضاء منظمة الامم المتحدة.

لقد ادى دخول الجيش المصري الى فلسطين الى زيادة التعقيد والارباك في الوضع المتوتر آنذاك. (فالجيش السوري لم يقم بأي عمل في مقاتلة الاسرائيليين. كما ان الجيش اللبناني هو الآخر لم يشترك في القتال). فلو لم يتدخل الجيش المصري لبقي الوضع اكثر وضوحاً. ذلك لأن الفيلق العربي كان يحاول ان يدافع عن المنطقة الرئيسة التي خصصت للعرب من فلسطين، لكنه كان في ذات الوقت يحترم الوضع

---

(٢٨) Esdraclon

الدولي للقدس، ولذلك فأننا لم نستطع ان ندافع عن الجليل التي اعطيت هي الاخرى للعرب، والتي كانت القوات الاسرائيلية قد سارعت الى احتلالها وضمها الى دولة اسرائيل[٢٩].

وفي الوقت ذاته بدأت القوات الاسرائيلية الموجودة داخل مدينة القدس تعمل بكل قوة للاستيلاء على المدينة برمتها، بما في ذلك النصف الذي يسكنه العرب. طلب السكان العرب في القدس بعبارات متطرفة الى الملك عبدالله، وحكومته بأن تبادر الى انقاذهم. تحسست عمان بصفة عاطفية.

لم يكن لدي سوى اربعة الاف وخمسمائة نفر لمواجهة عدد اكبر من ذلك العدد من الاسرائيليين، وان ادافع في ذات الوقت عن منطقة تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف ميل مربع. انه لطلب واهٍ بان اندفع الى مدينة القدس، لأن اعدادنا القليلة سرعان مايتم ابتلاعها. ذلك ان قتال الشوارع يكلف غالياً من الرجال والجنود النظاميين المدربين.

سيطر الاسرائيليون على النصف العربي من مدينة القدس كله، شارعاً بعد شارع، في مدى خمسة ايام، في الوقت الذي كانت فيه حكومة الاردن تستعطف متحمسة قناصل الدول الغربية في القدس، بأن تعلم منظمة الامم المتحدة التي قررت ان تضع القدس تحت سيطرتها، وكذلك ابلاغ الحكومة البريطانية بالموضوع.
لقد غدا واضحاً تماما، بأن الاسرائيليين سوف يحتلون مدينة القدس كلها في غضون ساعات، ويصبحون قادرين على ان ينحدروا منها الى نهر الاردن في اريحا. ولذلك اضطررنا في فجر اليوم السابع عشر من شهر ايار ان نتوجه الى مدينة القدس، كما امرت الحكومة الاردنية بذلك.

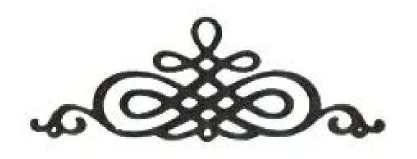
تحركنا بامتداد الخط الغربي الذي يفصل بين المدن اليهودية والعربية، من دون ان نهاجم اي حي يهودي الى ان تم اتصالنا بالقدس القديمة، وهكذا دخلت القدس بقوة لايزيد عددها عن ثلثمائة رجل، في الوقت الذي كانت فيه المدينة تضم آنذاك اكثر من مائة الف يهودي فتدبر!!

---

(٢٩) يبدو بكل جلاء من هذا القول ان الفيلق العربي هو الذي فرط في الامر. فاذا كنا نعذره على عدم الدخول الى القدس بحجة انها قد اصبحت منطقة دولية بقرار منظمة الامم المتحدة، فكيف نعذره عن تواطؤه بعدم الدخول الى منطقة الجليل والسماح او السكوت عن دخول القوات الاسرائيلية اليها او احتلالها وضمها الى اسرائيل؟ اما ماذكره المؤلف عن الارباك الذي احدثه دخول الجيش المصري الى فلسطين فانه لايقوم على اساس لا من المنطق او الخطة العسكرية، لانه من ابسط الامور ان يكون دخول الجيش المصري قد ادى الى حجز قوات اسرائيلية كبيرة تقف قبالته وبذلك يحول دون اطباق كل القوات الاسرائيلية على المناطق العربية الاخرى.

كتب احد المراسلين اليهود من القدس يقول «ان الفيلق العربي قد وجه هجومه باربع بطريات من المدافع الثقيلة، ووحدات من مدفعية اصغر، وكتيبتين من المشاة، ووحدات كبيرة من الدبابات والسيارات المصفحة. وبعد ان قامت هذه القوات باقامة سد ناري من المدفعية بقوة كثيفة تتقدمها الدبابات في المقدمة، في حين ان القوة الاردنية الحقيقية التي دخلت مدينة القدس، كانت مؤلفة من سرية مشاة واحدة، واربعة افواج من السيارات المدرعة ليس الا. ومهما يكن الامر فأن الاسرائيليين كانوا يمتلكون وسائل الدعاية العالمية، وسرعان ما كانت دعاواهم تذاع في كل انحاء العالم.

بعد عشرين سنة من ذلك التأريخ، واذ كنت القى محاضرة في الولايات المتحدة الامريكية، كانت الاسئلة تنهال علي في اكثر من مناسبة واحدة وهي تقول «كيف اقدمت على مهاجمة مدينة مقدسة مسالمة بكل مالديك من مدافع دبابات؟؟».



الفصل الرابع عشر

حرب الشعوب!



حرب الشعوب!

وكما اوضحت قبلا، عبر الفيلق العربي في الاردن في اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة ١٩٤٨، بموافقة من الحكومة البريطانية، لمساعدة العرب في الدفاع عن منطقة الضفة الغربية اي «اليهودية» و«السامرة» التي خصصت لهمُ. ولقد منعنا منعا باتاً ان ندخل الى مدينة «القدس» التي اعلنتها منظمة الامم المتحدة، مدينة دولية، او ان ندخل اية منطقة خصصت للدولة اليهودية في مشروع التقسيم. وعلى هذا كانت خططنا تتماشى بدقة تامة مع اوامر الامم المتحدة، ومصادقة الحكومة البريطانية.

اما حكومة شرقي الاردن، التي كانت، لسذاجة تفكيرها، تعتقد بان الدولة اليهودية التي قبلت بمشروع التقسيم، سوف تلتزم،في حين ان مدينة «القدس» التي اعلنت منطقة دولية، كانت تمثل المفتاح الستراتيجي لفلسطين كلها، لانها كانت تؤلف مفترق الطرق من «تل ابيب» الى «اريحا»، ومن الخليل الى نابلس. كانت دولة اسرائيل متأكدة من هذه الحقيقة، ولذلك قررت ان تستولي على مدينة القدس بكاملهاحالما يغادرها البريطانيون.

ولمدة اربعة ايام من الالام المبرحة، ونحن متمركزون بين الرملة وبيت القدس، آملين بمنتهى الحماسة بان تبادر منظمة الامم المتحدة، او القوى الدبلوماسية الاخرى، الى ايقاف الغزو الاسرائيلي للقدس، مما ارغمنا في النهاية على ان ندخل المدينة. كان دخول الجيش المصري الى فلسطين، قد احدث انطباعا بوجود هجوم مركز ضد دولة اسرائيل،التي انشأها مشروع التقسيم، كنت انا في الغالب هو الرجل

الذي يتلقى الذم باعتباري انني كنت الذي اقود جيشا متحمسا لمهاجمة دولة اسرائيل «البريئة»!! التي ولدت حديثاً. ولم اكن ازاء ذلك أستطيع ان افعل شيئاً سوى ان ابين، في دفاعي ضد هذه التهمة، بان القادة العسكريين ليسوا هم الذين يبدأون الحروب، بل ان الحكومات هي التي لها حق التصرف.

ومهما يكن الامر فانه لم تكن لدينا نوايا لان نصطدم مع اسرائيل التي قبلت بمشروع منظمة الامم المتحدة، والذي التزمنا نحن به ايضا. وفي النهاية اضطررنا الى ان ندفع نحو مدينة القدس بثلاثمائة رجل، وان كانت المدينة تضم مائة الف يهودي.
حين ارغمنا على ان نتدخل لوقف اندفاع الاسرائيليين الى مدينة القدس، وجدنا انفسنا نسيطر على ارض تقدر مساحتها بحوالي الف ميل مربع، ولانملك سوى اربع كتائب ليس الا، كانت منها كتيبة ونصف كتيبة هي التي دخلت القدس. اما بالنسبة الى الكتيبتين والنصف الباقية، فان كتيبة واحدة باكملها كانت تعسكر في «اللطرون»، لاغلاق الطريق من تل ابيب الى القدس (كان افراد كتائبنا يبلغ عددهم زهاء سبعمائة نفر تقريبا).

وفي الوقت ذاته وصلت كتيبة سيارات مدرعة من العراق، وتسلمت قاطع نابلس من الفيلق العربي. وفي اليوم الثلاثين من شهر ايار سنة ١٩٤٨، تلقينا امراً يستدعي كل الضباط البريطانيين النظاميين العاملين في الفيلق العربي، وذلك نتيجة قرار صادر من مجلس الامن الدولي[١].
كنت قد استقلت من الجيش البريطاني في سنة ١٩٢٦. ولكن حين تم سحب ضباطنا البريطانيين، اصابتنا الدهشة حين سمعنا بان ضابطا برتبة عقيد في الجيش الامريكي، هو الذي كان يقود القوات الاسرائيلية التي هاجمت اللطرون.

* * *

في اليوم الاول من حزيران وصل «الكونت برنادوت»[٢] الى عمان وسيطا لمنظمة الامم المتحدة. كان هذا الرجل من افراد الاسرة السويدية الملكية، وكان شخصية

---

(١) منذ بدء تشكيل منظمة الامم المتحدة ومجلس الامن الدولي وحتى الان، كانت الدول الاستعمارية وعلى رأسها امريكا، هي التي توجه هذه المنظمة طبقا لاهداف الصهيونية العالمية والاستعمار العالمي الذي اقام اسرائيل في هذه البقعة المهمة من الوطن العربي، لتكون اداة فعالة بيد الاستعمار العالمي في ضرب حركات التحرر والتقدم في العالم العربي اولا، وفي الشرق الاوسط كله ثانيا.
(٢) الكونت برنادوت COUNT BERNADOTTE (١٨٩٥ ـ ١٩٤٨) ابن اخ غوستاف الخامس ملك السويد، وجده هو الضابط الفرنسي الذي حكم السويد باسم الملك شارل التاسع من ١٨١٨ حتى ١٨٤٤. دخل الجيش=

دولية كرس نفسه، اثناء الحرب العالمية الثانية لانقاذ اللاجئين بما في ذلك اليهود منهم. لقد استطاع هذا الرجل على الفور ان يؤثر في نفسي وتفكري، وانه هو الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه اعتمادا كليا، لانه هو الانسان الذي كرس حياته للواجب وللخدمة. واذ كان «برنادوت» يتحرك اشبه بالمكوك الى امام والى خلف، فقد كان يركز عمله، من دون كلل، لاحلال هدنة، استطاع ان ينجح في ترتيبها في اليوم الحادي عشر من شهر حزيران، والتي استمرت مدة شهر كامل.

* * *

ذهبت لمواجهة رئيس وزراء الاردن توفيق باشا «واوضحت له بانه تتوفر لدينا فرصة شهر واحد «لالتقاط الانفاس» لتعزيز قواتنا، وتعويض الخسائر التي عانيناها، وطلبت مصادقته على ما اردت. ولكنه رد علي بقوله ان ذلك لن يكون ضروريا تماما، نظرا لانه لن يقع هناك المزيد من القتال(٣). ولقد رددت على قوله ذاك بان الاسرائيليين منهمكون، بصفة يائسة، في زيادة قوتهم، وانهم على النقيض من شروط الهدنة كانوا يتلقون الاسلحة والتعزيزات من جيكوسلوفاكيا، لان مساندة الاتحاد السوفياتي لاسرائيل في هذه المرحلة كانت نسبية. وعلى الرغم من الحظر الذي اصدره رئيس وزراء الاردن، فانني بذلت كل ما استطيعه لتجنيد المزيد من الرجال وتدريبهم.

لم يعد مستطاعا ان نحصل على الاسلحة والذخيرة، لان بريطانيا كانت هي المصدر الذي كان يموننا بذلك، وان كانت بريطانيا تطبق بقوة قرار مجلس الامن الدولي الداعي الى عدم تزويد المتحاربين بالذخائر الحربية. وفي الوقت ذاته تعهد «الكونت برنادوت» بان يضع بنفسه مشروع تقسيم معدل، يتخذه اساسا لتسوية دائمة.

= السويدي لكنه اهتم بحركة الصليب الاحمر وتبادل الاسرى خلال الحربين العالميتين، الاولى والثانية، بالاضافة الى مساعدة الحركة الكشفية وتوسيع نطاقها، واشرف في الحرب الثانية على استسلام القوات الالمانية في المنطقتين البريطانية والامريكية من المانيا وفي ايار ١٩٤٨ عين وسيطا من قبل الامم المتحدة في فلسطين، وقد اغتاله اليهود في السابع عشر من ايلول من تلك السنة.

(٣) لا يفرق توفيق ابو الهدى في تفكيره عن غيره من الحكام العرب الاخرين الذين كانوا يحسنون الظن بالمنظمات الدولية التي كانت تهيمن عليها الدول الاستعمارية من امثال عصبة الامم اولا، ومنظمة الامم المتحدة ثانيا. اذ كان هؤلاء الحكام العرب، لقصر نظرهم، يحلمون بان امثال هذه المؤسسات الدولية سوف توطد اركان العدل والسلام ولم يأخذوا اي درس من الالاعيب التي لجأت اليها الدول الاستعمارية خلال الحرب العالمية الاولى وبابعدها بالنسبة الى القضايا العربية المهمة انذاك.

كان الحي اليهودي في القدس القديمة مأهولا بطراز قديم من اليهود المستعربين تماما. وكان معظمهم من المؤمنين بالدين بشدة، ولايشعرون باي عطف على الصهاينة من اليهود والالمان والروس. ومع ذلك. وقبل ان ندخل نحن الى القدس. بعث الاسرائيليون بكتيبة من قوات «البالماخ» التي تمثل اجزء المختار من جيشهم. الى الحي اليهودي في القدس. وعلى هذا فحين دخل الفيلق العربي الى القدس. اقدمت قوات «البالماخ» وحدها على اطلاق النار ضده، وحدثت بعض الالتحامات في بيوت الطبقة الفقيرة الممزقة التي تشبه اوجار الارانب، ولكن اليهود استسلموا في النهاية.

قمت بزيارة اليهود على الفور، فوجدت انهم كانوا من الفقراء الورعين، وكانت اللغة الرئيسة التي يتحدثون بها هي اللغة العربية، واذ ذاك اتصلنا بالصليب الاحمر الدولي لكي نخرج الشيوخ والنساء والاطفال، وغير المحاربين عبر خطوط النار الى الجانب الاسرائيلي. كانت تلك القافلة الصغيرة الحزينة، تتعثر في الشوارع الضيقة في القدس القديمة. وكان جنود الفيلق العربي يساندون المرضى والشيوخ، ويحملون صررهم الصغيرة من مقتنيات اليهود، واذ ذاك هتف مراسل احدى الصحف الاوربية يقول «حسنا ذلك ما ادعوه بالفروسية!».

كان مقرراً ان تنتهي الهدنة في اليوم الحادي عشر من شهر حزيران. ولم تكن الجيوش العربية في وضع تستطيع معه ان تجدد حركاتها العسكرية. وكانت القوات المصرية والاردنية هي الوحيدة التي كان لها تماس مع الاسرائيليين،ولكن ايا منها لم تكن لديه الذخيرة الاحتياطية، اواي مصدر خارجي للحصول منه على السلاح، اذ كان الجيشان المصري والاردني يزودان في الاصل، بالسلاح وبالذخيرة من لدن بريطانيا ، التي كانت تطبق بدقة قاعدة مجلس الامن الدولي، وترفض ان تزود الجيشين المذكورين باية تجهيزات شبه حربية.

قبل ان تنتهي مدة الهدنة اجتمعت الى الحكومات العربية في القاهرة، وقد طلبت انا والملك عبد الله، الى رئيس الوزراء الاردنية، ان يعمل على تمديد الهدنة، الامر الذي وعد بتنفيذه. لم تصل الينا اية انباء عن المداورات التي جرت في القاهرة، الى ان عاد «توفيق باشا»، وافاد بان محمود النقراشي «رئيس وزراء مصر، قد اصر على انهاء الهدنة. حينذاك سألت رئيس الوزراء توفيق باشا قائلا ولكن كيف نواصل القتال من دون ذخيرة؟ فرد علي يقول «لانطلق النار الا اذا اطلق اليهود النار اولا!»

لقد كنت اعجب عما اذا كان هناك آمر للجيش قد جابه مثل هذا الوضع. لقد وافق الاسرائيليون على تمديد امد الهدنة. اما العرب فانهم، بتحريض من مصر، قد رفضوا ذلك. اما بالنسبة الى الامر الواقع، فانه لم يكن لدينا سوى النزر اليسير من الذخيرة، وقد طلب الينا بان لانطلق النار، اذا كنا نستطيع ان نتجنب ذلك. وفضلا عن هذا فقد كرر توفيق باشا اوامر، بان لاننفق اية نقود،وكان الملك عبد الله مبتسما مثلما كنت انا كذلك.!

اعددت في يومياتي مذكرة، عن الاوامر التي اصدرها رئيس الوزراء والقاضية بان نجدد الحرب، ولكن من دون ان نطلق النار، اوننفق النقود!! تلقى الفيلق العربي اوامر مشددة بان يعمل المستحيل. ولكن قبل كل شيء، كان قد سبق لنابليون ان قال بان كلمة مستحيل ليست كلمة فرنسية (٤) لم استطع ان اتجنب بعض الدهشة بشأن الحقيقة القائمة وهي: انه في الوقت الذي طرد فيه مئات الالوف من اللاجئين من مساكنهم في فلسطين وكانوا لايملكون شروى نقير، كان مجلس العموم البريطاني، يناقش بحرارة، قانونا يمنع صيد الثعالب. لم استطع ان استنكر عواطف البريطانيين تجاه الحيوانات في الوقت الذي لم تكن فيه تلك العواطف تأبه بآلام الالوف من رفاقهم من المخلوقات البشرية.صحيح ان الولايات المتحدة الامريكية، وروسيا، والعرب، واليهود، كانوا يطالبون باصوات عالية، بضرورة جلاء البريطانيين عن فلسطين، وان البريطانيين انفسهم مرضى من الحرب، ومتعبون بسببها، لكنني لااستطيع ان احس ان كانت بريطانيا على الاقل، قد حذرت منظمة الامم المتحدة، بالفوضى التي قد تعقب ذلك، او انها قد وضعت فرقة تابعة لها في مدينة القدس لمنع الحرب فيها، الى ان تستطيع الدول العربية واسرائيل ان ترتب امورها.

اصبحنا الآن ندرك باننا قد اشتبكنا في حرب من طراز جديد، حرب يحارب فيها شعب برمته، لكي يفني شعباً آخر برمته. انه صراع اشد شراسة ووحشية من اية حرب اخرى بين الاباطرة والملوك القدماء. لقد كانت هذه حربا جماعية، يتطلع فيها شعب واحد الى ان يطرد شعبا آخر، ويدمره ويستولي على بلاده.

كانت المرحلة الاولى من القتال، قد انشغلت على انفراد، بموضوع مدينة القدس، وبمنع اليهود من الاستيلاء عليها بكاملها، وسد الطريق بين تل ابيب واللطرون، لمنع مرور المزيد من الاسرائيليين الى مدينة القدس.

---

(٤) نص العبارة بالفرنسية هو

«IMPOSSIBLE N, EST PAS UN MOT FRANCAISE»

ومع ذلك فقد استغل الاسرائيليون، الهدنة الاولى في سبيل استكمال نقل قواتهم الى القدس وتعزيزها هناك، ولذلك فانهم قرروا في الفترة الثانية من القتال، بان يستولوا على «اللد» و «الرملة» المدينتين اللتين يسكنهما العرب وحدهم، واللتين ضمتا الى المنطقة العربية وفق مشروع التقسيم. غير ان هاتين المدينتين تقعان في السهل الساحلي، وعلى بعد بضعة اميال ليس الا عن تل ابيب، ولم يكن لدينا حتى ولا رجل واحد لكي يدافع عنها.

كان الاسرائيليون يحتفظون قبالة الفيلق العربي بجيش البالماخ الذي كان يضم حوالي ستة الاف وخمسمائة رجل، وقد تم تنظيمه في صفة فرقة مؤلفة من ثلاثة الوية، وتم تجهيزه بسيارات الجيب، وناقلات الجنود المدرعة، والسيارات المصفحة، ومدفعية الميدان.

كانت الخطة الاسرائيلية تنطوي على الاستيلاء على كل من اللد و الرملة، ومن ثم اقتحام مدينة اللطرون، وذلك عن طريق الاستيلاء على بيت سيرا ورام الله من بعدها، وقطع الاتصال بين الجيش العراقي والفيلق العربي، ومن ثم تطويقهما معاً.
بدأ جيش البالماخ تنفيذ خطته هذه، بان دفع بلوائين من قواته الى ماحول مدينتي «اللد» والرملة، فبدأ بالهجوم عليهما من ناحية الشرق، كذلك احاطت حركة التطويق الاسرائيلية هذه بسرية مؤلفة من مائة رجل من قوات الفيلق العربي، الذي حارب في سبيل التخلص من التطويق.

اقرت الحكومة الاردنية استحالة الاحتفاظ بمدينتي «اللد» و«الرملة» وكانت هناك من ورائهما، مدينتان اخريان تقعان على بعد ثغرة تبلغ خمسة عشر ميلا، بين احدى سرايانا في «بيت سيرا» والى اليسار من الجيش العراقي في «مجدل يابا». ولقد عهد الى كتيبتنا الاولى بان تدافع عن هذا القطاع الذي يبلغ مداه خمسة عشر ميلاً.

وحين دخل الاسرائيليون مدينتي «اللد» و«الرملة» احتجزوا كل الرجال المدنيين فيهما، واعتبروهم اسرى حرب، ومن ثم عاملوا النساء والاطفال بمنتهى القسوة والوحشية لارغامهم على الهرب من هذه المدن فوراً، وهكذا هرب حوالي ثلاثين الف امرأة وطفل، عبر الميادين المفتوحة الى موقعنا في «بيت سيرا» ولم يكتف الاسرائيليون بذلك، بل تعقبوا هؤلاء الهاربين بتوجيه نيران قنابل «المورتر» ضدهم، حيث استطاع اولئك النساء والاطفال الهاربون ان يصلوا سيرا على الاقدام وببطء شديد

الى تلال «رام الله» ولم يكن احد ليعرف قط عدد الاطفال الذين قتلوا، او الذين تخلت عنهم امهاتهم اثناء الهرب! ولقد استطاع الصليب الاحمر الدولي، ان يلتقط عدداً من اولئك الاطفال الذين تخلت عنهم امهاتهم، وهربن بجلودهن.

انفجرت عاصفة من الحنق والغضب ضد الفيلق العربي الذي اتهم بالخيانة لتخليه عن اللد والرملة، ولقد قذفت انا نفسي بالحجارة حين كنت في سيارتي. اما رجال الفيلق العربي الذين قاتلوا في ظروف عسيرة فقد اتهموا بالخيانة، وحملوا بالشتائم، لانهم لم يدافعوا عن مدينتي اللد والرملة. ومع ان الحكومة الاردنية قد وافقت بان لاتحاول الاستيلاء على اللد والرملة، الا ان هذه الحكومة نفسها اخذت تشارك الآن في اطلاق حملة الشتائم والعويل!

اعلن الساسة ان بريطانيا كانت راغبة في مساعدة اسرائيل، وانني قد تلقيت اوامر سرية من «ارنست بيفن» وزير الخارجية البريطانية[5] للانسحاب من اللد والرملة. وقد استدعيت لحضور اجتماع كامل عقده الملك والوزارة[6] واتهمت فيه بالخيانة!

وفي الوقت ذاته فان جيش البالماخ اليهودي، ما ان اتم احتلال اللد والرملة حتى اعاد تنظيم ارتاله استعدادا للقيام بهجوم كبير على مدينتي «بيت سيرا» و«اللطرون». وفي صباح اليوم الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٩٤٨، تقدمت الارتال الاسرائيلية ضد «البرج» و«بير معين» و«بيت سيرا» في الوقت الذي جددت فيه ارتال اخرى هجماتها المتوالية على «اللطرون».

قامت ثلاث سرايا من قواتنا باعاقة الطريق امام قوات «البالماخ» في «بيت سيرا» ولقد جرى قتال كثيف تمثل في هجمات وهجمات مضادة، استمرت طيلة اليوم السادس عشر من تموز، ومع ذلك امكننا الاحتفاظ بخط القتال. وقد حصل هدوء في اليوم السابع عشر من شهر تموز حيث كان الفريقان المتحاربان يعيدان تنظيم قواتهما، وفي اثناء النهار انبئنا بان كل الاطراف قد وافقت على وقف اطلاق النار الذي سوف يبدأ في الساعة الخامسة من مساء اليوم الثامن عشر من تموز.

---

(٥) ERNEST BEVIN (١٨٨١ - ١٩٥١) ولد في سومرسيت وكان من العمال الزراعيين ثم انتقل الى برستول وانضم الى عمال المرافيء فاصبح في سنة ١٩١١ مساعدا لسكرتير نقابة عمال ارصفة الموانيء. وقد تميز بيفن بين الحربين العالميتين الاولى والثانية بدفاعه عن عمال الارصفة امام المحاكم التي كانت تبحث اجور العمال ثم اصبح عضوا في الاتحاد العام لنقابات العمال البريطانية من ١٩٢٥ حتى ١٩٤٠ ورئيسا له. ومع انه لم يكن عضوا في البرلمان الا انه اشترك في وزارة تشرتشل الائتلافية في سنة ١٩٤٠، ثم اصبح وزيرا للخارجية في الحكومة التي الفها «أتلي» رئيس (حزب العمال) في سنة ١٩٤٥، وظل يحتفظ بهذا المنصب الى ما قبل خمسة اسابيع من وفاته في سنة ١٩٥١.

(٦) المقصود بها الملك عبد الله والوزارة الاردنية.

كان الاسرائيليون قد هيأوا كل ما توفر لديهم من قوة بقصد الاستيلاء على اللطرون وبيت سيرا، وقد انطلقوا الى «رام الله» خلال الاربع والعشرين ساعة الاخيرة من القتال. فقد تقدم لواءان من جيش البالماخ ضد جبهة «اللطرون ـ بيت سيرا»وبالاضافة الى ذلك جلب الاسرائيليون قوة مدرعة تتألف من خمس دبابات، وعشر سيارات مزودة برشاشات من طراز «برين»وعددا من السيارات نصف المجنزرة، فتقدمت هذه القوة باكملها نحو مدينة اللطرون.

كانت الكتيبة الثانية من الفيلق العربي تمسك بمدينة اللطرون، ولم يكن لديها سوى مدفع واحد لمقاومة الدبابات، من عيار ستة باونات، مثبت على سطح محطة قديمة للشرطة. قتل كل الرجال الذين كانوا يعملون في تشغيل المدفع. في حين ان كل رجل كان يحس بانه قد استبدل برجل آخر. تقدم لواء آخر من جيش البالماخ نحو مدينة «بيت سيرا» لكنه جوبه بهجوم مضاد من ناحية الشمال قامت به سرية من الكتيبة الاولى، فاعادت اللواء الاسرائيلي الى وراء. واخيراً حلت الساعة الخامسة بعد الظهر، فتوقف القتال. ولقد استطعنا ان نتمسك بجبهتنا الضعيفة.

قبل ان يبدأ القتال في اليوم الخامس من عشر من شهر ايار سنة ١٩٤٨، كان «عبد الرحمن عزام» الامين العام لجامعة الدول العربية، قد جاء الى عمان، ووعد الحكومة الاردنية بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه من الجامعة العربية في صفة نفقات للحرب، وقد دفعت مقدمة من ذلك المبلغ مقدارها ربع مليون جنيه. وينبغي علي ان اعترف بانني لم اتوقف خلال اسابيع القتال، لكي ادقق الحسابات. وحين توقف القتال، وجدنا باننا قد تجاوزنا صرف مبلغ الربع مليون جنيه، ولذلك طلبنا الى «عبد الرحمن عزام» بان يمدنا بالمزيد من المال،لكنه رفض ذلك.

ذهبت بصحبة وزير الدفاع لمواجهة توفيق ابو الهدى رئيس الوزراء، الذي كان شديد السخط والغضب،وقد خاطبنا قائلا «احذركم من ان تسيروا في ميزانيتكم قدما؟ فمن اين استطيع ان احصل على النقود؟» تضايقت من هذا القول، ذلك لأن هناك حربا قائمة، ولاننا كنا ناجحين من الناحية العسكرية نجاحاً غير اعتيادي، ولهذا قلت لرئيس الوزراء متهكما «من الافضل لك ان تقتطع هذه النقود من مرتبي!» لقد كنت مخطئا اذ ابديت سخطي، ولكننا جميعا لم نعد نستطيع ان نضبط اعصابنا!

توجه توفيق ابو الهدى الى القصر وعرض تقديم استقالته،كان الملك عبد الله

آنذاك في وضع حرج. ومهما يكن فقد عاد السلام واذ ذاك منحت اجازة امدها شهر واحد للذهاب الى انكلترا بقصد الاستراحة هناك. وما ان وصلت الى مطار لندن، حتى انتحى بي احد رجال الشرطة السرية جانباً، وطلب الي ان اسجل اسمي في احد فنادق لندن باسم «المستر سمث» ثم اردف يقول «لقد وصلت الينا انباء بان الارهابيين اليهود يبحثون عنك!».

* * *

حين كنت في انكلترا، كان «الكونت برنادرت» قد عاد الى فلسطين، وكان خلال شهري حزيران وتموز من سنة ١٩٤٨، في نشاط مكوكي لاينقطع، وبصفة خاصة بين القاهرة، واسرائيل، وشرقي الاردن، وعبر المحيط الاطلسي الى نيويورك، والحقيقة ان مهمة «برنادوت» كانت بلا امل. ذلك لان اسرائيل لم تكن ترغب في اية تسوية كانت، لانها كانت تأمل ان تتوسع شيئا فشيئا اكثر فاكثر. ولقد وقف الاردن والعراق نوعا ما سوية،ولكن مصر كانت تغار من البلدين، ولم تلعب سوريا سوى دور ضئيل جدا في العمليات العسكرية. ومع ذلك فانها لم تكن راغبة في التعاون مع البلدان العربية الاخرى.

من بين الخطط الكثيرة التي بحثها الكونت برنادوت، وفرقته الدولية التابعة لمنظمة الامم المتحدة، ضم القسم الاكبر الذي بقي من المناطق العربية في فلسطين المركزية الى شرقي الاردن[٧]، والاعتراف العالمي الواسع بقيام دولة اسرائيل. اما الملك عبد الله فانه كان يأمل في التوصل الى تسوية حول هذه الشروط مع اسرائيل.

بقيت هناك مشكلتان. احداهما انه كانت توجد منطقة واسعة من جنوبي فلسطين تحت احتلال الجيش المصري، لكنها قد ضمت الى اسرائيل،وكان الجزء الاعظم من هذه المنطقة مأهولاً بالعرب وحدهم، وينبغي، وفقاً لقاعدة السكان، ان لاينضم الى اسرائيل التي كانت ترغب في ضم تلك المنطقة اليها بقصد الحصول على ميناء لها في خليج العقبة[٨].

---

(٧) كان للصهاينة دور كبير في اقناع منظمة الامم المتحدة لتبني فكرة ضم مما تبقى من المناطق المخصصة للعرب في فلسطين الى الاردن، لان الملك عبدالله كان من الاساس يريد الاتفاق مع اسرائيل حول هذا التخطيط، سيما وانه قد التزم بالمحافظة على خط تقسيم فلسطين ولم يأذن لقواته بدخول شبر واحد من المناطق التي خصصت لليهود حسب مشروع التقسيم.

(٨) وقد اقامت اسرائيل في خليج العقبة اعظم ميناء لها هو ميناء ايلات قبالة ميناء العقبة تماما.

اما المشكلة الثانية فهي تتمثل في وضع مدينة القدس التي كانت مقدسة، على حد سواء، لدى اليهود والمسلمين والمسيحيين. ففي مشروع قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين والذي اعلن في سنة ١٩٤٧، كان قد اعلن بحق ان «القدس» تكون تحت ادارة منظمة الامم المتحدة. غير ان الامم المتحدة ما لبثت بعد ذلك ان رفضت صرف اية نقود لانشاء ادارتها في مدينة القدس، وكان «برنادوت» نفسه يحبذ ان تكون القدس مدينة دولية.

اعطيت المنطقة القريبة من الجليل الى العرب، لكن الاسرائيليين مالبثوا ان استولوا عليها. اما منطقة «النقب» او «بئر السبع» فانها قد اعطيت الى الاسرائيليين، ولكن الجيش المصري مالبث ان اقتحم هذه المنطقة واستولى عليها. قدم برنادوت اقتراحا معقولا، بان يسمح للاسرائيليين الاحتفاظ بمنطقة الجليل التي كانت ارضاً صالحة للزراعة بصفة جيدة، في حين تعطى منطقة «بئر السبع» تلك الارض الفقيرة والمأهولة بالعرب وحدهم، الى العرب تعويضا عن منطقة الجليل[٩].

كان من شأن مثل هذا الحل، ان يثبت الدولتين العربية واليهودية ويستأصل التضارب الذي لايمكن حله، بشأن المناطق الواقعة جنوبي «السامرة» وجنوبي «الرملة»•ولكن ضرر هذه المقترحات يتمثل في ان الدولة العربية لن يكون لها اي منفذ على البحر المتوسط، الا اذا استعادت منطقة «غزة» التي كانت في ذلك الوقت تحت احتلال الجيش المصري.

اقترح برنادوت ان تكون حيفا ميناء واحداً لاسرائيل وللدولة العربية. غير ان الخطط التي تشمل التعاون، كانت محفوفة بمخاطر الاحتكاك بين العرب والاسرائيليين. يبدو ان مقترحات برنادوت كانت معقولة تماما، ولاتنطوي على اية علائم لوجود الميكافيلية الاستعمارية التي نسبت اليها. ولكن الخطأ الوحيد الذي وقع برنادوت فيه، كان قد حدث حين سمح لنفسه بان تقنعه لجنته التابعة لمنظمة الامم المتحدة، بان يوصي بان تكون القدس مدينة عربية، ولكن لم يتأكد في الاخير ما اذا ظل يحتفظ بفكرته عن القدس العربية.

---

(٩) كان لهذا الاقتراح تأثير بالغ الاهمية في تشجيع اسرائيل على التهام الاراضي التي خصصت للعرب في فلسطين، وكان برنادوت متحيزا الى اسرائيل كل التحيز في طرح مثل هذا الاقتراح. وان كان التخطيط الصهيوني في امريكا والامم المتحدة قد وضع من الاساس وقبل انهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، كل هذه المشاريع التي نفذت فيما بعد لصالح اقامة الدولة اليهودية.

وفي حديث مع «موشي شرتوك» وزير خارجية اسرائيل، جرى في اليوم العاشر من شهر آب سنة ١٩٤٨، صرح «برنادوت» ان الاسرائيليين لم يظهروا شيئا ما سوى التصلب والقسوة ضد اللاجئين العرب. فلو ان اليهود الذين عانوا الكثير من الاضطهاد قد اعلنوا بدلا من ذلك، بانهم يفهمون احاسيس اللاجئين العرب، وانهم لايودون ان يعاملوهم بذات الطريقة التي عومل بها اليهود انفسهم، فان اعتبار اسرائيل في العالم، سوف يتعاظم الى مدى غير محدود. وفي التوصيات النهائية التي قدمها برنادوت، اورد عبارة تؤكد وجوب السماح للاجئين العرب بالعودة الى بيوتهم.

ومهما يكن الامر فان هذا الاقتراح لم يكن مقبولا اطلاقا من لدن الاسرائيليين الذين طردوا العرب من ديارهم بصفة متعمدة. لقد كانت الفكرة الصهيونية تنطوي على انشاء دولة يهودية يقطنها اليهود وحدهم بصفة قطعية. لقد كرس برنادوت الذي كان يتحسس آلام اللاجئين خلال الحرب العالمية الثانية، نفسه لانقاذ مثل هؤلاء التعساء. ففي شهر آب ١٩٤٨، كان يوجد حوالي ثلثمائة الف لاجيء عربي فلسطيني.

في صباح يوم الجمعة السابع عشر من شهر ايلول سنة ١٩٤٨، اقلع الكونت برنادوت بطائرته من دمشق، وهبط في قطاع جوي يصلح لهبوط الطائرات عند «قلنديا» شمالي مدينة القدس، ومن ثم دعي الى مقر فرقة الفيلق الجيش العربي في الرملة حيث استمع الى انباء عن ازدياد اعمال القناصة الاسرائيليين في القدس. كان برنادوت قد اعتزم ان يعبر الى الجانب الاسرائيلي من مدينة القدس، ولكن احد موظفيه اقترح عليه بان يؤجل الزيارة، لكن برنادوت هتف يقول «لا! نحن لانستطيع ان نسمح لانفسنا بالخوف من انجاز عملنا!». صحبت برنادوت سيارة مدرعة من الفيلق العربي الى ان عبر الى الجانب الاسرائيلي من مدينة القدس.
كانت ثلة برنادوت مؤلفة من ثلاث سيارات تحمله هو وموظفيه من منظمة الامم المتحدة، وضابط ارتباط اسرائيلي. وما ان ساروا بسياراتهم خلال حي «قطمون» حتى اوقفوا من قبل سيارة «جيب» كانت تقف عبر الطريق. قفز ثلاثة رجال يرتدون البدلات العسكرية الاسرائيلية من سيارة الجيب، واتجهوا نحو سيارة برنادوت. وجه احدهم مسدسا اوتوماتيكيا عبر نافذة السيارة التي يجلس فيها برنادوت واطلق النار داخل السيارة فقتل الكونت برنادوت، والعقيد الفرنسي «سيرو»(١٠) الذي كان احد اعضاء موظفي منظمة الامم المتحدة.

---

(١٠) SEROT

صرح احد قادة منظمة «ليهي»[١١] الاسرائيلية الارهابية، في حديث اجري معه فيما بعد، بقوله «ان اللجنة المركزية لمنظمة «ليهى» هي التي اقرت قتله، اي برنادوت، ولامجال للنقاش حول ذلك الموضوع! وقال احدهم «انني فخور بقتل برنادوت!» وصرح اخر «ليست لدي اية افكار عن مقتل برنادوت! . . . » غير اننا «انقذنا القدس»![١٢].

لقد نمت صداقة تامة مع الكونت برنادوت، باعتباره رجلا، لقد كان من اعضاء الاسرة السويدية المالكة، وكان يستحق المركز الذي اعطي له. ولم يكن يناضل باستمرار في سبيل المال، او السلطة، او الشهرة، مثلما كان يفعل ذلك رجال السياسة،وانما كرس حياته على نطاق واسع، لاعمال الخير، عن طريق الصليب الاحمر الدولي، وكان مسيحيا مخلصا، ونبيلا جدا، وفارسا كاملا.

* * *

ارتكبنا في عمان اخطاء اساسية بالغة في تقييمنا للوضع الراهن الذي كانت عليه منظمة الامم المتحدة. فلقد كنا نظن باننا لن نخطأ ان نحن كنا على الدوام نطيع اوامر تلك الحكومات التي اشتملت عليها منظمة الامم المتحدة، وكانت من اقوى الدول في العالم. أما الآن فان ممثل الامم المتحدة قد تم اغتياله حيث ارسل للتوسط في فلسطين. لقد انتظرنا ان تنزل منظمة الامم المتحدة عقابها، غير ان شيئاً من ذلك لم يحدث،بل لم تظهر من المنظمة حتى ولا كلمة احتجاج او شكوى. كما ان الحكومة الاسرائيلية لم تقم باعتقال القتلة. وعلى حين غرة سقط الحجاب عن عيوننا، فاصبح واضحا تماما بان منظمة الامم المتحدة لايمكن ان تحسب لشيء ما حسابا على الاطلاق.

ومع ان وجود دولة اسرائيل كان من عمل منظمة الامم المتحدة وقرارها، الا انها، اي اسرائيل، كانت تقابل الممثلين المحليين لمنظمة الامم المتحدة، بعداء مكشوف حقا، ان لم نقل بازدراء. لقد تاكد لدينا بان منظمة الامم المتحدة، لم تكن لديها، منذ ذلك الوقت لاسلطة ولااعتبار مهما كان نوعه. لقد اختار الاسرائيليون

LEHY(١١)

(١٢) ذكر المؤلف في الهامش ان «اسرائيل الدلا ISRAEL ELDAD قد ادلى بتصريح حول الموضوع في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني في سنة ١٩٧٦، وقد اقتبس «صيون برسون SUNE PERSON ذلك التصريح في كتابه المعنون «وساطة واغتيال» «MEDIATION AND ASSASSINATION».

اسلوب «العمل الكامل»[١٣]. فاذا ما ارادوا ان يفعلوا شيئا ما، فانهم يقدمون على فعله، واذا ارادوا قطعة من الارض، فانهم يستولون عليها، واذا امرهم مراقبو منظمة الامم المتحدة، بان يعيدوا تلك الارض الى اصحابها، فانهم لايأهبون بذلك.

كان مجلس الامن الدولي التابع لمنظمة الامم المتحدة هو الذي يقر القرارات التي تصدرها المنظمة، غير ان شيئا من ذلك لم يتم تنفيذه، وبقى الاسرائيليون يمتلكون تلك الاراضي لانهم كانوا متأكدين ان اياً من الدول المشاركة في مجلس الامن الدولي،لن ترسل جيشاً لتنفيذ قرارات مجلس الامن الدولي تلك.

لقد بقيت الدول المشتركة في عضوية مجلس الامن الدولي، تتمسك بتلك السياسة طيلة السنوات الاثنتين والثلاثين التي اعقبت ذلك.غير ان اعضاء مجلس الامن الدولي في احباطهم قرارات الامم المتحدة، كانوا يعتمدون على يهود الولايات المتحدة الامريكية. لقد كان مقر منظمة الامم المتحدة في مدينة نيويورك، التي تمثل اعظم تجمع يهودي في العالم، واكثر من هذا ان القوة اليهودية في الولايات المتحدة الامريكية كانت تعتقد بانها تتحكم في مصير انتخابات الرئاسة الامريكية، ذلك لان المرشحين للرئاسة كانوا يتبارون فيما بينهم فيما يقطعونه من وعود لمد أسرائيل بالمال وبالسلاح.

لقد تجاوزت قوة اسرائيل قوى كل جيرانها العرب سوية. وهي مدينة بتفوقها هذا الى الولايات المتحدة الامريكية بمفردها[١٤] ومع ذلك فان الدعم الامريكي غير المشروط لاسرائيل، يعزى الى الامبريالية الامريكية، وكل ذلك يعود الى خصائص السياسات الداخلية في الولايات المتحدة الامريكية. وعلى مثل هذه الصورة كانت تظهر، في بعض الاحيان، النتائج غير المنظورة للديمقراطية!!

خلال المراحل الاولى للنزاع على فلسطين، كان الاتحاد السوفياتي يعتبر العرب مرتبطين بالغرب. ونتيجة لهذا الاعتقاد، منح الاتحاد السوفياتي، اسرائيل مساعدات ذات طاقة كبيرة. ففي شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٨، ذكرت صحيفة «الديلي تلغراف» بان جيكوسلوفاكيا قد زودت اسرائيل بمائة طائرة مقاتلة من طراز

---

(١٣) ذكرها المؤلف باللغة الفرنسية «FAIT ACCOMPLI»

(١٤) لم يقتصر الدعم الذي يقدم الى اسرائيل على الولايات المتحدة الامريكية كما ذكر المؤلف ذلك. وانما تساهم جميع الدول الغربية قاطبة. والدول الخاضعة للنفوذ الامريكي عربية كانت ام شرقية. في هذا الدعم وحتى بعض الدول العربية الاسلامية المرتبطة بالنفوذ الامريكي. تساعد بسياستهاهذه في دعم الكيان الاسرائيلي. وخير دليل على ذلك مصير فلسطين ولبنان، وعواقب العدوان الفارسي على العراق منذ اكثر من ست سنوات.

«مسرشمت»، وكانت هناك اربع طائرات للنقل، تغادر جيكوسلوفاكيا كل يوم وهي تحمل مواد حربية الى اسرائيل.

كانت كل الدول الاعضاء في منظمة الامم المتحدة قد تعهدت بان لاتمد ايا من الاطراف الملتحمة في نزاع فلسطين، باية مادة حربية. ولقد راحت بريطانيا تراقب بدقة تنفيذ هذا التعهد. وكان من نتائج ذلك ان كلاً من الاردن، ومصر، اللتين كانتا تستعملان الاسلحة البريطانية، لم تستطيعا ان تحصلا على أي شيء من الاسلحة. اما الروس فانهم، على الرغم من تعهداتهم، راحوا يصبون الاسلحة والطائرات في خزانة الحرب الاسرائيلية.

وفي الوقت الذي كان فيه الاسرائيليون يعدون قواتهم لشن هجوم جديد، فانهم اي الاسرائيليين، لم يبدوا اية رغبة في اقامة الصلح مع العرب، وكان من نتيجة ذلك ان ابقوا الوضع متحركا، وذلك عن طريق الاستمرار في اطلاق نيران الرشاشات، او مدافع «المورتر» او اعمال القناصة وعلى الاخص في مدينة القدس.

ولقد بقي الاسرائيليون عدة ايام قبل حلول اليوم الخامس عشر من شهرتشرين الاول سنة ١٩٤٨، يرفضون السماح لمراقبي منظمة الامم المتحدة، ان يكونوا على مقربة من الجبهة الاسرائيلية مع القوات المصرية. كذلك استطاع الاسرائيليون خلال هذه الفترة ان ينشئوا قوة مؤلفة من حوالي خمسة عشر الف رجل. وفي الاخير شنوا، في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الاول، هجوما مكثفا على المصريين، وكانت تدعمهم في هجومهم ذاك، قوة جوية كبيرة كانوا قد هربوها من جيكوسلوفاكيا.

بقي المصريون يقاومون طيلة خمسة ايام، غير ان جبهتهم مالبثت ان انهارت، واذ ذاك اندفع الاسرائيليون عبر منطقة «بئر السبع» و «غزة». كان المصريون قبلا يسيطرون على كل من «بيت لحم» و «الخليل». غير ان القوات المصرية التي كانت تحتفظ بهاتين المدينتين قد ابيدت برمتها، وبهذا غدت بيت لحم والخليل، خالية من القوات التي تصد الهجوم الاسرائيلي عليها.

لم تكن لدى الفيلق العربي اية قوات احتياطية متوفرة. واننا استطعنا ان نجمع بقايا فوج من السيارات المصفحة، وسريتين من المشاة، في صفة رتل، اتجه في اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الاول، الى شرقي «القدس» ومن هناك انحدر الى «بيت لحم» ومن ثم الى «الخليل»

وفي الوقت الذي كان فيه كل فريق من المصريين والاسرائيليين، قد استخدم حوالي خمسة عشر الف مقاتل في المعركة التي نشبت في السهل الساحلي، فان رتل الفيلق العربي لم يزد تعداده عن ثلثمائة وخمسين رجلا ليس الا: وفي ذلك اليوم بالذات، اي الثاني والعشرين من شهر تشرين الاول، وافق الاسرائيليون والمصريون معا، على تجديد قرار منظمة الامم المتحدة بوقف اطلاق النار، الذي اصدرته المنظمة.

ومع ذلك كان يتوقع تقديم مساعدة ضئيلة من منظمة الامم المتحدة في هذا الشأن، ذلك لان انتخابات الرئاسة الامريكية كان مقرراً لها ان تعقد خلال شهر واحد، وكان كل المشتركين فيها، يتطلعون الى الحصول على الدعم اليهودي لهم في تلك الانتخابات.

كان يندر على قوتنا الاردنية المؤلفة من ثلثمائة وخمسين رجلا، ان تلتحم مع القوات الاسرائيلية التي تعد خمسة عشر الف مقاتل، في سهول «بئر السبع»ولكن كانت سلسلة جبال فلسطين تستمر في امتدادها نحو الجنوب الى ماوراء «الظاهرية» فتسير عبر سهل «بئر السبع»وما ان استطاع الفيلق العربي ان يحتل مدينة الخليل، حتى تركت قوة منه، مؤلفة من سبع عربات مصفحة عبر «التركمية»، وذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الاول، لكي تستكشف «بيت جبرين» حيث تبدأ الجبال بالاختفاء عند السهول.

لم يدرك الاسرائيليون بان رتلنا الصغير، كان قد تحرك الى جنوبي القدس، متجها نحو الخليل، ولذلك فانهم دفعوا في اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول برتل من قواتهم، من «بيت جبرين» لكي يتوجه صاعدا نحو «التركمية» ويحتل مدينة الخليل. كانت قوة الرتل الاسرائيلي تبلغ خمسة اضعاف رتل الفيلق العربي، الذي التقى به بين «التركمية» و «بيت جبرين» فرده الى الوراء نحو بيت جبرين.

ومع ذلك فان السيارات المصفحة التابعة للفيلق العربي لم تستطع ان تخرج الى السهل المكشوف، وانما عادت الى سوح الجبال بين «بيت جبرين» ومدينة الخليل، حيث اقامت موقعا لها هناك. ولقد استطعنا ان ننشيء موقعاً آخر على بعد عشرة اميال عن بئر السبع. وبهذه العمليات الحية استطاع رتل الفيلق العربي، الذي يضم ثلثمائة وخمسين رجلا،ان ينقذ ستمائة ميل مربع من الاراضي العربية ويبقيها لسكانها العرب. ولم يكن في مستطاعنا ان نفعل ذلك لو لم يكن الريف تكتنفه الجبال

لقد وجدنا انفسنا اننا كنا نمسك بالجبال، غير اننا لم نستطع في الواقع ان نحتفظ بالسهل الساحلي، الذي كان في الاصل مُلكا للفلسطينيين، ومن ثم استولى عليه الاغريق، والرومان من بعدهم. لقد اصبحت دولة اسرائيل في الوقت الحاضر تحتفظ بهذا السهل الساحلي الذي سبق للاغريق ان استولوا عليه، في حين بقينا نحن نحتفظ بجبال فلسطين.

ومع ذلك وفي الوقت ذاته، اخذت موجات متعاقبة من اللاجئين العرب، تتدفق على خطوطنا. ذلك لان السياسة المعتادة التي اخذت اسرائيل تطبقها الان، تتمثل في اقدامها فوراً. بعد احتلال اية مدينة او قرية، على طرد كل سكانها العرب منها، وهم لايحملون معهم شيئا سوى ملابسهم التي كانوا يرتدونها. ذلك لان كل شيء كان يملكه هؤلاء السكان العرب في العالم، قد استولى اليهود عليه، وان اي عربي قد يتأخر عن الهرب يعتقله اليهود بمنتهى القسوة، كل ذلك لكي يسرع العرب في هربهم، او ان يذبحوا في ايدي اليهود في بعض الحالات.

* * *

خلال الحرب العالمية الثانية كانت الليدي غراهام فوربس، والدة زوجتي «روزميري» تقوم بادارة بيت «الليدي ماك ميشيل» بمثابة مصح للناقهين من الضباط في مدينة القدس. وقد انتقلت بعد الحرب الى بيت صغير في عمان، غير ان تدفق اللاجئين العرب من فلسطين في سنة ١٩٤٨، قد دعاها مرة اخرى الى الخدمة، ولذلك استطاعت ان تهيء في عمان، مركزاً لتوزيع اللبن على اطفال العوائل اللاجئة من فلسطين، في ذات الوقت الذي اعدت فيه زوجتي «روزميري» نظاما، يتم بموجبه شراء بعض المواد ودفع اجور الى النساء اللاجئات، لخياطة تلك المواد في صفة ملابس يتم توزيعها على لاجئين آخرين.

ولقد نالت الليدي فوربس في الاخير وساماً من جمعية الصليب الاحمر الدولي، يمثل الكونت برنادوت، وقد نقشت عليه عبارة «موريل فوربس، ذكرى نشاط جمعيات الصليب الاحمر الدولي في سبيل اللاجئين الفلسطينين للسنة ١٩٤٩-١٩٥٠»(١٥)

* * *

---

(١٥) وردت هذه العبارة باللغة الفرنسية على الشكل التالي.
MURIEL FORBES: ENSOUVENIR DEL OUVRE DELALIGUE DES SOCIE TES DELACROIX- ROUGe ENFAVEUR DES REVUGIE S PALE STINIENS 1949-1950

راح الشعب العربي يتطلع بمنتهى الحماسة نحو التعليم الذي كان يعتقد بانه هو مفتاح التفوق الغربي. ومازلنا نتذكر حتى الآن ، كيف كان اطفال القرية في العراق، في سني العشرينات، يتراكضون ورائي وهم يخاطبونني قائلين «من فضلك اريد ان اذهب الى المدرسة».

اما في الغرب فان الاولاد هناك لايتطلعون الى الذهاب الى المدرسة بصفة خاصة، ولا ان يحصلوا على المعرفة حين يكونون في المدرسة. اننا لانثمن هذه الامتيازات التي كنا نتمتع بها زمنا طويلا. اما اولئك الذين لم يحصلوا على منافعنا، فقد كانت هذه المنافع تشملهم بحماسة . وهكذا فما ان ينجح الاولاد من بلدان الشرق الاوسط، في الدخول الى المدارس او الجامعات الغربية، حتى تكون لديهم رغبة حمسة في التعليم.

وتنطبق ذات الاعتبارات على العمل ايضا، فاولئك الذين كانوا يهاجرون الى الغرب. كانوا على استعداد لان يشتغلوا مدة اثنتي عشرة او اربع عشر ساعة في اليوم، وان كان رعايا الامم الغربية يطالبون على الدوام بساعات اقصر، واجور اكبر ونتيجة لذلك كان المهاجرون الى بريطانيا وامريكا غالبا ما يصادفون النجاح، والثراء السريعين.

في سنواتي الاخيرة، وحين كنت احاضر في الولايات المتحدة الامريكية، التقيت عدة مرات، بكثير من الاثرياء الاردنيين. كان البعض منهم في الاصل جنودا، او نواب ضباط في الفيلق العربي، غير انهم اصبحوا من اصحاب الحوانيت، ومن رجال الاعمال الذين يتمتعون بالرخاء، فما ان وصل هؤلاء الى امريكا حتى راحوا يعملون ليل نهار، الى ان غدوا من الاثرياء.

يحدث التعاقب الطبيعي ويأخذ مجراه. فأولئك الذين اعتادوا الثراء والمعرفة ، يزدادون كسلاً وخمولا، في الوقت الذي يروح فيه المحرومون يكدون ليل نهار لكسب الثروة والمعرفة. وفي بعض الاوقات يكون هذا التعطش العربي الى المعرفة مثيرا للارباك ، انني مازال اتذكر كيف ان وزير الدفاع الاردني قد قال لي في نهاية حرب فلسطين في سنة ١٩٤٩ « ان الجيش المصري جيش عظيم حقا! ذلك لان كل ضابط فيه يحمل شهادة جامعية! وانني اود لو نستطيع نحن في الاردن، ان نحقق ولو النصف من مستواهم الرفيع!»ولقد رددت عليه اقول «هذا جيد تماما،
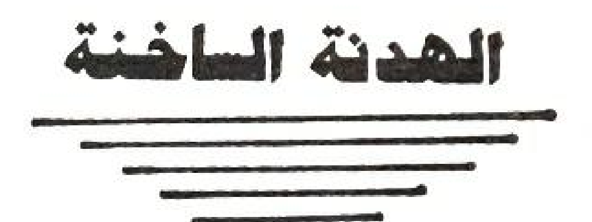
ولكننا استطعنا قبل كل شيء، ان نحتفظ بجزء كبير من فلسطين لسكانه العرب ، ولكن الجيش المصري لم ينقذ اي شيء!»

غير ان الوزير سارع الى التخلص من تعليقي ذاك بان قال «اجل! اجل! ولكن ألست تعتقد باننا نهدف الى ان نحقق التكافؤ مع الجيش المصري؟».



الفصل الخامس عشر

الهدنة الساخنة



الهدنة الساخنة!

في شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٩، رتب الدكتور رالف بنش الامريكي الذي خلف الكونت برنادوت، عقد اجتماع بين ممثلي مصر واسرائيل في جزيرة «رودس»، وقد وقع الطرفان على عقد هدنة في اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط ١٩٤٩. وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر اذار الذي تلاه، وقع لبنان هو الآخر على هدنة، وان لم يكن له في الواقع اي جيش، ولم يشترك في القتال الا قليلا(٢).

وفي نهاية شهر آذار ذاته انبأت العراق حكومة «عمان» بانها سوف تسحب قواتها التي بقيت لمدة عشرة اشهر تمسك بستين ميلا من خط القتال. وفي ذات الوقت كان الاسرائيليون قد احتلوا منطقة «النقب» ووصلوا الى جنوبي خليج العقبة. وعلى

DR. RALPH BUNCHE(١)

(٢) في سنة ١٩٨٢ صدر في الولايات المتحدة الامريكية كتاب بعنوان «الدماء والدموع بدلا من اللبن والعسل» MILK AND HONEY / BLOOD AND TEARS لمؤلفه هرون هارت AARON HART وكان هذا المؤلف احد اليهود الامريكيين الذين تطوعوا لمقاتلة الجيوش العربية في فلسطين في سنة ١٩٤٨. وقد ذكر في كتابه عن لبنان والجيش اللبناني مايلي «لقد كنا في يوم اعلان دولة اسرائيل ننتظر قيام الجيش اللبناني بغزو اسرائيل لكن هذا الغزو لم يقع مثلما حدث ذلك من الجهات الاخرى (ص١).

وحتى ذلك الموقف القذر الذي وقفه لبنان وجيشها قد تحول الى ماهو اقذر واكثر قذارة حين تحالفت الفئة التي كانت متسلطة على الحكم في لبنان ومازالت، ونعني بها الطائفة المارونية، مع اسرائيل في محاربة الفلسطينيين منذ نيسان ١٩٧٥ ولم تكتف بذلك بل مهدت لاسرائيل غزو لبنان واجتياحها ومازال تساعدها في الاحتفاظ بالقسم الجنوبي منها، وان مايعرف بجيش لبنان الجنوبي الذي انشأته اسرائيل يتألف من الموارنة والدروز ومن افراد عصابة امل.

هذه الشاكلة اصبح الفيلق العربي وحده يواجه الاسرائيليين في جبهة تمتد زهاء ثلثمائة ميل.

اصبح الآن لدينا حوالي عشرة آلاف رجل مقابل عدد اعظم بكثير من الاسرائيليين•وفي شهر شباط سنة ١٩٤٩ كانت حكومة شرقي الاردن قد تلقت دعوة من الدكتور «رالف بنش» لارسال مندوب عنها الى جزيرة «رودس»،للتفاوض على عقد هدنة مع اسرائيل تحت اشراف منظمة ألامم المتحدة. وفي اليوم الحادي عشر من شهر آذار من ذات السنة وقع شرقي الاردن على هدنة مع اسرائيل في جزيرة رودس.

وفي الوقت ذاته افصح العراق عن نيته في سحب قواته من دون ان يتفاوض مع اسرائيل،كما ان اسرائيل قد اعلنت من جانبها بان الهدنة التي وقعتها مع شرقي الاردن لايمكن ان تطبق على الجبهة العراقية، وانه اذا ماانسحبت القوات العراقية، فان الجيش الاسرائيلي سوف يحتل المنطقة التي كان الجيش العراقي يحتلها، وذلك بقصد الحفاظ على السلام!

وفي اليوم الثالث عشر من شهر آذار، ابرقت حكومة اسرائيل الى الدكتور رالف بنش، تعلمه بانه اذا ماتسلم الفيلق العربي المناطق التي كان الجيش العراقي يحتلها(٣) فانها،اي اسرائيل، تعتبر هذا الاجراء بمثابة خرق للهدنة.

ليس مستطاعاً وصف القلق والتوتر اللذين حدثا في تلك الايام بالكلمات،ذلك لان اسرائيل كانت هي المنتصرة في كل مكان،وعلى هذا الاساس تم قبولها عضواً في منظمة الامم المتحدة في اليوم الحادي عشر من آذار ١٩٤٩.

ومع ان اسرائيل كانت في كل مكان ترفض اوامر منظمة الامم المتحدة،وقد اغتالت الكونت برنادوت الممثل الخاص للامم المتحدة، الا انها قد حظيت بترحاب حماسي من منظمة الامم المتحدة. اما قبول شرقي الاردن في منظمة الامم المتحدة

---

(٣)كان الجيش العراقي بعد الهدنة الاولى في فلسطين قد استقر في المناطق التالية:-
(١) المنطقة الكائنة بين «اربد» والحدود وكان هدفه التقدم على محور اربد - جسر المجامع واحتلال جسر له عبر الاردن في جسر المجامع.
٢، وضع سرب من القوة الجوية العراقية في مطار المفرق.
٣،تحركت القوات العراقية لمهاجمة حصن كيشر ومرتفع كوكب الهوى.
٤،انتقلت القوات العراقية الى منطقة السامرة - نابلس وتوابعها وكانت تتحرك على محور نابلس - طول كرم حيث احتلت مستعمرة كولم ودخلت مدينة جنين فاصبح خطها يمتد من جنين - طولكرم وقلقيلية،راس العين (بتلخيص عن كتاب «محنة فلسطين» للفريق الاول الركن صالح صائب الجبوري طبعة ١٩٧٠».

فان روسيا قد استخدمت ضده حق النقض (الفيتو) بحجة ان حكومة شرقي الاردن حليفة بريطانيا!!

وفي النهاية طالبت اسرائيل بضم اربعمائة كيلومتر مربع على امتداد الجبهة العراقية، ووعدت (بانها اذا ما اعطيت لها تلك المساحة) فلسوف توقع على هدنة مع شرقي الاردن. كانت اسرائيل ماتزال آنذاك ملتزمة بالهدنة التي اقرها مجلس الامن الدولي في اليوم الثامن عشر من شهر تموز سنة ١٩٤٨. وعلى هذا فان اسرائيل، اذا ماستأنفت القتال مع شرقي الاردن (كما هددت بذلك)، فانها تكون بهذا العمل قد خرقت نظام منظمة الامم المتحدة بصفة مفضوحة، في حين ان المنظمة قد رحبت بقبول اسرائيل عضوا فيها.

ابرقت حكومة شرقي الاردن الى حكومتي الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا حول الموضوع. وقد ردت الحكومة الامريكية على ذاك بانها ترفض ان تتدخل في الامر!.واخيرا تم التوقيع في اليوم الثالث من شهر نيسان سنة ١٩٤٩ على الهدنة الاردنية الاسرائيلية. وكانت هذه الهدنة تشمل الجبهة العراقية ايضا، وقد تسلمنا نحن تلك الجبهة بان ارسلنا اليها بالفين من قواتنا الاردنية، واستبدلنا بها تسعة عشر الف من القوات العراقية.

* * *

يقول العرب انفسهم ان لديهم مثلا يقول «اتفق العرب على ان لا يتفقوا».

لقد تم انقاذ منطقة كبيرة من فلسطين لاصحابها المحليين بفضل الفيلق العربي وحده، والذي لم يهاجم اية منطقة خصصت لاسرائيل طبقاً لمشروع التقسيم الذي اقرته منظمة الامم المتحدة!

اما مصر وسوريا فانهما لم تنقذا اية قطعة من ارض فلسطين، ومع ذلك فقد قلبت الحقائق خلال السنتين او الثلاث سنوات التي اعقبت ذلك رأسا على عقب في اي مكان، وذلك بفعل الدعاية السياسية.

لقد كانت تلك الدعاية تزعم بان مصر وسوريا هما ابطال القضية العربية، لكن تمت خيانتها من قبل الاردن، وان هذه الخيانة التي اتت من الاردن، يقع اللوم عنها بالطبع على القائد البريطاني الذي يقود الفيلق العربي، والذي قيل عنه بانه تلقى اوامر سرية من الحكومة البريطانية لمعاونة اسرائيل، او انه بدلا عن ذلك قد تسلم

رشوة من اسرائيل تقدر بكميات كبيرة من النقود!!

لقد كنت ابتداء من سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٥٦ انا المسؤول عن ثلثمائة ميل من الحدود بين الاردن واسرائيل. وكان الهدف الصهيوني يقوم على اساس انشاء دولة لايسكنها سوى اليهود وحدهم. ولذلك شرع الصهاينة، منذ انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، يعملون بصفة منتظمة على طرد كل الفلسطينيين المحليين من المنطقة التي كانوا يسكنون فيها،والتي احتلها اليهود بمنتهى العنف،بحيث اضطر السكان الفلسطينيون الى الهرب من ديارهم مخلفين وراءهم كل ممتلكاتهم التي استولى اليهود عليها.

لقد هدمت كل القرى العربية التي طرد سكانها العرب منها، ومن ثم جرى حرقها،كل ذلك كيلا تبقى للاجئين العرب، اية مساكن يمكن ان يعودوا اليها.

لقد حاول بعض هؤلاء اللاجئين العرب، بعد عقد الهدنة، ان يعودوا الى ديارهم ليلا لكي يروا ماذا كان مستطاعا انقاذ شيء من اموالهم التي تركوها عند هربهم.ولكن امثال هؤلاء اللاجئين قد تم القبض عليهم من قبل الحراس اليهود واطلقت النار عليهم وقتلوا في ذات المواقع التي القى القبض عليهم فيها، وذلك من دون اعتقال او محاكمة.وكانت نتيجة ذلك ان المتسللين من العرب المطرودين قد بدأوا يحملون السلاح اثناء تسللهم حيث تطورت عن ذلك حرب انصار مصغرة ماكان لها ان تحدث.

امرتني حكومة شرقي الاردن بان امنع اللاجئين من عبور خط التقسيم،ليس خارج نطاق الاهتمام باسرائيل، وانما لان اكثرية هؤلاء الذين كانوا يحاولون عبور خط التقسيم سوف يتم قتلهم من قبل اليهود،ولايمكن الحصول على شيء مامن وراءذلك. لقد كنت ابذل كل جهد مستحيل لكي اتعاون مع الاسرائيليين ان تظل الحدود هادئة، غير ان جهودي هذه كانت كلها غير مجدية.

كان هناك شك ضئيل في ان الاسرائيليين لم يكونوا مكتفين بخط تحديد الحدود، وانهم مايزالون يتطلعون الى امتلاك فلسطين كلها حتى حدود الاردن، مادام قد تم الاعتراف بهم دونة من قبل منظمة الامم المتحدة والدول الاخرى.فاذا لم يكن الوضع الدولي في تلك اللحظة مناسبا لتجديد الحرب على الفور،فان الاسرائيليين سوف يرغبون في ان يظل الوضع مترجرجا،وبذلك يمكن استئناف الحرب حين تحين الفرصة المناسبة!

كانت تلك هي القاعدة الاولى التي قامت عليها سياسة اسرائيل. اما القاعدة الثانية فهي الانتقام من العرب بعشرة امثال:فاذا ماقتل يهودي على يد احد اللاجئين المتسللين،يكون الانتقام لذلك بقتل عشرة من العرب، انتقاما لذلك القتيل اليهودي. ولهذا السبب كان يتم ارسال فصيل من الجنود الاسرائيليين عبر خط التقسيم،لقتل عشرة افراد من القرية العربية التي تقع على الحدود!

وطبقا لذلك اقمنا سياجاً من الاسلاك الشائكة حول قرانا الواقعة على الحدود، وزودنا كل قرية بعشرة بنادق، وعينا هناك جنديا من الفيلق العربي لكي يقوم بتنظيم الدفاع عن القرية. ولقد زعم المتحدثون باسم اسرائيل بان الحكومة الاردنية هي وحدها المسؤولة عن اطلاق النار عبر الحدود، لانها لم تمنع رعاياها من عبور خط التقسيم الى داخل المنطقة التي تحتلها اسرائيل.

لم يسمع احد بمبدأ مثل هذا المبدأ في العلاقات الدولية. فلو ان انسانا غير مرغوب فيه كان قد دخل فرنسا من بريطانيا، فان الحكومة الفرنسية لايمكن لها ان تحتج بانه كان ينبغي للحكومة البريطانية ان تحول دون مغادرة ذلك الانسان لاراضيها.

وفضلا عن ذلك فان المتسللين لم يكونوا من الرعايا الاردنيين اطلاقا،ولا كانوا من سكان قرى الحدود الذين يقع الانتقام منهم، وانما كان جميع المتسللين من اللاجئين الفلسطينيين المعدمين،وكانوا في كثير من الحالات من مخيمات اللاجئين التي اقيمت خلف الحدود باميال عديدة،او من اولئك الذين مازالوا يعيشون في كهوف قائمة في التلال.

غير ان ما هو اكثر اهمية،هو حقيقة انني كنت قد عملت المستحيل لكي اتعاون مع الاسرائيليين لتجنب الحوادث.فلقد عرضت نصب هواتف عند الحدود بين نقاط الشرطة الاسرائيلية والشرطة الاردنية،او تأليف حراسات يقوم بها جنود اسرائيليون واردنيون، غير ان الاسرائيليين لم يقبلوا بأي عرض تقدمت به اطلاقا.

وقع حادث مهم على الخط الذي يقع غربي بلدة جنين مباشرة، حيث لم تقع هناك اية حوادث. غير اننا اكتشفنا مؤخرا ان ضابط شرطة اسرائيلي كان موجوداً في هذا القطاع،وكان هذا الضابط الاسرائيلي من منتسبي الشرطة الفلسطينية ايام الانتداب البريطاني،ومن الذين اقاموا لهم علاقات مع العرب. ومع ذلك فقد

تأكدت السلطات الاسرائيلية مما كان يحدث في المنطقة، فاسرعت بنقل ذلك الضابط الاسرائيلي الى مكان ما، واذذاك بدأت الحوادث تقع على الفور في قطاع جنين.

هناك نصف مليون من اللاجئين العرب المعدمين، كان معظمهم في شرقي الاردن، قد تم طردهم من ديارهم في فلسطين من دون ان يحملوا معهم شروى نقير. كانت حدودنا مع اسرائيل تمتد الى اكثر من ثلثمائة ميل طولا. ولذلك كان يستحيل علينا ان نمنع واحدا او اثنين من الرجال الذين كانوا يزحفون ليلا خلال خط التقسيم. وكان امثال هؤلاء المتسللين يبتغون ان يزوروا منازلهم القديمة، ولكن كل واحد يتم القاء القبض عليه وهو يفعل ذلك، تطلق عليه النار فورا من لدن الحراس الاسرائيليين.

وفي مناسبات اخرى كان الجنود الاسرائيليون يقتحمون داخل قرى الحدود، وهم يحملون معهم عبوات ناسفة صغيرة يضعونها قبالة ابواب المنازل، فلا تلبث هذه العبوات فيما بعد، ان تنفجر داخل المنزل، وعندها يخترق الجندي الاسرائيلي ستار الظلام الى داخل المنزل وهو يحمل رشاشته في الوقت الذي يكون فيه الرجال والنساء والاطفال نياما!

ان ذكر العديد من هذه الامثلة يكون مملا، ولنكتفي بان نقول بان الاسرائيليين كانوا يتحركون بفعل اعتبارين: الاول انهم كانوا غير راضين عن خط التقسيم وانهم كانوا يهدفون الى احتلال فلسطين كلها برمتها حتى حدود شرقي الاردن. ولذلك كانوا يرغبون في ان تبقى العمليات العسكرية حية الى ان تحين الفرصة التي يتجدد فيها القتال[٤].

الثاني ان اسرائيل كانت تعتمد على القوة وحدها ليس الا، وتريد ان تحمي مواطنيها اليهود بتطبيق قاعدة العشرة امثال. فكل اسرائيلي يقتل يجب ان يقابله موت عشرة من الفلسطينيين، بغض النظر عما اذا كان اولئك الفلسطينيون العشرة الذين تم قتلهم، كانت لهم ادنى علاقة بالقاتل!

اود ان اؤكد حقيقة واقعة هي ان هذه الوسائل كانت وسائل سياسية خالصة. ذلك لان اليهود - كما رأينا - لم يكونوا لاعنصراً ولاشعباً، وانما مجرد اتباع للدين

---

(٤) يذكر «ايغال الون» رئيس اركان الجيش الاسرائيلي في كتابه الذي اصدره بعنوان «انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي» مايلي: ولم تساعد حملات الهجوم الاسرائيلية التي اعقبت الهدنة في اليوم العاشر من شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٨، وبصفة خاصة تلك التي تمت في «النقب» و«الجليل» الاوسط، على تحقيق وتثبيت مكاسب اقليمية واضعاف العدو حسب، بل انها ادت الى اطراد التحسن في شكل ستراتيجية اسرائيل وتنظيمها العسكري» ١٩٧١.

اليهودي الذي تفرع منه الدين المسيحي. ذلك ان زعماء اسرائيل خلال سني الاربعينات والخمسينات لم يكونوا بصفة عامة متحدرين من «بني اسرائيل» اصحاب التوراة، وانما كانوا من يهود اوربا الشرقية ليس الا، اولئك الذين تعرضوا للاضطهاد في المانيا وبولندا وروسيا، وعلى هذا فانهم لم يكونوا نتاج اليهودية بل نتاج الطرق الاوتوقراطية النازية او الروسية التي عانوا منها.

لقد سمعت بعض اليهود يقولون ان المسيحية من اكثر الاديان قسوة ووحشية، وهم يبنون اتهامهم هذا على الاضطهاد والمظالم التي عاناها اليهود في اوربا المسيحية. ومع ذلك فاني لاشك في ان دولة اسرائيل كانت قد قامت على اساس الاعتماد على القوة والازدراء بالانسانية والعدالة. ان تجربتي في الحياة التي امتدت اربعا وثمانين سنة(٥) قد اقنعتني بان مثل هذا الامر خط مغلوط للتصرف حتى من وجهة النظر العالمية الخالصة، وان الشفقة والكرم والتفاهم المتبادل ،كانت على الدوام،تنتج نتائج افضل بصفة اوسع مما ينتجه العنف. فنحن نضطر الى ان نقاوم ذلك العنف،ولكن نقوم بالدفاع عن الاشخاص الذين يكونون تحت حمايتنا. اما بالنسبة الى الذين يهاجموننا فيجب ان نعرفهم وان نتحدث اليهم،لانه ينبغي لنا ان نسعى للتوصل الى تفاهم معهم.

* * *

في احدى ايام الجمع، من شهر تموز سنة ١٩٥١ كنت اتمشى مع عائلتي في مركز للتسوق في عمان لان عطلة الجمعة كانت تعوضنا عن عطلتنا يوم الاحد.كان الاطفال في حانوت يبيع لعب الاطفال حين اندفع الى الحانوت احد رجال الشرطة وقال لي همسا «انّ رئيس الوزراء يريدك في داره حالا». قدت سيارتي الى منزل «سمير باشا الرفاعي» الذي كان يتولى آنذاك رئاسة الوزارة،كان اعضاء الوزارة قد اجتمعوا هناك،وهم يبكون من دون خجل والدموع تسيح على خدودهم! وحينذاك قال لي «سمير باشا» بين النحيب والآهات «ان سيدنا قد مات! ادع الجيش لان يكون في حالة طوارىء».

كان الملك عبدالله قد ذهب لاداء الصلاة في مسجد «بيت المقدس» اي المسجد

(٥) وقت تدوين هذه المذكرات وقد توفي غلوب في سنة ١٩٨٦ عن عمر بلغ السابعة والثمانين

الاقصى. كان هناك رجل قد اختفى وراء الباب واطلق النار على راس الملك حين عبر عتبة المسجد[٦].

كانت في القدس اثناء العهد التركي اسرتان هما اسرة آل الحسيني واسرة «آل النشاشيبي» ولقد عين البريطانيون اثناء انتدابهم على فلسطين «الحاج امين الحسيني» مفتيا للدين الاسلامي في القدس، ولكن خلال الحرب العالمية الثانية كان امين الحسيني قد ذهب الى النازيين، ولم يستطع العودة الى القدس بعد تلك الحرب[٧].

لقد دخل الفيلق العربي فلسطين لكي يدافع عن المنطقة الرئيسة التي خصصت للعرب، وكانت تلك المنطقة كما سبق ان اوضحت قد ضمت الى الاردن[٨] لقد وجد المفتي الذي كان يتطلع الى ان يصبح هو زعيم فلسطين ان الملك عبدالله قد اصبح يتوسل به ويتضرع اليه. تم اعتقال عضو آخر من الاسرة الحسينية بتهمة قتل الملك عبدالله وحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم فيه.

كان الولد الاكبر للملك عبدالله، هو الامير طلال، الذي كان يعيش في مستشفى للامراض العقلية في سويسرا لانه كان يعاني من مرض «الشزفر نيا». كان فتى ظريفا محبا لعائلته وان كانت علاقاته مع ابيه غير حسنة[٩]. عاد «طلال» الى عمان في اليوم الخامس من شهر ايلول سنة ١٩٥١ لكي يعتلي العرش. كانت الشوارع قد

---

(٦) ذكر الملك حسين انه كان قد صحب جده الملك عبدالله في يوم مصرعه الى بيت القدس وان الملك عبدالله «ماكاد يخطو بضع خطوات حتى ظهر رجل وراء الباب الكبير الى اليمين لم يكن في حالة طبيعية وكان يمسك بسلاح وقبل ان يستطيع احد ان يبدي اية مقاومة اطلق النار. لم يره جدي ابداً وكان على بعد مترين من القاتل فاصيب برأسه فانهار وقد انتشرت عمامته على الارض ولم اتبين فورا ما قد حدث. خلال لحظة كانت تبدو دهرا كاملا، بقي القاتل جامدا غير قادر على الحركة. الى جانب قدمي كان شكل ابيض مسجي على الارض وبقيت لاافهم، وفجأة استدار الرجل وفر هاربا فانطلقت في اثره داخل المسجد. وفي الوقت الذي انطلق مسرعا، رأيت من طرف عيني كل اصدقاء جدي يهربون في كل اتجاه. انني مازلت اراهم هؤلاء الكبار واعيان الدولة وهم يخفون وجوههم ويفرون كأنهم العجائز المذعورات» ص ٣٩، مهنتي كملك طبعة ١٩٧٨.

(٧) هرب الحاج امين الحسيني مع رشيد عالي الكيلاني في اعقاب فشل ثورة ايار سنة ١٩٤١ الى تركيا ومنها الى المانيا.

(٨) ذهبت الاجزاء التي خصصت للعرب من فلسطين غنائم باردة لاسرائيل والاردن ومصر، فقد ضمت الضفة العربية الى الاردن، وقطاع غزة الى مصر، ومابقى منها استولت عليه اسرائيل حتى اذا ماوقعت هزيمة حزيران سنة ١٩٦٧ اصبحت كل الاجزاء العربية في فلسطين تحت الاحتلال الاسرائيلي المباشر، وبدأت اسرائيل بتكريس هذا الاحتلال عن طريق انشاء المستوطنات الاسرائيلية فيها طبقا لما خططه الصهاينة من زمان بعيد.

(٩) انتشرت اشاعات كثيرة متضاربة عن مرض الامير طلال وابعاده عن العرش بعد مقتل ابيه. وقد قيل في حينه ان الحمية التي اتسم بها هذا الفتى الشريف ومعارضته الصريحة للسياسة التي كان ينتهجها ابوه عبدالله، كانت هي السبب الحقيقي لذلك الابعاد الذي تم التستر عليه بذريعة المرض العقلي

زينت بفخامة، وقد تلقى الترحاب الحماسي، وكان كثير من الناس يبكون من شدة الفرح والعاطفة.

وفي الوقت ذاته استمرت الحرب الفرعية على خط التقسيم الاسرائيلي، ذلك ان اللاجئين الفلسطينيين، واصلوا التسلل عبر خط التقسيم ليلا لكي يزوروا مساكنهم القديمة. وكانت القوات الاسرائيلية تعبر خط التقسيم باستمرار لتطلق النار على العرب، بحجة انها تريد ان تمنع تسلل اللاجئين. ولم تسجل سوى حالة واحدة كان فيها رجال الفيلق العربي قد عبروا خط التقسيم. ذلك لان هيئة مراقبي منظمة الامم المتحدة والضباط الذين اختيروا من دول محايدة، كانوا قد تخلوا تماما عن اي امل للسيطرة على الوضع. فاذا مابعثوا بتقارير عن الحوادث الى مقر منظمة الامم المتحدة في نيويورك، فان تلك التقارير لن ينجم عنها اتخاذ اي عمل لقاء ذلك[10]. ولما كنت انا نفسي والفيلق العربي نمثل القوة التي تحافظ على خط التقسيم، فقد كنا ضحايا دائميين للقدح والذم. اما البلدان العربية الاخرى (من امثال سوريا، ومصر والمملكة السعودية) فان ايا منها لم تستطع ان تنقذ حتى ولا «يردا» واحدا مربعا من اراضي فلسطين العربية، بل ان هذه البلدان لم تتوقف عن اتهام الاردن بالخيانة، الى درجة ان احدى الصحف المصرية قد ذكرت ان اسرائيل قد دفعت الي الاموال، وان الصحيفة زعمت بانها تملك صورة ابدو فيها نفسي جالسا في مؤتمر مع القادة العسكريين في تل ابيب، وانني كنت اتآمر معهم لطرد العرب. ولقد اعلنت تلك الصحيفة بانها سوف تنشر تلك الصورة في عدد قادم لكن الصورة لم تنشر ابدا!

كان الملك طلال رجلا حسن الخلق والخلقة ومن اليسير العمل معه. كان في اوائل الاربعينات من عمره، وذلك هو المثالي النموذجي لملك جديد. لقد كان له من العمر مايكفيه للتجربة، ومن الشباب مايكفيه لان يظل نشطا قويا. ففي خلال سنة من حكمه من شهر تموز سنة ١٩٥١، الى شهر تموز سنة ١٩٥٢، بدا على الاردن بانه سيكون بلدا مستقراً تماما.

كان الجيش الاسرائيلي يغير باستمرار عبر الحدود. وقد حدث انقلاب عسكري في سوريا[11] وشغب في بغداد[12] واعلنت الاحكام العرفية في طهران[13] واحرق

---

(١٠) منذ ان انشئت منظمة الامم المتحدة وحتى الان كان اهم موظفيها في مقرها بنيويورك من كبار الصهاينة والاستعمار ومن الذين كانوا يخفون عن المنظمة كل الحقائق التي لاتروق لليهود.

(١١) تلاب اديب الشيشكلي الذي حدث في اليوم التاسع عشر من كانون الاول ١٩٤٩.

(١٢) انتفاضة تشرين الثاني سنة ١٩٥٢ في اليوم الثاني من الشهر المذكور.

(١٣) انقلاب الجنرال زاهدي في طهران في اليوم التاسع عشر من شهر اب سنة ١٩٥٣ والذي ادى الى سقوط حكومة الدكتور محمد مصدق، وعودة الشاه محمد رضا الى عرشه وسيطرة الاحتكارات الامريكية على نفط الاحواز تمهيدا لتحويل ايران الى مستعمرة امريكية خالصة.

النصف من مدينة القاهرة نتيجة الشغب[14] وقد حدث قتال في شوارع بيروت. كما ان الشرطة الاسرائيلية كانت قد اطلقت النار على الحشود العربية المتظاهرة في الاراضي المحتلة.

اما في الاردن فان الانتخابات العامة قد اجريت فيه من دون ان يتم اعتقال فرد واحد، او اطلاقة واحدة لامن قبل الشرطة او الجيش، ضد المواطنين الاردنيين. وللمرة الثانية ظهر بأن المحبة كانت اقوى من الاكراه والقسر. كان الملك طلال محبوبا وكان ذا وعي عميق، وكانت اخلاقه الخاصة خالية من الاغلاط في الوقت الذي كانت فيه شخصيته ظريفة.

غير انه خلال شهري نيسان وايار من سنة ١٩٥٢ تفاقم مرضه العقلي. كان طلال يعيش في قصره، ولم يكن يمارس حقوقه الملكية التي كان يديرها مجلس للوصاية. وفي اليوم الحادي عشر من شهر آب سنة ١٩٥٢ تم استدعاء البرلمان الى عقد جلسة سرية وعرضت عليه فيها المستندات الطبية التي تخص الملك. وبعد انقضاء جملة ساعات في النقاش قرر البرلمان تنحية الملك طلال عن العرش،وان يخلفه فيه ابنه الاكبر الامير حسين.

ذهب الملك طلال اول الامر الى مصر ومن ثم غادر الى تركيا، حيث كان يعيش حزيناً وحيدا في فيلا «على ضفاف مضيق البسفور» الى ان توفي بعد ذاك بسنوات قليلة. وفي الوقت ذاته كان الامير حسين يدرس في كلية «هارو» في انكلترا وقد عاد الى عمان في اليوم الخامس والعشرين من شهر آب سنة ١٩٥٢،فاستقبل بترحاب شعبي حمس. غير انه لم يكن من الناحية القانونية قادراً على ممارسة واجباته الملكية، لانه كان آنذاك في السنة السابعة عشرة من عمره. وعلى هذا فان عمره لن يكتمل حتى يبلغ السنة الثامنة عشرة بعد ميلاده. وطبقا لذلك عاد الى انكلترا حيث امضى دورة مختصرة مدتها ستة اشهر في الكلية العسكرية في «ساندهرست»

* * *

لقد استطعنا خلال هذه السنين المليء بالقلق المتزايد، ان نحقق نجاحا مثيرا كسبنا به الولاء الجماعي تقريبا من لدن القرويين الفلسطينيين.لقد ادت الغارات الانتقامية التي كان الجيش الاسرائيلي يقوم بها على حدود القرى العربية،ان نبادر نحن الى تأليف الحرس الوطني. وكان هذا الحرس يتضمن تجنيد الشباب الفلسطيني

---

(١٤) احرقت القاهرة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ وقد وجه الاتهام بذلك الى القصر لاسقاط الحكومة الوفدية.

في القرى العربية،وتدريبهم للدفاع عن ديارهم على ايدي نواب ضباط وجنود من افراد الفيلق العربي الذين عينوا في تلك القرى. كما اننا استطعنا ان نحصل على كميات محدودة من الاسلاك الشائكة (لانه ليس لدينا المال الذي نستطيع ان نشتري به المزيد من هذه الاسلاك) وذلك لاحاطة حدود القرى بها.

وفي عدة مرات كانت الهجمات التي تشنها سرايا من الجيش الاسرائيلي على القرى العربية قد تم صدها. ويبدو ان هذا الفشل قد زاد من حنق الاسرائيليين الذين واصلوا اقتراف الاعتداءات ونشر الدعاية. ففي شهر ايار سنة ١٩٥٣ حصلت اربع عشرة حادثة اعتداء اسرائيلية في مدى اربعة ايام. كما ان الحكومة الاردنية قد ادعت في بيان رسمي ان مائتي هجوم قامت بها القوات الاسرائيلية،في الفترة الواقعة مابين اليوم الاول من شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٣ حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر ايار من تلك السنة. وقد نجم عن تلك الهجمات وفاة مائة وستة وخمسين شخصا من العرب معظمهم من النساء والاطفال.

رحنا نتضرع من دون جدوى الى لجنة المراقبة التابعة لمنظمة الامم المتحدة بان تقنع الاسرائيليين بالتوصل الى عقد اتفاق للتعاون بين الشرطة الاسرائيلية والشرطة الاردنية.

* * *

حين كنت شابا كنا قد اعتدنا اذا اردنا ان نتباهى باي شيء عملناه، ان نتلقى السؤال عما اذا كان «بوقينا» قد مات!؟لقد نفخت بوقي عدة مرات في هذه الصفحات حين دونت الشواهد والبيانات التي تلقيتها[١٥]. لقد وقع حادث من هذا القبيل في هذا الوقت. كانت زوجة رئيس الجمهورية اللبنانية قد قامت بزيارة الى الاردن لمشاهدة اطلال مدينة «البتراء»[١٦] كان هناك حصن للشرطة قد انشيء في مدخل الموقع الاثري،وكان السواح المشهودون يرتاحون لفترة قصيرة في مركز الشرطة ذاك،ويتحدثون الى احد العرفاء المسؤولين عنه. فاجأت زوجة الرئيس اللبناني ذلك العريف بقولها «كيف تشعر وانت تعمل تحت امرة ضابط بريطاني؟». نظر اليها العريف متحيرا وسألها «ماذا تقصدين؟» فردت عليه «اعني غلوب باشا» فاجابها العريف يقول «انه ليس انكليزيا بل هو واحد منا!»
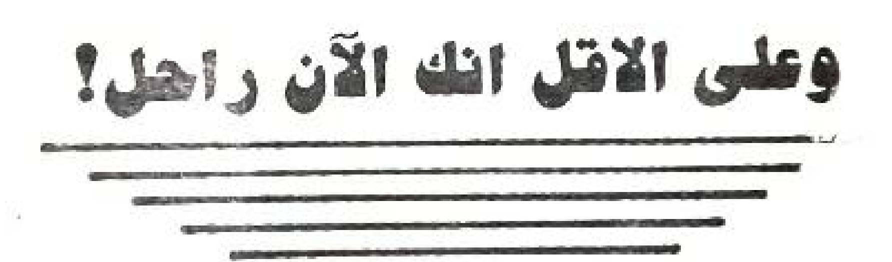
---

(١٥) يقصد المؤلف بعبارة «نفخت بوقي» تفاخرت وتباهيت.

(١٦) تقع الى الجنوب من الاردن وقد سميت بهذا الاسم لانها كانت منحوتة في الصخر ولما لم يعرف الاغريق او الرومان اسم تلك المدينة فقد سميت PETRA اي الصخر والمعتقد انها هي المدينة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم باسم «ارم».

الفصل السادس عشر

وعلى الاقل انك الآن راحل!



وعلى الاقل انك الآن راحل!

في شهر نيسان سنة ١٩٥٣ بلغ الملك حسين سن الثامنة عشرة من حياته، وهي السنة التي تعتبر العمر الملكي المحدد بالدستور. لقد عاد الى عمان حيث استقبل بالترحيب الحماسي في كل مكان. كان شبابه، وكياسته وسوء الحظ الذي اصاب العائلة الملكية، كل ذلك قد اكسبه الاخلاص العميق من لدن الجميع.

بقي الاردن طيلة ثلاثين سنة من اسعد الاقطار العربية، واكثرها استقراراً، وان كان من اصغرها. ويبدو لي ان الكثير من هذا الاستقرار يعود الى اخلاص الجيش للعرش، ولذلك بذلت كل جهد مستطاع لتعزيز هذا الاخلاص. فقد شجعت الملك على ان يقوم بزيارة وحدات الجيش، وان يتعرف الى الضباط.

وسرعان مااصبح واضحا بان الملك الشاب كانت له رغبته الخاصة به. لقد كان يتشوق الى ابعد حد، لان يتعلم الطيران، وكان يذهب كل يوم تلقى فيه دروس الطيران، الى المطار. وكانت نتيجة ذلك، ان الوزارة التي اشتد الالحاح عليها بسبب قلق الملكة الوالدة، قد اصدرت قراراً ينص على انه ينبغي للملك ان لا يقدم على القيام بالطيران. . غير ان الملك حسين لم يأبه بهذا القرار، وواصل طيرانه الى ان اصبح طيارا ممتازا. ومن ثم اخذ ثأره من الوزارة، بان دعا كل اعضائها الى ان يطيروا معه في الطائرة التي كان يقودها بنفسه! . ولقد انضممت انا الى الفريق، فاقلعنا من مطار عمان في طائرة ذات محركين، اعتقد انها كانت تدعى «انسون»، لكنني لااستطيع ان اؤكد ذلك.

وما ان ارتفعنا عاليا حتى هبط الملك بالطائرة مندفعاً بسرعة الى وسط مدينة عمان، ثم مالبثت الطائرة ان انقلبت في آخر لحظة، معاودا الارتفاع بها بسرعة. كان رئيس الوزراء يجلس امامي. وقد حكمت من شحوب وجهه، وارتباكه، والطريقة المتشنجة التي كان يمسك بها مقعده، انه لم يستمتع بتلك الرحلة، وعلى اثر ذلك لم تقر الوزارة اية احكام اخرى تنظم فعاليات الملك.

كان صيف سنة ١٩٥٣ عسوفاً في شدته. لقد آن وقت تتويج الملك، «الملوك العرب ليسوا متوجين»واقامة العرض الاحتفالي بهذه المناسبة. كان شرقي الاردن، قد اصيب فجأةانذاك، بآفة الجراد التي تمثل كارثة عظمى للبلد الزراعي. وقد استدعي الجيش ليقوم بمكافحة الجراد.

ضاعفنا من جهودنا على الحدود الاسرائيلية للحيلولة دون التسلل. وفي خلال اشهر نيسان، وايار، وحزيران من هذه السنة، حدث نقص ملموس في حوادث الحدود. وحينذاك، وعلى حين غرة، قام الجيش الاسرائيلي ليلة اليوم الحادي عشر من شهر آب سنة ١٩٥٣، بهجمات متواصلة على القرى العربية في «وادي فوكين»، «والصريف» و «ادنة»، لم نستطع ان نفهم سبب تلك الهجمات لانه لم تقع حوادث تستوجب الثأر عنها.

وفي اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الاول سنة ١٩٥٣، زعمت اسرائيل ان ثلاثة من العرب قد تسللوا الى داخل الحدود، والقوا بقنبلة يدوية على نافذة مضاءة في مستعمرة «تيرات يهوذا» وقتلوا امرأة وطفلين.نهضنا على الفور، واتخذنا كل خطوة لتعقب آثار المعتدين. كما عرضنا مساعدتنا على الاسرائيليين، بأن دعونا شرطتهم لكي تأتي وتعمل معنا.

وفي الساعة التاسعة والنصف بعد ظهر اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الاول، اي بعد الحادث المذكور باربع وعشرين ساعة، اندفعت قوة اسرائيلية مجهزة بكل الاسلحة الى قرية «قبية» التي تقع على بعد ميل وربع الميل داخل الاراضي الاردنية. كانت العملية الاسرائيلية قد اعدت اعدادا جيدا. ففي اول الامر تم امطار القرية باطلاقات من مدافع «المورتر»، ومن ثم تقدمت قوة من المشاة الى الداخل، وراحت تطلق النار عمدا في كل الممرات والازقة، من المدافع الرشاشة، وفي ذات الوقت تم قصف قريتي «شقبة، و «بردوس» المجاورتين.

ومن ثم جاء في اعقاب المشاة رجال الهندسة الذين كان كل واحد منهم، يحمل

على ظهره، حزمة من المتفجرات، كان يضعها قبالة احد الدور في القرية. كان القرويون قد تكوروا داخل بيوتهم بعد ان أفزعتهم النيران التي كانت تنطلق. واذ ذاك اقدم المهندسون الاسرائيليون على اشعال تلك المتفجرات، فتحولت القرية برمتها الى انقاض، بسكانها الذين دفنوا تحت الانقاض[1].

كانت القوات الاسرائيلية التي اقترفت هذه الجريمة، تتألف من فوج كامل، اضافة الى رجال الهندسة والمدفعية. وسواء كان قد وقع حادث ما قبل ليلة في مستعمرة «تيرات يهوذا» ام لم يقع، فان الامر لم تتم تسويته. ولكن الشيء المحقق هو ان فشل هذه العملية المعقدة لم يكن مستطاعاً تسويتها في مدى اربع وعشرين ساعة، وانما كان ينبغي تسويتها بعناية!

قتل ستة وستون شخصاً من سكان قرية «قبية»، وتحولت القرية بكاملها الى اكوام من الانقاض. وقد اعقب حدوث تلك الكارثة، نشوب اعمال العنف والتظاهرات، في المدن الفلسطينية، وفي «عمان» ذاتها، كانت تصحبها هتافات تهتف «ليسقط الفيلق العربي». وفي عمان تجمعت تظاهرة خارج دائرتي وهي تصرخ «ليسقط غلوب باشا».

ان الفلسطينيين شعب يصعب عليه ان يطيع احدا!. ان كل بوصة من فلسطين التي تم انقاذها وتوفيرها للسكان، كان الفيلق العربي هو الذي دافع عنها، ومع ذلك فان ابسط طعنة كانت تبرز دوما بتنظيم التظاهرات في الشوارع: ليس ضد اسرائيل، بل ضد الفيلق العربي. فهذا الاستعداد الطبيعي لاغراء البواعث الميكافيلية الى الحكام، يبدو عليه بانه كان من المميزات الخاصة بالفلسطينيين.

ذلك ان اي تصرف يتصرفه شخص ما، كان يتم تحليله عن طريق اكتشاف الدافع الملتوي الذي يبتغيه ذلك الشخص. ولست ادري ما اذا كانت هذه الصفة

---

(١) هي واحدة من مئات من الحوادث المؤسية التي وقعت وكان غلوب باشا والحكومة الاردنية برمتها مسؤولة عنها. لقد كان غلوب وحكومة الاردن على علم تام بما حدث في المستعمرة اليهودية «تيرات يهودا» في الثالث عشر من شهر تشرين الاول ١٩٥٣ وكان غلوب والحكومة الاردنية من ورائه يعلم علم اليقين ان الاسرائيليين سوف يثارون بعشرة اضعاف لما وقع في تيرات يهودا، فكيف لم يتخذ هو وحكومة عمان التدابير لايقاف عملية الثأر الاسرائيلية تلك؟ الم يسمع رجال الاستطلاع من افراد الفيلق العربي بالاصوات التي اثارتها مسيرة فوج كامل من اليهود والى قرية «قبية» والاطلاقات التي اطلقوها في ازقة القرية قبل ان يعمدوا الى نسف بيوتها، واطباق انقاضها على من كانوا في داخلها من العرب؟ وكيف سكتت قوات الفيلق العربي، واغمضت عيونها عن تلك الكارثة ولم تتقدم لمواجهة اليهود المعتدين؟ وحتى وان كانت اوامر الحكومة الاردنية تمنع الجيش عن الالتحام مع اليهود، الم يكن لدى افراد الفيلق العربي من الحمية والنجدة لانجاد اخوانهم العزل سكان «قبية»؟

تعزى الى مقدار كمية «الدم الاغريقي» الذي يجري في «عروق» الفلسطينيين، ويمنحهم حدة الذهن هذه.

ان الكثير من اسباب هذه الحالة، يعود الى عدم قابلية الاقطار العربية الى الاتفاق، او الى الحسد الذي يبديه الواحد منهم تجاه الآخر.

لقد كان الفيلق العربي، على وجه خاص، ضحية لهذا الحسد، نتيجة حقيقة قائمة ليس الا، وهي انه استطاع ان ينقذ اكثرية فلسطين(٢). اما مصر وسوريا فان جيوشهما لم تنقذ شيئا، وفي الوقت ذاته لم تكف عن مواصلة اتهام الفيلق العربي بالخيانة!.

ان حدة الذهن الثقافية هذه، التي تعزو لكل تصرف باعثا ملتوياً بعيدا، لاوجود لها بين السكان الاصليين لاواسط الجزيرة العربية، الذين يبدو عليهم بان عقولهم تتحرك علانية، وبطريقة مستقيمة. ذلك ان ميلهم هو ان يقولوا الصدق، وان يتقبلوا كل مايقال بقيمته الظاهرة!.

كان السكان الاردنيون من اصول مختلطة. فالمدن العشر(٣). كانت قد شيدت في التلال الشمالية الغربية من نهر الاردن، منذ ايام الاسكندر الكبير، على اكثر احتمال. (وكانت احدى تلك المدن هي مدينة «بيسان» التي تقع الى الغرب من نهر الاردن). وكانت نتيجة ذلك ان سكان الاردن الشماليين مايزالون يحتفظون بحدة ذكائهم حتى هذا اليوم. اما بقية انحاء الاردن، فانها كانت مع ذلك، قد سكنتها اعداد كبيرة من ابناء الجزيرة العربية، الذين كانت افكارهم اكثر صراحة واستقامة.

لقد كان الفيلق العربي النظامي يتلقى منحة من بريطانيا في صفة مساعدة للحكومة الاردنية. ولولا وجود الفيلق العربي لكان الاسرائيليون قد وصلوا الى شواطيء نهر الاردن منذ سنة ١٩٤٨.

---

(٢) في هذا القول مبالغة محجوجة من المؤلف لان الفيلق العربي في الواقع لم يستطع، بسبب اوامر الحكومة الاردنية لمن ان يحول دون سيطرة اليهود على كثير من المدن المهمة المخصصة للعرب، من امثال اللد ورام الله، واللطرون والنقب وماشاكلها الامر الذي ادى الى اتهام «غلوب باشا» بالتواطيء مع اليهود وفقاً لتعليمات سرية من الحكومة البريطانية، ولبواعث اخرى كان من ابرزها اطماع الاردن ومصر في اقتسام الاراضي التي خصصت للعرب في فلسطين طبقاً لقرار التقسيم.

(٣) المدن العشرة ديكابولس DECAPOLIS هي المدن التي شيدها الاغريق والرومان على شواطيء نهر الاردن اثناء استيطانهم فيها وهي دمشق، وفلاديلفيا (عمان) رافانا، سكيتابولس (بيسان) غادارا، هبوس ديون بللا، غيراسا، و «كناثا» وقد ظهرت هذه المدن في السنة ٦٣ ـ ٦٤ ق. م.

استمرت الحوادث على الحدود مع اسرائيل في سنة ١٩٥٤. ففي الساعة الثامنة بعد ظهر اليوم الثلاثين من شهر حزيران سنة ١٩٥٤ مثلا، فتح الاسرائيليون النار فجأة، وبكل مالديهم من الاسلحة على مدينة «القدس». كان الآمر «هتشسون»(٤) من البحرية الامريكية، هو الرئيس المحلي للجنة الهدنة. كان ضابطا هادئا وشجاعا، ويعيش في ذات الوقت مع زوجته في دار تقع في ارض خالية من السكن تقريبا بين الجيشين.

قام «هتشسون» باستدعاء كلا الطرفين عن طريق الهاتف، واستطاع ان ينال اتفاقهما على وقف اطلاق النار. ولكن بعد ساعات قلائل، عاد الاسرائيليون ففتحوا النار مرة اخرى، ومن ثم تم التوصل الى اتفاق جديد لوقف اطلاق النار، استمر ساعات قلائل، ومن ثم تجدد اطلاق النار!

لقد بدا بان التهم التي وجهت الى الاردن، باعتبارها انها كانت هي المعتدية، لم تكن مقنعة. ذلك لان الجيش الاسرائيلي كان يؤلف عشرة امثال القوة التي كانت لدينا. كما ان ميزانية الجيش الاسرائيلي، كانت تبلغ عشرة اضعاف ميزانيتنا نحن.

غير ان الخطر الاعظم كان يتمثل في انشاء القوة الجوية الاسرائيلية. كان الاردن قد حصل على طائرة واحدة او طائرتين لاغراض السفر والمواصلات. اما انشاء قوة جوية، فانه كان خارج نطاق البحث. ومع ذلك كان مايزال هنلك سرب من طائرات القوة الجوية البريطانية موجودا في مطار عمان.

كان الفارق بين قوة الاردن وقوة اسرائيل كبيراً جداً. ذلك ان الامل الرئيس لبقاء الاردن في الوجود، كان يكمن في معاهدتها الدفاعية مع بريطانيا. وبالطبع فانه لم يرد اي ذكر «لعدو محتمل» في تلك المعاهدة. ولكن المعاهدة كانت تصرح بانه اذا ماهوجم البريطانيون او الاردنيون فان الطرف الثاني ملزم بان يهب لمساعدة الطرف الذي هوجم بكل مايتوفر لديه من وسائل.

كانت بريطانيا طبعا، هي التي تدفع نفقات الفيلق العربي النظامي، طبقا لتلك المعاهدة. وطالما بقيت المعاهدة قائمة فقد كان المؤمل ان لاتقوم اسرائيل بمهاجمة الاردن!

لقد عقدت بريطانيا هذه المعاهدة مع الاردن آخذة بنظر الاعتبار احتمال قيام

---

(٤) HUTCHISON

حرب عظمى اخرى[٥] وقد برهنت الاردن، خلال الحرب العالمية الثانية، على انها كانت حليفا مخلصاً له قيمته. ولذلك كانت المعاهدة، بالنسبة الى الاردن، تمثل الضمانة الاساسية ضد اي هجوم يقع عليها من جانب اسرائيل.غير ان المعاهدة لم تكن مقتصرة على اعتبارات السياسة العليا وعلى الستراتيجية. ذلك لان الصداقة الاصلية، بل الحمسة التي كانت تلهم الطرفين، قد امتدت من ناحية الى الجنود، والموظفين والقرويين، وافراد القبائل في الاردن، ومن ناحية اخرى من وزارة الخارجية البريطانية الى الجنود والطيارين البريطانيين الذين خدموا في الاردن، والى اسرهم ايضا[٦].

* * *

وفي الوقت ذاته كانت الحوادث في الشرق الاوسط تنحو منحى جديداً معقداً. ذلك ان الاندحارات التي لحقت بالمصريين في فلسطين،قد ادت الى بروز الحركات الثورية داخل مصر. ففي اليوم الثالث والعشرين من شهر تموز سنة ١٩٥٢، وقع انقلاب في القاهرة قام به من عرفوا باسم «الضباط الاحرار» الذين كان يتزعمهم جمال عبد الناصر، حيث غادر الملك فاروق البلاد، وسيطر «مجلس الثورة»، الذي يتزعمه جمال عبد الناصر، على الحكومة.

ولكي يحتسب جمال عبد الناصر اسباب فشل مصر ازاء اسرائيل، فانه القى اللوم على بريطانيا، لانها هي التي كانت تمول مصر بالسلاح قبلا[٧] ففي اثناء القتال الذي نشب سنة ١٩٤٨ في فلسطين، كانت منظمة الامم المتحدة قد دعت الدول

---

(٥) انا نخالف المؤلف في الاهداف التي كانت بريطانيا تبتغيها من وراء عقد امثال هذه المعاهدات مع كل البلدان التي كانت تخضع لنفوذها. فلم يكن تكبيل الاردن او العراق او مصر وحتى الهند بأغلال المعاهدات الجائرة،ناجما عن توقع وقوع حرب كبرى، وانما كان القصد منه تكبيل البلدان بقيود تلك المعاهدات لادامة الاستعمار البريطاني فيها. فلو كانت بريطانيا صادقة فيما ادعته فلماذا لم تعمد الى انهاء تلك المعاهدات بعد الحرب العالمية الثانية؟ ولماذا بقيت تتمسك بها لعدة سنين بعد ان انتهت تلك الحرب؟

(٦) ان العلاقات التي تنشأ بين افراد الدول المحتلة وابناء الوطن المحتل، كانت في الحقيقة علاقات مفتعلة، الهدف منها انتفاع بعض ابناء الوطن المحتل. وعلى الاخص اصحاب النفوس الضعيفة من افراد البلد المحتل فأي نوع من هذه الصداقات او التظاهر بالود والاحترام لايكون اصيلاً وانما هو مفتعل وكاذب في الواقع.

(٧) واضح تماما ان فشل الجيش المصري في فلسطين، ومحاصرة احسن قطعاته في الفالوجة من قبل اليهود، والاسلحة الفاسدة التي ظهرت في حرب فلسطين، واسباب اخرى غيرها كانت من العوامل الرئيسة التي دفعت ببعض الضباط الوطنيين في مصر الى تنظيم حركة الضباط الاحرار، التي اطاحت بالنظام الملكي في مصر،كما ان التطورات العالمية من جهة، واشتداد امريكا في محاولاتها للحلول محل الدول الاستعمارية الاخرى، وخاصة بريطانيا وفرنسا وايطاليا، لاي من البلاد العربية، كان من العوامل التي ساعدت على التطورات التي شهدها الشرق الاوسط بصفة خاصة في اعقاب حرب فلسطين.

الاعضاء فيها الى الامتناع عن تزويد الاسلحة الى الاطراف المتحاربة. وقد طبقت بريطانيا هذا القرار، فرفضت ان تزود ليس مصر حسب بل وحتى الاردن بالسلاح والذخيرة، في الوقت الذي اقدم فيه الاتحاد السوفيتي على مساندة اسرائيل في ذلك، بان راح يمدها بآلة الحرب التي كانت تتدفق عليها من جيكوسلوفاكيا حتى في اثناء الهدنة التي توصل اليها الكونت برنادوت[٨]

وما ان امسك جمال عبد الناصر بالسلطة حتى راح يلقي اللوم على بريطانيا في اندحار المصريين، لانها رفضت تقديم الذخيرة لهم، وأصدر اوامره باستيراد السلاح والذخائر من الكتلة الشيوعية. ولقد قوبل هذا الاجراء بدعاية موسعة في الشرق الاوسط، باعتباره انه يمثل الحل لمشكلة العرب في فلسطين[٩]

في سنة ١٩٥٤ عقدت بريطانيا اتفاقا عسكرياً مع مصر، بدأت بموجبه القوات البريطانية بالجلاء تدريجياً عن منطقة القناة، مخلفة وراءها كميات هائلة من المواد الحربية، على اساس ان الافراد الذين جلوا عن مصر، قد يستطيعون ان يعودوا اليها جوا، في حالة حدوث امر طارىء. ولذلك اصبح التعاون العسكري المقبل بين بريطانيا ومصر من الامور المنظورة.

وفي الوقت ذاته وعدت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية، حكومة مصر بتقديم قرض لمعاونتها على بناء السد العالي في اسوان، «بقصد توسيع الري في دلتا النيل»، غير ان وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية «جون فوستر دلس»[١٠] مالبث على حين غرة ان اعلن في شهر تموز سنة ١٩٥٦، ان الحكومة الامريكية قد الغت تعهدها بمساعدة مصر في بناء سد اسوان.

يندر ان يكون الرفض الامريكي اكثر عنفاً او فظاظة. ولكن جمال عبد الناصر رد عليه بالمبادرة الى تأميم قناة السويس، وبزيادة التعاون مع الاتحاد السوفياتي،

---

(٨) لقد اغمضت منظمة الامم المتحدة عينيها عن خرق قرار منع تزويد العرب واليهود بالسلاح، وذلك لان كل اعضاء الامم المتحدة من الدول الغربية والكتلة الشرقية كانت ممعنة في معاونة اليهود وتشجيعهم على احتلال فلسطين كلها وطرد سكانها العرب بالقوة. وقد وجدت بريطانيا عذرا لها في ذلك القرار كي تتخلص من تعهداتها لتزويد الدول العربية بالسلاح والذخيرة حسب المعاهدات التي كبلتها بها قبلا، وبهذه الصورة كملت مؤامرة ابتلاع الصهاينة لفلسطين.

(٩) لقد كانت مشكلة العرب في فلسطين في سنة ١٩٤٨ ومازالت قائمة حتى الآن، تتمثل في نقص السلاح لديهم. فلو ان الدول العربية بعثت بجيوشها الى فلسطين في سنة ١٩٤٨ كانت قد اكتفت بتدريب الفلسطينيين على القتال ومدهم بالسلاح، بدلا من ارسال جيوشها الى هناك، لتغير الموقف ولاستطاع عرب فلسطين على الاقل ان يحافظوا على المناطق التي خصصت لهم في فلسطين وفقا لقرار التقسيم الذي نعتقد بأنه كانت للايدي الصهيونية والاستعمارية دخل اكبر في رفض العرب له، وضياع كل حق للعرب في فلسطين.

(١٠) JOHNFOSTER

الذي وافق على اكمال بناء سد اسوان،الذي تخلت الولايات المتحدة الامريكية عنه. وسواء كانت السياسات التي طبقها الرئيس جمال عبد الناصر مبنية على الحكمة ام لا، فانه كان يمتلك صفة مكنته من ان تصبح لديه من القوة ليس مايستطيع به اثارة الجماهير حسب، وانما كانت له خاصيته في اذاعة خطبه من الاذاعة. ولهذا الغرض انشأ محطة اذاعة قوية سماها «صوت العرب»، وكان صوته يرن عبر الاسواق في عمان، في خطب سياسية حمسة.

* * *

كانت للشرق الاوسط مشاكله الحادة، وعلى الاخص مشكلة اسرائيل. غير ان حلول هذه المشاكل غدت اكثر صعوبة، نتيجة احتدام المنافسة بين الكتلتين الغربية والشيوعية، او بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي.

وفي الوقت الذي كانت فيه مصر، تتعاون اكثر فاكثر، مع الاتحاد السوفياتي، تم التوقيع على اتفاق جديد في سنة ١٩٥٥، يقاوم نشر النفوذ السوفياتي، وقد عرف هذا الاتفاق باسم «حلف بغداد» الذي وقعت عليه كل من تركيا والعراق، وايران، وباكستان، وبريطانيا[١١]

كان حلف بغداد هذا، قد تمت «هندسته» على نطاق واسع، من لدن الولايات المتحدة الامريكية،لمقاومة التوسع السوفياتي، وان كانت امريكا نفسها لم تنضم اليه علانية[١٢]. وكان العراق ومصر يتنافسان، في الغالب، في بسط نفوذهما في الشرق الاوسط. ولقد استنكر جمال عبد الناصر، حلف بغداد هذا فور الاعلان عن عقده، وذلك في خطبه النارية. فلقد كان جمال عبد الناصر يزعم، وان كان المنطق

---

(١١) مهدت الدول الغربية لقيام حلف بغداد هذا، بميثاق «سعد آباد» الذي عقدته وزارة حكمت سليمان الانقلابية في سنة ١٩٣٧، والذي كان يضم كلا من العراق وايران، وتركيا، وافغانستان، كما ان الوزارة ذاتها قد وافقت على اتفاق شط العرب في ذات السنة، والذي اجبرت فيه العراق على التخلي عن جزء من الساحل الشرقي لشط العرب، الى ايران امام عبادان ليكون مرسى لناقلات النفط التي كانت تنقل نفط الاحواز الى العالم، والذي كان حكرا لبريطانيا وحدها.

(١٢) تظاهرت الولايات المتحدة الامريكية بعدم الانضمام الى حلف بغداد بكامل العضوية، نتيجة انفضاحها المكشوف منذ اول قيام اسرائيل، باحتضان هذا الكيان العدواني الممعن في العدوان والتنكر لكل القرارات والمواثيق الدولية، وتحويل اسرائيل - التي تتحكم عن طريق يهود الولايات المتحدة، بمصائر امريكا ذاتها، ومصائر العالم الغربي قاطبة. كما ان امريكا كانت تدرك جيدا ان حلف بغداد كان في الاصل مشروعا انكليزيا خالصا، حاولت به بريطانيا ان تحافظ على نفوذها المتداعي في الشرق الاوسط، وفي البلاد العربية بصفة خاصة، خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

يعوزه على مدى واسع، بان حلف بغداد كان مؤامرة لمساعدة اسرائيل . بانيا اتهامه ذاك على حقيقة ان تركيا احدى الدول الموقعة على حلف بغداد، كانت قد اعترفت بقيام دولة اسرائيل [١٣]

وجدت الاردن نفسها في وسط العاصفة! لقد كانت حليفتها بريطانيا، عضوا في الحلف المذكور، غير ان اتهام جمال عبد الناصر بان الحلف مؤامرة لاسناد اسرائيل، لابد ان يثير الشكوك والهواجس. وهكذا انطلقت التظاهرات المضادة لحلف بغداد في شوارع عمان، يشجعها صوت جمال عبد الناصر الحمس من الاذاعة.

* * *

ما ان عاد الملك حسين من دراسته في كل من «هارو» و «ساندهرست» حتى وجد نفسه، وهو في سن التاسعة عشرة، قد قذف به في خضم هذا المرجل. لقد دعاه الرئيس جمال عبد الناصر لزيارة مصر، كما كان ابن عمه ملكاً على العراق. وبالاضافة الى التنافس في الدعاية بين مصر والعراق، كان الملك حسين يخضع الى الاغراء العاطفي للقومية العربية، بصفة عامة، واستذكار هذه القومية للاستعمار الذي تمارسه بريطانيا والدول الغربية

لقد كرست نفسي لخدمة العائلة الشريفية، التي كان الحسين بن طلال، يمثل الجيل الرابع منها، الذي كنت اعرفه معرفة شخصية. ولكنني كنت في الوقت ذاته، ارى ان العرب في الداخل الى جانب الحكومة، التي يرأسها حاكم شخصي. وهذا يعود من ناحية الى تقليد قديم مجرد من الوعي، ومن ناحية اخرى الى تأثير الدين الاسلامي. ذلك لان اي بلد اسلامي، لا يتم حكمه بنجاح عن طريق البرلمانات المنتخبة، والجمعيات، واللجان. فالمبدأ المتبع دوما هو تعيين رجل واحد لكل واجب مسؤول.

كانت بريطانيا او امريكا، مقتنعتين، ان نظامها الذي يقوم على اساس الهيئات المنتخبة، يعتبر صيغة نموذجية للحكومة الانسانية. وعلى هذه الشاكلة فرض

---

(١٣) لقد برهنت الوقائع بسرعة على صحة الاتهام الذي وجهه جمال عبد الناصر الى حلف بغداد، بأن هذا الحلف كان مؤامرة لمساعدة اسرائيل. واكثر من هذا فأن حلف بغداد قد بارك العدوان الثلاثي الغاشم في تشرين الاول على مصر، بعد ان اممت قناة السويس [راجع كتابنا «ثلاثة ملوك في بغداد» طبعة ١٩٨٣ والطبعة الجديدة المزيدة المنقحة التي سوف تصدر قريبا].

الفرنسيون المؤسسات الجمهورية على سوريا ولبنان. وفي الوقت الذي بقيت فيه شرقي الاردن مستقرة تماماً خلال الحرب العالمية الثانية، والسنوات العشر التي تلتها، كانت سوريا ضحية انقلابات عسكرية متتابعة.

في حدود ذلك الوقت زارني احد الفرنسيين الذي امضى معظم حياته في سوريا. ولقد سألته عن السبب الذي اوجد الكثير من الثورات في سوريا، منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن، في حين بقي شرقي الاردن مستقراً. وقد رد على ذلك بقوله، ان السوريين جد اذكياء، ثم اضاف الى ذلك يقول «من الضروري وجود مقدار معين من (الغباء) لتحقيق الاستقرار السياسي. فالبريطانيون مثلا مشهورون باستقرارهم!!» قد يكون هناك شيء من الاساس لهذا القول، بالنسبة الى تفكير ذلك الفرنسي، لان سوريا، واكثر من ذلك لبنان وعرب فلسطين، كانوا من الناحية التأريخية، قد تزاوجوا في الاصل، مع الاغريق، وهم امة اشتهرت بحدة الذكاء، وبانعدام الاستقرار السياسي.

فحتى قيام الحرب العالمية الاولى، كانت الشعوب التي تتحدث باللغة العربية وتقطن الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط، تعرف بصفة عامة، بانها من شعوب المشرق. ولايوجد شيء من الانتقاص في هذه التسمية التي تعني الشرق، اي شرقي نهاية البحر المتوسط، غير ان انتشار القومية العربية ادى الى ظهور انطباع بان كل الشعوب التي تتحدث العربية، انما تنتمي من الناحية (العرقية) الى (عرق واحد)، وذلك اعتقاد خاطىء.

فالواقع ان كلمة (عرب) بالاحرى تشبه كلمة (اوربي)، اي مجموعة من عناصر عديدة يشبه احدها الآخر، في ميادين ثقافية محددة، لكنها تختلف اختلافا واسعاً في مزاجها احدها عن الآخر، ومع كل ذلك كانت هناك دعاية واسعة بان الكثير من الشعوب التي تتحدث العربية، يعتقدون بان العرب كانوا من عرق واحد، وهذا الوهم هو الذي شجع جمال عبد الناصر على ان يجعل من نفسه زعيما للعالم العربي كله!.

* * *

وفي ذات الوقت اصبح الاسرائيليون اكثر عدوانا. فقد انسحبوا من لجنة المعونة المختلطة التي انشأتها منظمة الامم المتحدة، ولذلك فلم تكن هناك ارض محايدة نستطيع ان نلتقي معهم فيها تحت اشراف منظمة الامم المتحدة. ففي ليلة الاول -

الثاني من شهر ايلول سنة ١٩٥٤،هاجمت قوة اسرائيلية مؤلفة من فوج،قرية «بيت لقيا» التي تقع على بعد اربعة اميال من جانب خط التقسيم معنا. كانت هذه العملية، كالعادة، قد خططت بعناية تامة. ذلك ان سريتين هاجمتا القرية، في حين اقدمت السريتان الأخريان من الفوج، على زرع الالغام في واحد او اثنين من الطرق التي قد تأتي منها التعزيزات للفيلق العربي.

تم الدفاع عن القرية من قبل الحرس الوطني، اي شباب القرية الذين تلقوا القليل من التدريب[14]، وكان يقود اولئك الشباب نائب ضابط من الفيلق العربي النظامي، وقد نجحوا في صد الهجوم. ولقد سارت تعزيزات الفيلق العربي في الطرق التي زرعت بالالغام، فقتل اثنان وجرح آخر، ولكن البقية هاجمت الاسرائيليين ودفعت بهم، حيث تراجعوا بلا نظام الى الارض المزروعة بالالغام.

هنالك مظهر مشجع آخر بدا من قبل الحرس الوطني في قرية «بيت نوبا» المجاورة. فما ان سمع افراد هذا الحرس باطلاق النار على قرية «بيت لقيا»، حتى بادروا تحت امرة النائب ضابط الذي كان يرأسهم، الى اقتحام الريف تحت جنح الظلام، ومهاجمة مؤخرة الاسرائيليين الذين كانوا يهاجمون قرية «بيت لقيا». ولقد تخلى الاسرائيليون المتراجعون عن كميات من الذخيرة، والقنابل اليدوية، والمتفجرات، التي ظهرت بكل جلاء بان الاسرائيليين كانوا قد اعدوا العدة للقيام بغارة مدمرة كبرى على غرار مافعلوه بقرية «قبية» قبلا.

وفي نقاش جرى في البرلمان الاسرائيلي فيما بعد، اعترفت حكومة اسرائيل، بسياستها القائمة على اساس اخذ الثأر بعشرة امثاله، وانها كانت قد بقيت على الدوام تطبق هذه السياسة لمدة اربع سنوات. وكان «الاسرائيليون يزعمون بأن «القوة هي النقاش الوحيد الذي يفهمه العرب»». ولقد سبق لي ان امضيت اربعا وثلاثين سنة بين العرب، فبرهنت الوقائع المرة تلو المرة، بانه يمكن كسب العرب بالمحبة، وبالثقة، حين لاتكون القوة موجودة.

* * *

---

(١٤) هنا يتضح بكل جلاء عدم اهتمام الفيلق العربي بتدريب شباب القرى العربية تدريباً تاماً وموسعا للقيام بالتصدي للاعتداءات الاسرائيلية. فلو كان الفيلق العربي، مخلصا حقا لقضية العرب في فلسطين، لاجهد نفسه، وبذل اقل واجب مطلوب منه، في تدريب اولئك العرب على استعمال السلاح، وتزويدهم به، لينوبوا عنه في الدفاع عن قراهم. في حين يعلم الفيلق العربي والحكومة الاردنية من ورائه، ان اسرائيل لاغاية لها في مهاجمة شرقي الاردن، وانما كانت تنفذ خطة الصهيونية الاساسية، وهي طرد كل العرب من فلسطين، ليصبح هذا البلد العربي موطنا لشذاذ الآفاق من اليهود. فالمسؤولية كانت تقع على عاتق الفيلق العربي في الدرجة الاولى لما حل بالقرى العربية من دمار في فلسطين.

انقضت الآن خمس سنوات على عقد الهدنة التي انهت العمليات العسكرية النشطة في سنة ١٩٤٩. كان الثلث من الشعب الاردني معوزا لايملك اي شيء، بعد ان طرده الاسرائيليون من دياره في فلسطين. وفي الوقت ذاته، واصل الاسرائيليون هجماتهم على القرى العربية الفلسطينية التي تقع عند الحدود. ولقد اتخذ شرقي الاردن اعظم الاجراءات قوة، للحيلولة دون تسلل اللاجئين عبر خط التقسيم، ولكن كل الطلبات التي قدمها الاردن الى الاسرائيليين لمساعدته في هذا الاجراء، قد تم رفضها.

وفي ذات الوقت تعاظم حجم الفيلق العربي من ستة الاف نفر في سنة ١٩٤٨، الى ثلاثة وعشرين الف نفر في سنة ١٩٥٥، في الوقت نفسه الذي كان فيه عدد مماثل لهذا العدد، من سكان القرى الواقعة على ضفتي نهر الاردن، يتلقون التدريب الاولي في الحرس الوطني.

بدأت الحكومة الثورية في مصر تحت زعامة جمال عبد الناصر، تشجع التسلل الى داخل الاراضي الاسرائيلية، بالاضافة الى الغارات التي كان يقوم بها الانصار. ولقد ساعدت هذه الاعمال، جمال عبد الناصر على ان يظهر بمظهر الوطني الحقيقي الذي يقاوم الغزاة الاسرائيليين بشجاعة، في الوقت الذي اتهمنا فيه نحن الذين كنا نحافظ على السلام، باننا خونة نتصرف حسب اوامر سرية كانت تصدر الينا من لندن

* * *

ما ان تم تتويج الملك حسين حتى عين على الفور، فوزي باشا الملقي رئيساً للوزراء. كان فوزي شابا درس في احدى الجامعات البريطانية، وتشرب بالافكار البريطانية، عن الدمقراطية، وحرية الكلام. ولذلك فانه ما ان تولى منصبه حتى سن تشريعاً ينص على حرية الكلام والصحافة.

من النادر ان يعطى النصح بادخال الافكار والمؤسسات السياسية، لبلد ما في بلدآخر. ولكن فوزي الملقي كان على الدوام يؤمن بان الحريات لن تسمح بوضع صمام امن بالنسبة الى الجماهير كيما تعبر عن المشاعر المكبوتة، وانما تهيء الفرصة امام المتطرفين المحترفين للتجمع في الاردن. ولعل اول مرة تم فيها سماع كلمة «شيوعي»، كما ان «حزب التحرير» ذا الاسلوب الذاتي، الذي اسسه معلم فلسطيني متدين، كان من الاحزاب المتطرفة في كراهية الاجانب.

كان التردي الملموس الذي اصاب الاستقرار في البلاد، يعود الى السياسة التي طبقها فوزي الملقي، التي ادت في النهاية الى سقوطه. عاد توفيق ابو الهدى الى الحكم مرة اخرى، وعاد الى اجراء انتخابات. واذ قرر توفيق ان يضمن الاكثرية له في تلك الانتخابات، فقد طلب الي ان اهيء الجنود للمشاركة في التصويت للمرشحين الذين اختارهم هو. لقد احتججت اول الامر ضد ذلك الاجراء، لكنني وافقت في النهاية على ان انصاره هم من مرشحي الحكومة الذين ادرجت اسماؤهم في قوائم الاشخاص الذين يحق لهم الاشتراك في الانتخابات.

وفي الوقت ذاته عقدت الانتخابات، وفقا لقوانين كانت توفر حرية الكلام بالصفة التي صادقت عليها حكومة فوزي الملقي. كان يتزعم الشيوعيين الذين ظهروا فيما بعد في الاردن، طبيب يدعى «عبد الرحمن شقير» كان قد جاء الى الاردن من دمشق، فكان كل خطاب يلقيه يعتبر تحريضاً على التمرد والعصيان.

وفي صباح يوم الانتخابات، وهو اليوم السادس من شهر تشرين الاول، غدت الهتافات تسمع في مدينة عمان. تحرك رجال الشرطة، لكي يتحروا الامر، فاذا بهم يفاجأون على الفور، بسيل منهمر من الحجارة التي القيت عليهم من سطوح الشقق في بعض العمارات. اضطررنا الى استدعاء كتيبتين من الجيش، استطاعتا اعادة الامن الى نصابه، حين وصلنا الى هناك، في بضع دقائق.

نجحت الشرطة في حراسة حجرات الاقتراع، ولم يتم ختم صناديق الاقتراع. وتم العثور على كميات كبيرة من الحجارة المركرمة على سقوف شقق عديدة في عدة عمارات. لقد تم تنظيم اعمال الشغب تلك بدقة وعناية، وفي ذات الوقت كان عبد الرحمن شقير، قد فر عائداً الى دمشق.

* * *

كان اعضاء الحكومة والساسة، يجهلون القضايا العسكرية جهلا تاماً، ولا يأبهون بها ابدا. ولم استطع اقناعهم بان يصغوا الى شيء من هذه الامور، غير انهم لم يتدخلوا في الامر، وقد سمحوا لي بان اطلق يدي حرة في كل شيء.

ومع ذلك اصبح الوضع ينذر بالخطر بصفة متزايدة، الى درجة انني احسست بانه ينبغي لهم ان يطلعوا على ذلك ويلموا به. واخيرا دعا الملك حسين الى عقد

اجتماع سري رفيع المستوى في القصر، يحضره جلالته، ورئيس الوزراء، ووزير الدفاع والمالية.

ومع ذلك فحين وصلنا الى القصر، جاء الملك ومعه مرافقه، وعدد من الطفيليين في القصر، ولقد امضيت ساعة في الحديث اوضحت خلالها وضعنا العسكري مقابل اسرائيل، واشرت بانه اذا ماوقعت الحرب، فان علينا ان ننسحب من مواقعنا في السهل الساحلي المنبسط، وان نحتفظ ببعض المواقع الدفاعية في التلال(١٦).

وما ان اكملت ايضاحاتي حتى انتصب الملك واقفاً، فاخرج ورقة من جيبه وقرأ فيها يقول «انني لااوافق على اي من الخطط التي سمعناها الآن! انني لن اسلم شبرا من بلادي. اننا سوف ندافع عن خط التقسيم ومن ثم سوف نهاجم». واذ ذاك صفق خدم القصر عاليا، وحينئذ طوينا خرائطنا وانسحبنا!

بعد ذلك بايام قلائل رأيت الملك مرة اخرى في القصر. كان يبدو عليه الابتسام والظرف، ولذلك دعوته الى ان يمضي ثلاثة ايام معي في منطقة الحدود لكي نفتش مواقع قواتنا، ولقد وافق على هذا الرأي في الحال، وامضينا ثلاثة ايام سوية، وحينئذ اعترف مبتسما بانه قد اقتنع بما سبق ان قلته قبلا.

في شهر نيسان سنة ١٩٥٥ عقد مؤتمر الامم الشرقية والافريقية في «باندونغ»(١٧)، وحضره جمال عبد الناصر، الذي صاغ فيه ذهنه علانية بالانضمام الى الكتلة الشيوعية. وكانت نتيجة ذلك، ان وقع جمال عبد الناصر في شهر ايلول من تلك السنة ذاتها، على عقد لشراء السلاح من جيكوسلوفاكيا، ووفقاً لذلك العقد،وافقت الدول الشيوعية على ان تزود مصر بالسلاح. وفي هذه السنة بالذات وقع العراق على «حلف بغداد» الذي كان يدعم الغرب، في الوقت الذي عقدت

---

(١٦) هذا الاقتراح الذي طرحه غلوب ينطوي على خطورة كبيرة. فهل كان غلوب وهو العليم بنوايا اليهود وبخططهم لابتلاع فلسطين برمتها، يعتقد بأنه اذا مادخل اليهود مدن وقرى السهل الساحلي، سوف يخرجون منها، او ان يستطيع الجيش الاردني، وهو الضعيف ازاء الجيش الاسرائيلي عدديا وعسكريا، ان يستعيدها من ايدي الاسرائيليين، او ان يمنع سقوطها بأيديهم؟ ان فكرة الانسحاب تلك كانت تعتبر مغامرة خطيرة جدا، وقد توضحت معالمها في العدوان الاسرائيلي في السادس من شهر حزيران سنة ١٩٦٧ حين ابتلع اليهود فلسطين برمتها بتشريد سكانها العرب وانزال شتى صنوف الاضطهاد بهم وارغامهم على ان يعيشوا اذلاء مستضعفين ومحتقرين في وطنهم.

(١٧) هو المؤتمر الذي انبثقت عنه حركة (عدم الانحياز) التي كانت تقضي بأن تلتزم مختلف البلدان المنضمة الى الحركة التزام الحياد وعدم الانحياز الى الكتلة الغربية او الكتلة الشرقية. غير ان هذه الحركة بعد ان فقدت القادة الذين اسسوها اول الامر وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر، وجواهر لال نهرو، والمارشال جوزيف بروز تيتو، بدأ الضعف ينشب فيها وذلك نتيجة تأثر كثير من الاقطار المنضمة اليها بالتأثيرات الاستعمارية. وقد وضح ذلك الضعف وضوحاً جليا في فشل دول عدم الانحياز في ايجاد حل للنزاع العراقي الايراني، او ايقاف الحرب العراقية ـ الايرانية.

فيه مصر صفقة الاسلحة التي جعلتها حليفة للكتلة السوفياتية، وبهذا ظهر جمال عبد الناصر بمظهر البطل الذي سوف يدحر اسرائيل بمساعدة الاتحاد السوفياتي!.

ولكي يسعى جمال عبد الناصر الى توسيع هذا التظاهر البطولي، اخذ يشجع غارات الانصار على المنطقة التي احتلتها اسرائيل في قطاع «غزة»، كما انه حاول، عن طريق السفارة المصرية في عمان، ان يشجع المتسللين، على اجتياز خط التقسيم من داخل الاردن الى الاراضي الاسرائيلية. وفي احدى الحالات كان حتى احد ضباط الفيلق العربي قد دعي الى السفارة المصرية، واعطيت له بعض النقود لكي ينظم المتسللين الى داخل اسرائيل.

كانت الثورة التي قادها جمال عبد الناصر في مصر، التي اطاحت بعرش الملك فاروق، قد تم انجازها من قبل جماعة كانت تطلق على نفسها اسم «الضباط الاحرار». وفي الوقت ذاته بدأت الكراريس تظهر في سنة ١٩٥٥ في عمان، وهي تحمل عنوان «الضباط الاحرار»، ويتم ارسالها الى عناوين مختلفة

***

في صباح احد الايام من شهر شباط سنة ١٩٥٦، تلقينا في مقر الفيلق العربي، رسائل من وحدات مختلفة من الفيلق تحتوي على كراريس بعنوان «الضباط الاحرار» وهي تحمل طابع احدى الوحدات العسكرية عليها.

كان الانطباع الذي تم التوصل اليه، بان الضباط الاحرار كانوا يتراسلون مع احدهم الآخر. ولذلك طلبنا الى كل دوائر البريد الخاصة بالوحدات العسكرية، بان تبعث بمالديها من طوابع، وما ان قارنا هذه الطوابع بتلك الطوابع الملصقة على الرسائل المرسلة، حتى وجدناها مختلفة. لقد كانت تلك الطوابع الملصقة على الرسائل المرسلة، قد صنعت في مصر.

وفي الوقت ذاته نشرت احدى الصحف المصرية، مقالة افتتاحية عن انعدام الولاء في الجيش الاردني، بالاضافة الى نشر واحدة من كراريس الضباط الاحرار. بعثنا باحد رجالنا الى مصر، لكي يتحرى الامر. فبعث الينا يقول بان تلك المقالة التي نشرت في الجريدة، كانت قد ارسلت اليها من قبل وزير التوجيه والاعلام المصري، مع اوامر بضرورة نشرها.

وسرعان ما انكشفت المؤامرة برمتها. لقد كانت كراريس الضباط الاحرار،

والطوابع التي كانت تلصق عليها، كلها من صنع الحكومة المصرية، وكان يجري ابرادها الى وحدات الفيلق العربي، من قبل الملحق العسكري المصري في عمان. لقد كان في الفيلق العربي حوالي الف وخمسمائة ضابط، كان ستة منهم مشتركين في المؤامرة، وقد اخذت اسماء اولئك الضباط الستة، وسلمتها الى الملك حسين الذي كان يعرفهم قبلاً، لانهم كانوا على اتصال دائم به.

كان الفيلق العربي يحتفظ بحوالي ثلثمائة وخمسين ميلا من خط التقسيم مع اسرائيل العدو المألوف. وتلك المسافة مساوية تقريباً لذات المسافة بين مدينتي «سوثامبتون» و «ادنبرة»[١٨]. ومن هنا تصبح مكشوفة، تلك الابعاد التي كانت الحكومة المصرية، تحاول ان تمضي فيها لتدمير الفيلق العربي.

ولكن قد يكون هذا غير صحيح، لان المؤامرة مضت الى اوسع من ذلك كما سنرى. فمنذ ان اصبح تيار الذم يتحول نحوي، استطعت في عدة مناسبات ان اقول للملك حسين بانني على استعداد لأن استقيل في اي وقت يرغب فيه، لكنه كان على الدوام يرد على ذلك وبمنتهى الود، بان هذا الامر خارج نطاق البحث!. ولقد كنت اعتقد بانه حين كان يقول ذلك، كان يعنيه حقا.

واخيراً تم اعلامي، بان مقالة كانت قد نشرت في ذلك الوقت، في احدى المجلات الدورية البريطانية، التي اختفت عن الصدور منذ ذاك الوقت، كانت تصفني بانني الرجل القوي في الاردن، وان الملك والحكومة لاسلطان لهما. وقد سارع الضباط الستة الى اطلاع الملك حسين على تلك المقالة وكانت عاملا اساسياً في اقناعه.

لقد كان ماذكرته تلك المجلة مناقضاً للواقع تماماً. ذلك لان اي نفوذ كنت اتمتع به في الاردن، انما كان يعود، بصفة منفردة، الى سياسة المحبة والثقة التي كنت اطبقها. فلقد كنت دوما مطيعاً الى ابعد الحدود، للملك وللوزارة.

في اليوم الاول من شهر آذار سنة ١٩٥٦، حضر الملك حسين اجتماعا عقدته الوزارة بكامل اعضائها، وقد انبأ الاعضاء بوجوب طردي من الخدمة على الفور. وحين غادر الملك الاجتماع، اتصل بي رئيس الوزراء[١٩] هاتفيا طالبا حضوري الى مكتبه، حيث اعلمني باوامر الملك، وطلب الي ان اغادر الاردن في حدود ست

---

(١٨) EDINBUROUGCSOUTHAMTON

(١٩) هو سليمان النابلسي.

ساعات، فقلت له بانني لا استطيع ذلك، لان لي زوجة وطفلين في عمان، التي عشت فيها طيلة ست وعشرين سنة، واذ ذاك اتفقنا على ان اغادر في صباح اليوم التالي.

كانت هذه السرعة تعود الى ان الملك والضباط الستة، كانوا يخشون ان اصدر الاوامر الى الجيش بالتوجه الى عمان وقلب الحكومة. لقد حزنت لذلك اشد الحزن. وانني بعد ان كرست نفسي للمحبة المكلفة، والخدمة التي اديتها للأردن، كان يتوقع مني ان اقذف البلد في خضم حرب اهلية![20]

في اليوم الذي اعقب مغادرتي، قام السفير البريطاني بمقابلة الملك حسين. وقد سبق للسفير نفسه ان اعلمني، بان الملك حسين والضباط الذين نصحوه، كانوا يعتقدون بانني سوف اقود القوات البدوية المجندة، واتحرك نحو العاصمة، ان الضباط الشبان الذين كانوا يعتقدون بشيء من هذا القبيل لم يفعلوا شيئا سوى الكشف عن نقص الفطنة لديهم. ذلك اننا نعزو الى الآخرين، النوايا التي نخفيها نحن انفسنا. ذلك لان نفس الضباط الشبان الذين نصحوا الملك بان يطردوني، قد تعهدوا هم انفسهم للرئيس جمال عبد الناصر بان يخونوا الملك ذاته!.

لقد اقسمت يمين الولاء للملك حسين. ولقد وعدت جده (عبدالله) بان اخدم الاردن، كما لو كان موطني، الا اذا اصبح الاردن عدواً لبريطانيا. ففي تلك الحالة اكون حراً في التقاعد من منصبي في الاردن، وابقى محايدا. لقد كان الملك حسين يمسك بالسلطة الفردية، التي كنت في ظلها امارس سلطاتي في الاردن. لذلك لم يكن يخطر بالبال ان اقاوم سلطات الملك وسلطة الحكومة الاردنية، التي خدمتها بصدق طيلة ست وعشرين سنة.

والحقيقة انني حتى هذا اليوم[21] وبعد مرور اربع وعشرين سنة على تلك

---

(٢٠) تحدث الملك حسين في مذكراته التي نشرت بعنوان «مهنتي كملك» عن اسباب طرد الجنرال غلوب من الاردن، فقال «كنت من انصار الرد الفوري (على اسرائيل) وعبثاً ابنت وشرحت كل ذلك لـ (كلوب) فقد كان الجنرال يواصل النصح بمراعاة جانب الحكمة والحذر. كان يحبذ تراجع قواتنا الى الضفة الشرقية، في حالة قيام هجوم اسرائيلي. . . . ومع ذلك فان وجود الجنرال في بلادنا، مذموماً ومطعمونا في شخصه من قبل الكثير من الناس، قد اصبح عاملا باعثا على القلق الاكيد، ولقد حاولت ان اجهز الأردن بقوة جوية خاصة به، اذ لايعقل ان نكون تابعين لبلد اجنبي من اجل تأمين الدفاع الجوي لسمائنا . . وكان تحقيق ذلك مستحيلا مادام «كلوب» بيننا، فكان عليَّ ان انفصل عنه. . لم يكن هناك خيار اخر. ان كلوب يجب ان يرحل (ص ١٥٥).

(٢١) يبدو من هذا ان غلوب بدأ بتدوين مذكراته هذه في سنة ١٩٨٠، ومن ثم اكملها وطبعها في منتصف سنة ١٩٨٣، حيث استطعت اثناء وصولي الى لندن في منتصف شهر تموز من تلك السنة ان اعثر عليها واشتريها.

الحوادث، مازال احس نفسي بانني ملزم بان اخلص لملك الاردن ولشعبه.

* * *

بعد ان قابلت رئيس الوزراء، غادرت الدائرة، وقدت سيارتي الى البيت. وكان سكرتيري الخاص «مولي وايت»[٢٢] قد سارع الى وضع الاضابير السرية في كيس، ثم خرج بعد ذلك لبضع دقائق.

وصلت البيت في منتصف النهار، فانبأت «روزميري» بانني قد فصلت من عملي، فقالت «كانت هنالك قلاقل قبلا، اليست هذه ضربة ايضا؟ فاجبتها قائلا: يبدو ان هذه الضربة هي النهائية!

امضينا بقية النهار، نقرر ماسوف نأخذه معنا، لاننا مقيدين بما نستطيع ان نحمله، وان لدينا طفلين، ودارا سكنتها طيلة عشرين سنة. واذذاك قالت «روزميري»، «اذا كان البيت سوف يحترق فما هي الممتلكات التي سوف اغامر لانقاذها؟». وفي الاخير اخذت حقيبة وضعت فيها الملابس، وسلة خاصة بلعب الاطفال، وهياكل دببة مصنوعة من التبن!

في صباح اليوم التالي قدم خادمنا السوداني «جمعة» لنا القهوة، والدموع تنهمر فوق خديه!. لقد امضى معي اكثر من عشرين سنة، وقبل ان اتزوج. وبعد ان غادرنا، اعلنت الحكومة الاردنية عن بيع اثاثنا بالمزاد العلني، الذي نجمت عنه نتائج غير متوقعة. مثال ذلك ان المائدة التي كنا نتناول عليها طعامنا قد بيعت بجنيهين، في حين بيعت السلة المصنوعة من القصب، التي كنا نستعملها بمثابة مهد، بثمانية جنيهات!! ولقد انبأني اصدقاؤنا من العرب، الذين بعثوا الي برسائلهم من عمان، عن الدهشة العامة، لأن بيتنا لم يكن يحتوي على شيء ذي قيمة. فمادمت قد اشغلت منصباً رفيعاً طيلة تلك المدة، فقد كان العامة يتصورون بانني لابد وان كنت قد اتخمت جيوبي بالمال!

اما ادواتنا التي يمكن حملها، فقد تم جمعها وشحنها الى انكلترا، بما في ذلك، الصندوق الذي كان يحتوي على مشدات الاوراق التي كنا نستعملها في اعياد الميلاد!. وعلى هذه الشاكلة انتهت خدمتي الطويلة والسعيدة، في الاردن، ذلك البلد الذي اغرمت به، وما ازال محباً له.

---

(٢٢) MOLLYWHITE

جاءنا السفير البريطاني «السر (فيما بعد) تشارلزديوك، وزوجته»[٢٣] الى المطار للالتقاء بنا حين المغادرة، وقد وعدني بان يعتني بغزالي المروض!. وآنذاك استقلينا احدى طائرات الفيلق العربي الى «قبرص».

* * *

بعد مرور سنة على عودتنا من الاردن، واذ كنت اعيد قراءة اليوميات التي كنت احتفظ بها منذ الحرب العالمية الاولى، وجدت فيها مدخلا يقول «ان ضابطا جديداً قد عين لنا الآن. انه في السابعة والعشرين من عمره.لست استطيع ان اتصور لماذا يبعثون الينا بمثل هؤلاء الشيوخ (!!) للخدمة في خط الجبهة!». لقد كنت في سن الحادية والعشرين حين كتبت هذه الكلمات، اي في سن الملك حسين حين امر بفصلي! كنت آنذاك في السنة التاسعة والخمسين من عمري، وكان شعر رأسي ابيض، ولابد انني كنت ابدو بالنسبة اليه، كبير السن حقاً!.

لقد كرست ستا وعشرين سنة من حياتي للخدمة في الاردن، من دون ادنى تردد، وبعد تفكير. وقد بدا بان فصلي كان يمثل نهاية مسلكي النافع. ولكنني كنت على الدوام، استمد الشجاعة من تكرار ابيات «روبرت براوننغ» الشهيرة[٢٤]

«ان المرء الذي لايلتفت الى الوراء، ويسير منتصبا الى امام،»
«لن توقفه السحب المشكوك فيها!، ولن يحلم!. وان كانت»
«الاحلام اسوأ، ومخطئة، فلابد من ان يقع النصر!......»
«اننا ما ان نسقط حتى ننهض. وقد نناضل عبثاً لكي نقاتل»
«بصفة افضل، وننام لكي نستيقظ! ..... »

لايوجد انسان يستطيع ان يعرف نتائج عمل حياته. قد تكون النتائج المادية جلية ظاهرة. فقد يجمع مليون باون، وقد يؤسس شركة تجارية كبرى، او ان يكون

---

(٢٣) MR (SIRLATER) CHRLES DUKE

(٢٤) ROBERT BROWNING (١٨١٢ - ١٨٩٨) من شعراء القرن التاسع عشر الذين حظوا بالاعجاب من طائفة محدودة. كان من عائلة ميسورة الحال وقف وقته على الدراسة والشعر والتطواف. وكان لكثرة مكوثه في ايطاليا ان غدت بمثابة وطن ثان له يعتبر زواجه بالشاعرة الانكليزية الذائعة الصيت «اليزابيث باريت» (١٨٠٦ - ١٨٦٠) هو الحادث العاطفي الوحيد في حياته. كانت صحتها العامة على غير مايرام ولهذا امضت اكثرية حياتها بعيدة عن الناس معتكفة في بيتها. ومع ذلك كان براوننغ سعيدا في حياته في حبه، وظلت نفسه قلقة معذبة، وكانت قصائده يشوبها الغموض، لان كان يحاول ان يكتب الانكليزية بالصفة التي تكتب بها اللغة اللاتينية اثاره كثيرة متنوعة، اكثرها خلودا تلك التي كانت تصور بعض احلام اليقظة وهي تتميز بنوع من الرمزية الغامضة ومن اشهر هذه القصائد «بيأ» و «فيغيني» والطفل رولاند يقدم الى «البرج المظلم» وغيرها.

آمراً لاحد الجيوش. ولكن غالبا ما تؤلف امثال هذه النجاحات اقل جزء من عمل حياته. ان التأثير المهم لحياتنا، وان كان يصعب كثيراً تقويمه، قد يتمثل في التأثير الذي نتركه في الناس الآخرين. فلربما ننطق ببعض الكلمات العرضية، وقد يتذكرها البعض مصادفة بعد ان نموت، قد تضيء لمحة سوف تشع في العالم.

كم من الناس الذين تم تبجيلهم الآن بانهم كانوا من العباقرة، قد ماتوا مجهولين، ولم يأبه احد بمهماتهم؟. ولذلك فانه يعد مضيعة للوقت بالنسبة الينا، ان نبتئس مما اذا كنا في الواقع، قد ادينا اية خدمات اطلاقاً! ان ذلك سر لايعرفه سوى الله وحده!

ومع ذلك فان هذا يعد تمجيداً لضعفنا البشري، لان نعرف بان جهودنا قد تم تقويمها، حتى لو جاء من لدن الفقراء والمعدمين!.

في شهر كانون الثاني سنة ١٩٨١، تلقيت قصيدة موقعة باسم «حسن بن مطلق» من عرب «الحويطات» يقول مطلعها

«آه ياكلوب! والله مانسيناك ياكلوب!»

«لقد كان مسلكك على الدوام في طريق الخير والشرف»

لايوجد في اللغة العربية حرف يشبه الحرف (G) في اللغة الانكليزية ولذلك اصبح اسمي «كلوب»[٢٥].



(٢٥) اعتاد بعض الكتاب العرب ان يكتبوا الحرف (G) الانكليزي «كافا» ويضعوا عليها فتحة لتنطق مثل الكاف الاعجمية غير اننا نرى ان الحرف (غ) يكون اقرب الى الحرف الانكليزي (G) من الحرف الاعجمي (ك).

الفصل السابع عشر

الحرفة الثانية!



الحرفة الثانية!

كان فصلي من عملي في الفيلق العربي، يمثل الخطوة الاولى في المؤامرة التي كانت مصر تبيتها. اما الخطوة الثانية فكانت تهدف الى تخلص مصر من الملك حسين نفسه. ولذلك فانني ما ان غادرت الاردن حتى تولت الحكم فيه على الفور حكومة شبه شيوعية. كما ان «علي ابو نوار» الذي اقنع الملك حسين بفصلي من عملي، سرعان ماتم ترفيعه الى منصب رئيس اركان الجيش الاردني. ولقد اتفقت حكومة «النابلسي» مع «علي ابو نوار» كلاهما، على القيام بمؤامرة لخلع الملك حسين عن عرشه، واعدت كل التفاصيل لاعلان الجمهورية الاردنية، الى درجة انه حتى العلم الجمهوري الاردني، والعناوين التي تضم الشارات الجديدة التي توضع على القبعات، كانت قد صنعت كلها مقدما في مصر.

وفي اليوم الرابع عشر من شهر اذار سنة ١٩٥٧، فسخت الاردن المعاهدة الانكليزية الاردنية، وبذلك الغي التزام بريطانيا، بان تنهد الى مساندة الاردن اذا ما هوجمت. لقد كان امرا غير مألوف ان وجدنا حتى الاقطار الصغيرة، مصابة في الغالب بمركب النقص الذي كان يدفع بها بصفة عنيفة الى التحالف مع امة اكثر قوة[1].

---

(١) لو كانت امثال هذه المعاهدات التي يتحدث المؤلف عنها، متكافئة فلا غبار عليها سواء كانت تعقد بين بلد صغير وبلد اكثر قوة. غير ان كل المعاهدات التي كانت تعقدها الدول الكبرى مع الدول الصغيرة، ومازال حتى الان، تتمثل في هيمنة الدولة القوية على شؤون الدولة الصغيرة، وابقائها اشبه بالتابعة او المستعمرة، مثلما كان عليه الامر بالنسبة الى التحالف بين بريطانيا وكل من العراق والاردن ومصر وغيرها.

ويبدو ان الامم متوسطة الحجم، لاتعاني من مثل هذه العقبة السايكولوجية وانها تكون مسرورة عادة وكثيراً للحصول على ضمانة تحالف قوي معها.

وحين كنت مسؤولاً عن الدفاع عن الاردن من سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٥٦، كنت ادرك تمام الادراك، باننا لسنا اقوياء الى درجة نستطيع معها ان نقاوم هجوما تشنه اسرائيل ضدنا، اجل اسرائيل التي كانت قد جهزت، على اوسع مدى، باحدث الاسلحة من الولايات المتحدة الامريكية. ان هذا الدعم الامريكي لاسرائيل لايعود الى اعتبارات اخلاقية تمس العدالة، او الى اية مصالح حقيقية للولايات المتحدة الامريكية، وانما كان الباعث لهذا الدعم، هو السياسة الامريكية الداخلية. ذلك لان الاعتقاد السائد في امريكا بصفة عامة، هو ان الدعم اليهودي كان ضروريا لكسب انتخابات الرئاسة الامريكية. ...

وفي ضوء هذه الحالة بدا لي بان الامل الوحيد لبقاء الاردن في الوجود، هو ان تحافظ الاردن على تحالفها مع بريطانيا لمواجهة الدعم الامريكي لاسرائيل[٢] ولم يكن هذا التحالف مع بريطانيا يكلف الاردن شيئا ما، لان الحكومة البريطانية لاتتدخل في شؤون الاردن، بل على النقيض من ذلك ان بريطانيا كانت تدفع اثني عشر مليون باون في كل سنة، في صفة منحة الى الاردن باعتباره حليفا لها، ولكي تعينه بذلك على ابقاء جيشه حديثا.ولقد كان وجود سرب من القوة الجوية البريطانية في عمان، يعتبر ضمانة اضافية للدعم البريطاني ضد الهجوم الاسرائيلي. ذلك ان «اليهودية» و «السامرة» التي يسكنها العرب وحدهم، قد تم الاعتراف بها دولياً جزءاً من الاردن. فاذا ما حافظ الاردن على تحالفه مع بريطانيا، فان هذه المناطق العربية من فلسطين، سوف تظل جزءا من الاردن، وان تظل حتى اليوم مأهولة بشعب عربي، كما كانوا عليه طيلة آلاف السنين.

غير ان مركب النقص لسوء الحظ لدى الاردن، قددفعه الى فسخ تحالفه مع بريطانيا، وساعد اسرائيل طيلة احدى عشرة سنة في الاخير، على احتلال كل المناطق التي كان اهلها يتحدثون بالعربية في فلسطين، فالمسألة الاساس المعرضة للخطر هنا، ليست توسيع رقعة الاردن او تقليصها، وانما هي حرية الناطقين بالعربية من

---

(٢) لوكانت الحكومة البريطانية صادقة في تحالفها مع الاردن، واي من الدول الاخرى التي تحالفت معها، مثل العراق، ومصر، لما نقضت ذلك التحالف، حين امتنعت عن تزويد تلك الدول بالسلاح، وهي المصدر الرئيس لذلك السلاح، ولما مكنت بهذا الامتناع، اسرائيل التي كانت تحصل على السلاح من امريكا ومن الكتلة الشيوعية، واوربا الغربية، بما في ذلك بريطانيا التي تخلت عن معسكراتها وكل مافيها من عتاد وذخيرة للعصابات اليهودية، قبل ان تعلن الغاء الانتداب على فلسطين، والانسحاب منها. كما ان الشكوى التي اوردها المؤلف نفسه في فصول سابقة عن هذا الموضوع، تدحض آراءه في التحالف.

الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في بلدهم الخاص منذ الاف السنين، وهم الذين اصبحوا، بعد ان احتلت اسرائيل فلسطين كلها في سنة ١٩٦٧، يعيشون في ظل الحكم الاسرائيلي العسكري، والذين تم طردهم من ديارهم، وجردوا من اراضيهم، اونفوا من بلد اجدادهم.

فلو كان الملك حسين يكرهني، فقد كان حرا في فصلي من عملي، ولن تحتج بريطانيا على ذلك، بل انها لن تحتج ان هو عين ضابطا عربيا لكي يخلفني في منصبي. ففي مثل هذه الحالة سوف يستمر التحالف البريطاني العسكري مع الاردن، في حمايته من الهجوم الاسرائيلي، ولسوف يسمح للفلسطينيين الناطقين بالعربية، ان يستمروا في العيش في ديارهم في ظل حكام من العرب.

وفضلا عن ذلك فان الاردن بفسخه معاهدته مع بريطانيا، كان قد خسر منحة المساعدة البريطانية له، والبالغة اثني عشر مليون باون كل سنة، التي وافقت كل من مصر وسوريا، والسعودية على ان تدفعها الى الاردن بدلا من بريطانيا. ولكن ما ان فسخ الاردن معاهدته مع بريطانيا، فان ايا من هذه الاقطار العربية الثلاثة،لم يدفع للاردن اي شيء من المعونة. لقد كان من العسير اكتشاف المزيد من مسلسلات الخيانة، والوعود الكاذبة.

في شهر نيسان سنة ١٩٥٧ كان الاردن في فوضى. وقد بدت الحالة، بالنسبة الى المتآمرين، بانها اصبحت ناضجة لطرد الملك حسين من العرش، ولهذا السبب نشطت الحركة في ماكنة الدولة. ففي «الزرقاء» التي تعتبر بمثابة مقاطعة «الدرشوت» الانكليزية، بالنسبة الى الاردن، امر ضباط المدفعية رجالهم، بان يفتحوا النار على قوات المشاة، ولذلك قرر الملك حسين، الذي لم يكن يشعر بالخوف، ان يذهب الى هناك بنفسه. ولقد حقق وجوده الشخصي، النصر له، ذلك لان كل الوحدات قد استقبلته بحماسة منقطعة النظير.

كانت كل من مصر وسوريا وراء ابعاد الملك حسين عن عرشه. ففي هذا اليوم من الازمة، احتل الجيش السوري الاقليم الشمالي من الاردن، غير ان جرأة الملك حسين هي التي ربحت المعركة في ذلك اليوم. ففي شهر نيسان سنة ١٩٥٧ استطاع الملك حسين ان يخرج من سنة تعمها الفوضى، وكان خلالها معرضاً في اية لحظة، لانَ يخسر عرشه وحياته.

* * *

وبعد سنة من الفوضى التي اعقبت مغادرتي، استطاع الاردن ان يستعيد استقراره، لقد استبدلت الحكومة شبه الشيوعية، بوزارة يرأسها «ابراهيم هاشم» اقدم رجل دولة في عمان. ولقد كتبت اليه مهنئا، وفي بداية شهر تموز سنة ١٩٥٧ تلقيت جوابه وهذا هو نصه.

مكتب رئيس الوزراء
عمان في ٢٩ - ٦ - ١٩٥٧

عزيزي غلوب باشا

تسلمت بسرور عظيم رسالتك المؤرخة في يوم ٢٤ - ٦ - ١٩٥٧. انني اقدر كل التقدير حبك للاردن. وبهذه المناسبة اود ان انبئك بان الحوادث الاخيرة، التي حدثت من لدن اولئك الذين كانوا يتطلعون الى تدمير بلدنا العزيز، قد انتهت. لقد عادت الحالة مستقرة مرة اخرى، واستأنفت الحياة مجراها الاعتيادي. واننا نأمل ان تظل السلامة العامة ثابتة ان شاء الله.

لقد فرحت لان اتلقى الانباء عنك، وان اعلم بانك الان تستمتع بحياة هادئة في دارك الجديدة في الريف. ان هذه؛ في نظري، هي افضل مكافأة لرجل يستطيع ان ينالها بالعمل اثناء حياته.

انني اتطلع دوما الى نشر كتابك الذي سوف يكون على وجه التحقيق، ذا قيمة عظيمة، لاننا نعلم ان كل ماتكتبه، سوف يلم حقا، بالحوادث التي عشتها وجربتها، على الرغم من اي شيء قد يقوله الاعداء وامثالهم.

وفي الختام اود ان اذكر لك كيف انني كنت غالبا افكر في الايام السعيدة التي امضيناها سوية، وآمل ان اكون محظوظا للالتقاء بك مرة اخرى.

مع خالص تحياتي لك، ولاسرتك، وليحفظك الله.

المخلص: ابراهيم هاشم

قد يكون محقاً ان نزعم بان الملك حسين كان قادراً على ان يبقى على قيد الحياة، بصفة جزئية في الاقل، لان البلاد، وجيشها، قد تم بناؤهما في مدة خمس وثلاثين سنة من قبل حكومة وطيدة ومخلصة، فعلى الرغم من اقسى المؤامرات، والتخريب العنيف الموجه من خارج البلاد، من قبل الشيوعيين، والعناصر المتطرفة، على الرغم من ذلك كله، بقي قلب الاردن مخلصا بصفة ثابتة.

لقد وجهت كل المؤامرات التي استهدفت خلع الملك حسين عن العرش، من قبل مصر التي كانت تحلم بان تصبح الحاكم الوحيد للعالم العربي برمته. اما الملك حسين الذي كان في اول الامر يبدي اعجابه بحكام مصر، فقد اصبح الآن يسيء الظن فيهم. ذلك لان الضباط الاحرار الستة الذين نصحوا الملك حسين بطردي، كانوا من المأجورين للحكم المصري، وكانوا قد اعدوا العدة لازاحة الحسين، بعد ان استخدموه نفسه لطردي انا. ولقد استطاع الملك حسين ان يدحر كل اعدائه، لما تحلى به من جرأة شخصية نادرة.

* * *

على هذه الشاكلة انتهت خدمتي الطويلة والسعيدة في الاردن. ولكن قد يكون من المفيد ان نشير هنا الى المرحلة التي حلت فيها العقدة في سنة ١٩٦٧. فلقد كان الرئيس جمال عبد الناصر آنذاك يسير من نصر الى نصر. وما ان نال الدعم من روسيا والكتلة الشرقية، حتى اقدم على زيادة عدد افراد جيشه، واكمل بناء سد اسوان العالي. وكانت خطبه التي يلقيها من اذاعته، التي سماها «صوت العرب» قد اثارت الاحاسيس المهتاجة في العالم الذي يتحدث بالعربية. وقد زاد ذلك من انجرافه نحو الاسهاب والاطناب.

وفي سنة ١٩٦٧ اقام الرئيس جمال عبد الناصر حامية من جيشه في «شرم الشيخ» على الرأس الجنوبي من صحراء سيناء، وشرع يتحرش بالسفن المتوجهة الى ميناء «ايلات» الاسرائيلي.
والحقيقة انه لم تكن لاسرائيل اية تجارة في ساحل خليج العقبة، وان وجدت فانها كانت في نطاق ضيق[٣] ومع ذلك فان تلك التحرشات قد زودت اسرائيل بذريعة من الذرائع.

لم يقو جمال عبد الناصر على مهاجمة اسرائيل، كما كان يزعم ذلك غالبا. ولكن اسرائيل هي التي هاجمت مصر،مبررة عملها ذاك بالتهديدات التي كان جمال عبد الناصر يطلقها ضدها. لم يكن الملك حسين على ود مع جمال عبد الناصر، غير ان،

(٣) تعمد المؤلف هنا الكذب. فقبل كل شيء انه تجاهل في مذكراته العدوان الثلاثي الذي شاركت فيه كل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل على مصر، في التاسع والعشرين من تشرين اول سنة ١٩٥٦، كما تجاهل ان قناة السويس ظلت معطلة بعد ذلك العدوان لفترة طويلة. يضاف الى هذا ان ميناء ايلات الاسرائيلي في خليج العقبة ليس هو الميناء الوحيد الذي كانت تمتلكه اسرائيل، فقد كان لديها اعظم ميناء في الشرق الاوسط آنذاك وهو ميناء حيفا وكانت كل وارداتها، وصادراتها من ذلك الميناء وميناء يافا ايضا اضافة الى ميناء (اشدود).

عواطفه الكريمة قد اجبرته في هذه الازمة، على ان يطير الى القاهرة، وان يتعهد لجمال عبد الناصر بان يقف الى جانبه.

وحين وجهت اسرائيل هجومها على مصر، اتصل جمال عبد الناصر هاتفيا بالملك حسين، وطلب اليه ان يهاجم من «الخليل» جناح القوات الاسرائيلية المتوجهة الى سيناء. وبجرأة لايمكن احتساب مداها، قاد الملك حسين قواته المدرعة بنفسه، عبر جبال «الخليل» ولكن هذه القوات الاردنية قد هوجمت جوا، وتم تدميرها في الطرق الجبلية الضيقة، لانها كانت من دون غطاء جوي، او مدفعية مضادة للطائرات. وفي الوقت ذاته كانت بقية الجيش الاردني مبعثرة في جيوب صغيرة على امتداد خط التقسيم.

لم تضع اركان الجيش الاردني اية دراسات للموقف، ولا اخذت اية خطط للمعركة بعين الاعتبار. ونتيجة لذلك، فحين تم تدمير الرتل الاردني المدرع عبر جبال الخليل، اندفعت القوات الاسرائيلية من اي مكان الى خط التقسيم، ضد الوحدات الاردنية التي لم تكن لديها اية اوامر. توقفت بعض الوحدات الاردنية عن المقاومة اليائسة المنعزلة. ولكن القوات الاسرائيلية اندفعت بسرعة الى داخل الاراضي الاردنية.

فلو كان الملك حسين قد حافظ على معاهدته مع بريطانيا، واحتفظ بمجموعة الضباط البريطانيين الذين خططوا العمليات مسبقا، لامكن انقاذ بعض الشيء. ولكن الملك حسين اندحر بفعل فضائله التي كان يتحلى بها، وهي: العاطفة الكريمة والجرأة التي لاتخشى شيئا ما.

بعد تلك الكارثة جاء الملك حسين الى لندن، فقمت بزيارة مجاملة له في فندق «دور تشستر». ولقد تلقاني بان فتح ذراعيه، وضمني اليه، واعترف الي بصفة مفرطة، بانني كنت مصيبا في تحذيري اياه، بان اسرائيل، بقوتها الامريكية الكاملة من الطائرات والاسلحة، كانت قوية جدا، بحيث لايمكن التصدي لها.

استطيع الان ان اكتب بصراحة عن اخطاء الشباب لدى الملك حسين، لانه اصبح، منذ ذلك الوقت، من اذكى رجال الدولة في الشرق الاوسط. لقد كانت الضحايا الحقيقية لسوء الحسابات هذه، تتمثل في الفلسطينيين. لقد طرد هؤلاء من ديارهم معوزين، موجة بعد موجة، وكان الكل منهم يعيش في المناطق التي خصصتها لهم منظمة الامم المتحدة حسب مشروع التقسيم.

اما اولئك الذين كانوا مايزالون يسكنون الضفة الغربية من نهر الاردن، فقد أصبحوا الآن يعيشون في ظل الاحكام العرفية الاسرائيلية، ومن دون ان يتمتعوا باية حقوق مدنية. وقد طرد الكثيرون منهم من اراضيهم التي استولى عليها الاسرائيليون. وما تزال الضفة الغربية، حسب القانون الدولي، تعتبر ارضا معادية محتلة، وتكون فيها امثال هذه الاوضاع غير قانونية.(٤).

* * *

لنعد الان، بعد هذا الاستطراد، الى طردي من الاردن في شهر اذار ١٩٥٦. ما ان هبطت بنا احدى طائرات الفيلق العربي في جزيرة قبرص، حتى ذهبنا، انا وعائلتي، الى فندق «دوم» في «كيرينا»(٥) لتمضية يوم او يومين فيه، حيث سبق لنا في مرتين ان مكثنا فيه قبلا في بعض الاجازات المحلية. ومن ثم حصلنا على مقاعد لنا في «شركة الخطوط البريطانية» وطرنا الى لندن.

وما ان هبطنا في مطار «هيثرو»(٦) بلندن، حتى انهال علينا فورا، حشد كبير من الصحفيين الذين احاطوا بنا، وراحوا يمطروني بالاسئلة. كان اللواء «روبرت اليوت»(٧) الذي كان آمر مدفعية الفيلق العربي، في وقت ما، الذي كان يسكن في «كمبرلي»(٨) بمقاطعة «سيري»(٩) قد قدم لملاقاتنا ومساعدتنا. وبالتعاون مع الشرطة، استطاع في النهاية، ان يهربنا من المطار بسيارته الخاصة، وان نخرج من هناك، غير ان الصحافة لايمكن الافلات منها بمثل هذا اليسر. كان الظلام قد اسدل استاره. وحيثما كنا نلتفت الى وراء، كنا نشاهد صفا طويلا من اضواء السيارات التي كانت تتعقبنا.

---

(٤) بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بوقت قصير، اصدر غلوب كتيبا عن تلك الحرب بعنوان «ازمة الشرق الاوسط» MIDDLE EAST CRISIS وقد جلب احد الضباط المتقاعدين من الجيش العراقي في ذلك الوقت، هذا الكتيب وحثني على ترجمته ونشره. ولقد نهضت بهذه المهمة فعلا، ولكن دائرة الرقابة آنذاك لم توافق على نشر الترجمة. واستعاد ذلك الضباط الكتيب والترجمة معا. وكان غلوب في هذا الكتيب قد نصح الاسرائيليين بوجوب التفاهم مع عرب فلسطين والعيش معهم بسلام، وحذرهم بالمصير الذي صار اليه الصليبيون، الذين استولوا على فلسطين وما حواليها واقاموا فيها مدة مائتي سنة، ولكن المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي ابن العراق البار، استطاعوا، ان يقوضوا حكم الصليبيين، وان يحرروا مدينة القدس ويمهدوا الطريق لكنس اخر ماتبقى من نفوذ للصليبيين في العالم الاسلامي.

(٥) KYRENIA, DOM HOTEL.

(٦) HEATHROW.

(٧) ROBERT ELIIOT.

(٨) CAMBERLY.

(٩) SURRAY.

واذ لم استطع التخلص منهم، فقد قررنا ان نتوقف في نزل على جانب الطريق، وان نواجه الجلبة، وللمرة الاخرى احاط بنا حشد من الصحفيين ووقفوا يستمعون الى الرد على الاسئلة، الى ان كلوا من ذلك. واخيرا، وفي النهاية، وبعد يوم طويل من الانهاك البدني والعاطفي القينا بانفسنا، مع طفلينا، في منزل السيد الكريم «اليوت» في «كمبرلي». ذلك ان الصحفيين، في اوقات الارهاق البدني، يكونون احيانا مجردين من الرحمة والشفقة!

لاشيء هناك يمكن ان يتجاوز الود الذي ابدته اسرة «روبرت اليوت»، الذين قلبوا بيتهم رأسا على عقب، لكي يوفروا السكن لنا ولطفلينا. وطالما حيينا فاننا لن نستطيع ان نسدد الدين الذي نحن مدينون به لهم.

اتصل بي رئيس الوزراء السر انطوني ايدن، واعلمني بان الملكة قد ابدت سرورها لان تمنحني وساما من درجة «فارس باث»[١٠]، ولذلك توجهت الى قصر «بكنغهام»[١١] حيث منحت ذلك الوسام، واستقبلت استقبالا كريما من لدن جلالتها.

عثرنا على مسكن لنا في «سوث غود ستون»[١٢] في «سيري»، وتم استجوابي من قبل لجنة من مجلس اللوردات، دون المزيد من النجاح في ذلك، لست استطيع ان اقول شيئا ما غير صحيح، ولم افكر مقدما فيما اريد ان اتحدث عنه. وفي النهاية انتهى التوتر، وتركنا لكي نواجه المستقبل.

كانت المشكلة الملحة كثيرا هي اننا لانملك سوى القليل من المال، ذلك لانني لم استطع ان اوفر شيئا، ولم يكن مرتبي في الاردن سخيا. واكثر من ذلك انه كان لنا طفلان، كنا ندفع عنهما اجور الدراسة في مدارس خارجية بانكلترا. ولذلك كتبت الى «سلوين لويد»[١٣] وزير الخارجية، اسأله عما اذا استطيع ان احصل على مساعدة مالية، فرد علي يقول ان الحكومة البريطانية ليست مسؤولة عني، وانه لاتوجد جداول في الميزانية يمكن عن طريقها ان احصل على المساعدة، ومع ذلك فان السفير البريطاني في عمان، قد تم اعلامه بان يطلب الى الحكومة الاردنية مساعدتي، ومهما يكن فقد ردت الحكومة الاردنية على ذلك بانها غير ملزمة في تقديم هذه المساعدة.

كان هذا هو الواقع حقا. فمع انني كنت قد خدمت الحكومة الاردنية بكل روحي وقوتي، طيلة ست وعشرين سنة، فانني لم اضايقها في التوصل الى وضع عقد لعملي.

---

(١٠) A. KNIGHT COMMANDER OF THE BATH.

(١١) BUCKINGHAM.

(١٢) SOUTH GODSTONE.

(١٣) SE LWYNLLOYD.

لديها، او تحديد شروط للخدمة. ومع كل ذلك فاننا قد تخلصنا من هذا العوز نتيجة حظ لم يكن متوقعا. ذلك ان صحيفة «الديلي ميل»[١٤] قد عرضت ان تدفع لي مبلغ ستة الاف باون، لكي اكتب لها سلسلة من المقالات، ولم يكن احد قد عرض مثل هذا المبلغ، طيلة حياتي.

كان افتقاري الى المال يعود اولا واخيرا الى غلطتي انا. ذلك لانني لم اكن افكر في المال. وليس هناك احد يفكر في ان يقدم على خدمة الاردن (او اية حكومة اخرى) من دون ان يحصل اولا على عقد بشروط الخدمة، وعلى حكم للحصول على مرتب تقاعدي عند تقاعده، او منحة في اقل تقدير!

كان «جون اتنبرو»[١٥] مدير شركة «هولدر وستاوتون» للنشر[١٦] قد خدم، خلال الحرب العالمية الثانية في مقر القيادة العامة للشرق الاوسط. وفي ذلك الوقت كان قد اقترح علي بان اضع احد الكتب. وكانت نتيجة ذلك انني وضعت كتاب «قصة الفيلق العربي»[١٧] في لحظات الفراغ التي كنت التقطها في عمان. وقد نشر ذلك الكتاب في انكلترا في سنة ١٩٤٨.

اما الآن فانني قد اتصلت مرة اخرى بالناشرين «هولدر وستاوتون» لكي اضع كتاباً عرضا علي عنه مبلغا نقدياً لطيفا مقدماً، وهكذا فاننا بالسخاء الذي اضفته جريدة «الديلي ميل» علينا، قد تم انقاذنا من الافلاس. ولقد نشر ذلك الكتاب وعنوانه «جندي بين العرب» في السنة التالية اي في سنة ١٩٥٨[١٨].

كانت الخطوة التالية هي ان نعثر على دار نسكن فيها. كانت زوجتي «روزميري»

---

(١٤) الديلي ميل DAILY MAIL ومعناها «البريد اليومي» من اكبر الصحف في لندن واكثرها رواجا. فقد كانت تطبع ملايين النسخ كل يوم باكثر من اربع وعشرين صفحة من القطع الكبير. اما عدد يوم الاحد فكان يصدر في شكل كتاب ضخم يضم مالايقل عن مائة صفحة من قطع نصف الجريدة الاعتيادية. ومازال الديلي ميل حتى الان تحظى بذات الرواج الذي كانت تحظى به، وذلك شوع المقالات والانباء المثيرة التي كانت تنشرها وفي مقدمتها الفضائح المالية والخلقية وغيرها.

(١٥) JOHN ATTENBORUGH.

(١٦) Holder and stoughton.

(١٧) THE STORY OF ARABLEGION وهو اول كتاب يصدره غلوب عن معركة فلسطين ولكن سبق له قبل ذلك ان نشر كراساً عن «البدوي» ربما عمدنا الى ترجمته ونشره.

(١٨) ASOLDIER BETWEEN THE ARABS ترجمته ونشرته (دار الكاتب العربي) في بيروت، وذكرت عنه بانه «مذكرات الجنرال غلوب قائد الجيش الاردني» ولذلك لايزال كل من اطلع على هذه الترجمة يعتقد انها مذكرات غلوب والحقيقة هي مذكراته عن حرب فلسطين ١٩٤٨ وفيها يدافع عن نفسه

في «تنبرج ويلز»[١٩] وكان ابي وامي يسكنان على مقربة منها في «بيمبوري»[٢٠] ولذلك كنا نستطيع بصفة طبيعية ايجاد مسكن لنا في ذلك الاتجاه. رأينا دارا صغيرة في «مي فيلد»[٢١].

لقد برهن سقف الدار على انه كان مصاباً بالتعفن. غير ان احد الوكلاء المحليين اخذنا الى دار كبيرة «وست وود سانت دنستان» كانت خالية من السكان طيلة ثلاث سنوات وكان السعر المطلوب لها اقل من سعر «كوخ» في القرية.

وحيث انني لم اعتد الحياة في انكلترا فلم اكن افهم لماذا كانت تلك الدار رخيصة الى هذه الدرجة، ولذلك اقدمنا على شرائها، ولكننا لم نكتشف إلا في الاخير مبلغ الايجار والتدفئة في دار واسعة، وتحققنا من السبب الذي ادى الى ان تباع تلك الدار بسعر واطىء. وفي السنوات القلائل التالية كدنا ان نتعرض للخراب مرة اخرى تقريبا.

حين توفي ابي في سنة ١٩٣٨، اخذت امي معي وعدت الى الاردن، وفي ذات الوقت سجلت عقد قراني على روزميري «في دائرة تسجيل عقد الزواج في بلدة «تنبرج ويلز». وحين انضمت الي روزميري اخيراً في عمان، بعد ان تزوجنا في احدى الكنائس ببيروت، انتقلت امي الى القدس حيث سكنت في مأوى مستوطنة امريكية.

في سنة ١٩٤٨ دخل الفيلق العربي مدينة القدس، وقد حدث ان وجدت تلك المستوطنة الامريكية امام خط التقسيم الذي كان الفيلق العربي يحتله في المدينة. وبعد ايام قلائل، وحين كانت امي نائمة ليلا، اصابت صلية من رشاشة، الجدار القائم فوق سريرها مباشرة، ثم تجاوزتها بحوالي بوصتين، او ثلاث بوصات. ومع ذلك فقد رفضت امي ان تغير مأواها ذاك، ولكنها نقلت سريرها داخل الغرفة ذاتها، الى الاسفل من عتبة النافذة، وقد اوضحت تقول «ان الرصاصات لايمكن ان تصيبني هنا، لانها سوف تمر من اعلى، وتصيب الجدار على الجانب الآخر من الغرفة!». كانت امي آنذاك في الثالثة والثمانين من عمرها!

وحين عدنا الى انكلترا كانت اختي «غوندا»[٢٢] قد طارت الى الاردن، ووضعت امي في طائرة متوجهة الى انكلترا، وبهذه الصورة قدمت امي الينا في «مي فيلد». لقد

---

(١٩) TONBRIDG WELLS.

(٢٠) PEMBURY..

(٢١) MAY FIELD.

(٢٢) GWENDA.

تضايقت بعض الشيء، لانها اخرجت من بيت المقدس، واعيدت الى انكلترا، من دون ان تنذر بذلك مسبقا.

ومن دون ان تقيّم سبب اعادتها الى انكلترا، فانها كانت تحس بانه كان من اللازم اعلامها بانني انا نفسي قد انتقلت الى هناك. من الاقوال المفضلة لديها، انها حين كان احدهم يحاول ان يلفت نظرها الى شيء ما، كانت تقول «لاتستعجل ان تصيب ما لايملكه رجل آخر، فلربما تمتلك بعض المال في يوم من الايام!»[٢٣].

سكنت امي معنا في «مي فيلد» بضع سنين، لكنها مالبثت ان انتقلت مؤخراً الى مأوى يديره مبشرون متقاعدون، يدعى «قاعة تروتستريم» في «ركمانسورث» بمقاطعة «هرتفورد شاير»، حيث وجدت الجو الديني ملائما لها. كان اجتياز طرقات لندن بوسائط النقل، يؤلف «سياقة متعبة»، ولذلك فاننا لم نكن نذهب الى امي لرؤيتها غالبا، مثلما كنا نرغب في ذلك. (أننا غالبا مانأسف، بعد وفاة آبائنا، لاننا لم نكن قد عملنا المزيد في سبيلهم!»...

حين انهارت امي اخيراً في سنة ١٩٦٢، وصلتُ الى المأوى الذي كانت تقيم فيه. كانت ماتزال على قيد الحياة، وقد بلغت آنذاك السابعة والتسعين من عمرها. لقد كانت حقا امرأة عظيمة، ذات خلق عظيم، كرست نفسها للموت، وانني لمدين اليها أكثر من اي انسان آخر. وحين زرتها في آخر مرة قالت لي عدة مرات «اليس الله مدهشا؟ اليس الله عجيبا؟». لقد استطاعت ان تعلم نفسها بنفسها، كيف تتحدث بالفرنسية، والايطالية، والالمانية. وحين كانت شابة اعتادت العزف على «البيان» والرسم بالزيت. ومايزال بيتنا يعج بالرسوم التي رسمتها هي، وكذلك الرسوم التي رسمتها امها ايضا!، التي كانت قد درست الرسم في روما. غير ان امي كانت، قبل كل شيء، تتحلى بالخلق، تلك الصفة غير المحددة، التي تميز الشخصية العظيمة.

وكما هو محتم لكل فرد يعيش في سن السابعة والتسعين، فقد كانت امي بعيدة عن الاتصال بالعالم الحديث، وعن حياته الاجتماعية، وموسيقاه ورسومه. فهي بطريقتها الخاصة، قد تكنس كل ذلك باعتباره «نفاية عصرية قذرة»!!.

---

(٢٣) جاء نص هذا القول كماياتي HURRY NO ONE MAN,S CATTLE! MAYBE YOU, LL HAVEAPI G OF YOUROWN SOMDAY وقد تكون الترجمة الحرفية غير الدقيقة لذلك هي «لاتستعجل ان تصيب شاة يملكها رجل اخر، فلربما تصيب خنزيرا أصابك في يوم من الايام.

كانت الطريقة التالية التي ينبغي لي ان ادبرها، هي ان اعيل زوجة، واربعة اطفال صغار، حين عرض عليّ القاء بعض المحاضرات. لقد تعاقدت معي «وكالة فويل للمحاضرات»[٢٤] بان اقوم بالقاء المحاضرات في كل انحاء بريطانيا. كانت الفائدة المالية ضئيلة، لكنها اعانتنا، انا وروزميري، على ان نجوب قسما كبيرا من بريطانيا بالسيارة.

حين كنت قد امضيت سنة واحدة كاملة ليس الا في بريطانيا، في سنة ١٩١٩، فانني لم اكن منذ ان غادرت المدرسة، لا اعرف في النادر اي شيء عن وطني، ولذلك استطعنا ان نجوب منطقة واسعة من بريطانيا، فقد جبنا اقصى الشمال حتى «ادنبرة» و «غلاسغو»ولو اننا لم نبلغ الاراضي المرتفعة. ولقد اجتذبتنا كنائس «شرقي انجيليا» بصفة خاصة، التي يقال عنها بانها كانت قد بنيت تحت تأثير الموجات «الفلمنكية»[٢٥] وذلك بما حوته من صور الملائكة التي نحتت بفخامة تحت السقوف.

اعدنا زيارة كل من «سالزبوري» و «يورك» التي عشت فيها فتى،و«ويلز» التي لم ارها من قبل، و «برستون» التي ولدت فيها، و «ليفربول» التي كان كل شيء فيها اسود مسخما، ولكن اهلها كانوا رقيقين وودودين، اما مدن «شروزبري» و «هرفورد» و «ونجستر» فانها قد امتلكت قلوبنا تماما. وكنت مسرورا لان ازور «ملتون ماوبراي» التي كنت في ايامي الاولى اتحمس للصيد فيها، واتخيلها فردوسا ارضيا!

ان هذا القول ليس دليلا يقودك الى مباهج بريطانيا التي اكتشفتها لاول مرة بعد ان تجاوزت الستين من عمري. فيكفي ان اقول باننا قد وجدنا تلك الجمالات تغرد، على الرغم من الحقيقة القائمة، وهي اننا لم نكن نستطيع ان نحصل على قدح من الشاي،الا مابعد الساعة السابعة والنصف صباحا!. اما في الاردن فاننا كنا نتناول شاي الصباح في الساعة الخامسة صباحا.

كانت بنتا نا قد تم ادخالها في مدرسة داخلية اسبوعية للبنات في «ايستبورن» تقع على مبعدة حوالي عشرين ميلا عن «مي فيلد». فبعد ظهر كل يوم سبت، حين نكون في البيت، نقود سيارتنا لنأخذهما. وفي طريق العودة، وعند منتصف الطريق بين «ايستبورن» و «مي فيلد» يوجد حانوت للشاي يدعى «غرين شترز» يقوم الى جانب

---

(٢٤) FOYLE, SLECTURE AGENCY.

(٢٥) الفلمنك FLEMI$H هم شعب الفلاندر الذي سكن اصقاع بلجيكا وبعضا من هولندا وكانت هم لغتهم الخاصة الممتزجة بالجرمانية وعرفت باسم اللغة الفلمنكية، ولهم ادبهم الخاص بهم والذي نبغ فيه عدد كبير من الشعراء والادباء والكتاب.

الطريق. وكان الاسلوب الرتيب اسبوعيا، هو ان نتوقف عند هذا الحانوت لتناول الشاي. كنت انا و «روزميري» نطلب الشاي والكعك المدور. اما الفتاتان فانهما - كرد فعل لطعام المدرسة - كانتا تطلبان الجبنة «الولزية» الملصقة على خبز محمص، او الخبز المصنوع من الفاصوليا المحمصة مع بيضة مسلوقة، وفي باكر صباح يوم الاثنين اقوم باعادة الفتاتين بسيارتي الى «ايستبورن» كيما تصلا في الوقت المحدد للدرس الاول.

ان من غير المريح لك دوما ان تصبح من الشخصيات العامة. ذلك لان واحدا من العوائق التي تحول دون شهرتك،في نظر الجمهور، هو ان الواقع يقوض صفة المرء، لانه يدفع المرء الى التفكير في شخصه، واقصد بذلك، ذاك الانهماك الهدام لروحية الخدمة. فالنفس هي الجذر، والشجرة، والاغصان، لكل الشرور التي تفيض بها حياتنا المتداعية. فقد كتب «وليم لو»[٢٦] يقول «اننا محرومون من الله لاننا نحيا لانفسنا! فالنفس هي السبب في انعدام الراحة، وفي اثارة الاضطراب، وانعدام القناعة التي نشعر بها دائما. فاذا ما انشغلنا بانفسنا، فاننا لانستطيع ان نحيا كل حياتنا راضين، او في سلام»ولذلك يستحيل علينا، في الواقع، ان نحول دون اتجاه افكارنا نحو انفسنا. غير اننا ما ان نتحقق بان تلك النفس هي العدو الرئيس، اذ ذاك نستطيع في الاقل، ان نخفف من اهتمامنا الذاتي.

وقد يكون مثل هذا الامر اكثر مشقة بالنسبة الى الشخصيات العامة،وعلى الاخص بالنسبة الى الساسة الذين يعملون في ظل نظامنا الحكومي، ذلك لان مكوثهم في الوظيفة لايعتمد على المزيد من الامانة أو الكفاءة، وعما اذا كان الناس سوف يحبونهم ويصوتون لهم في الانتخابات. فالشيء المحتم في الغالب هو ان يشتهر انشغالهم الرئيس، وان تنتقص اخلاقهم أو نواياهم، ويكون الامر هو هدف خصومهم.

فالديمقراطية، تلك الكلمة السحرية، تتطلع الى نظام حكومة نموذجية، يتمثل في القول القائل «ان الناس احرار في اختيار حكامهم!» ولكن ماذا تخفيه هذه الديمقراطية من الدسائس المكثفة الكريهة، ومن الطعن، وسوء التمثيل؟

يقاد الساسة، بصفة حتمية في الغالب، الى اعطاء اهمية رئيسة لكسب الشهرة، بكل صفة من صفات الكيد او الخداع، غير ان من العسير علينا ان نتوقع اي شيء،

---

(٢٦) وليم لو WILLIAM LOW.

حين يبدو ان نجاح اولئك الساسة وكأنه يعتمد كثيراً على النزوة الجماهيرية!

* * *

حين غادرت الاردن من دون اهتمام بي، بدا في نظري ان حرفتي النافعة في اداء الخدمة قد انتهت. ولذلك كان هدفي الاول محدودا في الحصول على مال يكفي لدعم عائلتي، ولتربية ابنائنا الاربعة، الى ان يستطيعوا ان يحصلوا على عيشهم بانفسهم. ولكن ماان مضى الوقت حتى أصبحت ادرك بالتدريج احتمال وجود حرفة جديدة ومغايرة تماما، تكون مفتوحة امامي.

لقد نسيت منذ امد طويل تأملي في هدف حياتي، الذي التزمت بان احققه منذ سنة ١٩٢٠، في «السراي القديم» في بغداد، الذي وازنت به بدائل حياة العمل، وحياة التأليف، ان الست والثلاثين سنة من العمل الدائم التي مضت، قد محت من مخيلتي كل فكرة عن الحرفة الادبية.

غير ان العناية الالهية كانت تذكرني بتلك الافكار التي نسيتها منذ زمن طويل. ولقد دهشت حين كنت اتحدث عن تهذيب الناس في انكلترا، ان اجدهم كيف لايعرفون سوى الشيء الضئيل عن تاريخ البلدان الاخرى، وغير بلدهم الخاص بهم.

لقد ذكرت امرأة ذكية ومتعلمة، بمنتهى الادب تقول «ان لدينا في الاقل العهد القديم» المشترك مع اليهود، ولكن ليس لدينا اي شيء مشترك اطلاقاً مع العرب القساة الذين يجوبون الصحراء على ظهور الابل!.

لقد ظلت الجزيرة العربية، طيلة مائتين وخمسين سنة، تؤلف اعظم امبراطورية في العالم، ليس في ميدان القوة العسكرية حسب، بل وفي ميدان الثقافة، والعلم، والغنى، والفن، والمعرفة ايضا.

ولقد استشرت «جون اكنبرو» مدير مؤسسة «هولدر وستاوتون للنشر» حول هذا الموضوع فأجاب: انا «والزي» قد نفهم ما تقصده حين تقول بان التأريخ يجب ان يكون تأريخ العنصر البشري، غير ان عامة القراء لايعرفون ذلك [ان «الزي» هي «المس الزي هيرون» التي اصبحت فيها بعد هي القارئة الرئيسة للكتابات التي تقدم الى مؤسسة هولدر للنشر].

وافق «المستر جون اكنبرو» على نشر اية كتب تتحدث عن التأريخ العربي، التي قد صعها. لكنه قال «ولكنك لن تحصل على المزيد من النقود بتلك الوسيلة، فاذا كنت تريد الحصول على المزيد من المال، فعليك ان تؤلف الكتب عن الورود في الحدائق التي توجد في الضواحي، او ان تعمد الى تربية القطط السيامية!!».

كتب العلامة «وليم باركلي»[٢٧] من جامعة «غلاسغو» في وقت ما يقول «ان الامور التي تحدث لنا، تبدو اشبه ماتكون بالكارثة، علينا ان نتذكر بانه لايوجد شيء يدعى الكارثة، الا اذا نحن انفسنا قد صنعنا تلك الكارثة، وان كل شيء يؤلف فرصة لنا اذا ما آمنا بالله الذي يصنع كل الامور سوية بالخير».

بدأ يتضح لي بالتدريج ان مقدرتي على اداء الخدمة، لم تنته بطردي من الاردن. والواقع ان تلك الكارثة الظاهرة، قد فتحت امامي حرفة ثانية، تختلف اختلافا كليا، وفرصا جديدة لاداء الخدمة.

اقترحت عليّ «وكالة فويل للمحاضرات» ان اقوم بجولة في الولايات المتحدة الأمريكية القي خلالها المحاضرات، غير انني كنت مترددا في أن اترك (روزميري) والاطفال مدة طويلة. ومهما يكن الامر فقد تم التغلب في النهاية على اعتراضاتي، وهيأت مؤسسة فويل الاتصال بأحدى وكالات المحاضرات في الولايات المتحدة الامريكية.

كان القاء المحاضرات في الولايات المتحدة الامريكية، الذي قمت به بصفة مترددة، قد فتح امامي عالما جديداً، ومنحني البعض من اعز اصدقائي، ووفر لي المال الذي استطعت به ان اتغلب على السنوات المعسرة، الى ان استطاع الابناء ان يكملوا تعليمهم.

ما اعظم منجزات العناية الالهية، ان لانستطيع معرفة المستقبل!. فلو انني، حين كنت شابا، كنت اعرف كل الازمات والاخطار التي كانت مخبأة لي، لما استطعت ان

---

(٢٧) وليم باركلي WILLIAM BARCLAY (١٥٤٦ - ١٦٠٨) قاضي اسكتلندي ولد في ابردن شاير وتعلم في جامعتها. ذهب في سنة ١٥٧٣ لدراسة القانون المدني وحصل على درجة الدكتوراه. عينه شارل الثالث دوق اللورين استاذا للقانون المدني في جامعة «بون امرسون» ثم اختاره مستشارا للدولة.ارغم على الخروج من فرنسا فعاد الى انكلترا وعرض عليه منصب العضوية في كنيسة انكلترا فرفض المنصب وعاد ثانية الى فرنسا، فعين في جامعة انجر. توفي في هذه المدينة سنة ١٦١٨ م اهم مؤلفاته «الملك وحق الملوك» DE REIGNE ET REGL الذي دافع فيه عن حق الملوك صدر في سنة ١٦٠٠ م.

اواجه حياتي، ولما كانت كل كارثة تبرز وتمضي. لك لان كل كارثة كانت تمهد السبيل الى فرصة اخرى من الخدمة، الى ان استطعت، في النهاية، ان اث بأن الحال تكون على هذه الشاكلة دوماً. وحتى حينما كانت المعاناة تشتمل على ذلك، فأنني كنت اوهب ثقة التحمل، كلما برزت حاجة لذلك.



الفصل الثامن عشر

العالم الجديد



العالم الجديد

اتصلت بوكالة نيويورك للمحاضرات، والاسم الذي اعطتني اياه، وكالة فويل للمحاضرات في لندن. وبكفاءة ملموسة حجزت لي هذه الوكالة، جولة القاء محاضرات لمدة شهرين في الولايات المتحدة الامريكية، بما في ذلك برنامج يومي (لعدة ساعات غالبا) وكل بطاقات الطائرات والقطارات، واحتياطات الفنادق، وتعليمات تخص كيفية التقائي مع ممثلي الجمعيات التي سوف أخطب فيها، ولسوف تسلم الي كل امتعتي حين وصولي الى نيويورك، وبذلك لايمكن ان اقع في الخطأ.

ومع هذا فان احدى الرسائل الشفوية قد اثارت دهشتي نوعا ما. ذلك ان وكيل المحاضرات، وهو من اصل بريطاني، كان قد سألني عما اذا كنت اهدف الى عقد مؤتمر صحفي عند وصولي الى مطار نيويورك. وكان علي ان اتلو في هذا المؤتمر بياناً اعد مسبقاً وارفق برسالة. ويذكر البيان بانني اود ان اعرب عن اعجابي بشعب اسرائيل البطولي، الذي اعاد افتتاح موطنه القديم، ودافع عنه ضد تلك الويلات الشديدة!.

لقد قال لي الوكيل لو انني وافقت على ان اقرأ هذا البيان في المؤتمر الصحفي فانه يستطيع ان يحجز لي الوقت الذي استطيع ان اتحدث فيه امام اغنى النوادي في امريكا، بأجور عالية جداً!! ومع ذلك فانني اذا لم اكن راغباً في قراءة ذلك البيان، فان التوقعات المالية لجولتي قد تكون في حدود النصف من الاجور غالبا. ولقد اوضح لي ذلك الوكيل، بان كل النوادي تقريبا، والتي تضم عضوا يهوديا في لجانها المختارة، سوف تصوت ضدي، الا اذا قرأت ذلك البيان عند وصولي!.

ولقد رددت على ذلك بقولي، انني لا احمل احاسيس، مهما كان نوعها، ضد اليهود، ولكنني افضل ان اصرح باعتقاداتي وافكاري الخاصة، بدلا من ان اقرأ بيانا اعد لي من قبل اناس آخرين. فرد علي متأسفا بانه في مثل هذه الحالة سوف تكون النتائج الحالية لجولتي مخفضة بصفة واسعة.

وبالنظر الى هذه المحاورات قررت ان لا اتحدث الا عن تأريخ العرب، وعن القرون التي كانت الامبراطورية العربية خلالها، تمثل القوة العظمى الرئيسة في العالم. ففي الولايات المتحدة، اكثر مما هو موجود حتى في بريطانيا، يعتقد الرأي العام هناك بان العرب ليسوا سوى اناس متوحشين يجوبون الصحارى التي لم تكن متحضرة باي معنى لكلمة الحضارة.

تكرس النوادي الامريكية كل نشاطها لتناول طعام الغداء او العشاء، ومن ثم يعقب ذلك حديث يلقيه احد المتحدثين، وعلى الاخص اذا كان ذلك المتحدث يحمل اسماً كانوا قد قرأوه في الصحف. ولقد كان منهاج وكالة المحاضرات يتضمن في الغالب تماماً، مثل هذه المظاهر الثابتة، ولذلك عرضت خلاصة لمواضيع كانت الرئيسة منها تتناول الامور التالية:-

١- البدو: دراسة تأريخية وسيكولوجية.
٢- العرب في التأريخ: حديث تأريخي من السنة ٦٠٠ ميلادية ومابعدها، ولكن استبعدت عنه السياسات العصرية.
٣- الشرق الاوسط: مفتاح للقوة العالمية.
٤- العرب هم معلمونا: مايدين به العالم المتمدين الآن للمدنية العربية السالفة.

لقد اختيرت هذه المواضيع لانها كانت ايجابية، وتنطوي على معلومات يمكن الافصاح عنها. فلا يوجد اي ذكر لاسرائيل، ولا للسياسات الحديثة، ولا اي نقد سلبي لأي انسان.

* * *

كانت بعض اللمحات الساخرة قد اشارت الى ان الناس كانوا في الايام الخوالي غير مطلعين بصفة عامة. اما الآن وبفضل تقدم العلم الحديث، فان من المستطاع ان يساء اطلاع كل العالم. كانت هذه الفكرة البارعة، الصائبة بعمق، قد اثرت في اهتمامي اكثر فاكثر. والحقيقة انني استطيع ان امضي الى أبعد من ذلك، فاقول ان

دعاية الكراهية هي الخطر الرئيس الذي يهدد الحياة البشرية على وجه الأرض، في الوقت الحاضر.

لقد كنت بالطبع، منذ عهد الطفولة، ادرك بان المسيح يأمرنا بأن نحب اعداءنا. لقد اشتركت في حروب كثيرة. ولكنني لم اكن احس بأي عداء شخصي ضد الجانب الآخر. غير انني في ذلك الوقت لم اكن قد تحققت، مثلما افعل الآن ذلك، من اعماق هذا النظام واهميته.

فاليوم وقد بلغت الرابعة والثمانين من عمري[1] فانني اعتقد بان هذا النظام يمثل الحل لمعظم مشاكلنا العصرية. فلو اننا الهمنا روح التحمل، وحسن الفكر الاوسع ازاء كل ابناء الجنس البشري، لزالت كل صراعاتنا، وكراهيتنا، ومخاوفنا، ذلك لاننا نتفاعل احدنا مع الآخر. فالكراهية تثير الكراهية، والشك يولد الشك، وانعدام الصداقة ينتج انعدام الصداقة ايضاً في نفس المعادي.

لست ذلك المثالي صاحب النظر اللامع كالنجوم. فانا لااقترح بانه ينبغي لنا ان نلغي قواتنا المسلحة، على امل ان اعداءنا المتوقعين سوف يقومون بالمثل. غير ان الشيء الذي اقترحه هو، انه ينبغي لنا جميعا، بما في ذلك حكوماتنا، بان تعامل احداها الاخرى دائماً، بروح الصداقة المكشوفة، الصريحة والبسيطة.

* * *

ولنعد الى موضوع جولتي لالقاء المحاضرات في امريكا فاقول: كان في احدى المناسبات مقرراً، ان اتحدث اثناء غداء يتناوله اصحاب العمل في احد النوادي. وما ان وصلت الى النادي حتى حذرني رئيسه، بانه تلقى احتجاجاً شديداً ضد السماح لي بالقاء محاضرتي، من قبل كبير حاخامي اليهود في المدينة. فقد كتب ذلك الحاخام يقول عني «ان هذا الرجل قد تم الاعلان عنه من قبل جمعية حماية حقوق الانسان بانه عدو الجنس البشري!!»

لم اكن اعرف ان كانت جمعية حماية حقوق الانسان هذه، موجودة حقا، وان كنت في الواقع لا اشعر باي عداء للجنس البشري. ولقد أنبأني رئيس النادي بان جميع حاخامي اليهود في المدينة، سوف يحضرون المحاضرة، وان من الافضل ان اكون متهيئا لذلك.

---

(١) وقت كتابة هذه المذكرات التي صدرت في اواسط سنة ١٩٨٣

القيت خطابي الذي اعددته عن التاريخ العربي، ولم اجد هناك من الذين يضايقون الخطباء بالاسئلة. وفي الختام تلقى رئيس النادي رسالة اعتذار من الحاخام الاكبر، يذكر فيها بانه كان يتصورني طرازا مغايراً من الرجال. كان الحاخام، بكل وضوح، انسانا اميناً اقنعته الدعاية بانني كنت من القساة المتوحشين، ومن قتلة اليهود. وكان هذا الحادث اولى الحوادث التي جعلتني اعرف مدى قوة دعاية الكراهية السائدة في العالم.

لم يخالجني اي انطباع بانني سأكون ممقوتاً بمثل هذه الطريقة من قبل الاسرائيليين، الذين حاولت ان اتعامل معهم لمدة ثماني سنوات، منذ ان غادرت الاردن. لقد تلقيت بصفة عرضية، رسائل من اسرائيليين، او قصاصات من صحفهم، لم تدمغني بروحية الكراهية. ولكن في الولايات المتحدة الامريكية كانت هذه الروحية اكثر خبثا وقسوة، وان لم اكن قد جابهت اية مشقة في ان اصبح ودودا مع اي من اليهود الذين قد التقي بهم شخصيا.

ومع انني كنت اصلا مترددا في الذهاب الى الولايات المتحدة الامريكية لالقاء محاضرات فيها، الا انني ممتن الآن امتنانا عميقاً، لانني استطعت ان افعل ذلك. ان من المستحيل تكوين فكرة عامة عن الشعب الامريكي، الذي يضم جماعات وطوائف متباينة وكثيرة. واذ كنت في جولاتي الاولى، قد تحدثت بصفة اساسية، في اوقات تناول طعام الغداء او العشاء في النوادي، فانني كنت بصفة طبيعية، التقي بالطائفة المتوسطة التي تتحدث بالانكليزية، ولكن مع ذلك استطعت ان اجعل من بينهم من اوثق الاصدقاء الذين عرفتهم طوال حياتي.

فقد كنت في كل مكان في امريكا اقابل بالمودة وبالسخاء الودي، ولذلك اسفت لانني لم احتفظ بيوميات عن جولاتي لالقاء المحاضرات، بالشكل الذي احتفظت فيه بمثل هذه اليوميات عن بعض الفترات الاخرى من حياتي. وكانت نتيجة ذلك، انني مضطر الى ان اكتب الآن معظم ما اكتبه عن الذاكرة.

* * *

كانت جولات المحاضرات، التي خططت من قبل اللجنة، شاقة. ذلك انها اشتملت على القاء خطاب واحد كل يوم، وفي بعض الاحيان القاء خطابين في يوم واحد.

كان الاسلوب اليومي الرتيب هو ان ابدأ نهاري مبكراً بالمطار المحلي، ومن ثم اطير الى مدينة جديدة، وان القي خطابا، وقت تناول طعام الغداء، على اكثر احتمال، في احد النوادي. ولكن كان من المحتمل ان يحدث القاء الخطاب وقت المساء او في وقت ما معاً. وفي صباح اليوم التالي يكون هناك طيران الى مدينة اخرى.

نتيجة لذلك فانني لم اشاهد سوى القليل من الريف،ونادرا ما كنت انجح في رحلة بالقطار، وهي رحلة مفعمة بالذكريات، من ساحل الى ساحل عبر القارة. وكانت تبرز احيانا بعض الحالات العصيبة، حين يكون الجو غير ملائم للطيران، وان يتم احتجازي لكي اتحدث ساعات قلائل فيما بعد، في احدى المدن البعيدة. ففي احدى المناسبات كان عليّ ان اتحدث في «واشنطن» (وكان ذلك في فندق مي فلور على ما اظن) عند المساء. وفي ذات الصباح هبطت لكي اتناول الفطور في مدينة نائية، حيث قيل لي بان الجو غير ملائم للطيران. ومع ذلك فقد لاحظ احدهم ان هناك قطارا قادما، في غضون عشرين دقيقة، ولذلك خرجت من الفندق مسرعا، من دون ان ادفع الأجرة، فامسكت بالقطار، ووصلت الى واشنطن في اللحظة المناسبة!

اما بالنسبة الى ماتبقى، فان علي ان احصر نفسي في الذكريات التي ماتزال ترد على الذهن. ولعل طيرانا اشد مرحا وصخبا، هو الذي حدث مابين «روتشستر، ونيويورك»، حين كان المقعد المتوفر يقع في الدرجة الاولى ليس الا، وكانت تقدم لنا كؤوس «الشمبانيا» طيلة الطريق.

ومن التجارب الملحوظة التي استمتعت بها هي زيارة عاصمة المورمون[٢] اي مدينة «سالت ليك ستي»[٣]. لقد كان لدي انطباع مبهم بان «المورمون» يمتلكون زوجات كثيرة، لكنني وجدت بانهم قد تخلوا عن تلك العادة. ومع ذلك فانهم قد برهنوا على انهم كانواطائفة مستبشرة، ولم يكن تأريخهم يخلو من الرومانسية، حين قادهم «برغهام يونغ»[٤] في سنة ١٨٤٦، الى الغرب الموحش، لكي يؤسسوا مدينة

---

(٢) MORMONS هم طائفة كنسية اسسها جوزيف سمث الاصغر في نيويورك ومانجستر في سنة ١٨٣٠ وكانت تبيح تعدد الزوجات وقد تركز اعضاء هذه الطائفة منذ سنة ١٨٤٨ حول «سالت ليك ستي»ودخلوا في معارك حامية ضد معارضيهم، فقتل عدد كبير منهم في سنة ١٨٣٨ وسجن سمث ولكنه استطاع ان يفر من السجن وان يعيد تنظيم جماعته تنظيما عسكريا فشاركوا في انتخابات الرئاسة الامريكية في سنة ١٨٤٠ وكان سمث قد ولد في شارون، بندسور في ايلول ١٨٠٥ وهاجرت اسرته الى امريكا ثم عادت الى انكلترا

(٣) SALTLAKECITY

(٤) BIRGHAM YOUNG

«سالت ليك ستي» في «اوتاه»[٥].

ولقد احسست بالحب نحو «اريزونا» و «نيومكسيكو»، وذلك نتيجة شبهها الوثيق بمناظر الشرق الاوسط. ففي «مونتانا» زرت موقع «الصمود الاخير»، الذي صمد فيه «الجنرال كوستر»[٦] وهو حادث ربما اضفيت عليه الشهرة الرومانسية اكثر مما يستحق!.

وحين كنت ضابطاً فتيا، درست حياة «ستونوول جاكسون»[٧] وموقعته الشهيرة في وادي «شناندوه»[٨] فاصبحت اعتبره واحداً من ابطالي الشخصيين!. انها ذكريات انتعشت جراء زيارة قمت بها الى مدينة «رتشموند» في «فرجينيا». ومع ذلك فقد دهشت حين تحدثت عن هذه التجربة، التي حدثتني عنها سيدة ثرية ومعتقدة في نيويورك، حيث قالت ان «ستونوول جاكسون» كان من اسوأ رؤساء الجمهورية الذين عرفتهم الولايات المتحدة الامريكية! لقد كانت تخلط بينه وبين «اندرو جاكسون»[٩].

وهناك زيارة اخرى حافلة الى «الامو»[١٠] في تكساس. ففي سنة ١٨٣٣، كانت تكساس «ماتزال تمثل اقليما طليعياً يخضع لنفوذ المكسيك، لكنه كان مأهولاً. على نطاق واسع، بالامريكيين والبريطانيين. وفي تلك السنة قام الجنرال «دي سانتا انّا»[١١] بانقلاب عسكري، ونصب نفسه دكتاتورا على المكسيك، ومن ثم قام باعداد جيش، كان يعتزم من ورائه تدريب الطلائع الامريكية البريطانية في تكساس. ولقد قام الجنرال «دي سانتا انّا» في شهر شباط سنة ١٨٣٦ بمهاجمة حصن «الامو» الذي كان يدافع عنه مائة وسبعة وثمانون من الامريكيين والبريطانيين، وكان هدفهم من وراء ذلك الدفاع، اعاقة تقدم المكسيكيين، الى ان يستطيع «سام هو ستون»[١٢] تنظيم جيش تكساس.

وفي اليوم السادس عشر من شهر آذار سنة ١٨٣٦، تعرض حصن «الامو» لهجوم، قتل فيه جميع المدافعين عنه، بما في ذلك رجال الحدود المشهورين، من امثال «جم بو يي» و «ديفي كروكيت»،غير ان حصن «الامو» كان قد حقق الغرض

---

(٥)UTAH

(٦)GEN. COSTER (٧)STONEWALL JACKSON (٨)SHENANDOAH

(٩)ANDREW JACKSON وقد تولى رئاسة الجمهورية في الفترة مابين سنتي ١٨٢٩ - ١٨٣٧

(١٠) ALAMO

(١١) GEN. DE. SANTA ANNA

(١٢)SAMHOSTON

منه. ذلك ان «سام هوستون» استطاع في اليوم الحادي والعشرين من شهر نيسان ١٨٣٦ ان يهزم الجنرال «دي سانتا انا»، وبذلك اصبحت جمهورية تكساس مستقلة. وفي «الامو» في الوقت الحاضر يعلق علم «النجوم والشرائط» الذي يمثل جمهورية تكساس القديمة، جنبا الى جنب مع شعار اتحاد الجمهوريات الامريكية المتحدة.

* * *

بلغت زياراتي للولايات المتحدة الامريكية، اثنتي عشرة زيارة، وكانت كل زيارة تمتد شهرين او اكثر، وبذلك اكون قد اقمت هناك في كل زياراتي مدة تزيد على السنتين. وفي خلال هذا الوقت كنت قد قمت بزيارة كل ولاية في القارة الامريكية ماخلا «الاسكا» و «وايومنغ» كما اظن(١٣)

واذ تحسنت معرفتي بالبلاد، وحصلت على المزيد من الاصدقاء، فقد تخليت عن وكالة المحاضرات، وشرعت اضع بنفسي خططي الخاصة واتصالاتي، وقد تطلب ذلك قدرا كبيراً من الوقت في انكلترا خلال الصيف، ذلك لانني كنتِ اذهب الى الولايات المتحدة الامريكية في كل فصل خريف.

وما ان بدأ الزمن يمضي حتى اخذت جولاتي تتغير. فقد كنت قد وضعت عدة كتب فيما بعد، عن التأريخ العربي، كان الكثير منها قد نشر في نيويورك، ونتيجة لذلك حصلت على المزيد من الارتباطات بالكليات والجامعات، حيث كنت اتحدث في الغالب الى الحاضرين من الطلبة، واخذت ارتباطاتي بالنوادي تقل شيئا فشيئا، ولو انني بقيت اتحدث احياناً في نوادي «الروتاري» او في فروع اتحاد الناطقين باللغة الانكليزية.

* * *

واذ اخذت اجتاز سني الستينات من عمري، واقترب من سني السبعينات، اصبحت اقل تطلعا الى استعمال الطيران اليومي من مدينة الى اخرى، وفي النهاية بدأت اتقبل الدعوات للاقامة فترات اطول في الجامعات لالقاء سلسلة من المحاضرات.

ولقد قدمت موضوعين جديدين من المحاضرات ايضاً. فقد عرضت القاء

(١٣) WYOMING

محاضرة بعنوان «نظرة جديدة الى المجابهة العربية الاسرائيلية» والتي خصصت بصفة رئيسة لأن تكون ذريعة ذكية بيد الولايات المتحدة الامريكية لاستعمال نفوذها في توطيد السلام، غير انني قد اخفقت في هذه المحاولة، لان النفوذ اليهودي قوي جدا في السياسة الداخلية في الولايات المتحدة الامريكية، ذلك لان الساسة ورؤساء الجمهوريات الذين يتطلعون الى الانتخابات، يدعمون مرشحيهم دائما، عن طريق الوعد بمساندة اسرائيل ، بغض النظر عن العدل والسلام، بل في الواقع، عن مصالح الولايات المتحدة الامريكية، او شهرتها في الحفاظ على الاخلاق والعدل.

تردد الديمقراطية مثل هذه العبارة اللطيفة «ان امريكا بلد متحرر!» وتلقى هذه العبارة بمباهاة على الاجانب الذين يزورون الولايات المتحدة الامريكية، ولكن العالم اصبح الآن عالما صغيرا جداً، لان الساسة الذين يحاولون كسب الاصوات في الانتخابات الامريكية، انما يزرعون، من دون وعي، الحروب، والاضطرابات في القارات الاخرى، وهذا مايحدث بصفة خاصة، في انتخابات الرئاسة في امريكا.

اتذكر بصفة خاصة، انني كنت اتحدث في احدى الكليات عن المجابهة العربية الاسرائيلية. وبعد ان انهيت حديثي قال لي عميد الكلية بان هذه هي المرة الوحيدة التي يسمع فيها وجهة نظر مفردة، او مناقشة لصالح الفلسطينيين، وان كل عرض كان قد سمعه قبلا، كان يؤكد بان اسرائيل كانت مصيبة، مائة في المائة، في كل ما كانت تصنعه!

بعد سنة ١٩٦٥ عرضت القاء محاضرة اضافية بعنوان «صعود الامم وسقوطها». ذلك ان دراساتي التأريخية المتوالية في انكلترا، قد طبعتني بانتظام تواريخ الحياة للامم التي تمت لها السيطرة في الماضي.

وفي مناسبات اخرى كنت انفق اياما عديدة في القاء محاضرات في كل من جامعتي «هارفارد» و «ييل»[١٤]. وفي احدى المناسبات دعيت في جامعة «هارفارد» الى حفل استقبال مؤلف كله من اليهود، حيث كان كل واحد منهم مسروراً وفرحاً.

ومن الزيارات المفعمة بالذكريات، تلك الزيارة التي قمت بها الى الاكاديمية الحربية في «فرجينيا» في «لكسنغتون»[١٥]، والى اكاديميتي «لي» و «واشنطن»[١٦]. ولقد

---

(١٤) YALe, HARVARD

(١٥) LEXINGTON

(١٦) LEE & WASHINGTON

تأثرت كثيرا بروحية الطلبة في الاكاديمية الحربية. كما ان للطلبة في اكاديميتي «لي» و «واشنطن» تقليدا بهيجاً، هو ان يؤدوا تحية الصباح الى اي غريب يلتقون به في حرم كليتهم.

ومايزال طلاب الكلية العسكرية في فرجينيا، يتباهون بمعركة «نيوماركيت» في الحرب الاهلية الامريكية. فحين كان جيش الاتحاد يتحرك نحو الجنوب، كان طلاب الكليات العسكرية قد استداروا، وتألفوا لشن المعركة، وقد استطاع الطلاب ببدلات كاملة، واندفاع مضبوط ان يواجهوا جيش الاتحاد وان يصدوه.

* * *

حين تجاوزت السبعين من عمري سررت لتقبل دعوات لتدريس تأريخ الشرق الاوسط لفترة من الوقت في احد الامكنة. ففي سنة ١٩٧٠ امضيت الفترة الدراسية اثناء الخريف في كلية «لويس كلارك» ببورتلاند في اوريغون[١٧]، اعطيت لي غرفة صغيرة للسكن فيها في حرم الكلية، وكنت اثناء النهار القي محاضرات عن تاريخ الشرق الاوسط، في حين كنت في الاماسي اعطي دورة من الاحاديث في غرفة جلوسي الخاصة عن المشكلة العربية الاسرائيلية.

كان العقيد «جم ديفس»[١٨] يتولى منصب الملحق العسكري الامريكي في عمان حين كنت ارأس الفيلق العربي. وكان هو وزوجته يعيشان الآن في ولاية واشنطن المجاورة. وحين كنت في «لويس كلارك» كانا يخرجان بي في نهاية كل اسبوع، ويرياني شيئا ما من الجمال الباهر الذي تتميز به الزاوية الشمالية الغربية من الولايات المتحدة الامريكية. ولقد غدوت قادراً حتى على ان اعبر الى كولومبيا البريطانية، وان ازور «فكتوريا» في جزيرة «فانكوفر»[١٨] وهي مدينة اكثر انكليزية من انكلترا ذاتها، والتي كانت تذكرني ببريطانيا التي عرفتها صبيا!

القيت في احدى المناسبات محاضرة في جامعة «توري ستيت» في «الاباما»[١٩].
وفي سنة ١٩٧١ تلقيت دعوة لكي امضي جزءاً من موسم الدراسة الخريفية هناك، وان القي سلسلة من الاحاديث عن تأريخ الشرق الاوسط. وحين كنت هناك طلب الي ان القي محاضرة في جامعة «اوبورن»[٢٠] في الاباما ايضا. وما ان

---

(١٧) OREGON ,PORTLAND . LEWIS & CLARK

(١٨) JIM DAVE S

(١٩) ALABAMA . TORY STATE

(٢٠) AUBURN

انتهيت من القاء محاضرتي، حتى سقطت على حين غرة، من دون وعي. قام احد الاطباء بفحصي، واذ لم يجد شيئا غير مصيب، نصحني بتناول قدح قوي من الويسكي!

وحين عدت الى «توري ستيت» اصبحت اصاب بنوبات دوار متواصلة. وفي نهاية مكوثي في «توري ستيت» حجزت لي سلسلة من المحاضرات في عدد من المدن كلها في الولايات المتحدة الامريكية، واذ غادرت مدينة «توري» القيت حديثا في «موتنغمري»[٢١] بولاية «الاباما»، وفي اليوم التالي طرت الى «برمنغهام» في ذات الولاية.

***

واذ يحل المساء يأخذني المضيفون العطوفون في سيارة الى داخل المدينة، حيث كان ينبغي لي ان اتحدث في وليمة عشاء في مركز اتحاد الناطقين بالانكليزية. ولقد توقفوا عند محطة لوقود السيارات حيث ملأوا سياراتهم بالوقود، وخرجنا كلنا حين احسست فجأة بانني فاقد الوعي في الشارع. وسرعان مانقلوني الى مستشفى «سان فنسنت» القريب، والذي سمي باسم القديس «فنست دي بول»، ذلك القديس الذي كان يعمل بين الفقراء في باريس، في القرن السابع عشر، وهو الذي اسس «شريعة اخوات الاحسان» اللواتي كان البعض منهن يقمن بادارة تلك المستشفى ولقد دهشت الممرضات اذعرفن بانني كنت ملما بحياة القديس «فنسنت دي بول» في فرنسا.

وفي الوقت الذي كنت فيه ملقى على سريري في المستشفى كانت هناك قائمة طويلة من المشاركات في المحاضرات تنتظرني. ولقد خفت عميدة الطالبات في جامعة «توري»، «المس ديان هانسون»[٢٢] الى نجدتي بنداء هاتفي، فاعطيتها قائمة ارتباطاتي بالمحاضرات، حيث اتصلت بلطف وبكل مثابرة لجميع الذين كانوا يتوقعون حضوري، فالغت عن طريق الهاتف، مواعيدي، واوضحت لهم ماحدث. اما بالنسبة اليها فان كل اولئك الناس، كانوا قد ذلوا نتيجة عدم تنفيذ التزاماتي ولقد بقينا مع «ديان» اصدقاء حميمين، الى درجة انها قدمت الى انكلترا ومكثت معنا.

---

(٢١) MONTGMERY

(٢٢) DIANE HANSON

قرر طبيب القلب في برمنغهام ان من الافضل لي ان اعود الى وطني، وانه حتى اذا ما اصبت بدوار اثناء الطريق، فان ذلك لن يكون مميتا. ولقد اركبني احدى الطائرات، حيث تلقتني «روزميري» في مطار «هيثرو» وعدنا الى البيت سالمين. واذ كنت مستلقياً في سريري في «سي فيلد» اصبحت التوقفات في قلبي اكثر استمراراً. وفي الاخير حصلت على سرير لي في «مستشفى القلب» في لندن. لم يخف احد بالحضور الي في الحال. وفي اليوم الذي قبلت فيه في المستشفى توقف قلبي مرتين، فانزلت اثناء الليل الى غرفة العمليات لاجراء عملية طارئة. وما ان رفعوني على طاولة العملية، حتى توقف قلبي للمرة الثالثة في ذلك اليوم.

اسرع الجراح بامرار سلك داخل احد الشرايين من كتفي الايسر الى قلبي، وربطه ببطارية خارجية، فحال هذا الاجراء دون توقف قلبي مرة اخرى. وبعد ايام قلائل ادخلت البطارية في القسم الايمن من صدري، حيث مد منها سلك داخل شريان آخر، الى قلبي فبدأ ينبض. ولابد ان يكون الجهاز المعروف باسم «محدد الخطو» على وجه التأكيد واحدا من اعظم المخترعات المدهشة لعلم الطب الحديث.

كانت نوبات القلب التي اصابتني قد وضعت نهاية لجولات محاضراتي الشتوية في الولايات المتحدة الامريكية، والتي استطعت بها ان اغدوا قادراً على دفع اجور تعليم ابنائنا. كما ان تلك الجولات قد قدمتني الى عالم جديد ما كان بوسعي ان اراه، لو لم اكن قد طردت بمشيئة الله من الاردن.

ومع ان الولايات المتحدة الامريكية، كانت في الواقع هي العالم الجديد، إلا انني وجدتها قديمة الى درجة انها كانت ملىء بسحر البطولة البشرية. ولا اريد ان اتطرق هنا الى جمالها الاخاذ. وتنوع مناظرها الطبيعية. لقد تأثرت بكرم الشعب الامريكي وسخائه، ولكنني مع كل ذلك وفي الوقت ذاته، كنت احس بشيء من القسوة في مظاهر الحياة الامريكية. وقد يكون مرد هذا العامل الى مراحل النضال الاولى التي خاضها الرواد ضد الطبيعة، وضد الهنود الحمر، او الى الفجاجة الخشنة للوحشية القديمة التي اتسم بها الغرب.

وعلى الرغم من كل ذلك فانني، على وجه الاجمال، وجدت الولايات المتحدة الامريكية بلد السخاء الودي، والصداقات الدافئة، مهما كانت المظاهر الاخرى التي تخفيها امة على مثل هذا المدى من السعة والانبساط.

خلال السنوات الخمس او الست السابقة من زياراتي السنوية، كانت المحاضرات في امريكا تلقى بصفة رئيسة في الجامعات. ومع ذلك فلم يطلب الي في

بريطانيا ان اتحدث في احدى الجامعات. ذلك لان ساعة واحدة قد تبدو مستحقة للاشخاص الذي يحملون درجات اكاديمية.

وقد حدث في احدى المناسبات، في احدى الجامعات الامريكية، ان اشرت، بصفة عرضية، الى ان الالمان يبدو عليهم بانهم اكثر شغفاً بالموسيقى من البريطانيين، ولذلك انبئت «بانك لاتستطيع ان تقول مثل هذا الشيء في امريكا، لاننا نعتقد ان كل عناصر البشر متساوية!»

ويبدو لي ان هذه الملاحظة التي ادهشتني في ذات الوقت، كانت تتسم قدرا جيداً من التفكير الحديث. فهي تصور الارتباك المألوف في التفكير الى حد ان كلمة «مساوي» تعني كلمة «مطابق». فكل امرىء يجب ان يكون متساويا امام القانون، ومع ذلك فان الناس لايمكن ان يكونوا متساوين الا في صفة خاصة. ذلك لانه لايوجد شخصان متطابقان في كل شيء يكونان في صفة خاصة.

قد يكون هناك اثنان من الرجال الرسامين او العدائين الجيدين، متساويين، ولكنهما يكونان، مع ذلك، مختلفين من الناحية الشخصية اختلافا تاماً. ذلك لانه لايوجد شخصان متطابقان في العالم. ومع هذا فان ارتباكات الفكر، تبرز نتيجة لفكرة المساواة العالمية. فقد قيل ان النساء مساويات للرجال، ولذلك فانهن على استعداد لأن يصبحن من راكبات الخيل المتسابقة. وسائقات للسيارات، او الخيالات اللواتي يقطعن الطرق بسرعة.

ان النساء مساويات للرجال طبعا. ولهذا فان هناك، في الوقت ذاته، تكوينا مغايرا. فالنساء وحدهن هن اللواتي يستطعن تدريب الاطفال الصغار، وبذلك يضمن اخلاق الجيل التالي وصحته. آمل ان لاتغضب قارئاتي من اي شيء قد ذكرته. ولانني اعجب بالنساء اكثر من اعجابي بالرجال، فلست استطيع ان افهم لماذا ترغب النساء في الحط من قدرهن، وذلك بتقليدهن الرجال.

قد تكون كل المخلوقات البشرية متساوية، ولكنها، خلف هوة المساواة، تخفي تنوعا لاينتهي من المواهب، والقوى والقابليات.



الفصل التاسع عشر

عقل يحتضن العالم!



عقل يحتضن العالم!

يواجه العالم كله اليوم ذات المشاكل. وتلك هي سرعة المواصلات، بحيث ان الجريمة التي تقترف في بلد ما، تذاع انباؤها خلال ساعات قلائل، في كل ارجاء العالم، ومن ثم يجري، خلال بضعة ايام، تقليدها باقتراف جرائم مماثلة في جانب آخر من المعمورة (ويندر ان تنقل وسائط النقل فضائل التقيد في اي مكان آخر).

ان العالم برمته مهدد الان بخطر احتمال وقوع حرب نووية، من شأنها - في افضل حالة - ان تستأصل نتائج آلاف السنين من الحضارات، وفي اسوء حالة، ان تنهي الحياة كلها من على وجه الارض. ومع ذلك، وفي الوقت ذاته، يستطيع العلم الحديث، على وجه التحديد، ان يخفف من آلام الانسانية، اذا ما امكن استخدام مكتشفات العلم الحديث لاغراض بناءة، بدلاً من استخدامها لابادة الحياة.

ويكفي ان نقول ان سرعة المواصلات قد قلصت المسافات والعزلة، فاصبح العالم يؤلف اقليما واحداً. فاذا ماأردنا ان نعالج مثل هذه الحالة بالحكمة والنجح، فأنه من الواضح، ينبغي لنا ان نأخذ بنظر الاعتبار مصالح العالم كله من دون خوف او تحيز. ولكن يشترط لذلك ان تتناول عقولنا، الحالة الدولية برمتها، لان المثالية التامة لاتكفي لذلك. فكل تفصيل للحياة البشرية، يجب ان تتم رؤيته، بطريقة خاصة ودقيقة.

ان الحرب النووية هي الخطر الطاريء المسلح الذي يواجهنا. ولذلك فاننا ملزمون، قبل كل شيء، بان نأخذ بنظر الاعتبار، العوامل التي تؤدي الى وقوع

الحرب بين الدول الكبرى. ولما كانت حرب من هذا القبيل، سوف تتحول الى حرب نووية حتما، فان المبدأ الاول الذي يجب ان نوجده، هو «ان الحرب يجب ان تلغى الآن، والى الابد» لانه لاتوجد اية وسائل اخرى يمكن استعمالها لتجنب نهاية العنصر البشري.

فما هي اذن، الوسائل التي ينبغي اختيارها لضمان الغاء اسباب الحرب، وما هي الاسباب التي تؤدي الى قيام الحرب؟

* * *

ان الخطوة الاولى الى الغاء الحرب، تبدو في نظري، في ان يعلن زعماء كل الدول صراحة، وبصفة متكررة، ان قيام حرب اخرى سوف تؤدي الى وضع نهاية للعنصر البشري، وان مثل تلك الحرب لم تعد فرضية ضعيفة ينبغي لنا ان نضعها خارج نطاق عقولنا.،

ان السبب الاول المحتمل لقيام الحروب في نظري، يتمثل في العادة. فالطبقة الوسطى العامة، ورجال السياسة، يدرسون الحروب دائما، كما يدرسون الاخطار التي تتعرض لها «نتيجة النوايا الشريرة للدول الاخرى، وحالة دفاعاتنا الخاصة بنا.

وواضح ان الجواب على فشل هذا الوضع المشوب بالحذر، لايعني اننا يجب ان نخفض من اسلحتنا، ونأمل بأن الدول الأخرى سوف تتعقب هذا النهج، ذلك لان مثل هذا المجرى سوف يغري الآخرين كثيراً بمهاجمتنا. ان المفاوضات لتقليص انواع محددة من الاسلحة لاقيمة لها، مادام الخوف والشك مستمرين. ان العلاج الوحيد يجب ان يكون اكثر قطعية، أي ان نستأصل الخوف والشك. فأذا ماامكن ذلك، فأن خفضا اصيلا للاسلحة يمكن تحقيقه، ذلك لان كل البلدان المشتركة في خضم السباق، سوف تتحرك في ذات الاتجاه.

الدبلوماسية

استطيع ان اتذكر بصفة شخصية، تلك الايام التي كانت الجماهير فيها، تطالب «بالدبلوماسية الصريحة». كانت مثل تلك المطالبة تقوم على اساس الافتراض بأن المكائد السرية للاباطرة والملوك، هي التي تؤدي الى قيام الحروب. ولقد اكتشفنا، منذ ذلك الوقت، ان الحروب التي كانت تقع بين الشعوب التي كانت تتطلع الى ان

بين احدها الاخر، قد تكون اشد قسوة ووحشية من الحروب التي تقع بين الحاكمين.

على ان «الدبلوماسية الصريحة» غير قابلة للتطبيق. لانه حتى اذا كانت هناك شركتان تجاريتان تتفاوضان حول احدى الصفقات، فانهما لا تعلنان للعالم كيف ان ايا منهما مستعدة للدفع، وان كانتا قد تدعان الشركاء فيهما، يجهلون موضوع الصفقة!!..

ويبرز المظهر الخطر للديمقراطية الغربية حين تقدم الحكومة القائمة في دست الحكم، على ان تبحث علانية، تصرفات امة اخرى.

فحين استنكر الرئيس الامريكي «كارتر» في سنة ١٩٧٩ غزو روسيا لافغانستان، واعلن عن نيته في مقاطعة الالعاب الاولمبية، فان ذلك الاستنكار لم يحمل روسيا على الانسحاب من افغانستان، ذلك لان الدولة العظمى لن تغير سياستها نتيجة تهديدات يطلقها زعيم بلد آخر!

فلو ان الولايات المتحدة الامريكية، قامت من الناحية الثانية، باجراء اتصالات دبلوماسية سرية في موسكو، لامكن التوصل الى اتفاق يساعد الاتحاد السوفياتي، بكل هدوء، على التخفيف من سياسته ازاء افغانستان، من دون ان يخسر اعتباره.

ففي الغرب تكون السياسة الحزبية في الغالب، تمثل تهديداً للعلاقات الخارجية. فاذا مااختارت الحكومة خطة ما في ميدان السياسة الخارجية، فان المعارضة سوف تناقض تلك الخطة في المناقشات التي تقع، وفي الملاحظات الهجومية والانتقادية التي توجه الى الامم الاخرى. ولذلك فان من اللازم ان نتذكر مدى حساسية البلدان الاخرى، وان نتجنب ايذاءها علانية.

لقد قيل لي ان المجاملة ازاء الامم الاخرى تعد من الامور المستحيلة. وذلك بالنسبة الى حرية الكلام الموجودة في بريطانيا. غير انني اتصور بأن الاغراءات التي تقدمها الحكومة الى الطبقة الوسطى، لابد وان تحدث بعض التأثير. ولسوف يبقى بعد ذلك، السبيل الوحيد الباقي للدبلوماسية السرية التي تحمي البلد الذي اوذي، من اعتذار الحكومة.

ان من اليسير في الحياة ان نوبخ اناساً آخرين حين نعتقد بأنهم قد اخطأوا. ولكننا ننسى ان نشكرهم حين يتصرفون تصرفا حسنا. ففي اثناء الحرب العالمية الثانية قدمت «الاردن» خدمة مخلصة ومكرسة لقضية الحلفاء. وحين انتهت الحرب حاولت ان اقنع الحكومة البريطانية، بأن تبدي، ولو اشارة عامة، عن امتنانها من

الاردن. ان جوابا يعلن في وقت محدد في مجلس العموم البريطاني، سوف يكون كافيا، وسيتم نشره في الصحافة المحلية. غير انني لم استطع ان احقق اي شيء من ذلك[1].

وبعبارة موجزة، ان الخطوة الاولى باتجاه وضع نظام عالمي جديد يبدو عليها بأنها ينبغي ان تكون هي المجاملة، والدقة، واستخدام الدبلوماسية السرية، وعدم استخدام الانتقام، لدى الامم الاخرى، في صفة سلاح من السياسة الحزبية!.

اسباب المنافسات القومية

ومادمنا قد بحثنا آثار الخوف، والشك، والعادة، فأن علينا ان ندقق الآن، بصفة اوثق، اسباب المنافسات القومية. ان احد هذه الاسباب يكمن، دون ريب، في التنافس على الموارد الطبيعية التي توجد في البلدان الاخرى[2] ويتمثل الشيء الرئيس من هذه الموارد الطبيعية، وقت تأليف هذا الكتاب، في النفط. فلغرض ان نحمي البلدان التي نحصل منها على النفط، كما نحمي خطوط انابيب النفط، والطرق البحرية النابعة منها، ينبغي لنا ان نحتفظ بالاساطيل، وبالقواعد في كل انحاء العالم!.

لست اعرف السبب الذي يقنعنا بأن نظل في غمار مثل هذا الوضع المعرض للخطر. الم يكن ينبغي منذ زمن طويل، ان نهيء انفسنا لانتاج مالدينا من مصادر الطاقة؟. لقد انتجت سويسرا، حتى في الايام التي كنت فيها على مقاعد الدراسة، كل طاقتها الكهربية الخاصة بها، وبقيت على الدوام بلداً نظيفا، وكفئاً، ومدعما

---

(١) لم تكن هذه السياسة التي طبقتها بريطانيا، وكل الدول الاستعمارية الاخرى في العالم، ازاء الموقف المخلص الذي وقفته الاردن، خلال الحرب العالمية الثانية، بالأمر الجديد، ذلك لان بريطانيا التي نكثت بالعهود والوعود التي قطعتها للعرب خلال الحرب العالمية الاولى، والذين وقفوا الى جانبها ضد تركيا وحلفائها، لم تأخذ العبرة مما حدث، واصرت حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، على انتهاج سياسة التسلط والاستعمار ولم تقم اي وزن لما بذله العرب من مواقف مؤيدة لها اثناء الحرب العالمية الثانية. وهذا الموقف الذي وقفته بريطانيا وحليفاتها ازاء القضايا العربية المصيرية، قد كشف بكل وضوح زيف الادعاءات والاقوال التي كان الضالعون من ساسة العرب في ركب الاستعمار، يرددونها، ويكررونها في كل وقت.

(٢) سرت عادة الطمع والاستغلال التي تميزت بها الدول الاستعمارية، حتى الى بعض الدول العربية القائمة الان، والتي راحت تحوك مختلف الكائد والمؤمرات وتثير الحروب بين الاقطار العربية ذاتها، في سبيل مصالحها ومطامعها في الموارد الطبيعية لدى البلدان الاخرى. فالنزاع الراهن على الصحراء الغربية، والذي مازال قائما بصفة دموية منذ اكثر من عشر سنوات بين مجموعة الطامعين والمهربين الذين احتضنتهم الجزائر، والفت منهم ماعرفوا باسم منظمة «البوليساريو» الذين اعلنوا عن قيام الجمهورية الصحراوية التقدمية، كل هذا قد حدث لان للجزائر اطماعا ثابتة في الموارد الطبيعية التي تنعم بها تلك الصحراء التي كانت منذ الفتح الاسلامي تابعة للجنوب.

ذاتيا في ميدان الطاقة. لقد وهبها الله بالطبع جبالا توفر الطاقة المائية. ولست استطيع ان نفهم لماذا لانكون نحن مكتفين ذاتياً في ميدان الطاقة؟. السنا نستطيع ان نستخدم استخداما تاما، مثل هذه الجبال والانهار التي نحتفظ بها؟ ولماذا لانستطيع ان نستثمر امثال تلك الموارد الطبيعية الخالصة، كالرياح، وتيارات المياه، او الشمس، لكي نحرر انفسنا من الكلفة، ومن خطر الوقود المستورد؟ اننا اذا ما نجحنا في ذلك، فان الامم الاخرى سوف تسارع الى محاكاتنا، ولسوف يستغني العالم عن الخوف والتنافس الدائمين، وعن الاساطيل، والقواعد التي تطلبتها ضرورة استيراد الطاقة من الخارج. ومع ذلك فان من المستطاع ان نؤكد جيدا، بأن عادة الخوف، والكراهية، والشك، تلك العادة التي تحث على استيراد النفط، ان مثل هذه العادة قد تكون سبباً من اسباب الحرب. فاذا ماتم استئصال الخوف والشك، فان كل الامم تستطيع ان تشتري النفط من اي مكان، وفي سوق علنية.

تعليم الامم كيف تحب

كان من عادة البريطانيين، وذريتهم من الامريكيين، الاحساس بالمضايقة في محاولتهم تعليم الامم الاخرى كيف تحب. وتلك خاصية ربما كانت قد ورثت من الطهريين. وقد لاحظنا قبلا بأن الامريكيين الذين كانوا يعيشون في عزلة، لم يدركوا وجود ثقافات اخرى، تقوم في الغالب على اسس من التقاليد غير الواعية، تبلغ في القدم آلاف السنين، وقد اصبحت تؤلف طبيعة ثانوية.

فالبريطانيون، باتصالهم الطويل مع آسيا وافريقيا، لابد وان يكونوا على معرفة افضل، ولكن لايبدو عليهم غالبا، بأنهم يفعلون ذلك!. وحين نقول اليوم بصفة انجذابية، بأن العالم واحد، فاننا ننسى ان مضي عشرة آلاف، او عشرين الف سنة من التطور داخل العزلة، قد اوجد فروقا واسعة في الفروع المختلفة للعنصر البشري. ولذلك فأن محاولاتنا لاقناع هذه الفروع، او اجبارها كلها على ان تختار عاداتنا، او مؤسساتنا، يكون مآلها الى الفشل والاخفاق.

ففي مستطاعنا ان نفعل الافضل من ذلك، بأن ندع هذه الفروع لوحدها، كيما تطور طريقتها الخاصة بها، وان نتجنب ايذاءها حين ندمغها بالتأخر، ونعاملها باللطف المشوب بالتفوق.

هنالك اقطار كثيرة من امثال افريقيا الجنوبية، كانت قد واجهت مشاكل ليست لنا اية تجربة فيها. ومع ذلك فأننا نسارع ليس لكي نستنكرها وندمها، بل لكي نسعى الى ان نقنعها بأن تتلائم مع آرائنا الخاصة. فاذامااردنا ان نؤثر فيها، افلا نستطيع ان نفعل ذلك، بصفة اوفر تأثيراً، بأن نعتبرها من الاصدقاء او الحلفاء، بدلا من ان نحاول ان نقاطعها؟

ان واحدة من القواعد التي يقوم عليها المجتمع المتمدن، هو ان نفكر في اعمالنا الخاصة. فأذا مااردنا ان ننبيء جيراننا بأننا لانؤيد الطريقة التي يعامل بها «سمث» الساكن في ذات الشارع الذي نسكنه نحن، زوجته، افلا ينبغي لنا ان نساعده لكي يحل مشاكله، او ان نعمد الى تقسيم مجتمعنا الى طوائف؟

صيغ الحكومة

«عن صيغ الحكومة دع الحمقى يتجادلون! فكل ماتجري ادارته، بصفة حسنة، يكون هو الافضل». بهذه الصفة كتب «الكسندر بوب»[٣] في سنة ١٧٣٣ وفي عصر اكثر حكمة من عصرنا الراهن. فنحن اليوم نتصرف بطريقة مناقضة لذلك. اننا نلح على كل امة في العالم بأنه يجب عليها ان تختار ماندعوه «بالديمقراطية الغربية». ففي كل مستعمرة جلت بريطانيا عنها، انشأت فيها«نسخة» من مؤسساتها قبل ان تغادرها. ففي كل قضية غالبا (ماعدا نهج الدومنيونات التي كانت مأهولة بالانكلوسكسون والاوربيين) كان النظام الذي اقيم على هذا الاساس، قد تداعى وانهار.

اننا لم نسمح، او هل يمكن ان نسمح بوجود الفوارق الواسعة في الثقافات وفي التقاليد؟.. ففي كل قضية تعلق الاهمية على صيغنا الخارجية ليس الا.فالديمقراطية الغربية ليست ملائمة لكل العالم، ذلك لان الصيغ التي نمت من تقاليدها الماضية، هي التي تكون اكثر نجاحا. اننا نخطيء ايضا اذا ما افترضنا بأن الشيوعية تستطيع

(٣) Alexander Pope(١٦٨٨ ـ ١٧٤٤) من زعماء الشعر الكلاسيكي في بريطانياظهر واشتهر في عصر الملكة «آن». كان هزيلا ومشوها ومتمسكا بالكاثوليكية، ولذلك اصبح الناس ينفرون منه،لكنه كان ذكيا تفتحت مواهبه في سن مبكرة. قضى سن مراهقته عاملا على مقربة من غابة «وندسور» وقد ذاعت شهرته قبل ان يتعدى الخامسة والعشرين من عمره. كان يتطلع الى ان يحتل في بريطانيا ذات المنزلة التي احتلها الشاعر الروماني «فرجيل» كانت مجموعة قصائده الاولى، المعروفة «بالريفيات». هي التي لفتت الانظار اليه. وكان قبلها قد ظهرت قصيدته الهزلية «سلب خصلة الشعر»بدأ بوب في سنة ١٧١٥ يترجم اشعار هوميروس شعراً الى الانكليزية. وقد اثرى من وراء تلك الترجمة التي درت عليه حوالي تسعة الاف باون في ذلك الوقت،فاستقر في منطقة «توتنغهام» واتخذ له صالونا في مغارة اصطناعية. كانت اكبر آثاره التي كتبها في كهولته ملحمته الهزلية «سونسيا» التي يسخر فيها من الشعراء المخالفين لافكاره. وهاجم الشعراء الصغار في قصيدته «رسالة الى الدكتور اربثنت»

ان تكتسح العالم. ان جزءا من الواقع قد دلل على ان الاتحاد السوفياتي نفسه قد اصبح الآن اقل شيوعية.

حين اعلنت الصين عن نفسها بانها شيوعية، تراجع العالم الغربي، غير ان الشيوعية في الصين قد برهنت على انها تختلف اختلافا تاما، عن «النوع» الروسي من الشيوعية، وسرعان ماأصبح البلدان، روسيا والصين، في خضم عداوة ساخنة.

وحين كان يظن بان فيتنام سوف تصبح دولة شيوعية، احست الولايات المتحدة الامريكية بانها ملزمة بان تتدخل... ولكن لو لم تفعل الولايات المتحدة الامريكية ذلك، لاتخذت الشيوعية الفيتنامية لها صيغة محلية اخرى، تختلف عن النوعية الغربية الاوربية. فالثقافات، والتقاليد المحلية، تكون على الدوام، اقوى من الانظمة الاجنبية المستوردة!.

لقد خلقت المخلوقات البشرية متساوية بالطبع. ولكن علينا ان نعترف بأنها تختلف اختلافا واسعا من واحد الى آخر، وان معظم اختلافاتها تلك تكون اختلافات ظاهرية. فلو كنا في البحر داخل قارب مكشوف يضم اربعة او خمسة اناس من مختلف القوميات، فاننا سنصبح على الفور من الاصدقاء. ولقد برهن «تورهايردال[4]» على ذلك، حين ابحر عبر المحيط الاطلسي، في قاربه المصنوع من القصب. فلقد اختار بصفة متعمدة، سبعة من الملاحين المختلفين، احدهم نرويجي، والثاني ايطالي، والثالث مكسيكي، والرابع من الولايات المتحدة الامريكية، والخامس من مصر، والسادس روسي، والسابع من تشاد في افريقيا الوسطى.

ولكن الواقع هو ان معظمنا يعيش بالمظاهر. فنحن نكره الطريقة التي يأكل بها الآخرون، او يتحدثون، او يجلسون. ومن الضروري ان نؤكد هذه الحقيقة. فالاشخاص الافراد، او الاعضاء الصغار، قد يعيشون في بلد اجنبي فيهضمون ثقافته هضما تاما. وغالبا ماكنت احس وانا في وطني، بانني اعيش مع العرب اكثر مما اعيش مع البريطانيين. فأمثال هؤلاء الاشخاص الذين يتأقلمون بمثل هذه الصفة، مع الثقافات الاجنبية، يكونون ذوي قيمة، لانهم يترجمون شعبا ما الى شعب آخر، ويقيمون تجارة دولية ناعمة، ومربحة عن طريق التبادل.

ولكن ما ان يتصل عنصران او ثقافتان، بعنصر اخر، او ثقافة اخرى، اكثر عددا حتى ينمو التنافس فيما بينهم... ماأكثر الكراهيات التي تزيد من عدم

---

(٤) THOR HEYERDAHL

استقرار العالم في الوقت الحاضر. والتي يعود سببها الى التصادم بين الثقافات المتباينة، والطوائف الموجودة في قطر واحد؟

لقد كان المثاليون الذين رحبوا بالمهاجرين من قارات اخرى الى بريطانيا، يلعبون بالنار. ان كل الافراد متساوون طبعاً، ولكن الثقافات والعروق المتباينة، تتحول الى منافسات وعداوات، اذا كانت من طوائف كبيرة في قطر واحد. فلكي نتباهى بأنه اصبح لدينا مجتمع متعدد العناصر في بريطانيا، فان ذلك كان ينطوي على الخطر!.

ان عكس ذلك صحيح تماما. فالطوائف الكبرى من الاوربيين في آسيا، وفي افريقيا، تكون هي الأخرى عرضة الى اثارة الكراهية ضدها. دعونا نعجب، ونثني على الاشخاص الذين خططوا للمشاريع، والذين سهلوا التفاهم الدولي، عن طريق سكناهم في بلدان اخرى، وهضمهم لثقافاتها. ولكن دعونا، في ذات الوقت، ان نستعمل الحذر الشديد في تشجيع اقامة طوائف اجنبية كبيرة، في اي بلد.

انه لمن المدهش ان نرى كيف ان اي ميل متطرف، في اي عمر كان، يخلق الضد له. لقد كانت اوقات العنف والكراهية في التاريخ في الغالب، تخلق اعظم القديسين!

وبطريقة مماثلة، فان سرعة السفر، التي تميل الى ان تلف كل العروق سوية، يبدو عليها بأنها قد منحت عاملا مثيرا وشديداً، لاعمال التطرف المحلية، ولانقسامات أصغر فاصغر. فالامبراطورية الرومانية التي قامت قبل الفي سنة (حيث كان السفر مشيا على الاقدام، او على ظهر جواد، او في عربة صغيرة يجرها احد البغال) ان هذه الامبراطورية قد توزعت الآن، الى حوالي اربع وعشرين امة مستقلة، لكل منها حكومتها الخاصة بها، وقوانينها، ولغتها، وعملتها، وقواتها المسلحة.

فانت الآن لاتحتاج الا لمسافات قلائل، لكي تطير من احدى نهايات الامبراطورية الرومانية السابقة الى النهاية الاخرى. ومع ذلك فان كثيراً من الدول التي اعقبت الامبراطورية السالفة، تعيش في الوقت الحاضر، في علاقات سيئة مع دول اخرى من ذات القبيل.

غير ان هذا لايعني كل شيء. ذلك لان كثيراً من هذه الاقطار الاربعة والعشرين التي تولدت من الامبراطورية الرومانية السابقة، غدت نفسها مهددة هي الاخرى

بانقسامات اخرى. فهذه كورسيكا ترغب في الانفصال عن فرنسا، وهذه «الباسك» تتطلع الى ان تفصل نفسها عن اسبانيا. ويتنازع المتحدثون بالفرنسية والفلمنكية في بلجيكا، في الوقت الحاضر.

اللغات

تؤلف اللغة واحدة من العوائق الكبرى امام التفاهم بين البشر. ففي سنة ١٩٠٥ نشر «تسا منهوف»[٥] وهو بولوني، مشروعه عن لغة الـ «اسبرانتو»[٦]، اي لغة الامل، لاستعمالها في كل انحاء العالم. اما الآن، فأن كل سنة، ترى جهودا اكثر تصحيحا لاحياء لغات ماتت منذ قرون، ان لم نقل منذ آلاف السنين، وتكون نتيجة ذلك وجود اناس منعزلين، احدهم عن الآخر.

ويزعم البعض ان هذه الاحياءات ثقافية خالصة. ولكن مع كل ذلك غالبا ما نراها تلقي الدعم بطريقة احراق المباني والممتلكات عمداً، وباستعمال المسدس، والقنبلة الموقوتة!

الله يحب العالم

اني سعيد لان اكون مسيحيا، لان المسيحية هي دين المحبة[٧] وانها اذا عاشت حياة صحيحة، فانها تركز المزيد من التأكيد على المحبة، اكثر من اي دين آخر! ولكن لايبدو لي بأننا نستطيع ان نزعم بان الله لايحب سوى المسيحيين. فقد قيل لنا ان الله يحب العالم، وليس اليهود او المسيحيين وحدهم.

ومهما يكن الامر فان «ابراهيم» الذي يزعم بنو اسرائيل، بأنه هو جدهم، كان قد عاش في حدود الف وثمانمائة سنة قبل المسيح. ولقد انبأنا الاثريون بأن هناك مدنا وقرى كانت قائمة في فلسطين قبل سبعة الاف سنة قبل ميلاد المسيح. ترى

(٥) ZAMIENHOF.

(٦) ESPERANTO.

(٧) قامت كل الاديان، منذ ان وجدت البشرية على وجه الارض، على اساس المحبة والتعاون. ولكن هذه الاديان مالبثت ان اصبحت مبادؤها الاصلية التي تنص على المحبة والعدل والتعاون، محرفة بفعل الفئات التي كانت تسيطر على الحكم، فتتجاهل عمداً كل ماينطوي عليه الدين الذي تدين به من امثال هذه المبادىء السامية،وخير دليل يتمثل في الحروب العديدة التي قامت منذ مولد المسيح حتى الان بين البلدان المسيحية، والحروب القائمة الان بين البلدان الاسلامية، وابرزها الحرب العراقية الايرانية التي اثارها الحقد الفارسي القديم على العرب اولا، وعلى العراق ثانيا. دون ان يفكر حكام ايران في التناقض البارز بين ادعاءاتهم الكاذبة بالاسلام،وبين عدوانهم الاثم الذي دفعهم الى التحالف مع اسرائيل وكل الدول الاستعمارية.

هل ان الله لم يحب البشر الذي خلقه قبل ان يولد ابراهيم؟

هذا السبب يبدو بأن معظم بقية الارض كانت مأهولة بالسكان قبل ابراهيم بآلاف السنين، فهل كان الله مختلفاً بالنسبة الى النوع البشري طيلة هذه العصور الطويلة؟ فحتى اليوم لايزال يوجد مئات الملايين من البشر في العالم، الذين لم يسمعوا بالانجيل، فهل يعني ذلك ان الانجيل لا يحب امثال هؤلاء الناس؟

يبدو في نظري ان الله هو الروح التي تملأ الكون، وهي قادرة على ان توحي الى ارواح الناس وعقولهم. الم يكن من المتوقع ان الله كان يفعل ذلك دوما؟، وان كل عمل حسن، وفكر نبيل، قد استلهم من الله منذ بداية العالم؟

واذن دعونا ان نعمل بافضل مالدينا من قدرة، على تطوير عقولنا لكي ننظر الى كل عناصر الجنس البشري، بالحب المتساوي، والاحترام، والمجاملة. ولكن دعونا في ذات الوقت ايضا، ان نتذكر بأن الفروق بين العناصر انما تعود القهقري، عبر آلاف من السنين التي قطعتها التجربة المتغيرة، التطور الثقافي.

دعونا نتذكر بأن المثالية، التي تزعم عدم وجود عناصر، بل عنصرا بشريا واحدا، والتي تدافع عن الامتزاج الحسي بين كل الشعوب في كل مكان، ان هذه المثالية غالباً ماتؤدي الى الكراهية الحادة، والمنازعات الداخلية، والارهاب الوحشي ليس الا.

وفضلا عن ذلك ينبغي ان يلاحظ بان العنف في القول، وفي النقد المفرط الموجه الى الاخرين، انما يستعملان في الغالب من قبل الشعوب التي لاتحلم باللجوء الى استعمال المسدسات والقنابل. ومع ذلك فان مثل هذه الشعوب تمضي بعيدا في انتاج العنف الذي ينتهي بالعنف المادي.

واذن دعونا ان نحب كل امم العالم، ولكن في ذات الوقت ان نصنع تقييما صبورا محتملا لكل رغائب هذه الامم. فحيثما تجعلها، اسسها المتغيرة، غير مرغوب فيها لدى احداها الاخرى، دعونا ان نسمح بوجود النقص لديها، وان لانلح عليها، بان تتمازج، وبذلك نكون قد اثرنا الخصومات الداخلية بمثل هذا الالحاح.

دعونا ان لانتوقع، او نأمل، بان العالم كله سوف يكون مثلنا، او ان ننتقد اولئك الذين جاؤوا من ثقافات واسس متباينة.

الفصل العشرون

عودة الى العظمة!

عودة الى العظمة!

حين كنت طفلا اعتدت ان اصلي دائماً «الهي اتضرع اليك بان تكون بريطانيا على الدوام، اعظم دولة في العالم، واعظم دولة تعمل الخير في العالم!».

ولقد كانت بريطانيا، قبل سنة ١٩١٤، اعظم دولة في العالم فعلا، واعظم دولة تعمل في سبيل الخير، كما اعتقد•غير ان انحطاطها خلال السبعين سنة الاخيرة كان يعود الى انحطاطها الخلقي، وليس الى ظروف خارجية•ومن المحتمل ان يكون ذلك الضعف في خلق بريطانيا قد ادى الى ظهور نظريات خاطئة، جعلتنا نعتقد بل نزعم بان تخلينا عن خدمة الاخرين ومساعدتهم، ان هذا التخلي يعتبر من الفضائل.

خادم الجميع

لقد تأكد لدى الكثير من الناس في بريطانيا خلال القرن التاسع عشر، بان الامبراطورية انما كانت تعني بانها هي خادمة الاخرين. هناك مبدأ واحد من المبادىء الاساسية يقول «ان خيركم من يكون خادما للجميع»

كان ابي، الذي ولد في الهند، اثناء العصيان الذي حدث فيها، مقتنعا كثيراً بان الشعب البريطاني يخضع لالتزام خلقي بان يخدم كل شعوب الامبراطورية، وليساعدها. ولغرض ان يحقق ذلك تورط الشعب البريطاني في مشاق عديدة، اشتملت على فترات طويلة، من النفي الى اقطار نائية، وافتراق الازواج والزوجات والاطفال، والتعرض للاخطار وللحرمان. ومع ذلك كانت امثال هذه الاعمال مسرة حين تعتبر بمثابة خدمة.

الاقناع الذاتي

العقل البشري آلة متعددة الجوانب، نستطيع ان نستخدمها لاقناع انفسنا بصواب اي عمل تدفعنا اليه احاسيسنا. فمن حدود سنة ١٨٩٧، ومابعدها، وهي سنة يوبيل الملكة فكتوريا،اخذ الاحساس بالسيطرة والتسلط يضعف،ولقد بدا في اول الامر وكأنه قد تحول الى احساس بالفخر، باننا الذين نملك الامبراطورية.

ولكن هذا الاحساس، مالبث بعد الحرب العالمية الاولى، ان تحول الى احساس من عدم المبالاة، فلم نعد نتضايق من ان نذهب لكي نخدم الشعوب الاخرى. ولقد استطعنا بيسر ان نقنع انفسنا بان هذه فضيلة فاي حق نمتلكه لكي نترأس العناصر الاخرى؟ والحقيقة ان مثل تلك الاراء يمكن ان تأخذ شكلا يبرهن على الدوام، باننا قد فقدنا القاعدة الخلقية للامبراطورية التي لم تؤسس بقصد السيطرة على الشعوب الاخرى، بل لخدمتها.

السوابق

يؤكد التاريخ امثال هذه النظريات فالامبراطوريات السالفة، قد تخلت، بصفة اعتيادية، عن مسؤولياتها حين ضعف النسيج الخلقي لدي القادة، فالمستعمرات، والمحميات، كانت على الدوام تتوسل بالحكومة الامبراطورية بان تظل قائمة،ونادرا ماكانت تثور وتتمرد وتتطلع الى قطع علاقاتها[1] وكانت هذه هي الحال بالنسبة الى كثير من المستعمرات البريطانية التي اضطرت الى ان تصبح مستقلة.

المساواة

كان اساس الامبراطورية يقوم على الخدمة، فالمثل القائل ان «خيركم يجب ان يكون خادم الجميع» يعني ان دور بريطانيا في الامبراطورية، هو ان تخدم الاعضاء الاخرين فيها،ومن اللازم ان يفترض هذا المبدأ بان مصالح كل الاعضاء وتقاليدهم

---

(١) لانوافق المؤلف على هذا الرأي المستهجن. فاولا ان احدا من الناس المحكومين في اي من المستعمرات والمحميات لم يكن يرغب في بقاء الامبراطورية او الحكومة الاحتلالية مسيطرة على شؤون البلاد، ماخلا الطبقة الصغيرة المنتفعة من الاحتلال والتسلط وفي مقدمة افرادها الساسة الذين يزاولون الحكم تحت اشراف المستعمر المسيطر،وكذلك طبقة التجار والمنتفعين من الوضع الاحتلالي ليس الا. ولم تكن هناك اية بلاد كانت مستعمرة او محمية قد اضطرت الى ان تصبح مستقلة «كما يقول المؤلف ذلك» وانما كان الاستقلال ومايزال حتى هذه اللحظة يتم تحقيقه عن طريق النضال الواعي الذي تخوضه شعوب المستعمرات او المحميات في سبيل تحقيقه. فماجلت بريطانيا، او فرنسا او ايطاليا او اية دولة استعمارية عن مستعمراتها بمحض ارادتها ورغبتها، وانما اجبرت على ذلك الجلاء، بفعل كفاح الشعب المستعمر.

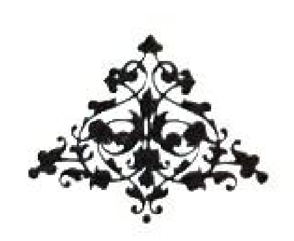
يجب ان تكون محترمة، وان يتم تمتينها بصفة متساوية.

ولقد طبق هذا المبدأ تطبيقا آليا في الايام الاولى-مثال ذلك ماحصل في الهند فقد كانت حكومة الهند هندية في الغالب[٢] مع قلة من الموظفين البريطانيين، الذين «تهندوا» في المراكز الرئيسة التي تحفظ الامن بين المتنافسين المحليين، وتضمن تعاون الجميع.

ولكن بتحسن المواصلات اصبحت الحكومة المحلية في بريطانيا، قادرة على التدخل، وتأكيد وجودها-ولما كانت تجهل التقاليد الهندية، وخلفية تلك التقاليد، فقد اعتزمت الحكومة البريطانية ان تستخدم سلطتها في المؤسسات الهندية «المتنكلزة» وتلك غلطة مهلكة، لان عمر الثقافة الهندية كان يمتد الى آلاف السنين، وبعبارة موجزة ان صيانة الامبراطورية كانت تتطلب الاحترام المتبادل لتقاليد كل الدول الاعضاء في الامبراطورية.

عودة الى العظمة

مايزال «الكومنولث» البريطاني قائما وكل ماهو مطلوب لتوطيده وتحويله مرة اخرى الى «اعظم قوة للخير في العالم» هو انه ينبغي على شعب بريطانيا ان يطبق القاعدة الذهبية القائلة «ان من يكون اخيركم (بفتح الياء)، دعوه ان يكون خادمكم جميعا!»



(٢) ان الهنود الذين شاركوا في الحكومة الهندية التي الفتها بريطانيا بعد ان وطدت اقدام استعمارها في القارة الهندية لم يكونوا الا من الاشخاص الطيعين الذين كانوا ينفذون رغائب الاستعمار البريطاني ذلك لان اية حكومة تستعمر بلدا آخر، لاتستعين الا بالموالين لسياستها من ابناء ذلك البلد المستعمر. فما تم تطبيقه في الهند، قد طبق ذاته في العراق، وسوريا، ومصر وكل الاقطار التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار والتسلط الاجنبي. ولهذا فلا يمكن اعتبار امثال هؤلاء الموظفين من المخلصين النزيهين دوما لبلادهم. وهذا مايؤكده بقاء الكومنولث البريطاني حتى الآن.

الخاتمة

ولدت في سنة ١٨٩٧، ولم اكن اتوقع ان اعيش عمراً اطول ومع ذلك فقد نكون من الاغبياء، لان من العسير ان نعيش لاكثر من ثمانين سنة، من دون ان نصيب، على الاقل، شيئا ما من تجربة نافعة. ولذلك ينبغي علي بكل مودة عزيزة ان اساعد الآخرين بثمار ملاحظاتي. يميل الشبان الى ان يرفضوا جهودنا لمساعدتهم، بقولهم بان العالم كان يختلف عما عليه الآن حينما كنا شباناً، ولذلك فان تجربتنا ليست بذات قيمة لعالم اليوم.

ومع كل ذلك فان التغييرات التي حدثت في العالم، كانت تأثيرات سطحية كانت تؤثر في العوامل الخارجية والمادية، من امثال نظم السفر والمواصلات. غير ان اكثر هذه العوامل اهمية في الحياة، يتمثل في علاقاتنا مع الله، ومع رفاقنا من المخلوقات البشرية. فان هؤلاء كما نستطيع ان نحكم، لم يتغيروا الا قليلا، خلال الاربعة آلاف سنة او مابعادها، من التاريخ المدون، ولذلك احاول ان الخص بعض مظاهر حياتي والتي آمل ان تكون مفيدة للاخرين.

كنت على الدوام فتى جيدا، مجدا ومطيعاً لابوي. اما من الناحية الاجتماعية فانني كنت خجولا، وكنت انفق معظم اوقات فراغي مع الخيل التي كرست نفسي لها. وكنت على الدوام ممتناً من هذه الفترة من حياتي، والتي نجمت عنها عائلة متوادة، وطفولة وشباب سعيدان.

انني لااتفق مع النظرية التي تقول بان الفتيان المراهقين ينبغي ان يكونوا متوحشين او صاخبين، ذلك لانهم سوف يواجهون مافيه الكفاية من التجارب في الحياة، لكي يختبروا جرأتهم ومبادرتهم فيما بعد من دون ان يسببوا الالم لاسرهم ويمزقوها. فحتى اذا لم اكن ذا طبيعة جدية، فان تجربة خنادق الخط الاول في الجبهة خلال الحرب العالمية الاولى، لابد وان كانت كافية لصحوتي واعتدالي. ومع ان التطبيق الحديث ينص على

جمع الجنسين في المدرسة فانني اعتبر نفسي محظوظا، لانني لم اكن اهتم بالنساء حين كنت شابا.ويبدو ان اختلاط الجنسين في عهد المراهقة، كان يؤدي بصفة حتمية الى اشتداد التهيجات البدنية التي كان ينتجها. فهذا العامل، بالاشتراك مع «تحرر» الفتيات المراهقات،كان يؤدي حتماً الى الزواج المبكر الذي كان يقوم على اساس الجاذبية الجسمانية!.

تكفي سنتان، او ثلاث سنوات لاضعاف جذوة التهيجات البدنية، واذ ذاك يفترق الزوجان ليخلفا طفلين او ثلاثة اطفال محرومين من السعادة التي تحفظ حياة العائلة.

لقد كنت محظوظا خلال سني العشرينات من حياتي، لأن اعيش في بلاد نائية، لاتوجد فيها نساء انكليزيات!. ولكن ما ان بلغت حدود السنة الثالثة والثلاثين من عمري، حتى وجدت ان موقفي قد تغير، لم اعد ارغب في الاثارات الجسمانية، وانما كنت اسعى الى ان اتخذلي شريكة في حياتي. ونتيجة لما جربته، فلست اعتقد بانه ينبغي للرجال، في معظم الحالات، ان يتزوجوا قبل بلوغهم الثلاثين من اعمارهم، ولو انه ليس مستطاعاً، وضع قاعدة ثابتة لهذا الامر طبعا.

غالبا مايتزوج الشبان من دون ان يتحققوا من ان الزواج يجب ان يشتمل على تقديم تضحيات.فلابد، على اقل تقدير، ان تتم التضحية بتصف حياة احد الزوجين، او ان يتغير نصف الحياة هذا باية درجة، وفقا لرغائب الطرف الآخر، واذواقه، ومصالحه.

ومع انني كنت على الدوام فتى جيداً في البيت، الا انني في الغالب لم اكن عنيداً تجاه من هم اكبر مني سنا وانا في سن العشرين،او ان لا احترمهم. لقد كان عملي كله يمضي بهدوء اذا ماأردت ان اكون اكثر دقة، وان لا اتحمل المزيد من المصاعب بقصد استرضاء رؤسائي.

كانت لدي سهولة ملموسة لأن ابرز نفسي في كل انواع المجتمعات التي اتصلت بها ولكنني، لسوء الحظ، حين كنت افعل ذلك، كنت اميل الى ان اغدو متشدداً، وقاسيا بل متشدداً في الدفاع عن تلك المجتمعات، وعلى الاخص تجاه السلطات التي لم تكن، كما اعتقد، تفعل المزيد في سبيل اولئك الذين كانوا تحت حمايتي.

كنت استطيع الآن ان ارى بانني كنت قادرا على ان افعل المزيد في سبيلهم،لو انني اوضحت بصبر، مشاكلهم الى رؤسائي، بدلا من التحدي. ومع انني لم اكن متمردا على رؤسائي، الا انني تعلمت فن التحدث بطلاقة، وامانة، وصراحة، وبصفة معقولة الى كل انسان.لقد غدوت مقتنعا بان كل شيء تقريباً، يمكن انجازه بالتعقل

الحلو، والانفتاح، في الوقت الذي لايؤدي فيه استعمال القوة، الا الى متاعب متزايدة ليس الا.

فالاعداء التقليديون، يمكن ان يتحولوا الى اقرب حلفاء واوثقهم، عن طريق النقاش الودي والصريح معا. ومازلت اشعر حتى هذا اليوم بقوة اكثر، انه ينبغي للدول الغربية ان تساهم في مثل هذه المبادلات الصريحة احداها مع الاخرى، ومع روسيا، بدلا من تبادل الانتقادات طويلة الامد، احداها ضد الاخرى، في الخطب العامة، وفي الصحافة.

وحين كنت قائداً للفيلق العربي، واصلت نفس ذلك العمل. كنت على الدوام اتحدث بصفة شخصية الى اية مجموعة من المجندين في المستودع. وكنت ازور الوحدات باستمرار، واخاطب الضباط، بل مجموع افراد الوحدة بكاملها، واوضح لهم، بكل صراحة، الوضع الراهن والواجبات الملقاة على عواتقنا جميعاً.

كذلك كنت اوضح لكل الصنوف ضرورة الانضباط وتكوين المستوى الرفيع من التصرف الاخلاقي-وكانت نتيجة ذلك ان كل الاصناف نفسها، كانت تحافظ، بصفة طوعية، على اعلى مستويات الانضباط والذكاء، من دون فرض اية عقوبات انضباطية في الغالب.

ومع ذلك، فحين انشغلت بالقتال ضد اسرائيل، جابهت عدوا لا استطيع ان ابحث معه خلافاتنا·لقد كان الملك عبد الله يود ان يفعل ذلك، لكنه لم يكن قادرا عليه• ففي اية قضية، كانت الصهيونية تمثل حركة عالمية واسعة، وانني لم اكن اشغل سوى منصب تابع للغير!

لقد اشتركت في اشرس نوع من انواع الحروب،انها حرب كان فيها شعب واحد، يريد ان يدمر الشعب الاخر، وان يطرده من موطنه! وحتى في هذه الحالة كنا نحارب بشرف؟؟. فبعد التوقيع على هدنة «رودس» في سنة ١٩٤٩، سعيت بكل مالدي من قوة لكي اصون السلم على امتداد خط الحدود، ولكن من دون ان انجح في ذلك لان اسرائيل كانت قد صممت على ان تجدد القتال وتحصل على المزيد من الاراضي.

وبعد ان طردني الملك حسين من وظيفتي، بدا وكأن عدم الاستفادة مني، قد بلغ نهايته. لكنني مالبثت ان تحققت بالتدريج، ان كل الامور تعمل سوية في سبيل الخير، لان جميع الاشياء التي حدثت، كانت قد جاءت من عند الله.

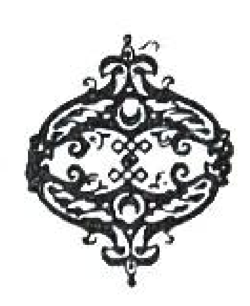
لقد سعيت، خلال السنوات الخمس والعشرين التي مرت منذ ان طردت من الاردن، الى ان اوضح، عن طريق المحاضرات والكتابة، العرب للغرب، وان

اوضح الغرب للعرب. ان اربعا وثمانين سنة قد اقنعتني بان العنصر الاساس للعالم هو المحبة ولست اعني بهذه المحبة الانجذاب المتبادل لدى الجنسين، وانما اقصد به الجو العام من النفع والتحمل ازاء كل الخلائق. ومع ذلك فان هذا القول ليس مجرد تفسير ذهني بارد، ولكنه تفسير مشبع بالعاطفة الانسانية الدافئة.

لقد وهب الرجال ارادة حرة، وهي مفتوحة امامهم لكي ينفقوا حياتهم في الكراهية والقتال، ولكن الاحياء الذين يحيون بمثل هذه الروحية، يكونون قلقين وعنيفين، وغير سعداء. ومن ناحية اخرى فان الحياة التي تنفق في المحبة، والتسامح، والمنفعة، تسبح في مجرى الخلق والتكوين، ولا يمكن لها ان تخفق لان تصبح مسالمة وسعيدة على الرغم من كثير من المحن والاحزان التي رافقت تجربتي، فنحن انفسنا نستطيع ان نرى ان مثل هذه المحن، ضرورية لتنقية شخصياتنا الخاصة، وتطهيرها، ذلك لان عقولنا الصغيرة تميل الى ان تصبح متعجرفة، وتركز على ذاتها حين نصادف الكثير من النجاح.

ونقولها بعبارة اخرى، اننا قد نتفق على ان هدفنا من الحياة هو ان نحقق حالة من انعدام الانانية المطلقة، وان نكرس كل افكارنا وجهودنا للخدمة، انها خدمة الله والبشرية بصفة عامة، وكذلك خدمة جيراننا الذين نلتقي بهم في طريقنا!

انتهت الترجمة في اليوم الخامس والعشرين من حزيران ١٩٨٥



مؤلفات غلوب المنشورة

١ - قصة الفيلق العربي	THE STORY OF THEARABLEGION
٢ - جندي مع العرب	A. SOLDIER WITH THE ARABS
٣ - بريطانيا والعرب	BRITAIN AND THE ARABS
٤ - الحرب في الصحراء	WAR IN THE DESERT
٥ - الفتوحات العربية الكبرى	THE GREAT ARAB CONQUESTS
٦ - امبراطورية العرب	THE EMPIRE OF THE ARAB
٧ - (مسيرة الامبراطورية العربية منذ ايام الرسول حتى انحلال الدولة العباسية)	THE COURSE OF THE EMPIRE
٨ - القرون المفقودة	THE LOST CENTURIES
٩ - مختصر تاريخ الشعب العربي	THE SHORT HISTORY OF THE ARAB PEOPLES
١٠ - ازمة الشرق الاوسط (عن حرب حزيران ١٩٦٧)	THE MIDDLE EAST CRISIS
١١ - سوريا، لبنان، والاردن	SYRIA, LEBANON, JORDAN
١٢ - حياة محمد وعصره	THELIFE AND TIMES OF MUHAMMAD
١٣ - السلام في الارض المقدسة	PEACE IN THE HOLY LAND
١٤ - جنود الثروة	SOLDIERS OF FORTUNE
١٥ - سبيل الحب	THE WAY OF LOVE
١٦ - هارون الرشيد	HAROON AL - RASHID
١٧ - في صميم المعركة: يوميات جندي في الحرب العظمى (عن الحرب العالمية الاولى)	INTO BATTLE: ASOLDIER, SDIARY OF THE GREAT WAR
١٨ - المغامرات العربية	ARABIAN ADVENTURES
١٩ - غرض الحياة	APURPOS OF LIVING
٢٠ - مظاهر الحياة المتغيرة (مذكراته هذه)	THE CHANGING SCENES OF THE LIFE

فهرس المحتويات

وفاة غلوب باشا
عن اذاعة لندن باللغة العربية

توفي غلوب باشا بمنزله في «مي فير» يوم الاثنين السابع عشر من شهر اذار ١٩٨٦ وقد ابنته جريدة التايمس اللندنية بعددها الصادر في الثامن عشر من آذار بالكلمة التالية:

«توفي يوم الاثنين بمنزله في «مي فير» وكان في الثامنة والثمانين من عمره «السر جون باغوت غلوب» والمعروف باسم غلوب باشا، والذي كان قائدا عاما للجيش العربي، واحد اكثر اصحاب الدخول في الشرق الاوسط. لقد خلق غلوب الذي كان يرى دائما مرتديا كوفية بدوية حمراء، خلق اسطورة في مثل قوة اسطورة لورنس العربي.

والحقيقة ان العالم العربي يذكره على انه رجل اعظم من تي. اي. لورنس. ويعود كثير من النجاح الذي خلقه، الى تعاطفه الكبير مع العرب، وخاصة مع البدو، الذي كان هو مرجعا شهيراً عنهم. وكان فوق كل شيء منظما عسكريا ممتازاً. وكانت خدمته في الجزيرة العربية، علامة باوزة في العلاقات الانكليزية العربية. فعندما وصل الى العراق في عام ١٩٢٠ كان النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط قد بلغ ذروته. . ولكن ذلك النفوذ كان في تدهور سريع عندما غادر غلوب الاردن، بعد ذلك، بست وثلاثين سنة.

ومضت «التايمس» في تأبينها بسرد تاريخ ارتباط غلوب بالحرب العالمية الاولى، عندما تطوع السر «جون» للخدمة في العراق، وانتقل في عام ١٩٣٠ الى ماكان يعرف في ذلك الوقت باسم شرقي الاردن، وكلف بمهمة تهدئة قبائل البدو، التي كانت تعيش في حالة من الفوضى السياسية. فأسس حرس البادية المشهورين، وتولى بعد ذلك في عام ١٩٣٩ قيادة الجيش العربي لمدة سبع عشرة عاما، اصبح خلالها قوة مقاتلة عنيدة.

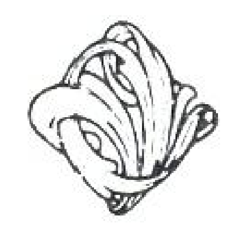
ولقد اشترك الجيش العربي في عمليات سنة ١٩٤١ في العراق، وضد قوات «فيشي» في سوريا، ثم في عام ١٩٤٨ حارب دولة اسرائيل الناشئة. وكان الجيش العربي اداة فعالة في الاحتفاظ بالسيطرة العربية على القدس الشرقية والضفة الغربية.

ولكن عمل غلوب باشا في الاردن، توقف بصورة مفاجئة، في عام ١٩٥٦، عندما اقاله الملك الشاب حسين بصورة مستعجلة. وكان السبب الرسمي لاقالته، هو الزعم بتردده في ترقية الضباط العرب. ولكن شعر الكثيرون بأنها علامة على الجو المتغير في العالم العربي، والذي ظهر فيه السر جون بشكل متزايد، وكأنه اثر من اثار عهد بائد.

ومع ذلك فقد وصفت «التايمس» طرد السر جون في معرض تأبينها بما يلي: - كانت الطريقة التي انهيت بها الحياة العملية لرجل بارز، ووفي، طريقة جافة. وقد خشي اولئك الذين اشتركوا في تنفيذها، من ان كتائب البدو قد تزحف على عمان لاعادة غلوب الى منصبه، وكانت احدى الكتائب متهيأة للقيام بذلك.

ولكن حقيقة ان غلوب باشا لم يكن يريد اي سفك للدماء، قد اقنعها بالعدول عن ذلك. ولايليق بغلوب باشا اي شيء اكثر من سلوكه خلال ماكان اشد اللحظات مرارة في حياته. فلم يتفوه في ذلك الوقت ولابعده، بكلمة انتقاد تتعلق بالملك، قائلا:

«ان في امتيازات الملك ان يعزل رئيس هيئة اركانه في اي وقت يشاء». وقد ظل غلوب مخلصا للبيت الهاشمي، ولشعب الاردن، معظم حياته، ونصيرا من كل قلبه للقضية العربية.



التصميم ليث متي

السعر : خمسة دنانير



وتوزيع المكتبة العلمية شارع السعدون بغداد هاتف ٨٨٨٥٤٨٨ ـ ٧١٩٨٤٢٢